مكتبة بصيرتي قم

التمهيد

في علوم القرآن

دراسات مبسطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم

تأليف
محمد هادي معرفة

الجزء الثالث

Princeton University Library
32101 055469827

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

مرکز مدیریت حوزهٔ علمیّه قم
(۱۱)

التمهید
فی
علوم القرآن

Maʿrifah

التمهيد

دراسات مبسطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم

عرف باسم

علوم القرآن

الجزء الثالث

تأليف

محمد هادي معرفة

(RECAP)

BP 130
.M38
1988
juz' 3

سجل الكتاب

الكتاب : التمهيد فى علوم القرآن ــ الجزء الثالث

المؤلف : الشيخ محمد هادى معرفة

الناشر : مركز مديريت حوزه علميه قم ــ ١١

مطبعة : مهر قم

الطبعة : ثانية منقحة

المطبوع : ٣٠٠٠ نسخة

التاريخ : صفر الخير ١٤٠٩ الموافق لشهر مهر ١٣٦٧

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 019480282

المحكم والمتشابه
في القرآن

١ـ التعريف بالمتشابه

٢ـ القرآن والتشابه !

٣ـ حقيقة التأويل

٤ـ هل يعلم التأويل إلّا الله ؟

بسم الله الرحمن الرحیم

الحمدلله وسلام علی عباده الذین اصطفی محمدو آله الطاهرین

التعريف بالمتشابه

*- حقيقة الإحكام والتشابه

*- مابين المتشابه والمبهم من نسبة

*- مابين عوامل التشابه والإبهام من فرق

الإحكام والتشابه

الإ حكام هو الإتقان ، يوصف به الكلام اذا كان ذا دلالة واضحة ،بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعانى. مأخوذ من الحَكَم ـ بالفتح ـ بمعنى المنع والسدّ، ومنه حَكَمَةِ اللجام ـ بفتحات ـ : ما أحاط بحنكى الفرس ، سميت بذلك لأنّها تمنعه من الجرى الشديد. قاله ابن فارس. فإحكام الكلام : إتقانه تعبيراً وأداء بالمقصود. وهذا كأكثر آيات التشريع والمواعظ والآداب .

والتشابه مأخوذ من تشابه الوجوه ، اى تماثل بعضها مع البعض ، بحيث يحتمل وجوهاً من المعانى ، ومن ثمّ كان خفاء فى وجه المقصود . ومنه قوله تعالى : « إنّ البقر تشابه علينا » . قال الراغب : المحكم مالا تعرض فيه شبهة ، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، والمتشابه ما لا ينبىء ظاهره عن المراد .

هذا هو تعريف المتشابه بوجه عام ، ومن ثم قد يتّحد مع المبهم الذى يكشفه التفسير ، فى حين أنّ المتشابه بحاجة إلى التأويل ، كأكثر آيات الخلق والتقدير

والصفات والأفعال .

وعليه فالمتشابه ـ حسب المصطلح القرآنی ـ هو اللفظ المحتمل لوجوه من المعانی ، وكان موضع ريب و شبهة ، ومن ثمّ فهو كما يصلح للتأويل إلى وجه صحيح ، يصلح للتأويل الى وجه فاسد ، ولأجل هذا الاحتمال وقع مطمع أهل الزيغ والفساد ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله الى ما يتوافق وأهدافهم الضالّة .

* * *

ولا يخفى الفرق بين المتشابه والمبهم ، بعد أن كانت النسبة بينهما ـ حسب مصطلح الفن ـ هی العموم من وجه ، فإنّ المتشابه قد يكون مبهماً ـ ايضاً ـ كقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، و من يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعد فی السماء ـ الانعام : ١٢٥ » إنّها من المتشابهات وقد علتها طبقة من الإبهام أيضاً . أمّا التشابه فمن جهة نسبة الإضلال إليه سبحانه، وأمّا الابهام فمن جهة كيفية حصول ذلك الإنشراح والضيق ، وكيف وجه التشبيه بمحاولة الصعود إلى السماء؟ وستأتی الإجابة على هذه الأسئلة بتفصيل.

وقد لا يكون المتشابه مبهماً فی ظاهر لفظه ، وإنّما التشابه جاءه من قبل سموّ معناه ، وعلوّ مستواه بالذات ، ومن ثمّ قد تزعم العامّة وضوح دلالتها فی حين توغّلها فی الإبهام المعنوی بالنسبة إلى اولئك العوام ، كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى ـ طه : ٥ » . فتفهم منها العامّة أنّ لله كرسياً وهو جالس عليه ، ولا تتوقف فی مدلولها الظاهری شيئاً . وكقوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق و يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ـ القلم : ٤٢ » . فتفهم منها أنّ الربّ تعالى يكشف عن ساقه ويدعو الكفار إلى السجود أمامه ، كما هو ظاهرها اللفظی .

وقد لا تكون الآية المبهمة من المتشابهات ، فهی الى التفسير أحوج منها إلى التأويل . كقوله تعالى : « و علّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبؤنی بأسماء هؤلاء ـ البقرة : ٣١ » . فالآية بأمسّ حاجة إلى تفسير يجيب على

عدة أسئلة يبعثها إبهام في ظاهر الآية . أوّلاً: كيف تحقّق هذا التعليم الذى باهى الله به ملائكته ؟ ثانياً: ماهى الأسماء الّتى يعود عليها ضمير التأنيث تارة ، وضمير الجمع المذكر أخرى ؟ وثالثاً: كيف استسلمت الملائكة هذه المباهاة ، واعترفت بعجزها وقصورها مع الأبد ؟ وسيوافيك تفصيل الجواب .

اذن لا تلازم بين الإبهام والتشابه كلياً ، وعليه فتفترق موارد الحاجة إلى التفسير عن موارد الإحتياج إلى التأويل . فالتفسير هو كشف القناع عن اللفظ المشكل أى المبهم ، سواء أكان متشابهاً أم لم يكن . والتأويل هو إرجاع الكلام إلى أحد محتملاته العقلانية ، ولو كان ـ فى ظاهره ـ واضح المدلول .

* * *

ولتوضيح مابين المتشابه والمبهم من فرق، نذكر من عوامل التشابه التى تختلف تماماً عن عوامل الإبهام .

يعود الفرق بين تشابه الآية وإبهامها إلى مابين عوامل الأمرين من اختلاف، حيث من أهمّ عوامل التشابه هو دقّة المعنى وسموّ مستواه عن المستوى العام ، مضافاً إلى رقّة التعبير وجزالة الأداء ، كما فى قوله تعالى : «ومارميت إذ رميت ولكنّ الله رمى ـ الأنفال :١٧» اذ لا يخفى لطف هذا التعبير الرقيق، عن مفهوم هو من أدقّ المفاهيم الإسلامية فى الأمر بين الأمرين «لا جبر ولا تفويض» . ومن ثمّ خفى على غالبيّة الناس إدراك حقيقته الأصيلة ، من عدا اولئك الراسخين فى العلم ، الذين استسهلوا الصعاب بفضل جهودهم فى سبيل اكتساب المعالى.

ومن هذا القبيل ـ أيضاً ـ قوله تعالى : «الله نور السموات والارض ـ النور : ٣٥» ، فقد وقع فيها تشبيه ذاته المقدسة بالنور . وهو أدقّ تعبير فى تقريب ذاته المقدّسة إلى أفهام العامّة ، اذ لو قيل للجمهور : أن لا ماهيّة له تعالى، ولا هو جسم، ولا فيه خواصّ الجسم، لم يقتنعوا فى الجواب عن موجود وقع الاعتراف به ، كيف لا ماهية له ولا هو جسم ؟ فاذا قيل لهم : إنّه نور ، اقتنعوا ، فى حين أنّ نفس الإجابة صحيحة

يعرفها الراسخون فى العلم ، إذ كما أنَّ النور ـ فى المحسوس ـ غير قابل للإدراك ذاتاً، وإنّما يحس بِهِ من قِبَلِ إنارته للأشياء، كذلك وجوده تعالى ـ فى غير المحسوس ـ لايدرك هو ، وإنَّما يدرك بإفاضته الوجود على الموجودات ، فالله تبارك وتعالى يتجلى من خلال كلّ موجود ،وليس يدرك ذاتاً، كالنور سبب لادراك الأشياء وتعجز الأبصار عن إدراكه بالذات[1] .

وأمّا عوامل الابهام المحوجة إلى التَّفسير ،فتعود إلى جهات أخر، منها :غرابة الكلمة عن المألوف العام ، نظراً لاختصاص استعمالها ببعض القبائل دون بعض ، فجاء القرآن ليوحد اللغة باستعمال جميع لغات العرب ، من ذلك «صلداً» بمعنى «نقياً» فى لغة هذيل .و«الإملاق» بمعنى «الجوع» فى لغة لخم .و«المنسأة» بمعنى «العصا» فى لغة حضرموت .و«الودق» بمعنى «المطر» فى لغة جهرم .و«بُسَّت» بمعنى «تفتَّتت» فى لغة كندة .وهلمّ جرّاً ،الامر الذى دوّنت لأجله كتب غريب القرآن ،وهى كثيرة .

ومنهـا : إشارات عابرة جاءت فى عرض الكلام ، بحيث يحتاج فهمها الى درس عادات ومراجعة تاريخ ، كالنسىء فى سورة براءة : ٣٧ . والنهى عن اتيان البيوت من ظهورها فى سورة البقرة : ١٨٩ . أوتعابير إجمالية يحتاج الوقوف على تفاصيلها إلى مراجعة السنّة وأقوال السلف ، كقوله تعالى «أقيموا الصلوة» و«آتوا الزكوة» و«لله على الناس حج البيت» وامثال ذلك .

ومنها : تعابير عامّة صالحة لمعانى لايعرف المقصود منها إلّا بمراجعة ذوى الاختصاص ، كالدابّة فى سورة النمل : «أخرجنا لهم دابّة من الارض تكلمهم ـ ٨٢» والبرهان فى سورة يوسف : « لولا أن رآى برهان ربه ـ ٢٤ » . والكوثـر فى «إنا أعطيناك الكوثر» .والروح فى «يوم يقوم الروح والملائكة ـ النبأ : ٣٨ » وامثال ذلك .

١ـ راجع : الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص٩٢ـ٩٣ .

ومنها : استعارات بعيدة الاغوار ، يحتاج البلوغ إليها إلى سبر وتعمّق كثير، كقوله تعالى : «أولم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ـ الرعد : ٤١» وقوله : « اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ـ يس : ٦٥ » ونحو ذلك .

ومن ثمّ قال الراغب : التفسير إمّا أن يستعمل فى غريب الألفاظ ،نحو البحيرة والسائبة والوصيلة ، أو فى وجيز كلام مبيّن بشرح، نحو أقيموا الصلوة وآتوا الزكوة، وإمّا فى كلام متضمّن لقصّة لا يمكن تصويره إلّا بمعرفتها ،كقوله تعالى: «انّما النّسىء زيادة فى الكفر» وقوله: «ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها»[1] .

هذه نماذج من عوامل الإبهام المحوجة إلى تفسير كاشف، وقد تبيّن أنّها تختلف تماماً عن عوامل التشابه المستدعية لتأويل مقبول . وعليه فلا يشتبه مورد أحدهما بالآخر ، وإن كانا يشتركان فى خفاء المراد بالنظر إلى ذات اللّفظ .

١ـ بنقل الاتقان ج٢ ص١٧٣ ط١

القرآن والمتشابه

*- هل في القرآن متشابه ؟

*- لماذا في القرآن متشابه؟

*- آراء ثمينة في بيان هذا السر .

هل في القرآن متشابه ؟

لاشك أنّ القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات ـ في أكثرية غالبة ـ مشتمل على آيات متشابهات ـ في عدد قليل ـ قال تعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب ، وأخر متشابهات ـ آل عمران : ٧» ونسبة عدد المتشابهات إلى المحكمات نسبة هابطة جداً، فلو اعتبرنا من مجموع آي القرآن الحكيم ما يربو على ستة آلاف آية، فإنّ المتشابهات لاتبلغ المائتين لو أخذنا بالتدقيق وحذف المكررات حسبما يوافيك نماذج منها. وعليه فالمجال أمام مراجعة الكتاب العزيز، والارتواء من مناهله العذبة ، واسع جدّاً .

وقد حاول البعض إنكار وجود آي متشابهة بالذات في القرآن ، بحجة أنّه كتاب هداية عامّة «هذا بيان للناس ـ آل عمران : ١٣٨ ». وقد قال تعالى: «كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير ـ هود : ١» . ومن ثمّ فالتعبير بالتشابه في آي القرآن إنّما يعني التشابه بالنسبة إلى اولئك الزائغين الذين يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه .

غير أنّ الإنكار لايصلح علاجاً لواقعية لامحيص عنها ، نعم لايصطدم وجود المتشابه فى القرآن مع كونه هداية عموم ، أوّلاً : ضئالة جانب المتشابه ، بحيث كان الطريق أمام المستهدين بهدى القرآن الكريم فسيحاً جداً. ثانياً : هداية الكتاب تعنى كونه المصدر الأوّل للتشريع وتنظيم الحياة العامة، وهذا لايعنى إمكان مراجعة الأفراد ـ بالذّات ـ للقرآن فى جميع أحكامه وتشريعاته ، إذ لمثل ذلك اختصاصيون يعرفون من الكتاب مالاتعرفه العامة . وهم يشكلون قيادة الأمّة على هدى الكتاب ، وبذلك أصبح القرآن مصباحاً ينير درب الحياة على ركب الانسانية بشكل عام.

أمّا الإحكام فى سورة هود ،فيعنى الاتقان والسداد ، حيث القرآن ذو أساس مكين لايتضعضع، وذو مشعل وضّاء لاينطفىء مع الأبديّة ، قال تعالى : «إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ـ الحجر : ٩».

وسنعرض فيما يأتى أنّ الآى المتشابهة متشابهة بالذات، وإنّما يعرف الراسخون فى العلم تأويلها الصحيح ،بفضل جهودهم وتعمّقهم فى أغوار هذا الدين، ليستنبطوا من كنوزه المستورة لئالى وهّاجة تبهر العقول .

* * *

وحاول بعضهم فى اتجاه معاكس ، زاعماً أنّ جميع آى القرآن متشابهة،ومن ثمّ لا يجوز مسّها إلّا بدلالة نصّ معصوم . وبذلك أسقط ظواهر الكتاب عن صلاحية الاستدلال بها أو الاستنباط منها لحكم شرعى ، نظراً لقوله تعالى: « اللهُ نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ـ الزمر : ٢٣ » وبما ورد :« إنّما يعرف القرآن من خوطب به » [1].

وهذا قصور و جفاء ، حيث يقول تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ محمد : ٢٤ » . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن » كيف الرجوع إلى القرآن لوضح

١ـ تفسير البرهان للمحدث البحرانى ج١، ص ١٨

الملتبسات إذا كان هو ملتبساً ؟ وقد قال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : « إنّ هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدجى ، فليجل جال بصره و يفتح للضياء نظره، فانّ التفكر حياة قلب البصير ، كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور » . و قد ورد ـ أيضاً ـ « إنّ القرآن فيه تفصيل و بيان وتحصيل » و « هو الفصل ليس بالهزل » ، « ظاهره أنيق وباطنه عميق » ، « ظاهره حكم و باطنه علم » على ما تقدم بيانه .[1]

أمّا آية الزمر فتعنى تناسق آى القرآن فى الإجادة والوفاء وقوة التعبير ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ـ النساء : ٨٢ » .

لما ذا فى القرآن متشابه ؟

ولعل معترضاً يقول : هلا كانت جميع آى القرآن محكمات ، فكان ذلك أسلم من الالتباس وأقرب إلى طرق الإهتداء العامّ !

قال الإمام الرازى: «من الملاحدة من طعن فى القرآن ، لأجل اشتماله على المتشابهات ، إذ كيف يكون القرآن مرجع الناس فى جميع العصور، مع وفرة دواعى الإختلاف فيه، حيث يجد صاحب كل مذهب مأربه فى القرآن، بسبب اختلاف آياته فى الدلالة والردّ . الأمر الذى لا يليق بالحكيم تعالى أن يجعل كتابه المبين معرضاً للجدل و تضارب الآراء ، فلو كان جعله نقياً من المتشابهات المثيرة للشبهات ، كان أقرب الى حصول الغرض والمقصود من الهداية العامة» .[2]

وقد عالج ابن رشد الاندلسى ـ الفيلسوف العظيم ـ هذه الناحية معالجة دقيقة ، صنّف فيها الناس إلى ثلاثة أصناف : صنف العلماء ، وعنى بهم من فى طبقته من أرباب الحكمة العالية ، وصنف الجمهور ، وهم عامة الناس ممن لم يحظوا

١ـ الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف ، الاصول ـ ج ٢، ص ٥٩٩ـ ٦٠٠

٢ـ التفسير الكبير ج ٧، ص ١٧١

بحلى العلم شيئاً ، وصنف بين بين ، لاهم فى مستوى العلماء ولا مع العامة ، وعنى بهم أرباب المذاهب الكلامية من الأشاعرة وأصحاب الاعتزال .

قال : «وهذا الصنف الأخير ، هم الذين يوجد فى حقهم التشابه فى الشرع ، و هم الذين ذمّهم الله تعالى . وأمّا عند العلماء فليس فى الشرع تشابه ، لأنّهم يعرفون من كلّ آية وجه تخريجها الصحيح الذى قصده الشرع ، والجمهور لا يشعرون بالشكوك العارضة ، بعد أن كانوا أخذوا بالظواهر واستراحوا إليهامن غير ترديد» .

قال : إنّ التعليم الشرعى هو كالغذاء النافع لأكثر الأبدان ، نافع للأكثر وربّما ضرّ بالأقلّ ، ولهذا جاءت الإشارة بقوله تعالى : « ومايضل بها إلّا الفاسقين ـ البقرة : ٢٦ » . و هذا إنّما يعرض فى الأقلّ من الآيات لأقلّ الناس ، و هى الآيات التى تضمنت الإعلام عن الأشياء المتغيّبة عن الحسّ ، ليس لها مثال فى المحسوس ، فجاء التعبير عنها بالشاهد الذى هو أقرب الموجودات إلى تلك الغائبات ، وأكثرها شبهاً بها . فربّما عرض لبعض الناس أن يأخذ بالمثال ذاته لتلزمه الحيرة والشك .

وهذا هو الذى سمى فى الشرع متشابهاً . الأمر الذى لا يعرض للعلماء و لا للجمهور ، لأنّ هؤلاء هم الأصحاء الذين يلائمهم الغذاء النافع الذى يوافق أبدان الأصحاء . أمّا غير هذين الصنفين فمرضى ، و المرضى هم الأقلّ فى الناس ، ولذلك قال تعالى : « فأمّا الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ آل عمران : ٧ » . وهؤلاء هم أهل الجدل والمذاهب الكلاميّة .

قال : وقد سلك الشرع فى تعاليمه وبرامجه الناجحة مسلكاً ، ينتفع به الجمهور ويخضع له العلماء ، ومن ثمّ جاء بتعابير يفهمها كلّ من الصنفين : الجمهور يأخذون بظاهر المثال ، فيتصوّرون عن الممثّل له مايشاكل الممثّل به ، ويقتنعون بذلك .

والعلماء يعرفون الحقيقة التى جاءت فى طىّ المثال .

مثلاً : لمّا كان أرفع الموجودات فى الحس هو النور ضرب به المثال ، وبهذا النحو من التصور أمكن للجمهور أن يفهموا من الموجودات فيما وراء الحس ، مما مثل لهم بامور متخيلة محسوسة . فمتى أخذ الشرع فى أوصاف الله تعالى على ظاهرها ، لم تعرض للجمهور شك فى ذلك . فاذا قيل : الله نور . وأنّ له حجاباً من نور ، وأنّ المؤمنين يرونه فى الآخرة كالشمس فى رائعة النهار ، لم تعرض للجمهور شبهة فى حقيقة هذه التعابير . وكذلك العلماء لاتعرض لهم شبهة فى ذلك ، حيث قد تبرهن عندهم أنّ تلك الحالة هى مزيد علم ويقين . لكن اذا ماصرّح بذلك للجمهور بطلت عندهم الشريعة كلّها وربّما كفروا بما صرّح لهم . لأنّ الجمهور يرون من كل موجود هو المتخيل المحسوس ، وأن ماليس بمتخيل ولامحسوس فهو عَدَم عندهم .

فاذا قيل : إنّ هناك موجوداً ليس بجسم ، ولافيه شىء مما يرونه لازم الجسمية ، ارتفع عنهم التخيل ، وصار عندهم من قبيل المعدوم . ولاسيّما إذا قيل لهم : إنّه لاخارج العالم ولاداخله ، ولافوق ولاأسفل . ومن ثمّ لم يصرّح الشرع بأنّه ليس بجسم ، وانما اكتفى بقوله : «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ـ الشورى : ١١» . وقوله : «لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ـ الانعام : ١٠٣» .

قال : وأنت إذا تأمّلت الشرع وجدته ـ مع أنّه قد ضرب للجمهور فى هذه المعانى المثالات التى لم يمكنهم تصوّرها إلّابذلك ـ قد نبّه العلماء على تلك المعانى بحقائقها . فيجب أن يوقف عند حدّ الشرع فى نهج التعليم الذى خص به صنفاً صنفاً من الناس ، وأن لايخلط التعليمان فتفسد الحكمة الشرعية النبوية . ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : «انامعشر الانبياء امرنا أن ننزل الناس منازلهم ، وأن نخاطبهم على قدر عقولهم»[١] .

و قد انتهج الامام الرازى نفس المنهج ، قال : «والسبب الاقوى فى هذا

---

١ ـ الكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ، ص ٨٩ و ٩٦ و ٩٧ و ١٠٧ .

الباب : أنّ القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواصّ والعوامّ جميعاً . و طبائع العوام تنبو ـ فى أكثر الامر ـ عن ادراك الحقايق، فمن سمع من العوام ـ فى أول الأمر ـ اثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه ، ظنّ أنّ هذا عدم ونفى فوقع التعطيل . فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب مايتوهّمونه ويتخيلونه ،ويكون ذلك مخلوطاً بمايدل على الحق الصريح . فالقسم الأوّل ـ وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر ـ يكون من باب المتشابهات، والقسم الثانى ـ وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر ـ هى المحكمات»[1] .

* * *

وهذا المنهج الـذى انتهجه الفيلسوفان ، فى توجيه وجود المتشابه فى القرآن ، معالجة للقضية فى بعض جوانبها ، و هى الآيات المتشابهة المرتبطة مع مسألة المبـدأ والمعاد ، وليس علاجاً حاسماً للمادة من جذورها ، اذ تبقى آيات الخلق والتقدير ، والقضاء والقدر ،والجبر والاختيار، والعدل والعصمة،وماشاكل ، خارجةعن إطار هذا العلاج .

أمّا العلاج الحاسم لمادّة الإشكال فى كلّ جوانب المسألة ، فهو : أنّ وقوع التشابه فى مثل القرآن ـ الكتاب السماوى الخالد ـ شىء كان لا محيص عنه ، مادام كان يجرى فى تعابيره الرقيقة مع أساليب القوم ، فى حين سمو فحواه عن مستواهم الهابط .

القرآن جاء بمفاهيم حديثة كانت غريبة عن طبيعة المجتمع البشرى آنذاك، ولا سيما جزيرة العرب القاحلة عن أنحاء الثقافات ، فى حين التزامه ـ فى تعبيراته الكلامية ـ نفس الأساليب التى كانت دارجة ذلك العهد . الأمر الذى ضاق بتلك الالفاظ . وهى موضوعة لمعان مبتذلة وهابطة الى مستوى سحيق . من أن تحيط

١ـ التفسير الكبير ج ٧،ص ١٧٢ وهو خامس وجوه ذكرها بهذا الصدد

بمفاهيم هي في درجة راقية وبعيدة الآفاق . كانت الألفاظ والكلمات ـ التي كانت العرب تستعملها في تعبيراتها ـ محدودة في نطاق ضيق حسبما كانت العرب تألفه من معان محسوسة أو قريبة من الحس ومبتذلة الى حدّما . فجاء استعمالها من قبل القرآن ـ الكتاب الذي جاء للبشرية على مختلف مستوياتهم مع الأبدية ـ غريباً عن المألوف العام .

ومن ثم قصرت أفهامهم عن ادراك حقائقها ما عدا ظواهر اللفظ والتعبير . إذ كانت الألفاظ تقصر بالذات عن أداء مفاهيم لم تكن تطابقها ، ومن ثمّ كان اللجوء إلى صنوف المجاز وأنواع الإستعارات ، أو الايفاء بالكناية و دقائق الاشارات . الأمر الذي قـرب المفاهيم القرآنية الى مستوى أفهام العامة من جهة ، وبعدها من جهة اخرى . قربها من جهة إخضاعها لقوالب لفظية كانت مألوفة لدى العرب . وبعدها حيث سمو المعنى كان يأبى الخضوع لقوالب لـم تكن موضوعة لمثله ، كما كان يأبى النزول مع المستوى الهابط مهما بولغ في اخضاعه. إذ اللفظ يقصر عن أداء مفهوم لا يكون قالباً له ولا يتطابقه تماماً . هذا هو السبب الأقوى لوقوع التشابه في تعبيرات القرآن بالذات ، كما مرّ من مسألة الأمر بين الأمرين ، وغيرها من مسائل كلامية غامضة تبحث عن شؤون المبدأ تعالى والمعاد ، ومسائل شؤون الخليقة وما انطوت عليه من أسرار وغوامض خافية على غالبية الناس .

مثلاقوله تعالى: «واذقال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ـ البقرة: ٣٠» تعبير رمزى عن شأن الانسان ـ بصورة عامة ـ فى الارض ، إنّه ذلك الموجود العجيب ، الذى يملك فى ذاته قدرة جبارة يضيق عنها الفضاء، وتخضع لها قوى الارض والسماء «وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً ـ الجاثية: ١٣» . كل ذلك بفضل نبوغه واستعداده الخارق الذى يمنحه القدرة على الخلق والابداع، على أثر تفكيره وجهاده فى الوصول إلى درجة الكمال ، وليتمثل مظهريته تعالى، فهو الموجود النموذجى لمظهرية ذى الجلال والاكرام ، ومن ثمّ كان خليفته فى الارض يومذاك

ليصبح خليفته فى عالم الوجود إطلاقاً .

لم تكن العرب تستطيع ادراك هكذا تصور عن الانسان ، ولاكان يخطر ببالها إنّ لهذا الإنسان شأناً في عالم الوجود، سوى أنه الموجود الضعيف الذى تتألب عليه الضوارى ، ولايقتات إلّا على لحوم بني جلدته سلباً ونهباً واراقة للدماء والفساد فى الأرض .

ومن ثمّ لما جاء التعبير عن شأن آدم بهكذا التعبير -مماينم عن عظمة وإكبار- حسبوه «المتصرف فى الارض» عن جانب الله القابع فى زاوية السماء ،أوفسروه -كما فى عصر متأخر- بأنّه الخلف عن مخلوق كان قبل آدم ، الجن أو النسناس . وهكذا الإنجذاب بالآية يمنة ويسرة،مادام لم يعرفوا من حقيقة الانسان ، ولا أدركوا من شأنه الخطير .

* * *

وهكذا جاء التعبير المجازى فى آيتين لاتختلفان من حيث الأداء والتعبير،غير ان احداهما لما كانت تعبر عن معنى هوفوق مستوى العامة ، حصل فيها التشابه ، أمّا الأخرى فكانت تعبيراً عن معنى محسوس،ومن ثمّ لم يقع فيها إشكال. فقوله تعالى: «الى ربّها ناظرة -القيامة :٢٣» فيها مجاز الحذف ، أى الى رحمة ربّها . كمافى آية اخرى نظيرتها : «واسأل القرية -يوسف: ٨٢» أى أهل القرية . غير أنّ الاولى صارت متشابهة ، لقصور أفهام العامة عن إدراك مقام الألوهية ، فحسبوا منها جواز رؤيته تعالى . أما الآية الثانية فلم تتوقف فى فهم حقيقتها ، لأنّها فى معنى محسوس .

ونظير ذلك قوله تعالى :«يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود -القلم: ٤٢» دعا جهل العامة بصفاته تعالى الى فهم ساق له سبحانه ، فى حين أن استعارة الساق للشدة عند العرب كان امراً دارجاً،قال شاعرهم :«وقامت الحرب على ساق»[1]

١- البرهان للزركشى ج٢ ص٨٤

أي أخذت في شدّتها ، فهم عندما يستمعون الى هذا الشعر لايترددون في فهم الحقيقة، اذيعلمون أن لارجل للحرب ولاساق. أمّا في الآية الكريمة فيذهب وهمهم الى وجود رجل له تعالى وساق، ومن ثمّ ذهب بعضهم إلى عقيدة التجسيم ، تعالى الله عن ذلك .

* * *

وقدذهب سيدنا الطباطبائي -دام ظله- أيضاً الى هذا الرأي ، وذكر :ان سبب وقوع التشابه في القرآن يعود الى خضوع القرآن -في إلقاء معارفه العالية- لالفاظ وأساليب دارجة ، هي لم تكن موضوعة لسوى معاني محسوسة أوقريبة منها ،ومن ثمّ لم تكن تفي بتمام المقصود ،فوقع التشابه فيها وخفي وجه المطلوب ، نعم،إلّا على اولئك الذين نفذت بصيرتهم وكانوا على مستوى رفيع . قال تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً - الى قوله - كذلك يضرب الله الحق والباطل ،فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال - الرعد : ١٧ » وهكذا القرآن تحتمله الأفهام على قدر استعداداتها،وفيه من المتشابهات ماتزول بتعميق النظر وإجادة التفكير ،فيبقى القرآن كله محكماً مع الأبد بسلام [1].

وهكذا قال الشيخ محمد عبده :«ان الأنبياء بعثوا الى جميع أصناف الناس من دان وشريف،وعالم وجاهل،وذكي وبليد .وكان من المعاني مالايمكن التعبير عنه بعبارة يفهمها كلّ أحد ، ففيها من المعاني العالية،والحكم الدقيقة مايفهمه الخاصة ، ولوبطريق الكناية والتعريض ، ويؤمر العامة بتفويض الأمرفيه الى الله ، والوقوف عند حدالمحكم ، فيكون لكلّ نصيبه على قدر استعداده» [2] .

١- تفسير الميزان ج٣،ص٥٨ -٦٢ بتلخيص واختزال.

٢- تفسير المنار ج٣،ص١٧٠ . وهوثالث وجوه ذكرها بهذا الصدد

* * *

وهناك عامل آخر في ايجاد التشابه في غالبية الآيات الكريمة، اذ لم تكن متشابهة من ذي قبل ، وإنّما حدث التشابه فيها على أثر ظهور مذاهب جدلية ، بعد انقضاء القرن الأوّل الذي مضى بسلام ، اذ كانت العرب اول عهدها بنزول القرآن تستذوقه بمذاويقها البدائية الساذجة، حلواً بديعاً سهلاً بليغاً. أما وبعدما احتبكت وشائج الجدل بين أرباب المذاهب الكلامية ، منذ مطلع القرن الثاني ، فقد راج التشبث بظواهر آيات تحريفاً بمواضع الكلم، ومن ثمّ غمّها نوع من الإبهام والغموض الإصطناعيين، وأخذت كلّ طائفة تعطف بما يروقها من آيات لغرض تأويلها إلى الوجه الذي يؤيّد مذهبها .

ولاريب أنّ القرآن حمّال ذووجوه ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام [1] ـ لأنّه كما ذكرنا معتمد في أكثر تعابيره البلاغية على أنواع من المجاز والإستعارة والتشبيه ، فأكسبه ذلك خاصية قبول الإنعطاف في غالبية آياته الكريمة، ومن ثمّ نهى الامام عليه السلام عن الإحتجاج بالقرآن تجاه أهل البدع والأهواء، لانهم يعمدون إلى تأويله بلا هوادة قال عليه السلام لابن عباس لما بعثه للإحتجاج على الخوارج: «لاتخاصمهم بالقرآن ،فإنّ القرآن حمال ذووجوه ، تقول ويقولون . ولكن حاججهم بالسنّة فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً» .

انظر إلى هذه الآية الكريمة: «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـ القيامة: ٢٢-٢٣» ربّما لم تكن العرب تخطر ببالها إرادة الرؤية بالعين، كما قال الزمخشري: سمعت مستجدية بمكة، بعدما أغلق الناس أبوابهم من حرّ الظهيرة، تقول «عيينتى نويظرة الى الله واليكم» [2] ولم يختلج ببال أحد أنّها تقصد النظر بالتحديق الى الله سبحانه ، وانما كان قصدها الإنقطاع وتوقّع فضله ورحمته تعالى . وهكذا في الآية الكريمة نظراً الى موقعية

١ـ نهج البلاغة ج٢،ص١٣٦ من الكتب والوصايا رقم : ٧٠

٢ـ راجع :الكشاف ذيل الاية ، وأساس البلاغة مادة «نظر»

الحصر فيها. لكن الأشاعرة وأذنابهم من مشبهة ومجسمة جمدوا على ظاهر الآية البدائي وأصرّوا على أنّه النظر إليه تعالى بهاتين العينين اللتين في الوجه[1].

وهكذا لما سمعت العرب قوله تعالى: «ثمّ استوى على العرش يدبّر الأمر ـ يونس: ٣» ربما لم تفهم منه سوى استقلاله تعالى بملكوت السماوات والارض وتدبيره لشؤون هذا العالم، نظير قول شاعرهم:

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وقال آخر:

فلما علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعى لنسر وكاسر

لكن الاشاعرة ومن ورائهم سائر أهل التشبيه أبوا إلّا تفسيره بالإستقرار على العرش جلوساً متربعاً فوق السماوات العلى، وقد ينزل إلى السماء الدنيا ليطلع على شؤون خلقه فيغفر لهم ويجيب دعاءهم، إذ لا يمكنه ذلك وهو متربع على كرسيه فوق السماوات![2].

وعلى هذا السبيل، لما نزلت الآية: «وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـ المائدة: ٦٤» لا نظن أنّ العرب فهمت منها الجوارح والاعضاء، نظير قوله تعالى: «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ـ الاسراء: ٢٩» لا يعني الجارحة المخصوصة كما زعمته المشبهة من أصحاب الحشو، وإنّما عنى يد القدرة ونفي العجز عن التصرف فيما يشاء تعالى. أما الأشعري ومن حذا حذوه فانّهم قد انحرفوا في فهم هذا المعنى الظاهر، فأوّلوه الى الجارحة، وقالوا إنّ الله يداً ورجلاً وعيناً ووجهاً وما إلى ذلك وقوفاً مع ظاهر الكلمة في القرآن[3].

١ـ راجع: الابانة لابي الحسن الاشعري، ص ١١، ط حيدر آباد الدكن

٢ـ راجع: الابانة ص ٣٥ فما بعد. ورسالة الرد على الجهمية للدارمي، ص ١٣ فما بعد.

٣ـ راجع: الابانة ص ٣٩ فما بعد، وغيرها من كتب القوم وهي كثيرة.

والشواهد على هذا التحريف بظواهر القرآن كثيرة ، سنعرض نماذج منها في فصل : «عرض الآي المتشابهة» . ونذكر مدى تأثير تلكم المذاهب المبتدعة في تشويه ظاهر القرآن الكريم ، من جراء تطاول أياديهم الأثيمة نحو هذا الكتاب الالهي المقدس تلويثاً لجانب قداسته الناصعة ، لكن « ويأبى الله إلّا ان يتم نوره ولو كره الكافرون ـ التوبة :٣٢» .

وسيأتي هذا الجانب من البحث بتوضيح أكثر .

حقيقة التّاويل

*- مابين التأويل و التفسير من فرق .

*- المعانى الاربعة للتأويل .

*- آراء غريبة فى حقيقة التأويل .

التأويل يستعمل بمعنى توجيه المتشابه ، وهو تفعيل من الأَوْل بمعنى الرجوع ، لأنّ المؤول عندما يخرج للمتشابه وجهاً معقولا ، هو آخذ بزمام اللفظ ليعطفه الى الجهة التى يحاول التخريج إليها ، ومن ثمّ يستعمل فى تبرير العمل المتشابه أيضاً كما فى قصة الخضر عليه السلام قال لصاحبه: «سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ـ الكهف: ٧٨» اى سأطلعك على السر المبرر لأعمال أثارت شكوكك ودعتك الى الاعتراض.

إذن فكلّ لفظ أو عمل متشابه ـ أى مثير للريب ـ اذا كان له توجيه صحيح ، فهذا التوجيه تأويله لامحالة . وعليه فالفرق بين التفسير والتأويل ، هو أنّ الأول توضيح ما لجانب اللفظ من إبهام ، والثانى توجيه ما فيه من مثار الريب ، وقد سبق ما بين عوامل الإبهام والتشابه من فرق.

هذا ، وقد اصطلحوا ـ أيضاً ـ على استعمال التأويل فى معنى ثانوىّ للآية ، فيما لم تكن بحسب ذاتها ظاهرة فيه ، وإنّما يتوصل إليه بدليل خارج ، ومن ثمّ يعبّر عنه بالبطن ، كما يعبر عن تفسيرها الأولى بالظهر ، فيقال : تفسير كلّ آية ظهرها ، وتأويلها بطنها . والتأويل بهذا المعنى الأخير ، عام لجميع آى القرآن ، كما فى الأثر : «مافى القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن» . وقد سئل الامام محمد بن على الباقر ـ عليه السلام ـ عن ذلك فقال : « ظهره تنزيله ، وبطنه تأويله ، منه ماقد مضى ومنه

مالم يكن، يجرى كما يجرى الشمس والقمر [1] » وقال عليه السلام أيضاً: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم [2] » فقد جاء التنزيل ـ في كلامه عليه السلام ـ بمعنى التفسير ، أي إنّ للاية مورد نزول يكشف عن مدلولها الأُولى المنصرم ، ويعبّر عنه بسبب النزول ، ولا غنى للمفسر عن معرفة أسباب النزول في كشف إبهام الآية ، كما في آية النسيىء ـ التوبة : ٣٧ ـ و آية نفى الجناح عن السعى بين الصفا والمروة ـ البقرة : ١٥٨ ـ وآية النهى عن دخول البيوت من ظهورها ـ البقرة : ١٨٩ ـ ونحوها كثير .

نعم هناك عموم ثابت أبدى تنطوى عليه الآية ، وبذلك تشمل عامة المكلفين مع الأبدية ، وهو بطنها و تأويلها الذى يعرفه الراسخون في العلم ، ولولا ذلك لبطلت الآية . قال الامام الباقر ـ عليه السلام ـ : « ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثمّ مات اولئك القوم ماتت الاية ، لما بقى من القرآن شيء . ولكن القرآن يجرى أوّله على آخره مادامت السماوات و الأرض . ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر » [3] وقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ان فيكم من يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلت على تنزيله ، وهو علىّ بن أبى طالب [4] » فقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على تطبيق القرآن الخاص حسب مورد نزوله ، وقاتل على عليه السلام على تطبيقه العام على مشابه القوم .

فقوله تعالى : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ـ البقرة : ١٨٩ » نزلت

١ـ بصائر الدرجات، ص ١٩٥ . والبحار، ج ٩٢، ص ٩٧، رقم : ٦٤ .

٢ـ تفسير العياشي ج١، ص١١ . والبحار، ج ٩٢، ص ٩٤، رقم : ٤٦ .

٣ـ تفسير العياشي ج١، ص ١٠، رقم : ٧ . والصافي، ج١، ص ١٤ .

٤ـ تفسير العياشي ج١، ص ١٥ـ١٦، رقم ٦ .

رادعة لعادة جاهلية ، كان الرجل إذا أحرم نقب فى مؤخّر بيته نقباً، منه يدخل ومنه يخرج . وهذه العادة أصبحت لا وجود لها بعد أن باد أهلها. غير أنّ الآية لم تمت بذلك وإنّما بقى عموم ردعها عن إتيان الأمور من غير وجوهها بصورة عامة [1] فهذا تأويلها المنطوى عليه الآية ، يعمل بها مع الأبد .

وقوله تعالى: «قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ـ الملك ٣٠» .تفسيرها : ان الله هو الذى « انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثمّ يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ـ الزمر : ٢١» وهذا معنى ظاهرى يدلّ عليه ظاهر اللفظ . وجاء فى تأويلها: إذا فقدتم حجة من حجج الله الذين كنتم ترتوون من عذب نميرهم ، فمن الذى يأتيكم بحجة اخرى يواصل هديكم فى ركب الحياة [2] . وهذا المعنى يعبر عنه بالبطن ،لا يجرأ أحد على بيانه إلّا بنص معصوم .واستعارة ينبوع الماء لمصدر الهداية الربانية شيء متناسب، فكما أنّ الماء هو أصل الحياة المادية ،كذلك الهداية الإلهية هى أصل الحياة العليا السعيدة .

* * *

ويتلخّص الكلام فى حقيقة التأويل أنّه يستعمل فى موردين :

الأول: فى توجيه المتشابه، سواء أكان كلاماً متشابهاً ، أم عملاً مثيراً للريب والتأويل بهذا المعنى خاصّ بالآى المتشابهة فحسب .

الثانى: فى المعنى الثانوى للكلام ، المعبر عنه بالبطن ،تجاه المعنى الأولى المعبّر عنه بالظهر. والتأويل بهذا المعنى عام لجميع آى القرآن ، فإنّ للقرآن ظهراً وبطناً ، وربّما الى سبعة بطون.

وقد تبيّن أنّ التأويل ـ بكلا الاصطلاحين ـ هو من قبيل المعنى والمفهوم الخافى

١ـ راجع : تفسير شبر، ص٦٧، طبعة الكشميرى

٢ـ راجع : تفسير الصافى ج٢، ص٧٢٧

عن ظاهر الكلام ، وبحاجة إلى دلالة صريحة من خارج ذات اللفظ .

وقد شذ ابن تيمية فيما زعم أنّ معرفة تأويل الشيء إنّما هو بمعرفة وجوده العيني قال: «فإنّ للشّيء وجوداً في الأعيان ووجوداً في الأذهان ، والكلام لفظ له معنى في القلب ويكتب بالخط ، فإذا عرف الكلام وتصوّر معناه في القلب وعبّر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج ،مثال ذلك : أنّ أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد ﷺ وخبره ونعته ،وهذا هو معرفة الكلام ومعناه وتفسيره. وتأويل ذلك هو نفس محمد ﷺ المبعوث ، فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام. وكذلك إذا عرف الانسان الحج والمشاعر وفهم معنى ذلك ، ولا يعرف الأمكنة حتّى يشاهدها فتكون تأويل ما عرفه أوّلاً»[1] .

وهكذا ذهب سيدنا العلامة الطباطبائي ـ دام ظله ـ الى أنّ التأويل ليس من مداليل الألفاظ ، وإنّما هو عين خارجية ،وهي الواقعية التي جاء الكلام اللفظي تعبيراً عنها . قال:«الحق في تفسير التأويل أنّه الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية ، من تشريع وموعظة وحكمة ، وأنّه موجود لجميع آي القرآن ، وليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالالفاظ ، بل هي من الامور العينية المتعالية من ان تحيط بها شبكات الألفاظ . وأنّ وراء ما نقرأه ونتعقّله من القرآن ، أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد والمتمثل من المثال وليس من سنخ الالفاظ ولا المعاني ، وهو المعبّر عنه بالكتاب الحكيم ، وهذا بعينه هو التأويل، ومن ثمّ لا يمسّه إلّا المطهرون ،قال تعالى : «انه لقرآن كريم في كتاب مكتون لا يمسه إلّا المطهرون ـ الواقعة : ٧٩». وقال :«بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ـ البروج : ٢٢» .وقال «انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم ـ الزخرف: ٤» فهذه الايات تدلّ على أنّ القرآن النازل كان عندالله أمراً أعلى وأحكم من أن تناله

---

١ ـ في تفسير سورة التوحيد : بنقل رشيد رضا في تفسير المنار ج٣ ص١٩٥

العقول أو يعرضه التقطع والتفصيل ،لكنه تعالى عناية بعباده جعله كتاباً مقروءاً وألبسه لباس العربية،لعلهم يعقلون مالم يكن لهم سبيل الى تعقّله ومعرفته مادام فى ام الكتاب قال تعالى: «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ـ هود : ١» فالاحكام هو كونه عندالله لاثلمة فيه ولاتفصيل ، والتفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وآيةً آيةً وتنزيله على النبى ﷺ»[١] .

* * *

ولعل مازعمه ابن تيمية ناجم عن خلط أمر المصداق بأمر التأويل ،إذلم يعهد إطلاق اسم «التأويل» على الوجود العينى ، وإنّمايطلق عليه اسم «المصداق» حسب مصطلح الفن . فانّ كل لفظة لهامفهوم هو مايتصوره الذهن من دلالة ذلك اللفظ . ولها مصداق هو ما ينطبق عليه ذلك المفهوم خارجاً . كالتفّاحة لها مفهوم هو وجودها التصورى الذهنى ،ولهامصداق هو وجودها العينى الخارجى ، ذوالآثار والخواص الطبيعية، ولم يعهد اطلاق اسم التأويل على هذا الوجود العينى للتفّاحة أصلاً .

ومنشأ الاشتباه أخذ التأويل من أصل اشتقاقه اللغوى بمعنى «مآل الأمر » أى مايؤول اليه أمر الشيء كما فى قوله تعالى : «هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله ، يقول الذين نسوه من قبل قدجاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء ـ الاعراف:٥٣». أى ينتظر هؤلاء لينظروا الى مايؤول أمر هذا الدين .. .ويوشك أن يأتى اليوم الذى ينتظرونه ، غير أنّ الفرصة قدفاتتهم ولات الساعة ساعة مندم .

وأمّا تأويل الرؤيا فمأخوذ من المعنى الثانى المتقدم ، لأنّه معنى خفى باطن لايعرفه سوى الذين اوتوا العلم . وقداستعمل فى تعبير الرؤيا فى القرآن فى ثمانية مواضع من سورة يوسف : ٦و ٢١و ٣٦و ٣٧و ٤٤و ٤٥و ١٠٠و ١٠١ .

واستعمل بمعنى «مآل الامر» فى خمسة مواضع : سورة النساء : ٥٩ ،وسورة

١ـ راجع : الميزان ج٥،صفحات : ٢٥و ٤٥و ٤٩و ٥٤و ٥٥

الاسراء : ٣٥ ، وسورة الأعراف : ٥٣ مكررة ، وسورة يونس : ٣٩ .

وبمعنى «توجيه المتشابه» في أربعة مواضع : سورة آل عمران : ٧ مكررة ، وسورة الكهف : ٧٨ و ٨٢. أما استعماله بمعنى «البطن» فقد جاء في الآثار ـ حسبما تقدم ـ وقد أخذ منه تعبير الرؤيا كما نبهنا .

فهذه أربعة معان للتأويل استعملت في سبعة عشر موضعاً من القرآن ، ولم يكن واحد منها بمعنى العين الخارجية إطلاقاً .

* * *

أمّا رأي سيدنا الطباطبائي فلا يعدو توجيها لطيفاً للمزعومة المتقدمة ،وتبدو عليه مسحة عرفانية غير مستندة ، ومن ثمّ فهي غريبة شذت عنه ـ دام ظله ـ وقبل أن نتكلم في وجه تفنيدها يجب أنّ نعرف أن ليس اللوح المحفوظ شيئاً ذا وجود بذاته ، كوعاء أو لوحة أو مكان خاص، مادياً أو معنوياً ، كلّا ،وإنّما هو كناية عن علمه تعالى الأزليّ الذي لا يتغير ولا يتبدل وهو المعبر عنه بالكتاب المكنون و ام الكتاب أيضاً ، وغيرهما من تعابير لا تعني سوى علمه تعالى المكنون الذي لا يطلع عليه أحد إطلاقاً.

وبعد فقوله تعالى : «وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم ـ الزخرف : ٤» لا يعني أنّ للقرآن وجوداً آخر في وعاء « ام الكتاب » ، وإنّما جاءت هذه الاستفادة الخاطئة من توهمّ المكان من قوله : « لدينا » . بل المقصود : أنّ لهذا القرآن شأناً عظيماً عند الله في سابق علمه الأزليّ، والتعبير بام الكتاب كان بمناسبة أنّ علمه تعالى هو مصدر الكتاب وأصله المتفرع منه.

وقوله تعالى : « انه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون ـ الواقعة : ٧٩» يعني نفس هذا القرآن الذي بأيدي الناس ، فهو في كتاب مكنون أي قدر له البقاء في علمه تعالى الأزليّ ، وجاء هذا المعنى ـ صريحاً ـ بتعبير آخر : «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ الحجر: ٩». وقوله :«لا يمسه الا المطهرون» يعني : لا يدرك كنه معناه، ولا يبلغ الاهتداء به على الحقيقة ،الا الذين طهرت نفوسهم

عن الزيغ والانحراف «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين».

وقوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد - اى عظيم شأنه « فى لوح محفوظ - البروج : ٢٢» أى قدّر فى علمه تعالى أنّه يبقى محفوظاً عن كيد الخائنين وتحريف المبطلين ، لايمسّوه بسوء ابداً .

هذا . . ولعلّنا اوجزنا الكلام عن آيات تمسّكوابها فى المقام ، لأنا اجلنا البحث عن دلائلها الى مجال التفسير انشاءالله .

* * *

ثمّ لنفرض أنّ وراء هذا القرآن الذى بأيدينا قرآناً آخر ، ذا وجود مستقل فماهى الفائدة المتوخاة من ذلك ، وهل هناك من يعمل به؟ أو أنّه مذخور ليوم آخر ، كالطعام يدخر لأيّام الجدب ، أوالمال يكنز ليوم الحاجة والافتقار . ! وأخيراً ، فما الذى دعا هؤلاء الى تسمية ذلك القرآن المذخور - فرضاً - تأويلاً ووجوداً عينياً لهذا القرآن الحاضر؟ وهل يصح - اذا كان للشىء وجودان ، وجود مبذول ووجود محفوظ - أن يطلق على وجوده الآخر عنوان التأويل لهذا الوجود ؟!

إن هذا إلّا كلام شعرى ، مقترح عن ذوق عرفانّى ، بعيد عن مجالات الجدل والإستدلال ، نعم سوى استحسان عقلانى مجرد !

هل يعلم التأويل إلا الله

*- توجيه السؤال بصورة عامة .

*- ماذا يستفاد من الآية بصورة خاصة .

*- شكوك واعتراضات .

*- مزعومة المنكرين .

*- من هم الراسخون في العلم ؟

هنا سؤال ذوجانبين،أحدهما عام : هل يستطيع أحد الوقوف على تأويل المتشابهات ،بل وعلى تأويل آى القرآن كله؟ والثانى خاص : ماذايستفاد من الآية ـ« ومايعلم تأويله الاالله والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به كل من عند ربنا ـ آل عمران : ٧»ـ بالذات ، هل الواو للتشريك أو الإستيناف ؟

وللاجابة على الجانب الأوّل للسؤال نقول :لاشك أنّ القرآن كما هومشتمل على آيات محكمات ، مشتمل على آيات متشابهات . ولامحالة يقصده أهل الأهواء والأطماع الفاسدة،سعياًوراء المتشابهات ابتغاءتأويلهاوانحرافها الى مايلتئم وأهدافهم الباطلة ،وقدجاء التصريح بذلك فى نفس الآية :«فأمّا الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» فلولا وجود علماء ربانيين فى كلّ عصرومصر ينفون عنه تأويل المبطلين ـ كما فى الحديث الشريف [١] ـ لأصبح القرآن معرضاً خصباً للشغب والفساد فى الدين . فيجب ـ بقاعدة اللطف ـ وجود علماء عارفين بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح ، ليقفوا سداً منيعاً فى وجه أهل الزيغ والباطل ،دفاعاً عن الدين وعن تشويه آى الذكر الحكيم .

١ـ راجع:سفينة البحار ج١،ص٥٥

وأيضاً ـ لو كانت الآى المتشابهة مما لايعرف تأويلها إلّاالله ، لأصبح قسط كبير من آى القرآن لافائدة فى تنزيلها سوى ترداد قراءتها ، وقدقال رسول الله ﷺ: «ويل لمن لاكها بين لحييه ثمّ لم يتدبّرها» وقال تعالى :«كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الباب ـ ص :٢٩» .

ولنفرض أنّ الامة ـ عند ماوقفت على آية متشابهة ـ راجعت علمائها فى فهم تلك الآية، فأبدوا عجزهم عن معرفتها ،فذهبوا والعلماء معهم إلى أحد الائمة خلفاء الرسول ﷺ فكان الجواب :اختصاص علمها بالله تعالى ، لكنهم لم يقتنعوا بهذا الجواب فهبوا جميعاً الى حضرة الرسول ﷺ ضارعين سائلين : ماتفسير آية أنزلهاالله اليك لنتدبرها؟فاذا النبى ﷺ لايفترق عن آحاد امته فى الجهل بكتاب الله العزيز الحميد !

أو ليست الأمم تسخر من أمة عمها وعلمائها وأئمتها ونبيها ـ ! ـ الجهل بكتابها الذى هو أساس دينها مع الخلود ؟!

اللهم إن هذا إلّا زعم فاسد وحط من كرامة هذه الامة المفضلة على سائر الامم بنبيها العظيم وكتابها الكريم .

أو ليس النبى ﷺ هو الذى أرجع امته الى القرآن إذاما التبست عليهم الامور كقطع الليل المظلم [١] فبما ذا يرجعون إذا التبس عليهم القرآن ذاته ؟!

وأخيراً فإنّا لم نجد من علماء الامّة ـ منذ العهد الأوّل فالى الآن ـ من توقّف فى تفسير آية قرآنية بحجّة أنّها من المتشابهات لايعلم تأويلها إلّاالله. وهذه كتب التفسير القديمة والحديثة طافحة بأقوال المفسرين فى جميع آى القرآن بصورة عامة ،سوى أنّ أهل الظاهر يأخذون بظاهر المتشابه ، أمّا أهل التمحيص والنظر فيتعمقون فيه ويستخرجون تأويله الصحيح ، حسبما يوافقه العقل والنقل الصريح .

قال الشيخ أبو على الطبرسى:«وممايؤيّده هذا القول ـ أى أنّ الراسخين يعلمون

١ـ راجع:الكافى الشريف ج٢،ص٥٩٩

التأويل ـ أن الصحابة والتابعين أجمعوا على تفسير جميع آى القرآن ، ولم نرهم توقفوا على شىء منه لم يفسروه بأن قالوا : هذا متشابه لايعلمه إلّا الله»[1] .

وقال الإمام بدر الدين الزركشى : «ان الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلّا لينتفع به عباده ، وليدل به على معنى أراده ، ولايسوغ لأحد أن يقول : إنّ رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه . فإذا جاز أن يعرفه الرسول ﷺ مع قوله : «ومايعلم تأويله إلا الله» جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ، والمفسرون من امته. ألاترى أنّ ابن عباس كان يقول : أنا من الراسخين فى العلم .ولو لم يكن للراسخين فى العلم حظ من المتشابه إلّا ان يقولوا : «آمنّا» لم يكن لهم فضل على الجاهل ، لأنّ الكل قائلون ذلك .قال : ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية توقفوا عن شىء من القرآن ، فقالوا : هذا متشابه لايعلم تأويله إلّا الله . بل أمرّوه على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة»[2] .

* * *

أمّا بالنظر الى ذات الآية، فلعلّ دلالتها على التشريك واضحة ، إذ من الضرورى رعاية المناسبة القريبة بين عنوان المسند إليه وفحوى مدلول المسند ، وذلك فيما إذا تعنون المسند إليه بوصف خاص ، فإنّه يجب ـ حينئذاك ـ من مراعاة مابين هذه الصفة ، والحكم المترتب عليها من علاقة سببية أوشبهها ، وهى التى لاحظها علماء الفن فيما أثر منهم : «مناسبة الحكم والموضوع» . وهذا كقولنا : «العلماء باقون مابقى الدهر» حيث كانت صفة العلم وآثاره البناءة، هى التى تستدعى الخلود للعلماء.

ومن ثمّ قد يستشم نوعية الخبر من نفس عنوان الموضوع ،قبل أن ينطق بالمخبر به ،كما فى قول الشاعر .

ان الذى سمك السماء بنى لنا   بيتاً دعائمه أعزّ وأرفع

١ـ مجمع البيان ج٢،ص٤١٠

٢ـ البرهان فى علوم القرآن ج٢،ص٧٢ـ٧٣

فقد لمسنا عظمة المخبر به ورفعة شأنه من عنوان « سامك السماء » الذى جاء فى الموضوع .

وعليه فعنوان «الراسخون فى العلم» بنفسه يستدعى أن يكون المنسوب إليهم من جنس ما يتناسب والمعرفة الكاملة ، أمّا الايمان الأعمى فلا مناسبة بينه وبين الرسوخ فى العلم .

وعليه فرعاية هذه المناسبة هى التى تستدعى وجوب التشريك ، ليكون الراسخون فى العلم ـ أيضاً ـ عالمين بتأويل المتشابهات .

واعترض بأنّ مقتضى التشريك هو تساوى العلماء مع الله ولو فى هذه الجهة الخاصة ، وقد قال تعالى : «ليس كمثله شىء» .

واجيب بأنّ شرف العلم هو الذى رفعهم إلى هذه المنزلة المنيعة ، كما فى آية اخرى : « شهد الله أنّه لا اله إلّا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط ـ آل عمران : ١٨» .

واعتراض آخر : ماذا تكون موقعية قوله : «يقولون آمنّا به . . . » اذا ما اعتبرنا «والراسخون» عطفاً على «إلّا الله» ؟

والجواب : أنّها جملة حالية موضعها النصب حالاً توضيحياً من الراسخين . قال الزمخشرى : «ويقولون ، كلام مستأنف موضح لحال الراسخين»[١] ومقصوده من الإستيناف نفى رابطة الإسناد الخبرى بينه وبين الراسخين . وهكذا صرّح ابن قتيبة فى تأويل مشكل القرآن ص٧٢ ، وأبو البقاء العكبرى فى املاء مامنّ به الرحمان ج١ ، ص١٢٤ ، والشريف المرتضى فى أماليه ج١ ، ص٤٣١ ـ ٤٤٢ المجلس ٣٣ ، والزركشى فى البرهان ج٢ ، ص٧٣ ، والعلامة الطبرسى فى مجمع البيان ج٢ ص٤١٠ ، والشيخ محمد عبده فى تفسير المنار ج٣ ، ص١٦٧ وغيرهم من أقطاب العلم والأدب

---

١ ـ الكشاف ج١ ، ص٣٣٨ ط بيروت

القدامى والمحدثين .

وللاية نظائر كثيرة فى القرآن،وفى الشعر القديم ،جاء فىسورة الحشر-فى بيان مصرف الغنائم - قوله تعالى:«ماأفاءالله على رسوله . . . إلى قوله : للفقراء المهاجرين ... إلى قوله :والذين تبوؤا الدار والايمان ... الى قوله: والذين جاءوا من بعدهم ،يقولون ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان...٧- ١٠» فجملة «يقولون ...» كلام مستأنف حال من «والذين جاؤوا ...» المعطوف على ماقبله ، للتشريك معهم فى استحقاق غنائم دار الحرب .

وكذلك قوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفاً صفاً -الفجر:٢٢» فالمنصوب حال من «الملك» المعطوف على «ربك» .

وقال يزيد بن المفرغ الحميرى - يهجو عباد بن زياد -:

أصرمت حبلك فى أمامة من بعد أيام برامة

فالريح تبكى شجوها والبرق يلمع فى غمامة [1]

قوله «والبرق» عطف على «فالريح» للتشريك معه فى البكاء . و«يلمع» حال من المعطوف ، أى ويبكى البرق -أيضاً- فى حال كونه لامعاً.

إذن فلاغرو أن تكون «يقولون آمنابه.. .»جملة حالية موضحة لحال الراسخين وسنذكر فائدة هذه الحال هنا .

واعتراض ثالث - هو أقوى حجّة اعتمدها الامام الرازى - قال :«ان الله مدح الراسخين فى العلم بأنّهم يقولون : آمنّابه . وقال فى أوّل سورة البقرة : «فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحقّ من ربّهم - ٢٦». فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل

١- الاغانى لابى الفرج ج١٧،ص١١٢ طبيروت وص٥٥ ط الساسى . وابن خلكان ج٦،ص٣٤٦ رقم ٨٢١ .وغرر الفوائد للشريف المرتضى ج١،ص٤٤٠

ذلك المتشابه على التفصيل ، لما كان لهم فى الايمان به مدح ، لأنّ كل من عرف شيئاً على سبيل التفصيل ، فانه لابدأن يؤمن به .انما الراسخون فى العلم هم الذين علموا بالدلائل القطعية أن الله تعالى عالم بالمعلومات التى لانهاية لها ، وعلموا ان القرآن كلام الله تعالى ، وعلموا أنه لايتكلم بالباطل والعبث .فاذا سمعوا آية ودلت الدلائل القطعية على أنه لايجوز أن يكون ظاهرها مراداً لله تعالى ، بل مراده منه غير ذلك الظاهر ، ثم فوضوا تعيين ذلك المراد الى علمه ، وقطعوا بأن ذلك المعنى ـ أى شىء كان ـ فهو الحق والصواب . فهؤلاء هم الراسخون فى العلم بالله ، حيث لم يزعزعهم قطعهم بترك الظاهر ، ولاعدم علمهم بالمراد على التعيين، عن الايمان بالله والجزم بصحة القرآن»[1] .

قلت : ليس كل من عرف الحق اعترف به وأذعن له ، قال تعالى : «يعرفون نعمة الله ثـمّ ينكرونها وأكثرهم الكافرون ـ النحل : ٨٣» . هذا ، والمدح على الايمان عن بصيرة أولى من المدح على ايمان أعمى . قال الامام البيضاوى :«مدح الراسخين فى العلم بجودة الذهن وحسن النظر ، واشارة الى مااستعدوا للاهتداء به الى تأويله ، وهو تجرّد العقل عن غواشى الحس»[2] .

والتقييد بـالجملة الحالية ـ هنا ـ جاء للإشارة الى نكتة دقيقة ، هى : أنّ المتشابه متشابه على كلّ من العالم والجاهل جميعاً ، سوى أنّ العالم بفضل علمه بمقام حكمته تعالى ، يجعل من المتشابه موضع تأمّله ودقيق نظره ، وبذلك يتوصّل الى معرفة تأويله الصحيح فى نهاية المطاف .

توضيح ذلك : أنّ الناس تجاه المتشابه ثلاث فرق :.فرقة تستريح الى ظاهره، وهم غالبية العامة ممن لامعرفة له باصول معارف الإسلام الجليلة ، وفرقة تعمد الى

١ـ التفسير الكبير ج٧، ص١٧٧

٢ـ انوار التنزيل ج٢، ص٥

المتشابه عن قصد التمويه ، لغرض تـأويله الى أهداف باطلة ، ذريعة الى تشويه الحقيقة ، وهم أهل الزيغ والإنحراف ممن يبغى الفساد بين العباد ، وفرقة ثالثة ـ هم الراسخون فى العلم المؤمنون حقاً ـ يقفون عند المتشابه يتأمّلونه بدقيق النظر ، ولسان حالهم : أنّ هذا المتشابه ـ كأخيه المحكم ـ صادر عن مقام الحكمة تعالى وتقدس ، فلابدّ أن وراء ظاهره المتشابه حقيقة راهنة تكون هى المقصودة بالذات ، وهذه الفكرة عن المتشابه هى التى تدعو المؤمنين حقاً الراسخين فـى العلم الى البحث والتحقيق عن تخريجه الصحيح .

والباحث الصادق ـ أمام المتشابه ـ لايضطرب اضطراب الجاهل الذى وضع إيمانه على حرف «فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ـ الحج : ١١» ولايتروغ مراوغة المعاند الغاشم ، ليجعل من المتشابه ذريعة للعيث والفساد فى الأرض «أما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ آل عمران : ٧» . وإنّما يقف عنده وقفة المتأمّـل الفاحص عن جلى الأمر . ولاشكّ أنه سوف يحتضن مطلوبه بفضل استقامته وثباته على ايمانه الصادق ، وقدجرت سنة الله فى خلقه : أنّ من جدّ وجد ومن لجّ ولج. قال تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ـ العنكبوت : ٦٩ » .

والخلاصة : ان الراسخين فى العلم ، بفضل ثباتهم على العقيدة الصادقة ، سوف يهتدون الى معرفة تأويل المتشابه كما أراده الله ، ويكون قولهم : « آمنا به كلّ من عند ربنا» تمهيداً لطلب الحقيقة ، ونقطة باعثة الى البحث عن طرق التحقيق والفحص .

وهكذا قال الشيخ محمد عبده : «وأمّا دلالة قولهم : «آمنّا به كلّ من عند ربّنا» على التسليم المحض ، فهو لاينافى العلم ، فإنّهم إنّما سلموا بالمتشابه فى ظاهره

أوبالنسبة الى غيرهم ، لعلمهم بإتفاقه مع المحكم، فهم لرسوخهم فى العلم ووقوفهم على حق اليقين ، لايضطربون ولايتزعزعون ،بل يؤمنون بهذاوبذاك على حدّ سواء، لأن كلاً منهما من عندالله ربّنا ، ولاغرو ، فالجاهل فى اضطراب دائم والراسخ فى ثبات لازم . ومن اطلع على ينبوع الحقيقة لاتشتبه عليه المجارى ، فهو يعرف الحق بذاته ، ويرجع كل قول إليه ، قائلا : آمنّا به كل من عند ربّنا»[1] .

بقى هناشىء :وهو أنّ الامام الرازى ـ تأكيداً لاختياره الإختصاص ـ استمدّ بالأدب الرفيع ! وقال:«إنّ العطف بعيد عن ذوق الفصاحة ، ولواريد العطف لكان الأولى أن يقال : وهم يقولون آمنّابه ، أويقال : ويقولون آمنّابه»[2] .

ووافقه على هذا الذوق الأدبى ! سيدنا العلامة الطباطبائى ، قائلاً : وظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصوراً عليه تعالى . وظاهر الكلام أن الواو فى «والراسخون ...» للاستيناف ، لكونه طرفاً للترديد الواقع فى صدر الآية « فأما الذين . . . » . ولو كان للعطف الدال على التشريك ، لكان من افضل الراسخين ـ حينذاك ـ هو الرسول الأعظم ، فكان من حقّه أن يفرد بالذكر ، تشريفاً بمقامه كما فى قوله تعالى : «آمن الرسول بماانزل اليه من ربه والمؤمنون ـ البقرة: ٢٨٥». وقوله : «ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ـ براءة :٢٦» .وقوله :«وهذا النبى والذين آمنوا ـ آل عمران : ٦٨» .

قلت :إن كنّا نرى لهذين العلمين منزلتهما الشامخة فى مجال الحكمة والعلوم العقلية ،فإنّ ذلك ـ بنفس المرتبة ـ أبعدهما عن عالم الأدب اللسنى والعلوم النقلية، لاسيما وأنّهما لم يذكرا سبب تلك الاستذاقة الغريبة ! وقد أسلفنا نقل كلام أئمة

١ـ تفسير المنار ج٣،ص١٦٧

٢ـ التفسير الكبير ج٧،ص١٧٧

الادب فى ترجيح العطف على الاستيناف [1] . هذا ، وقدذهب عن الامام الرازى أنّ الجملة الحالية إذا صدرت بالفعل المضارع يجب تجريدها عن الواو البتة ، قال ابن مالك فى باب الحال من ألفيته فى النحو :

وذات بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو خلت

كما ذهب عن سيدنا الطباطبائى أنّ فى القرآن كثيراً من عمومات تشمل النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقيناً ولم يفرد بالذكر ، منها: قوله تعالى : «شهد الله أنه لااله الاهو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط ـ آل عمران : ١٨» ، وقوله : «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ـ فصلت : ٣٠» ، وقوله : «ان الله يدافع عن الذين آمنوا ـ الحج : ٣٨» ، وقوله : «انما يخشى الله من عباده العلماء ـ فاطر : ٢٨» وغيرهن من آيات كثيرة جداً .

مزعومة المنكرين

نسب جلال الدين السيوطى القول باختصاص معرفة التأويل به تعالى ، الى أكثرية السلف خصوصاً أهل السنة ، قال : « وأمّا الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم ، خصوصاً أهل السنة ، فذهبوا إلى الثانى ، أى القول بأنّ التأويل لايعلمه إلّاالله» [2] .

وأظنّه مبالغاً فى هذه النسبة، ولاسيّمابعد مراجعتنا لأقوال السلف اتضح عدم صحة النسبة .قال ابن تيمية : «قول القائل : إنّ أكثر السلف على أنّ التأويل لايعلمه إلّاالله ، قول بلاعلم [3] . فانه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنّه قال: إنّ الراسخين فى العلم لايعلمون تأويل المتشابه. بل الثابت عن الصحابة أنّ المتشابه يعلمه الراسخون ....».

١ـ تقدم فى صفحة :٣٩

٢ـ الاتقان ج٢، ص٣ ط١ .وص٥ـ ٦ ط٢ .

٣ـ ويل لمن كفره نمرود

وقال ـ قبل ذلك ـ : «إنّ السلف قد قال كثير منهم: إنّهم يعلمون تأويله، منهم مجاهد مع جلالة قدره، والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وابن عباس... وقد تكلم أحمد بن حنبل فى تأويل كثير من آيات متشابهة ... الى أن يقول: وهذا القول اختيار كثير من أهل السنّة، منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقى ...»[1].

وقال أبو جعفر الطبرى: «إنّ جميع ما أنزل الله من آى القرآن على رسوله ﷺ فإنّما أنزله عليه بياناً له ولامّته وهدى للعالمين، وغير جائز ان يكون فيه ما لا حاجة بهم اليه، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة، ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل»[2].

وقال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس من أوّله الى آخره، أقفه عند كل آية واسأله عنها. وكان يقول: أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله»[3].

وقال الراغب ـ فى مقدمة تفسيره ـ: «وذهب عامّة المتكلمين إلى أنّ كلّ القرآن يجب أن يكون معلوماً، وإلّا لادىّ إلى إبطال فائدة الإنتفاع به، وحملوا قوله: «والراسخون» بالعطف على قوله: «الا الله» وقوله: «يقولون» جملة حالية[4].

وذهب أبو الحسن الأشعرى ـ شيخ الأشاعرة ـ إلى وجوب الوقف على «والراسخون فى العلم» لأنّهم يعلمون تأويل المتشابه. وقد أوضح هذا الرأى وانتصر له ابو اسحاق الشيرازى بقوله: «ليس شىء استأثر الله بعلمه، بل وقف العلماء عليه، لأنّ الله تعالى أورَدَ هذا مدحاً للعلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامّة»[5].

١ـ بنقل تفسير المنار ج٣، ص١٧٥ ـ ١٧٤

٢ـ جامع البيان للطبرى ج٣، ص١١٦

٣ـ تفسير المنار ج٣، ص١٨٢

٤ـ البرهان للزركشى ج٢، ص٧٤

٥ـ المباحث لصبحى الصالح ص٢٨٢

وفيما نقلنا ـ هنا ـ من أقوال الأعلام كفاية فى تزييف ما نسبه جلال الدين الى السلف . ولعلّ الباحث يجد من أقوال الأئمة أكثر .

والعمدة : أن منكرى العطف استندوا إلى مزعومة مفضوحة ، قالوا: «لان المتشابه هو مالم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، مما استأثر الله بعلمه دون خلقه ،وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى بن مريم،ووقت طلوع الشمس من مغربها،وقيام الساعة وفناء الدنيا،وما أشبه ذلك ، فإنّ ذلك لايعلمه أحد»[1]. وقالوا في تفسير الآية : يعنى جل ثناؤه بذلك: ومايعلم وقت قيام الساعة وانقضاء مدة أجل محمد وامته وما هو كائن ، إلّاالله ، دون من سواه من البشر ،الذين أملوا ادراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة . وأما الراسخون فى العلم فيقولون آمنّا به كل من عند ربّنا لايعلمون ذلك ، ولكن فضل علمهم فى ذلك على غيرهم، العلم بأنّ الله هو العالم بذلك دون من سواه من خلقه [2] .

ولعلّ هؤلاء قد غشيتهم غفلة ، فذهب عنهم أنّ آية آل عمران تقصد تنويع آى القرآن إلى محكمات ومتشابهات ،وأنّ المحكمات هن مراجع الأمّة بالذات، أما الآيات المتشابهات فيعمد إلى تأويلها الباطل أهل الأهواء الفاسدة ولايعلم تأويلها الصحيح سوى الله والراسخين فى العلم .هذا هو فحوى الآية الكريمة ، الأمر الذى لايرتبط والامور السبعة التى استأثر الله بعلمها من نحو خروج الدجال، ونزول المسيح وطلوع الشمس من المغرب ، أنها من أشراط الساعة ، ولامساس لها بموضوع آية آل عمران .أنها غفلة غريبة لاندرى كيف خفى عليهم ذلك ولم يتنبهوا إلى هذا الفضح الواضح ! ؟

١ـ راجع : جامع البيان للطبرى ج٣، ص١١٦

٢ـ المصدر ص١٢٢ . ومجمع البيان ج٢، ص٤١٠ . والبيضاوى ج٢، ص٥ .

من هم الراسخون في العلم ؟

الراسخون في العلم هم من لمسوا من المتشابه وجه التشابه فيه أوّلاً ، ثم تمكنوا من الوصول إلى وجه تخريجه الصحيح في نهاية الأمر ، لأنّ فهم السؤال نصف الجواب كما قيل .

إذ الراسخون في العلم هم من عرفوا من قواعد الدين اسسها المكينة ، ودرسوا من واقع الشريعة اصول مبانيها الرصينة ، ومن ثمّ إذا ما جوبهوا بما يخالفها في ظاهر اللفظ ، عرفوا ان له تأويلا صحيحاً ، يجب التوصل إليه في ضوء تلكم المعارف الأوّلية ، ومن جد في طلب شيء ، وكان من أهله ، تحصله في نهاية المطاف . أمّا الجاهل الأعمى فلا يعرف من الدين شيئاً سوى ظواهره ، من غير أن يميز بين محكماته والمتشابهات .

والخلاصة : أنّ العلماء الصادقين ، بما أنّهم واقفون على قواعد الشريعة ، وعارفون بموازين الشرع ومقاييسه الدقيقة ، إذا ما عرضت عليهم متشابكات الامور هم قادرون على استنباط حقائقها وعلى أوجه تخريجاتها الصحيحة .

ومن ثمّ فإنّهم يعلمون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين بعناية ربّ العالمين « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت : ٦٩» . « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ـ مريم : ٧٦ » ، « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ـ فصلت : ٣٠ » ، وقد قال تعالى : « وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ـ الجن : ١٦» . أوليس العلم بحقائق الشريعة البيضاء من الماء الغدق ؟ انها شربة حياة العلم ، يفيضها الاله تعالى على من يشاء من عباده المؤمنين ، ويطلعهم على أسرار الملك والملكوت في العالمين .

وأوّل الراسخين في العلم هو رسول الله صلى الله عليه وآله . قال الإمام محمد بن علي الباقر

عليه السلام: «أفضل الراسخين فى العلم رسول الله صلى الله عليه وآله قد علم جميع ما أنزل الله فى القرآن من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله»[1] ثمّ باب مدينة علمه أمير المؤمنين عليه السلام - والأوصياء من بعده - صلوات الله عليهم أجمعين - قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ان الله علم نبيه التنزيل والتأويل، فعلّم رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وعلمنا، والله»[2].

وهكذا استمر بين أظهر المسلمين - عبر العصور - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فثبتوا واستقاموا على الطريقة فسقاهم ربهم ماء غدقاً. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: يحمل هذا الدين فى كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين[3].

وقد جاء التعبير عن علماء أهل الكتاب الربانيين بالراسخين فى العلم «لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك - النساء: ١٦٢» دليلا على أنّ العلماء العاملين، الذين ساروا على منهج الدين القويم، وكملت معرفتهم بحقائق الشريعة الطاهرة، هم راسخون فى العلم، ويعلمون التأويل. قال الامام الصادق عليه السلام: «نحن الراسخون فى العلم، فنحن نعلم تأويله»[4]. وعن ابن عباس - تلميذ الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «انا ممن يعلم تأويله»[5]. وفى وصية النبى صلى الله عليه وآله وسلم «فما اشتبه عليكم فاسألوا عنه اهل العلم يخبرونكم»[6]. فلولا أنّ فى امّته علماء عارفين

١- بحار الانوار ج٩٢، ص٧٨

٢- مرءآة الانوار ص١٥

٣- سفينة البحار ج١، ص٥٥

٤- تفسير البرهان للبحرانى ج١، ص٢٧١

٥- الدر المنثور للسيوطى ج٢، ص٧

٦- آلاء الرحمان للبلاغى ج١، ص٢٥٨

بتأويل المتشابهات، لما أوصى صلى الله عليه وآله بمراجعتهم في حلّ متشابكات الامور و«الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله»[1] وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

١ـ الاعراف : ٤٣

تعرفهٔ اجمالیه الی :

مذاهب سلفیّة

او جدت التشابه فی وجه الایات

رأينا من الأفضل ـ قبل عرض المتشابهات ـ ان نتعرف الى شيء من مـذاهب سلفية كانت السبب الاول في نشوء التشابه في وجه كثير من آيات القرآن الحكيم . وكان أسبقهم الى ذلك «الصفاتية» ، ثم انحدرت عنها «الأشعرية» و«المشبهة» و « الكرامية » ، كما تشعبت منها «الحشوية» و « الجبرية » و«القدرية» . وكانت مذاهب أهل العدل ؛ «العدلية» ـ في حقيقتها ـ انتفاضة تحقيقية وعقلانية في وجه السلفيين الظاهريين المتزمتين ، واليك :

تمهيد

تقدم أنّ غالبية مانعتبره اليوم متشابهاً من آى القرآن ، قدحصل التشابه فيها فى عصر متأخر عن زمن نزولها ، يوم راجت البحوث الجدلية حول مسائل كلامية[1] عن ذاته المقدسة وصفاته الجمالية والجلالية[2] .

كان أكثر السلف -ممن لاعهدلهم بالعلوم العقلية ، ولاوقفوا على كنه حقائق

١- يطلق «علم الكلام» على جملة مسائل خلافية تبحث عن الوجود وعن شؤون الواجب تعالى ، تشعباً من فلسفة اليونان ، وتطبيقا مع العقيدة الاسلامية بالذات ، مزيداً عليها مسائل النبوة والامامة والمعاد .

٢- تطلق «صفات الجمال» على « الصفات الثبوتية » التى ينعت بهاذاته المقدسة ، ولايجوز اخلاؤه تعالى عنها ولااتصافه باضدادها ،كالحي والقادر والعالم . وتطلق «صفات الجلال» على «الصفات السلبية» التى يتنزه ذاته المقدسة عن الاتصاف بها ،كالحدوث والجسمية والرؤية ونحوها .

الإسلام ، والتى كانت دقيقة للغاية ، ماعدا ظواهر ألفاظ كانوا يلوكونهامن غير تعميق ، وبالتالى لم تكن لهم تلك المعرفة الدقيقة بشؤون الواجب تعالى وتفصيل صفاته الثبوتية والسلبية ، ولاتمييز صفات الذات عن صفات الفعل [1] وماإلى ذلك. كانوا اذا ماوجدوا من نعوته تعالى مذكورة فى الكتاب أوفى أقوال الرسول ﷺ أخذوا بظواهرها مستريحين بأنفسهم الى مايفهمون منها حسب ماأُوتوا من أفهام ساذجة بداءية ، لايزيدون شيئاً ولاينقصون .

لاشك أنّها كانت طريقة الوقف والاحتياط فى الدين ، بالنسبة إلى من لم يرتفع مستواه عن مستوى العامة بشىء . وبذلك قد سلموا عن كثير من شبهات اعترضت طرق الخلف ، ممن ولجوا فى مسائل عقلية غامضة ، وكان قد أعوزتهم الوسيلة النافذة ، التى كانت تؤهلهم لسبر تلكم الأغوار .

هذا أبوهريرة سئل عن المبدع الأوّل كيف وجد ؟ فلم يحر جواباً وجعل يضطرب من مفاجأة هكذا سؤال . قال : وانى لجالس ذات يوم ، اذقال رجل من أهل العراق : ياأباهريرة هذا «الله» خلقنا ، فمن خلق الله تبارك وتعالى ؟ قال أبوهريرة: «فوضعت اصبعى فى اذنى وصرخت : صدق الله ورسوله ، الله الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد» [2] . اذ مسألة « وجود الواجب بالذات » [3]

١ـ صفات الذات : صفات ثابتة قديمة لايجوز اخلاء الذات عنها أبداً ، كالعالم والحى والقادر . وصفات الفعل مايجوز إخلاء الذات عنها فيما لم تتعلق إرادته تعالى بالايجاد، كالخالق والرازق والمحيى والمميت .

٢ـ راجع : رسالة «الرد على الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمى، ص٧

٣ـ ينقسم الموجود الى «موجود بالذات» و«موجود بالغير»، ونعنى بالثانى مايستمد فى وجوده من خارج ذاته ، اى يوجده غيره . وكل «مابالغير» لابدّ أن ينتهى الى «مابالذات» لامحالة ، وهومنتهى سلسلة الموجودات . ومن ثمّ فالبارىء تعالى هومبدأ هذه السلسلة ، فهو «موجود بالذات» لم يستمدّ فى وجوده من خارج ذاته ، وإلّا لم تنته السلسلة. ويطلق عليه تعالى ←

لم تكن ممايدركها أمثال أبي هريرة ذلك العهد .

وقال أبو بكر: «أي ارض تقلني وأيّ سماء تظلني إذاقلت في كلام الله مالا اعلم».
وسئل عبيدة السلماني عن شيء من تفسير القرآن ، فقال: «اتّق الله وعليك بالسداد»[1].

وجاء رجل إلى مالك بن أنس ـ إمام المالكية ـ فقال : يا أباعبدالله . «الرحمان على العرش استوى» كيف استوى؟ فوجد مالك من مقالته، وعلته الرحضاء، وأطرق برأسه. وبعد أن سرى عنه قال: «الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ،والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وإنّي لأخاف ان تكون ضالّاً ، ثمّ أمر بالرجل فأخرج من المسجد»[2] .

وفي رواية :وزاد «من عاد إلى هذا السؤال عنه أضرب عنقه» .

وسئل الأوزاعي عن تفسير هذه الآية ، فقال: «الرحمان على العرش استوى، كما قال عزوجل ، وإنّي لأراك ضالّاً».

وسئل ابن راهويه عن الإستواء : أقائم هو أم قاعد ؟ فقال: «لا يمل عن القيام حتى يقعد ، ولايملّ عن القعود حتّى يقوم ، وأنت إلى غير هذا السؤال أحوج»[3] .

تلك كانت طريقة السلف ممن كانت تعوزهم كفاءة التجوال في ميادين البحوث النظرية العريقة ،وبذلك سموا: «الصفاتية»، أي الذين أخذوا بظواهر الصفات وان لم يدركوا حقائقها. وتشعبت منهم «المشبهة» الذين أخذوا من ظاهر الصفات دليلاً على

← «واجب الوجود» ، كمايطلق على غيره ـ من سائر الموجودات جميعاً ـ : «ممكن الوجود». فوجوده تعالى وجود كامل غنيّ بذاته لذاته، وغيره محتاج فقير، ومستمدّ منه تعالى وتقدّس .

١ـ نفس المصدر السابق ص٥

٢ـ نفس المصدر ص٢٧. يقال : وجد على كذا اى غضب .والرحضاء ـ بضم الراء وفتح الحاء ـ عرق الحمى يتصبب من جبين المحموم .

٣ـ البرهان للزركشي ج١، ص٧٨

اثبات مفاهيمها المعهودة عندهم لذاته تعالى ،تشبيهاً بغيره من المخلوقين . ومنهم: «الكرامية» أصحاب أبى عبدالله محمدبن كرام [1] كانوا ممن يثبتون الصفات إلّا أنّهم انتهوا فيها إلى التجسيم والتشبيه. أمّا «الأشعرية» فكانت امتداداً للصفاتية على ماسنذكر.

وأمّا «المعتزلة» فكانوا انتفاضة فى وجه السلف الصفاتيين ، على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد تلميذى الحسن البصرى، جرى بين واصل واستاذه نقاش فى مسألة مرتكب الكبائر هل هو مؤمن أم هو خارج عن الايمان ، فقال واصل : لامؤمن ولا كافر ، والتزم بالمنزلة بين المنزلتين ، فطرّده الحسن ، فاعتزله واصل إلى ناحية المسجد ،وانضمّ إليه عمرو.

الصفاتية

كان أكثرية السلف يثبتون لله صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجود والإنعام والجلال والاكرام، ولايفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً. كما كانوا يثبتون مثل اليد والرجل والوجه والعين والنزول والصعود والرؤية، ويسمونها «صفات خبرية» أى أنّها صفات وردت فى الشريعة وجاء بها الخبر الصحيح . كانوا يعترفون بها وان لم يدركوا من حقيقتها شيئاً، وكانوا لايشبهون ذاته المقدسة بصفات المخلوقين اذ ليس كمثله شيء ، ولاكانوا يؤولونها . قالوا : عرفنا بمقتضى العقل أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء ، فلايشبه شيئاً من المخلوقات ، ولايشبهه شيء منها ،وقطعنا بذلك ، إلّا أنّا لانعرف معنى اللفظ الوارد فيه ، مثل قوله تعالى : «الرحمن على العرش استوى ـ طه : ٥» ، ومثل قوله : « خلقت بيدى ـ ص : ٧٥» ، ومثل قوله :

١ـ سنعقد فى آخر الكتاب فصلاً عن ترجمة من يأتى ذكره فى هذا الحقل من اصحاب الاراء الكلامية وأضرابهم ، فلانشوش على القارىء ذهنه بمراجعة عدة تراجم ربّما فى ذيل صفحة واحدة !

«وجاء ربك ـ الفجر :٢٢» ، الى غير ذلك . قالوا : ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها . بل التكليف قدورد بالاعتقاد بأنّه لاشريك له وليس كمثله شيء، وذلك قداثبتناه يقيناً[1].

من هؤلاء : مالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل ، وسفيان بن سعيد الثورى ، وداودبن على الإصفهانى ، ومحمدبن إدريس الشافعى ، وشريك بن عبدالله ، وابن أبى ليلى ، ومقاتل بن سليمان ، ومن تابعهم من أصحاب الحديث ، وسموا «الحشوية» أيضاً لأنّهم كانوا يحشون ملاء كتبهم بماعثروا عليه من أحاديث غثة وسمينة ولامبالاة[2].

حتى انتهى الزمان الى عبدالله بن سعيد الكلابى وأبى العباس القلانسى والحارث ابن أسد المحاسبى . وهؤلاء كانوا من جملة السلف ، إلّا أنهم باشروا علم الكلام ، وأيّدوا عقائد السلف بحجج كلاميّة ، وبراهين أُصولية . وصنّف بعضهم ودرس بعض ، حتى جرى بين أبى الحسن الأشعرى وبين استاذه أبى على الجبائى مناظرة فى مسألة «الصلاح والأصلح[3]» فتخاصما ، وانحاز الأشعرى إلى هذه الطائفة (الصفاتية من السلف) فأيدّ مقالتهم بمناهج كلامية ، وصار ذلك مذهباً لأهل السنّة والجماعة وانتقلت سمة «الصفاتية» الى «الأشعرية»[4].

١ـ الملل والنحل للشهرستانى ج١، ص٩٢

٢ـ راجع: الملل والنحل للشهرستانى ج١، ص٩٣ و١٠٤ . والمقالات والفرق لسعد ابن عبدالله الاشعرى، ص٦.

٣ـ تقول المعتزلة : ان الله لايفعل إلّا مافيه مصلحة، ولايكلف إلّا بما فيه مصلحة ، ولايختار إلّا ما هو الأصلح ، وذلك بمقتضى حكمته تعالى ، وانكرت الاشاعرة ذلك ، قالوا : إنّ الله يفعل مايشاء ويختار مايريد .

٤ـ الملل والنحل للشهرستانى ج١، ص٩٣

الحشوية

قال ابن المرتضى : «والحشوية لامذهب لهم منفرد ، وأجمعوا على الجبر والتشبيه، وجسّموا وصوّروا وقالوا بالأعضاء والجوارح للرّب تعالى ، وقالوا بقدم القرآن . قال الحاكم : ومنهم أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وداود بن محمد الكرابيسي. ومن متأخّريهم: محمد بن اسحاق بن خزيمة صنّف كتاباً في اعضاء الرّب تعالى عن ذلك[1] » .

وقال الجرجاني : «وسميت الحشوية حشوية لأنّهم يحشون الأحاديث التي لاأصل لها في الأحاديث المرويّة عن رسول الله ﷺ ،قال :وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه ، وتوصيفه تعالى،بالنفس واليد والسمع والبصر . وقالوا : إنّ كلّ حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أياً كانت الواسطة»[2] .

وهذا الاسم يطلق -كما قدّمنا- على جماعة السلفيين ، ممن أخذوا بظواهر الفاظ الشريعة ، فلزمهم القول بالجبر والتشبيه وإثبات الجوارح والأعضاء لله ،ممّا هو لازم الجسمية ، تعالى الله عن ذلك ، وتمسّكوا في ذلك بظواهر آيات وروايات رووها عن السلف، حسبما يبدو لك فيما نناقش الأشعري ومن حذا حذوه ، في القول بالجهة والجوارح والقول بالمعاني والاحوال الزائدة،على ذاته تعالى وتقدّس .

ووهم فريد وجدي فيما زعم :أنّ الحشوية فرقة من المعتزلة تمسّكوا بظواهر القرآن ووقعوا في التجسيم ، قال : وهم منسوبون إلى الحشو أي رذال الناس[3].

ولعلّه يقصد بهم أصحاب الحديث من أصحاب الأشعري، كانوا على مذهب الاعتزال، فانحازوا إلى الإنتصار لمذهب السلف الصفاتيين. وقد ذكر «الصفدي» :«أنّ الغالب في

١- الملل والنحل لابن المرتضى اليمني ص ١١ -١٢

٢- التعريفات للجرجاني ص ١٣٤،والحور العين ص ٢٠٤ ، ومعرفة المذاهب ص١٥ .

٣- دائرة معارف القرن العشرين ج٣ ص٤٤٧، مادة«حشو» .

الحنفية معتزلة ، والغالب فى الشافعية أشاعرة، والغالب فى المالكية قدرية (لعلّه يعنى جبرية) والغالب فى الحنابلة حشوية»[1] .

الأشعرية

أصحاب أبى الحسن على بن اسماعيل الأشعرى[2] نسبة إلى جده الثامن عبدالله ابن قيس أبى موسى الاشعرى[3] صاحب عمرو بن العاص فى قضية التحكيم. كان ابو الحسن فى بدء أمره معتزلياً ، و كان يتتلمذ على امام المعتزلة فى عصره أبى على محمد بن عبدالوهاب الجبائى[4] فخالفه فى مناظرة وقعت بينه و بين استاذه[5].

وفى نهاية المناظرة قال الجبائى للأشعرى : إنّك مجنون ، فقال: لا، بل وقف حمار الشيخ فى العقبة .فرجع الأشعرى عن عقيدة الإعتزال[6] وقام فى نصرة «الصفاتية»

١ـ الغيث المنسجم للصفدى ج٢ ص٤٧ . وراجع : ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٣ ص٧١ .ومن أشهر كتبهم كتاب التوحيد والصفات لابن خزيمة ،طبع ١٣٨٧هـ

٢ـ توفى سنة ٣٢٤ هـ.ومن اشهر كتبه «مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين» و«الابانة عن اصول الدين» .

٣ـ هلك سنة ٤٤ ،كان فى وقعة الجمل والياً على الكوفة ،امره اميرالمؤمنين ـ ع ـ عليها. فارسل اميرالمؤمنين يدعو أهل الكوفة لينصروه ، لكن أباموسى الاشعرى أمرهم بالقعود فعزله اميرالمؤمنين ،وكان منعزلا حتى أيّام التحكيم بصفين فخدعه عمرو بن العاص . فارتد ابوموسى إلى الكوفة ومات بها .

٤ـ توفى سنة ٣٠٣ هـ .لهفى مذهب الاعتزال مقالات مشهورة .

٥ـ المناظرة نقلها ابن خلكان فى ترجمة الجبائى برقم : ٦٠٧ ج٤ ص٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

٦ـ قال ابن الجوزى فى المنتظم ص ٧١ : «ان الاشعرى ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلا (اربعين سنة) ثمّ تركه واتى بمقالة خبط بها عقائد الناس». راجع : هامش الحضارة الاسلامية ج١ ص٣٧٨ .

وتاب من القول بالعدل وخلق القرآن ، فى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ، ورقى كرسياً ونادى بأعلى صوته: «من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا اعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشرّ أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم»[١] .

وأصبح أبو الحسن الاشعرى ـ بعد ذلك ـ شيخ أهل السنّة والجماعة[٢] وأخذ مذهبه ينتشر فى الناس انتشاراً بطيئاً حتى أوائل القرن الخامس ، حيث تدخلت الحكومة تدخلاً رسمياً لفض المنازعات المذهبية ، ففى عام ٤٠٨ ﻫ أصدر الخليفة القادر بالله العباسى كتاباً ضد المعتزلة ، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة فى الاعتزال ، و أنذرهم ـ ان خالفوا أمره ـ بحلول النكال والعقوبة . وانتهج السلطان محمود فى غزنة نهج الخليفة فى بغداد ، فى صلب المخالفين و نفيهم و حبسهم ، وأمر بلعنهم على المنابر . قال ابن جوزى : « و صار ذلك سنة فى الاسلام[٣] ».

١ـ راجع: ابن خلكان برقم: ٤٢٩ ج٣ ص٢٨٥. وقد خص الاشعرى من كتابه «مقالات الاسلاميين» فصولا مشبعة بعرض آراء المعتزلة .

٢ـ هذه السمة وسمه بها ارباب التراجم واصحاب الحديث من الحشوية ، لاسيما ابن تيمية الحرانى فى كتابيه : المنهاج والموافقة . وتقدم عن الشهرستانى فى الملل والنحل ج١ ص٩٣ .

٣ـ المنتظم لابن جوزى ص١٦٥ ب . قلت : ولعل التنكيل بامثال هؤلاء كانت سنة قبل ذلك . فهذا عثمان بن سعيد الدارمى يبتهج بمقتل الجعد بن درهم على يد خالد بن عبدالله القسرى . قال خطب خالد بواسط يوم الاضحى (عام ١١٨) فقال : ايها الناس ، ارجعوا فضحوا تقبل الله منا ومنكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليماً ، وتعالى عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . ←

و صدر في بغداد كتاب آخر سمي « الاعتقاد القادري » ، و ذلك في ١٧ المحرم سنة ٤٠٩ هـ وقرىء في الدواوين ،وكتب الفقهاء فيه: «ان هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر» جاء في الكتاب :«وهو القادر بقدرة ، والعالم بعلم أزلي غير مستفاد ، و هو السميع بسمع، والمبصر ببصر، متكلم بكلام ، لا يوصف إلّا بما وصف بها نبيّه ـ ص ـ ، وكلّ صفة وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله، فهي صفة حقيقية لامجـازية ،وأنّ كلام الله غير مخلوق ،تكلم به تكليما ،فهو غير مخلوق بكلّ حال ،متلواً ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً ،ومن قال: انه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر، حلال الدم بعد الاستتابة منه ... » [١].

وبهذه المهزلة الحمقانية انتهت سيطرة العقل على اصول العقايد ، ليخلفها تقليد مبتذل أعمى ، فلم يعد لبرهان التحقيق والنظر في اصول العقيدة الاسلامية مجال ، وأصبح الدين في أعرق اسسه فاقداً لبرهان العقل . هكذا أطاحوا بمعالم

→ انظر : «الرد على الجهمية» للدارمي ص٤ . والجعد هذا كان معتزلياً ، وهو اول من قال بخلق القرآن ، ونفى الصفات عن الذات ، وكان يقول بالقدر . نعم كانت له مخاريق فرجع عنها ، منها: انه جعل في قارورة تراباً وماء فاستحال دوداً وهوام ، فقال : انا خلقت هذا لاني كنت سبب كونه . فبلغ ذلك الامام جعفر بن محمد الصادق ـ ع ـ فقال : فليقل : كم هو ،وكم الذكران منه والاناث ، إن كان خلقه . وليأمر الذى يسعى الى هذا ان يرجع الى غيره . فبلغه ذلك فرجع. لسان الميزان لابن حجر ج٢ ص١٠٥ . والكامل لابن الاثير ج٤ ص٣٣٢ ـ بيروت. والاعلام للزركلي ج٢ ص١١٤ والملل والنحل ج١ ص٨٦ ،والبداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٣٥٠ .

١ ـ المنتظم ص١٩٥ ب ـ ١٩٦ أ .والحضارة الاسلامية لادم متز ج١ ص١٨١ ـ ٣٨٢ والبداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٦ ـ ٧ . وهامش تاريخ ابن الاثير ج٧ ص٢٩٩ ـ ٢٣٠ طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت .

الاسلام وشوهوامن سمعته المجيدة ، الى مظاهرشكلية جوفاء [1] .

واليك من آراء الأشعرى ما صريح لفظه :

* * *

قال أبوالحسن الأشعرى : « قولنا الذى نقول به و ديانتنا التى ندين بهـا : التمسك بكتاب ربناوبسنّة نبينا ـص ـ وماروى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، وبما يقول به أحمدبن محمدبن حنبل قائلون، ولما خالف قوله مخالفون...»

« وإنّ الله مستو على عرشه ، كما قال : الرحمان على العرش استوى. وإنّ له وجهاً ، كما قال : ويبقى وجه ربك . وإنّ له يدين بلاكيف ، كما قال: خلقت بيدى . وقال : بل يداه مبسوطتان . و ان لـه عينين بلا كيف ، كما قال : تجرى بأعيننا . وإنّ لله علماً ، كما قال : أنزله بعلمه . ونثبت له السمع والبصر، ولاننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج . ونثبت أنّ لله قوة ، كما قال : هو أشدّ منهم قوة . ونقول : إنّ كلام الله غيرمخلوق . و إنّ أحداً لايستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله . وإنّه لاخالق إلّاالله . وإنّ اعمال العبد مخلوقةلله مقدرة، كما قال : خلقكم وماتعملون » .

« وإنّ الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر اليهم وأصلحهم وهداهم . وأضلّ الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالآيات ، كما زعم أهل الزيغ والطغيان. ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين، ولوهداهم لكانوا مهتدين . وإنّ الله يقدر أن يصلح الكافرين حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنّه أرادأن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وطبع على قلوبهم » .

١ـ قال الدكتور احمد امين : « وفى رأيى ، لوسادت تعاليم المعتزلة الى اليوم ، لكان للمسلمين موقف آخر فى التاريخ غير موقفهم الحالى ، وقد اعجزهم التسليم ، وشلهم الجبر ، وقعد بهم التواكل » معرضاً بمذهب الاشعرى السائد على عامة المسلمين منذ العهد القادرى حتى اليوم . راجع : ضحى الاسلام ج٣ ص٧٠

« ونقول : إنّ كلام الله غيرمخلوق ، وإنّ من قال بخلق القرآن فهو كافر .

و ندين بأنّ الله تعالى يرى فى الآخره بالأبصار كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن الرسول ـ ص ـ و أن الكافرين محجوبون عنه ، كما قال : كلا إنّهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . و ان موسى سأل ربه الرؤية فى الدنيا ، و أن الله تجلّى للجبل فجعله دكاً ، فعلم بذلك موسى أنه لا يراه فى الدنيا» .

« وندين الله عزوجل بأنه يقلب القلوب بين اصبعين من أصابعه ، وأنّه عزّ وجل يضع السماوات على إصبع والأرضين على إصبع ، كما جاءت الرواية عن رسول الله ـص ـ » .

« ونصدّق بجميع الروايات التى يثبتها أهل النقل من النزول الى السماء الدنيا ، وان الرب عز وجل يقول : هل من سائل ، هل من مستغفر ، وسائرما نقلوه واثبتوه، خلافاً لماقال أهل الزيغ والتضليل » .

« ونقول : إن الله عز وجل يجىء يوم القيامة ، كما قال : وجاء ربك والملك صفاً صفاً . و إن الله يقرب من عباده كيف شاء ، كما قال : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . و قال : ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى »[1] .

وقال : « البارى تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حى بحياة ، مريد بارادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر . قال : وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى ، لا يقال : هى هو ، ولا : هى غيره ، ولا : لاهو ، ولا : لاغيره » .

قال : « وإرادته تعالى واحدة قديمة أزليّة ، متعلّقة بجميع المرادات من أفعاله الخاصّة وأفعال عباده ، من حيث إنّها مخلوقة له ، لا من حيث إنّها مكتسبة

---

١ ـ نقلنا هذه النصوص بألفاظها عن كتابه : «الابانة» ط٢ حيدرآباد ص٥ ـ ٩ . وقد ذكرها بعين ألفاظها أيضاً فى كتابه :«مقالات الاسلاميين» ج١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٥ عند حكاية جملة قول اصحاب الحديث واهل السنة ،فراجع.

لهم . قال : أراد الجميع ، خيرها وشرّها ، ونفعها وضررها . وكما أراد و علم ، أراد من العباد ما علم ، و أمر القلم حتى كتب فى اللوح المحفوظ . فذلك حكمه وقضاؤه و قدره الذى لا يتغيّر ولا يتبدّل . وخلاف المعلوم مقدور الجنس ، محال الوقوع »[1] ،

وسنذكر إستدلالاته على هذه العقائد عند مانعرض الايات .

المشبهة

حكى الأشعرى عن محمد بن عيسى أنه حكى عن مضر ، و كهمس، وأحمد الهجيمى : أنهم أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأن المسلمين المخلصين يعا نقونه فى الدنيا والاخرة ، إذا بلغوا فى الرياضة والإجتهاد إلى حدّ الإخلاص والاتحاد المحض .

وحكى الكعبى عن بعضهم : أنه كان يجوز الرؤية فى دار الدنيا ، وأن يزوروه و يزورهم . وحكى عن داود الجواربى أنّه قال : « اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عماوراء ذلك » وقال : « إنّ معبوده جسم ولحم و دم ، و له جوارح وأعضاء ، من يد ورجل و رأس ولسان وعينين و اذنين ، ومع ذلك جسم لا كالاجسام ، ولحم لا كاللحوم ، و دم لا كالدماء ، وكذلك سائر الصفات وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شىء » . وحكى عنه أنه قال : « هو أجوف من أعلاه الى صدره، مصمت ماسوى ذلك، وأنّ له وفرة (الشعر المتدلى على الأذنين) سوداء ، وله شعر قطط » .

وما ورد فى التنزيل من «الاستواء» و «الوجه» و «اليدين» و « الجنب » و «المجىء» و «الإتيان» و «الفوقية» وغير ذلك ، فقد أجروها على مايفهم من ظاهرها عند الإطلاق على الأجسام .

١- الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص ٩٥-٩٦

وكذلك ماورد في الاخبار من الصورة وغيرها، في قوله -ص- « خلق الله آدم على صورته » . و قوله : « حتى يضع الجبار قدمه في النار » . وقوله : « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمان » . و قوله : «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً » . وقوله : « وضع يده أو كفه على كتفي حتى وجدت برد أنامله » . الى غير ذلك ، أجروها على مايتعارف في صفات الاجسام .

ورووا عن النبي - ص - « ان الله تعالى اشتكى عينيه فعادته الملائكة » . و « بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه » . و « ان العرش ليئط من تحته كأطيط الرحل الحديد» . و «انه يفضل من كل جانب أربع أصابع » .

ورووا عن النبي -ص- أنه قال : «لقيني ربي فصافحني وكافحني ووضع يده بين كتفي حتى وجدت برد انامله » .

ومن المشبهة من مال الى مذهب الحلول الصوفي ، قالوا : يجوز أن يظهر الباري تعالى بصورة شخص - كما كان جبرئيل ينزل في صورة دحية الكلبي - وقد تمثل تعالى لمريم في صورة بشر سوي . وعليه حملوا قوله -ص-: « رأيت ربي في أحسن صورة » .[1]

الكرامية

أصحاب محمد بن كرام ، كان من سجستان ثم خرج الى نيسابور ،وادعى مخاريق زعمها ظواهر الشرع ، وكانت دعوته ذات صبغة سلفية ، فنصره السلطان محمود بن سبكتكين ، فصب البلاء على أصحاب الاعتزال والشيعة بالخصوص . قال الشهرستاني : « ونبغ رجل متنمس بالزهد [2] من سجستان ، يقال له : أبو عبدالله

١- الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ١٠٥-١٠٦-١٠٨

٢- التنمس : التستر بالشيء

محمد بن كرام ، قليل العلم ، قد قمش [1] من كل مذهب ضغثاً ، و أثبته فى كتابه ، و روجه على اغتام [2] غرجة وغور و سواد بلاد خراسان ، فانتظم ناموسه ، وصار ذلك مذهبا » [3] .

قال : « وانما عدد ناه من « الصفاتية » لانه كان ممن يثبت الصفات، الا انه ينتهى فيها الى التجسيم والتشبيه ـ قال : وهم طوائف بلغ عددهم الى اثنتى عشرة فرقة » .

« نص أبو عبدالله محمد بن كرام ، على أن معبوده استقر على العرش استقراراً ، وانه بجهة فوق ذاتاً ، واطلق عليه اسم «الجوهر» . وانه مماس للعرش من الصفحة العليا . وجوز الانتقال والتحول والنزول . واطلق بعضهم عليه تعالى لفظ « الجسم » ، والمقاربون منهم قالوا : نعنى بكونه جسماً انه قائم بذاته ».

« ومما أجمعت عليه طوائف الكرامية من اثبات الصفات ، قولهم : البارى تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حى بحياة ، شاء بمشيئة ، و جميع هذه الصفات قديمة ازلية قائمة بذاته تعالى » . و ربما زادوا «السمع والبصر» كما اثبته الاشعرى. و ربما زادوا «اليدين » و «الوجه» : صفات قديمة ، قائمة بذاته تعالى . وقالوا : «له يد لا كالايدى ، ووجه لا كالوجوه » . واثبتوا جوازرؤيته من جهة فوق دون سائر الجهات [4] .

١ـ اى أخذ من كل مذهب رذالته

٢ـ اى الهمج الرعاع

٣ـ يقال : ان اتباعه فى خراسان وحدها بلغوا اكثر من عشرين الفاً ،وكان له مثل ذلك فى ارض فلسطين ، راجع :الملل والنحل للشهرستانى ج١، ص٣١ و١٠٨ .

٤ـ الملل والنحل ج١، ص ١٠٨-١٠٩-١١٢

الجبرية

هم القائلون بعدم قدرة العباد على فعل مايريدون وترك مايكرهون، الأأن يشاء الله ذلك «هو خالق كل شيء» ويضيفون القدرة على احداث أفعال العباد، الى الله سبحانه فكل عمل خير أوشر اذا فعله العبد فانما هو من فعله تعالى حقيقة، وان العبد تجاه مايفعله أويتركه مسلوب الاختيار، كآلة فى يد الفاعل الحقيقى، وهو الله، قال تعالى: «خلقكم وماتعملون».

والجبرية صنفان: جبرية صريحة، وهى التى لاتثبت للعبد قدرة على عمل اطلاقاً، فتحريك اليد للاخذ والاعطاء، وحركتها الارتعاشية عندهم سواء. ونسب هذا الرأى الى «الجهم بن صفوان»، قال: «الانسان لايقدر على شيء، ولايوصف بالاستطاعة. وانما هو مجبور فى أفعاله، لاقدرة له ولاارادة ولااختيار، وانما يخلق الله تعالى الافعال فيه على حسب مايخلق فى سائر الجمادات، وانما تنسب اليه الافعال مجازاً كما تنسب الى الجمادات، فيقال: أثمرت الشجرة، وطلعت الشمس، وتغيمت السماء، واهتزت الارض. قال: والثواب والعقاب - أيضاً - جبر «لايسأل عمايفعل» كما أن التكليف كان جبراً، فالمؤمن انما يؤمن لاعن اختياره، والكافر انما يكفر لاعن اختياره. قال تعالى: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس [1]». ونحن نشك فى هذه النسبة التى جاءت من قبل خصوم كانوا لايتورعون الكذب والافتراء فى سبيل تفريق شمل المسلمين.

الثانية: جبرية ملتوية، وهى التى أثبتت لقدرة العبد أثراً ما فى الفعل على جهة الكسب لاالايجاد، لان الموجد لافعال العباد كلها هو الله تعالى، فقالوا: العبد مكتسب لفعله، وليس بقادر على ايجاده، وهذا القول منسوب الى «النجارية» أصحاب «الحسين بن محمد النجار» المعتزلى. نسب اليه أنه قال: «الله خالق أعمال

---

١ - الملل والنحل للشهرستانى ج١، ص٨٦ - ٨٧. والفرق بين الفرق لابن طاهر ص١٢٨

العباد ، خيرها وشرها ، حسنها وقبيحها ، والعبد مكتسب لها» . قال الشهرستانی : «أثبت النجار المقدرة الحادثة -أی قدرة العبد ،تجاه قدرة الله القديمة - تأثيراً .وسمی ذلك كسباً، علی حسب مايثبته الاشعری [1]» .

وهذا هومذهب الاشعری بالذات ،أثبت للعبد اكتساباً تجاه من أثبت له الاختيار والقدرة المستقلة. ولم يفصح عن مذهبه هذا مايكون حداً فاصلا بين الجبر والاختيار، ومن ثم حار اتباعه فی تفسير «الكسب» بوجه مقنع . وقد وجه القاضی عبد الجبار سؤاله الی القائلين بالكسب : «عقلونا معنی الكسب وخبرونا عنه . فان اشتغلوا بالتحديد ، قلنا : الشیء يعقل أوّلاً ثم يحد . ثم يقال لهم : وماهو الذی حددتم به الكسب ؟فان قالوا : ماوقع بقدرة محدثة ، قلنا : ماتعنون بقولكم : ماوقع بقدرة محدثة ؟فان اردتم به ماحدث ، فهو الذی نقوله ، وإن أردتم به ماوقع كسباً ، فعن الكسب سألناكم ، فكيف تفسرونه بنفسه ، وهل هذا الا إحالة بالمجهول علی المجهول؟ » [2] .

قال سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانی -بصدد توضيح الكسب-: «فان قيل: لامعنی لكون العبد فاعلا بالاختيار ،إلّا كونه موجداً لأفعاله بالقصد والارادة ، وقد سبق أن الله تعالی مستقلّ بخلق الأفعال وايجادها ،ومعلوم أنّ المقدور الواحد لايدخل تحت قدرتين مستقلتين ، قلنا : لاكلام فی قوّة هذا الكلام ومتانته ،إلّا أنه لماثبت بالبرهان أن الخالق هو الله تعالی ، وبالضرورة ان لقدرة العبد وارادته مدخلاً فی بعض الأفعال كحركة البطش ،دون البعض كحركة الارتعاش ،احتجنا فی التفصی عن هذا المضيق الی القول بأن الله خالق ، والعبد كاسب . وتحقيقه : ان صرف العبد قدرته وإرادته الی الفعل كسب ،وايجاد الله تعالی الفعل عقيب ذلك خلق ،والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين ،لكن بجهتين مختلفتين، فالفعل مقدور الله تعالی بجهة

١- الملل والنحل للشهرستانی ج١،ص٨٩

٢- شرح الاصول الخمسة للقاضی ص٣٦٦ -٣٦٧

الايجاد ، ومقدور العبد بجهة الكسب ، وهذا القدر من المعنى ضرورى ، وان لم نقدر على أزيد من ذلك فى تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله وايجاده ، مع ما للعبد فيه من القدرة والاختيار»[1].

انظر الى هذا التلوى فى التخريج ، فى حين أن مذهبهم فى الاستطاعة صراحة فى الجبر ، وأن الله تعالى مستقل فى ارادته فى ايجاد أفعال العباد ، ولم يبينوا ماذا كان الله مستقلا فى ايجاد أفعال العباد ، فما موضع تأثير قدرة العبد وارادته الخاصة؟ هذا شىء أعجزهم عن الاجابة الوافية ، وجعلهم فى مأزق مظلم لايدرون أين وجه المخرج .

واليك من عبارات « الأشعرى » الصريحة فى الجبر وسلب قدرة العبد على الاختيار .

قال : «وان الأشياء تكون بمشيئة الله عزوجل ، وان أحداً لايستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله ، ولايستغنى عن الله ، ولايقدر على الخروج من علم الله عزوجل ، وان لاخالق الا الله ، وان أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة ، كما قال تعالى : « خلقكم وماتعملون» .

قال: «وان الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر اليهم وأصلحهم وهداهم وأضلّ الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالآيات ـ كما زعم أهل الزيغ والطغيان ـ ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين . وان الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وطبع على قلوبهم»[2] .

وقال ـ فى المقالات ـ: «وقالوا ـ أى أهل السنة ـ : انه لايكون فى الارض من

١ـ شرح العقائد النسفية للتفتازانى ص٦٥ ـ٦٦ طبعة كابل ـ افغانستان .

٢ـ الابانة ص٦ـ٧

خير أوشر إلّاماشاءالله. وأنّ الأشياء تكون بمشيئة الله ، كماقال عزوجل :وماتشاؤون الاأن يشاءالله . وكما قال المسلمون : ماشاءالله كان ، ومالايشاء لايكون . وقالوا: إن أحداً لايستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله ـ أى الله ـ اويكون احد يقدر ان يخرج عن علم الله ،اوان يفعل شيئاً علم الله انه لايفعله» .

الى أن يقول : «ولكنه أراد أن يكونوا ـ أى الكافرون ـ كافرين كما علم ، وخذلهم وأضلّهم وطبع على قلوبهم»[1]

* * *

تلك مقالة الأشعرى الصريحة فى الجبر ، يرى من علمه تعالى بوقوع الأشياء سبباً حتميّاً للوقوع، ويكون العبد مرغما فى فعل ماعلم الله أنه يفعله. وزاد :أن العبد لاقدرة له على فعل، إلّا إذا كان الله قد أراد ذلك الفعل، فالعبد فى أفعاله تابع لإرادة الله ومشيئته الخاصة ، وماتشاؤون الاأن يشاءالله .

وهكذا زعم أن الكافر مجبر على الكفر ، لايستطيع الاقلاع عنه ، قال ـ فى مسألة «الاستطاعة» ـ : « ويقال لهم ـ أى للقدرية ، ويريد بهم المعتزلة ـ : أليست استطاعة الايمان نعمة من الله وفضلاً واحساناً ؟فاذا قالوا :نعم، قيل لهم : فماأنكرتم أن يكون توفيقاً وتسديداً .فلابدّ من الاجابة الى ذلك ، يقال لهم : فاذا كان الكافرون قادرين على الايمان ، فما أنكرتم أن يكونوا موفّقين للايمان ، ولو كانوا موفّقين مسدّدين لكانوا ممدوحين ، وإذا لم يجز ذلك لم يجز أن يكونوا على الايمان قادرين ووجب أن يكون الله ـ عزوجل ـ اختص بالقدرة على ايمان المؤمنين» .

وقال ـ فى نهاية المسألة ـ: «وإن سألوا عن قول الله عزوجل «وماخلقت الجن والانس الاليعبدون» فالجواب عن ذلك : ان الله عزوجل انما عنى المؤمنين ،دون الكافرين ، لانه أخبر أنه ذرأ لجهنم كثيراً من خلقه ،فالذين خلقهم لجهنم وأحصاهم

١ـ مقالات الاسلاميين ج١ ص٣٢٠ ـ٣٢١ .

وعدّهم ، وكتب بأسمائهم وأسماء آبائهم وامهاتهم ، غير الذين خلقهم لعبادته»[1]

وبمثل ذلك قال فى مسألة «الهداية والضلال» وغيرها من مسائل تكشف عن جزمه بمسألة الجبر فى التكليف والايمان والكفر ، وسلب قدرة العباد عما قدر الله لهم فى الأزل ،ثم يذكر روايات فى القدر يعتمدها فى تشييد مذهبه فى نفى الاستطاعة[2] .

* * *

وقد زعم بعضهم أن عويصة « مسألة الكسب » لا يمكن حلها الا بالكشف الصوفى، أما فى ضوء برهان العقل فانّها تبقى غامضة ابداً .

قال الشعرانى :«اعلم يا أخى أنّ هذه المسألة من أدقّ مسائل الاصول واغمضها ، ولا يزيل اشكالها إلّا الكشف الصوفى ، أمّا أرباب العقول من الفرق فهم تائهون فى ادراكها، وآراؤهم فيها مضطربة . اذ كان أبو الحسن الاشعرى يقول: ليس للقدرة الحادثة (يعنى قدرة العبد) أثر ، وإنّما تعلقها بالمقدور مثل تعلق العلم بالمعلوم فى عدم التأثير.

وقد اعترض عليه بأنّ القدرة الحادثة إذا لم يكن لها أثر فوجودها وعدمها سواء ، فان قدرة لايقع بها المقدور بمثابة العجز . ولقوة هذا الاعتراض لجأ بعض أصحاب الأشعرى إلى القول بالجبر ، ومال آخرون الى أنّ لهـا تأثيراً ما ، وهو اختيار الباقلانى ، لكنه لما سئل عن كيفية هذا التأثير ، فى حين التزامه باستقلال القدرة القديمة فى خلق الافعال ، لم يحر جواباً ، وقال : انا نلتزم بالكسب لانه ثابت بالدليل ، غير أنّى لا يمكننى الافصاح عنه بعبارة . وتمثل الشيخ أبو طاهر بقول الشاعر :

اذا لم يكن إلّا الأسنّة مركب فلا رأى للمضطر إلّا ركوبها

١- الابانة ص٥٧ -٥٩ . وراجع ص٦٢ و٦٥ و٦٧ فما بعد .

٢- المصدر ص٧٠ -٧٤

قال الشعرانى : وملخص الامر : أنّ من زعم أن لا عمل للعبد فقد عاند ، ومن زعم أنّه مستبد بالعمل فقد أشرك ، فلابدّ أنّه مضطرّ على الاختيار .

أما الكشف الصوفى فقد جاء فى كلام الشيخ محيى الدين ابن العربى - فى الفتوحات المكية باب ٢٢ - : ان صورة مسألة خلق الافعال صورة «لا» من حروف الهجاء ، فان الرائى لا يدرى أى الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر هو الألف ، ومن ثم يسمى هذا الحرف حرف الالتباس . وهكذا لم يتخلص الفعل الظاهر على يد المخلوق لمن هو ؟ ولكن ان قلت : هو لله ، صدقت . وان قلت للمخلوق مع الله ، صدقت . ولولا ذلك لما صح التكليف ولا اضافة العمل اليه بنحو قوله : « اعملوا » .

وقال - فى باب ٤٢٢ - : انما أضاف تعالى الأعمال الينا ، لأننا محل الثواب والعقاب ، وهى لله حقيقة . ولكن لما شهدنا الاعمال بارزة على أيدينا وادعيناها لنا ، أضافها تعالى الينـا بحسب دعوانا ، ابتلاء منه لأجل الدعوى . ثم اذا كشف الله تعالى عن بصيرتنا ، رأينا الافعال كلها لله تعالى ، ولم نر إلّا حسناً ، فهو تعالى فاعل فينا ما نحن العاملون . ثم مع هذا المشهد العظيم لابدّ من القيام بالأدب ، فما كان من حسن - شرعاً - أضفناه اليه تعالى خَلقاً ، وإلينـا مَحَلا . وماكان من سيىء أضفناه الينا باضافة الله تعالى ، فنكون حاكين قول الله عزوجل ، وحينئذ يرينا الله وجه الحكمة فى ذلك المسمى سوءاً فنراه حسناً من حيث الحكمة ، فيبدل الله سيئاتنا حسنات ، تبديل حكم لا تبديل عين.[1]

قلت : لا محيص عن رجوع مسألة الكسب - بهـذا التفسير - الى الجبر الخالص ، وليس إلّا فراراً من المطر الى الميزاب .

١- اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الاكابر ، للعارف الشيخ عبدالوهاب الشعرانى ج١ ص ١٣٩-١٤١ ، المبحث ٢٤ .

القدرية

هذا الاسم أطلقته المعتزلة على الأشاعرة ، باعتبار قولها بالقدر ، وأن الله تعالى هو الذى قدّر الشر والكفر ، وأن أفعال العباد خارجة عن استطاعتهم فى الاختيار ، بل هى مقدّرة بقدر الله و قضائه فى علمه الأزلى القديم ، حسبما تقدّم فى كلام الأشعرى .

وحاول الأشعرى ردّ هذا الاسم على المعتزلة ، بحجة قولهم بقدرة العبد على فعله واستطاعته فيما يختار . قال : « و زعمت القدرية ـ يريد بهم أصحاب الاعتزال ـ أنّا نستحق اسم القدر ، لأنّا نقول : ان الله عزوجل قدر الشر والكفر ، فمن يثبت القدر كان قدرياً ، دون من لم يثبته . يقال لهم : القدرى هو من يثبت القدر لنفسه ، دون ربه عزوجل ، وأنه يقدّر أفعاله دون خالقه . و كذلك هو فى اللغة ، لأن الصائغ هو من زعم أنّه يصوغ ، دون من يقول : انه يصاغ له . فلما كنتم ـ خطاب الى المعتزلة ـ تزعمون أنكم تقدّرون أعمالكم و تفعلونها دون ربكم ، وجب أن تكونوا قدرية ، ولم نكن نحن قدرية ، لأنّا لم نضف الاعمال الى أنفسنا دون ربنا ، ولم نقل : انا نقدّرها دونه ، وقلنا : إنها تقدّر لنا » .[1]

قال أبو الفتح محمد بن على الكراجكى : «لم نجد فى أسماء الفرق ماينكره أصحابه ويتبرأ منه أهله ، سوى القدرية . فاهل العدل ـ يعنى بهم فرقة الاعتزال ـ يقولون لأهل الجبر ـ يعنى بهم الاشاعرة ـ : أنتم القدرية ، وأهل الجبر يقولون لأهل العدل : أنتم القدرية . وإنّما تبرأ الجميع من ذلك ، لأنّهم رووا ـ من طريق أبى هريرة ـ عن النبى ـ ص ـ أنه لعن القدرية ، و قال : انهم مجوس هذه الأمة ، ان مرضوا فلاتعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم » .[2]

---

١ ـ الابانة ص ٦١

٢ ـ كنز الفوائد للكراجكى ص ٤٩

قلت : أما الحديث فمفتعل بلا ريب . قال أبو حاتم : « وهذا الحديث باطل». وقال النسائى : « هذا الحديث باطل كذب » . ويذكر ابن الجوزى حديث لعن القدرية ، ثم يعقب : «هذا حديث لا شك فى وضعه »[1].

أمّا استدلال الاشعرى فـلا يعدو مغالطة مفضوحة ، اذ « القدرية » نسبة الى القول بالقـدر ـ بفتحتين ـ كالجبرية نسبة الى القول بالجبر ، و ليس اشتقاقاً من القدرة بمعنى الاستطاعة . هـذا فضلا عن أنّ القياس بالصائغ ، قياس مع الفارق بعد أن كانت الكلمـة المبحوث عنها « قدرية » ـ بياء نسبة ـ لا « قادر » اسم فاعل .

وعليه فلو صحّ الحديث ـ ولم يصحّ ـ كان انطباقه على مذهب الأشعرى ، القائل بالقدر ، و سلب قدرة العباد، أولى من انطباقه على مذهب الاعتزال ، القائل باستقلال العباد فى اختياراتهم للافعال . فالقدرية ـ على ذلك ـ هم الجبرية من غير فرق .

* * *

واذ قد تبينا المذاهب التى عملت فى تشويه مفاهيم الاسلام ، وكانت السَبَبَ الأوّل فى طروء التشابه على كثير من أوجه آى القرآن الحكيم ، يجدر بنا التعرض لمذهب الاعتزال ـ أيضاً ـ الذى انتهج ـ الى حدّ ما ـ منهج العقل وتحكيم الفطرة فى درس القضايا الاسلامية . أما المـذهب الذى لم يخطىء منهج القرآن وبرهان العقـل الرشيد فى جميع قضاياه ، فهو مذهب « الامامية » الذى سار فى ضوء

١ـ راجع : الموضوعات لابن الجوزى ج١، ص ٢٧٥ـ٢٧٦ . وجاء فى مسند احمد و غيره مايناقض الحديث المذكور . فقد روى ابن عمر عن النبى ـ ص ـ انه قال : «لكل امة مجوس ، ومجوس امتى الذين يقولون : لا قدر . ان مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم » . المسند ج ٢ ص ٨٦

تعاليم الرسول ـ ص ـ مباشرة ، والخلفاء من أهل بيته الأطهار ، فلنتعرض لهما باختصار : ـ

المعتزلة

قلنا : انّ «الاعتزال» كان انتفاضة فى وجه « الصفاتية » ، تنزيهاً لساحة قدسه تعالى عما وصفه الجاهلون ، وتحكيماً لبرهان العقل الرشيد فى معرفة شؤون المبدع تعالى ، حيث العقل كان هو الاساس لمعرفة القديم تعالى وعدله وحكمته وسائر صفاته الازلية ، فلايجوز الاستدلال بالسمع ، فى هكذا مسائل ، على خلاف مايستدعيه حكم العقل [1] .

ونحن نورد اصول معتقداتهم حسب ماتبيّنه ألدّ خصومهم «أبو الحسن الاشعرى» [2] فقد كان معتزلياً قضى أكثر عمره (أربعين سنة) فى الاعتزال ، وعرف من اصول معتقداتهم الشىء الوافى ، مع مراجعتنا لكتبهم أيضاً .

قال : أجمعت المعتزلة على «أن الله واحد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولاشبح ، ولاجثة ، ولاصورة ولالحم ولادم ، ولاشخص ولاجوهر ولاعرض ، ولابذى لون ولاطعم ولارائحة ولامجسة ، ولابذى حرارة ولابرودة ولارطوبة ولايبوسة ، ولاطول ولاعرض ولاعمق ، ولااجتماع ولاافتراق ، ولايتحرك ولايسكن ولايتبعّض ، ولابذى أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ، ولابذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولايحيط به مكان ، ولايجرى عليه زمان ، ولاتجوز عليه المماسّة ، ولاالعزلة ، ولاالحلول فى الاماكن ، ولايوصف بشىء من صفات الخلق الدالّة على حدوثهم ، ولايوصف بأنّه متناه ، ولايوصف بمساحة ، ولاذهاب فى الجهات ، وليس بمحدود ، ولاوالد ولامولود ، ولاتحيط به الاقدار ،

---

١ ـ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص١٩٤ـ١٩٥ .

٢ ـ تقدم ـ ص ٦٠ ـ استهتاره بمذهب الاعتزال حسبما نقله ابن خلكان ج٣، ص٢٨٥ .

ولاتحجبه الأستار ، ولاتدركه الحواس ، ولايقاس بالناس ، ولايشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولاتجرى عليه الآفات ، ولاتحل به العاهات ، وكل ماخطر بالبال ، وتصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أوّلا ، سابقاً ، متقدّماً للمحدثات موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالماً قادراً حياً ، ولايزال كذلك . لاتراه العيون ، ولاتدركه الأبصار ، ولاتحيط به الأوهام ، ولايسمع بالاسماع . شيء لاكالأشياء ، عالم قادر حيّ لاكالعلماء القادرين الأحياء . وأنّه القديم وحده ، ولاقديم غيره ، ولاإله سواه ولاشريك له في ملكه ، ولاوزير له في سلطانه ، ولامعين على إنشاء ماانشأ وخلق ماخلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ، ولابأصعب عليه منه ، لايجوز عليه اجترار المنافع ، ولاتلحقه المضارّ ، ولاايناله السرور واللذات ، ولايصل اليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ، ولايجوز عليه الفناء ، ولايلحقه العجز والنقص . تقدّس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والابناء» . قال : فهذه جملة قولهم فى التوحيد [1] .

وعقد القاضي فصولاً فى أنّه تعالى عالم لابعلم ، قادر لابقدرة ، حيّ لابحياة ، أى إنّه تعالى إذا وصف بأنه عالم ، لايقصد من ذلك أنّ ذاته المقدسة قد اُضيف عليها هذه الصفات فصارت كذلك ، اذ ذلك يستدعى أحد اُمور وكلّها باطلة ، أمّا أنّها أيضاً قديمة مقرونة بذاته المقدسة ، فيلزم تعدّد القديم تعالى ، أوأنها حدثت على ذاته المقدسة ، فيلزم أن يكون ذاته المقدسة محلّاً للحوادث ، كمايلزم خلوه تعالى عن هذه الصفات قبل عروضها ، وهوأيضاً باطل [2] .

وقد اصطلحت الاشاعرة على تسمية مبادىء صفات الذات بالمعاني ومبادىء صفات الفعل بالأحوال . فأنكرت المعتزلة اقتران ذاته المقدسة لابالمعاني ولابالأحوال ،

١ـ «مقالات الاسلاميين» لابى الحسن الاشعرى ج١، ص٢١٦ـ٢١٧ .

٢ـ راجع : «شرح الاصول الخمسة» من ص١٨٢ فمابعد .

فقالوا : عالم لابعلم كما قالوا : متكلم لابكلام . وهذا معنى نفى الصفات عند المعتزلة، وقد أثبتها الأشاعرة . فقالوا : عالم بعلم ، متكلم بكلام ، حسبما تقدم .

فتوصيفه تعالى بأنّه عالم ـ عند المعتزلة ـ يعنى : أنّه لايجهل ، ولايحتجب عنه شيء . وتوصيفه بأنّه قادر ، يعنى : أنّــه لايعجز ، ولايعجزه شيء . لاأنّ صفة العلم أوصفة القدرة قـائمة بذاته ، كما فى المخلوقين . ومن ثم قـالوا : « خذ الغايات واترك المبادى » . فـان الغاية من العلم هو الانكشاف ورفع الحجاب عن المعلوم . وهذا شيء يقولونه بشأنه تعالى ، أمّاانه متّصف بمبادىءهذه النعوت فلا . ففى صفات الذات قالوا : انه تعالى عالم لابعلم بل بنفسه ،قادر لابقدرة بل بنفسه ، وفى صفات الفعل قالوا : متكلم لابكلام بل بخلقه الكلام ،ومن ثم قالوا :إنّ كلام الله مخلوق .

و زعمت الأشعرية أنّ ذاته المقدسة متّصفة بمبادىء هـذه النعوت ، كما فى المخلوقين ، لكن لا على نحو اتّصافهم بها ، فخبطوا وخلطوا ، ولم يحقّقوا من واقع مذهبهم فـى ذلك : ماذا أرادوا ؟ قال القاضى : « ثمّ نبغ الأشعرى ، و أطلق القول بأنّه تعالى يستحقّ هذه الصفات لمعان قديمة ، لوقاحته وقلة مبالاته بالاسلام والمسلمين » .[1]

واتفقت « المعتزلة » ـ أيضاً ـ على أنّ العبد قادر مختار فى أفعاله ، خيرها وشرها ، وهو الّذى يستحقّ ـ على ما يفعله ـ المدح والثواب ، أو الذّم والعقاب، وأنّ الرب تعالى منزه أن يضاف اليه شرّأوظلم وفعل الكفر والمعصية. وهذه الطريقة سمّيت بالاستطاعة ، وسمّاهم الاشعرية لذلك «قدرية» .

واتّفقوا على أنّ الرب تعالى لايفعل إلّا الصلاح والخير ، وأنّه يجب عليه تعالى ـ بمقتضى حكمته ـ رعاية مصالح العباد ، و هـو الّذى يعبر عنه بقاعدة

١ـ شرح الاصول الخمسة ص ١٨٣

اللطف . و سمّيت هذه الطريقة بالعدل . ويعبّر عن المعتزلة بالعدلية لذلك .

و من مبادىء المعتزلة تأويل ماورد فى الشرع مخالفاًفى ظاهره لمعتقدهم فى الأصول ، وبهذه الطريقة افترقوا عن « الصفاتيـة » من أصحاب الأشعرى ، و «الحشوية» من أصحاب الحديث ، ممّن احتفظوا على ظواهر الصفات . وسنعرض نماذج من هذا الاختلاف عندمانعرض الآيات.

الإمامية

قال الشيخ أبو الفتح محمدبن على الكراجكى ـ فى رسالة «البيان عن جمل اعتقاد أهل الايمان » ـ : « اعلم أنّ الواجب على المكلف أن يعتقد حدوث العالم بأسره ، وأنّه لم يكن شيئاً قبل وجوده ، و أنّ الله هـو محدث جميعه من أجسامه و أعراضه ، إلّا أفعال العباد الواقعة منهم ، فانهم محدثوها دونه سبحانه ، وأنّ الله قديم وحـده لا قديم سواه ، وأنه موجود لم يزل ، وباق لايزال ، و أنّـه شىء لا كالاشياء ، لايشبه الموجودات ، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات ، وان له صفات يستحقها لنفسه ، لا لمعان غيره ، وهى كونه حياً عالماً قادراً قديماً باقياً، لا يجوز خروجه عن هذه الصفات الى ضدها ، يعلم الكائنات قبل كونها ، ولا يخفى عليه شىء منها ، وأنّ له صفات أفعال لا يصح إضافتها اليه فى الحقيقة إلّابعـد فعلها ، وهى ماوصف به نفسه ، من أنّه خالق ورازق ومعط وراحم ومالك ومتكلم ونحو ذلك ، وأنّ لـه صفات مجازيات ، و هى ما وصف به نفسه ، من أنه يريد و يكره ويرضى و يغضب ، فارادته لفعل هى الفعل المراد بعينه ، و ارادته لفعل غيره هى أمره بذلك الفعل ، وليس تسميتها بالارادة حقيقة ، وانما هو على المجاز . وغضبه هو وجود عقابه ، ورضاه هووجود ثوابه » .

« وأنه لا يفتقر الى مكان ، ولا يدرك بشىء من الحواسّ ، وأنه منزّه عن القبائح ، لايظلم العباد وان كان قادراً على الظلم ، لانه عالم بقبحه غنىّ عن فعله.

قوله صدق ، ووعده حقّ ، لايكلّف خلقه ما لايستطاع ، ولا يحرمهـم صلاحاً لهم فيه الانتفاع ، ولا يأمر بما لايريد ، ولاينهى عمايريد ، وأنه خلق الخلق لمصلحتهم ، و كلّفهم لأجل منازل منفعتهم ، وأزاح فى التكليف عللهم ، وفعل أصلح الأشياء بهم ، وأنه أقدرهم قبل التكليف ، و أوجد لهم العقل والتمييز ، وأنّ القدرة تصلح أن يفعل بها الشيء وضدّه بدلاً منه » .

« وأنّ القرآن كلام رب العالمين ، وأنّـه محدث ليس بقديم ، ويجب أن يعتقد أنّ جميع ما فيه من الآيات التى يتضمّن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه ، وأنّه يجبرهم على طاعته أو معصيته ، أو يضلّ بعضهم عن طريق هدايته ، فان ذلك كلّه لايجوز حمله على ظاهره ، و أنّ له تأويلاً يلائم ماتشهد به العقول ، مما قدمنامن صفاته تعالى »[1]

قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : « أوّل الدين معرفته ، و كمال معرفته التصديق به ، و كمال التصديق به توحيده[2] ، و كمال توحيده الاخلاص له ، و كمال الاخلاص له نفى الصفات عنه[3] ، لشهادة كل صفة[4] انها غير الموصوف ، و شهـادة كل موصوف انه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه[5] فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن

١- كنز الفوائد للكراجكى ص١٠٩-١١١ .

٢- يعنى -ع- توحيد ذاته المقدسة عن التجزئة والتأليف .

٣- يعنى -ع- بنفى الصفات ، نفى مباديها ، فذاته المقدسة اذا وصف بعالم ، فلايعنى هذا التوصيف ان مبدأ العلم قائم بذاته كما فى سائر المخلوقين ، فهو تعالى عالم بذاته لابعلم كما تقول الاشعرية ، حى بذاته لابحياة ، قادر بذاته لا بقدرة . فهذه المبادىء من العلم والحياة والقدرة التى هى صفات زائدة على الذات ، منفية عن ذاته تعالى وتقدس .

٤- وهى الصفة الزائدة على الذات ، التى هى مبدأ اشتقاق الوصف .

٥- اى قال : انه تعالى عالم بعلم ، وحى بحياة ، وقادر بقدرة .

ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله [1] ،ومن جهله فقد أشار اليه ، ومن أشار اليه فقد حدّه [2] ومن حدّه فقد عدّه [3] ومن قال : فيم ؟ فقد ضمنه ، و من قال : علام ؟ فقد أخلى منه [4] ، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم [5] ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة [6] ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير اذ لا منظور اليه من خلقه [7] ...» [8] .

وقال - عليه السلام - : « لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، و لكن تدركه القلوب بحقائق الايمان ، قريب من الاشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة ...» [9] .

و ستبدو الطريقة المثلى التى مشت عليها الامامية ، فى ضوء هدى اهل البيت - عليهم السلام - وضوحاً أكثر ، عند ما نعرض الآيات ، و اسلوبنا فى

١- لانه زعم ان الواجب القديم مركب ، وهو جهل فاضح بذاته المقدسة المتنزهة عن التركيب المستلزم للحدوث والفناء .

٢- لان الاشارة تستدعى الجهة ، وهو تعالى منزه عن الحدود والجهات .

٣- لان القول بالجهة فى ذاته المقدسة لا ينفى امكان تعدده تعالى .

٤- لان القول بجهة فوق يستدعى الاخلاء عن سائر الجهات .

٥- اشارة الى قدمته تعالى .

٦- لان المقارنة والمزايلة تستدعيان الجهة ، وهو تعالى منزه عنها ، فلا يخلو منه مكان ولا يحويه مكان .

٧- لان السمع والبصر عبارتان عن علمه تعالى القديم .

٨- هى اولى خطبة من نهج البلاغة .

٩- من كلام له فى جواب من سأله : هل رأيت ربك ؟ نهج البلاغة ج ١ ص ٣٣٤ .

التخرج عن متشابهاتها .

* * *

و بعد فيجب علينا تنويع المتشابه من الآيات ، على حسب نوعية الشبهة التى وقعت فيها أرباب المذاهب السالفة ، فى فصول متمايزة ، نذكر فى كل فصل مايخصّه من آيات .

نماذج من :

متشابهات القرآن

صفات ذات

أجمعت الامة الاسلامية على أن لله تعالى صفات ذاتية قديمة ، كان حياً عالماً قادراً لم يزل و لايزال . انما الكلام فيما تؤديه هذه النعوت من مفاهيم ، فذهب أهل العدل والتنزيه الى أنّ هذه الاوصاف هي عين ذاته المقدسة ، لابصفة زائدة على الذات ، فهو تعالى حي بذاته ، عالم بذاته ، قادر بذاته. وينزهونه عن اقتران مبادىء هذه النعوت بذاته المقدسة ـ بأن يكون حيّاً بحياة ، عالماً بعلم ، قادراً بقدرة، كما زعمه الاشعري ـ لأنّ اقتران ذاته بهذه المبادىء ـ وهي قديمة فرضاً ـ يستدعي تعدد القديم تعالى عن ذلك .

و من ثم فمعنى أنّـه حيّ : أنه يدرك ويريد ويفعل . ومعنى أنّه عالم : أنّ الاشياء لديه شهود، لايحتجب عنه شيء . و معنى أنّه قادر : أنه يفعل ما يريد ، لا يعجزه شيء ولايحول دون ارادته شيء .

و هذا التفسير التنزيهي لجميع أوصافه تعالى يتلخص في قولهم : « خذ الغايات ودع المبادئ» . وهذا هـو مرادهم من نفي الصفات . انهم يصفونه تعالى بما وصف به نفسه ، وينزهونه عن اقتران مبادئها بذاته المقدسة .

وقال الاشعرى : انّه تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة ... الخ و تشبث بظواهر آيات ، منها :

١ـ «فاعلموا أنّما انزل بعلم الله ـ هود : ١٤» .

٢ـ «لكن الله يشهد بما انزل اليك أنزله بعلمه ـ النساء : ١٦٦» .

٣ـ «وماتحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه ـ فاطر: ١١ ، وفصلت: ٤٧».

٤ـ «ولا يحيطون بشىء من علمه ـ البقرة : ٢٥٥» .

٥ـ «أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدّ منهم قوة ـ فصلت : ١٥».

٦ـ ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ـ الذاريات: ٥٨» .

قال : وزعمت الجهمية أنّ الله عزوجل لاعلم له ولا قدرة ولاحياة ولاسمع ولابصر له ، وأرادوا أن ينفوا أنّ الله عالم قادر حى سميع بصير ، فمنعهم السيف ، فأتوا بمعناه . لانهم اذا قالوا : لاعلم لله ولاقدرة له فقد قالوا : انه ليس بعالم ولاقادر وهذا انما أخذوه عن أهل الزندقة والتعطيل .

وقال ـ ردّاً على المعتزلة ـ :أتقولون ان لله علماً سابقاً بالاشياء ؟ فان قالوا : نعم ، فقد أثبتوا العلم ، وان قالوا : لا، قيل لهم : هذا جحد منكم لقول الله عزوجل: «أنزله بعلمه» . وذكر بقية الآيات .

واستدل ـ أيضاً ـ بأنا وجدنا اسم «الحى» مشتقاً من «الحياة» و«العالم» مشتقاً من «العلم» و«القادر» من «القدرة» وهلمّ جراً. فلاتخلو أسماء الله اما مشتقة لافادة معانيها اولمجرد التلقيب بلاافادة معنى . ولاشك أنّ الثانى غير جائز . فثبت أنها مشتقة ومفيدة لمعانيها ، اذن فمعنى عالم : انه ذوعلم ، ومعنى قادر : انه ذوقدرة ، ومعنى حى : انه ذوحياة . فقدوجب اثبات العلم والقدرة والحياة لله عزوجل ، كما

هو الشأن في اثبات هذه المعاني فينا عندذكر هذه الأوصاف لبعضنا [1] .

* * *

وقدتبين مماقدمنا فسادهذه المغالطة الأشعرية ،اذلايريد المعتزلة : انه تعالى لاعلم له ، بل يفسرونه بما لايستلزم زيادة صفة على ذاته المقدسة . ومن ثمّ فقد حار الأشعري تجاه شبهة : «تعدد القديم» ولجأ الى قولة مبهمة ، عجز هووأصحابه عن إفصاحها ، قالوا : « وهي لاهو ولاغيره » [2] واعترض عليهم بانه رفع للنقيضين ، بل هو في الحقيقة جمع بينهما ، فأجابوا بما يزيد تيهاً في الضلال ، وشناعة في المقال [3] .

صفات فعل

وهكذا أجمعت الامة على أنه تعالى مريد ، متكلّم ، خالق ، رازق ، محي، مميت . واصطلح أهل الكلام بتسميتها صفات فعل ،أي انها أفعاله تعالى ،قديتصّف بهاوقدلايتصف ،لانه قديفعلهاوقدلايفعلها ،فهو تعالى قدير يدشيئاًفهو مريدله،وقدلايريده فليس بمريدله ، وهو قبل أن يخلق خلقاً لم يكن خالقاً لـه ، ولمّا خلق صح اطلاق اسم الخالق عليه تعالى ، وهكذا .

وقدذهب أهل العدل والتنزيه الى أنّ مبادىء هذه الصفات غير قائمة بذاته المقدسة، لأنّها أحوال وحوادث ، والله تعالى متنزه أن يكون محلاًّ للحوادث .

وذهب الأشعري الى أنّ مبادىء هذه الصفات ـ أيضاً ـ قائمة بذاته المقدسة،

١ـ الابانة ص٤٤ ـ٤٨

٢ـ الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٩٥ . وشرح العقائد النسفية ص٣٢

٣ـ راجع : شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص٣٩. وراجع :ص٦٣

فهو تعالى متكلم بكلام هو قائم بذاته تعالى ، مريد بارادة أزلية قائمة بذاته . ومن ثم زعم أنّ كلامه تعالى قديم ، لأنّ القائم بذات قديمة قديم .

قال أهل العدل والتنزيه :معنى أنه تعالى يتكلّم :أنه يخلق الكلام المسموع، وهى عبارة عن اهتزازات وذبذبات تحدث فى أمواج الهواء يخلقها الله تعالى عند ارادة الكلام ،وأماغيره فيتكلم بآلة ،وان ذاك التموج يحصل بقرع اللسان والأسنان. قالوا : وارادته تعالى هو فعله ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحوها . ومن ثمّ قالت المعتزلة : كلام الله مخلوق وقالت الأشاعرة : غير مخلوق ،فكان ذلك الجدل العنيف ، وقدذهبت فى طيه نفوس .

استدلت الأشاعرة بأنّها صفات اشتقاق ، فلابدّ من اثبات مباديها للذات ،كما اذا وصفنا بها بعضنا . قال التفتازانى : «ضرورة امتناع اثبات المشتقّ للشىء من غير قيام مأخذ الاشتقاق به» [1] .

وتشبث الأشعرى بقوله تعالى : «وكلّم الله موسى تكليماً» ـ قال :والتكليم هو المشافهة بالكلام ، ولايجوز أن يكون كلام المتكلم حالاًّ فى غيره ،مخلوقاً فى شىء سواه ، كما لايجوز ذلك فى العلم [2] .

وبقوله تعالى :«ألا له الخلق والامر ـ الاعراف:٥٤»،دلت الآية على أنّ الأمر شىء غير الخلق . ثم قال تعالى :«ومن آياته أن تقوم السماء والارض بامره ـ الروم:٢٥»قال: وامر الله ـ هنا ـ هو كلامه تعالى . وبما أنّ الامر غير مخلوق ـ كما فى الآية الاولى ـ فوجب ان يكون كلامه الذى هو أمره غير مخلوق [3] .

وبذلك أثبت قدم كلامه تعالى وقيامه بذاته المقدسة .

١ـ شرح العقائد النسفية ص٤٤ .

٢ـ الابانة ص٢٢ .

٣ـ الابانة ص١٩ .

وأظننا فى غنى عن تفنيد هذا الاستدلال المزيف ، بعدأن كان أشبه بسفاسف الكلام .

صفات تنزيه

كان ماسبق صفات ثبوتية ،وتسمى «صفات جمال» ، وفى قبالها صفات سلبية، تسمى «صفات جلال» ، وهى التى تجل ذاته المقدسة عن الاتصاف بها ، واتفق أهل العدل على تنزيهه تعالى عنها .

أما أهل التجسيم فزعموا من ذاته المقدسة جسماً متركباً من أعضاء وجوارح، وأثبتوا له الجهة والمكان والحركة ، وامكان رؤيته بالأبصار ، ومسّه بالأيدى فى مصافحة ومعانقة . قالوا : إنه متربّع على كرسىّ عرشه فوق السماوات ، وسوف ينزل الى الملاء يوم القيامة ليراه المؤمنون بعيونهم ، ويكشف عن ساقه ويضع رجله فى جهنم فتقول : يارب ، قط قط .

هذا قول أوائلهم ، وقد شنع عليهم هذا القول، فقالوا: انه جسم لا كالأجسام، وله لحم لا كاللحوم ، ودم لا كالدماء ... الخ .

وقد تقدّم كلامهم عند الكلام عن المجسمة .

ولا كلام لنا معهم الآن ، وقد انقطع دابرهم ، ولم يبق منهم سوى نقل آثار. !نما الكلام مع الأشعرى الذى لم يبتعد عن القول بالتجسيم كثيراً ، سوى أنه قال بمقالتهم فى شىء من اللف والالتواء، وصريح كلامه –فى الابانة والمقالات– هو الالتزام بالتجسيم ، أخذاً بظواهر آيات وروايات .وقد بقيت آراؤه سائدة حتى هذا العهد . لاسيما فى أوساط مرتجعة لم تنضج فكرتهم عن التوحيد والنبوات ، سوى نظرات

سطحية وشكلية محضة وغالبيتهم من المتأثرين بتعاليم ابن تيمية الحرانى (٦٦١-٧٢٨)[١]
فى دعوته السلفية حسب مصطلحه[٢].

---

١ - له ثرثرة غريبة فيما يكتبه . راجع كلامه المسهب فى اثبات الرؤية ، ورده على من تمسك لنفى الرؤية بقوله تعالى : « لا تدركه الابصار ». وكذلك اثبات الجهة والفوقية ، تعالى الله عن ذلك . (منهاج السنة ج ١ ص ٢١٥ و ٢١٦) .

ولابن بطوطة حكايـة غريبة فى رحلته (ج ١ ص ٥٧) عند ما حل بدمشق ، يقول : وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين ابن تيمية كبير الشام ، يتكلم فى الفنون ، الا أن فى عقله شيئاً . وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظهم على المنبر وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فـأمر بأشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى ، وقال : ان هذا الرجل قال كذا وكذا ، وعدد ما أنكر على ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يـدى قاضى القضاة . وقال قاضى القضاة لابن تيمية : ماتقول ؟ قال : لا اله الا الله . فأعاد عليه ، فأجاب بمثل قوله . فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواماً . وصنف فى السجن كتاباً فى تفسير القرآن، سماه البحر المحيط فى نحو أربعين مجلداً . ثم ان امه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه ، فأمر باطلاقه . الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية ، وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ، ويذكرهم . فكان من جملة كلامه ان قال : « ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا » ونزل درجة من درج المنبر . فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء ، وأنكر ما تكلم به ، فقامت العامـة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدى والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه شاشية حرير ، فـانكروا عليه لباسها ، واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك : فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار الامراء وصلحائهم ، فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بامور منكرة ، منها : المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف لا يقصر الصلاة ، وأشباه ذلك . وبعث العقد الى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات فى السجن .

---

٢ - اما المتأثرون بفكرته السلفية فيروقهم التسمية بالتيمية انتماء الى اسم صاحب الدعوة . ←

اما اليوم فقد اشتهروا بالوهابية [1] اتباع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب النجدي (١١١٥-١٢٠٦) [2].

قال ابن الموصلي مفتخراً بانتسابه لعقيدة ابن تيمية :

ان كان اثبات الصفات جميعها   من غير كيف موجباً للوم
واصير تيمياً بذلك عندكم   فالمسلمون جميعهم تيمي

(آخر رسالة ابن شيخ الحزاميين في عقيدة اهل السنة والجماعة، المنشورة في مجموعة «اربح البضاعة» طمكة المكرمة ص٥٥).

١- نسبة الى والد صاحب الدعوة ، وزعم الالوسي انها نسبة غير صحيحة ، نسبها اليهم خصومهم ، وهم منها براء (تاريخ نجد ص١١١) لكنا وجدناهم يطلقون على انفسهم هذا الاسم فخاراً بصاحب النسبة . راجع : كتاب «الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية» مجموعة خمس رسائل، ترتيب الشيخ سليمان النجدي. يقول في اولها : «من رسائل ائمة نجد وعلمائها في الدعوة الوهابية لتجديد الاسلام» ص٤ .وراجع :٢٧و ٨٦و٩٣ يقول شاعرهم :

نعم نحن وهابية حنفية   حنيفية نسقى لمن غاظنا المرا

٢- صاحب الحركة الوهابية في ربوع نجد ، قامت على اغارة بلاد المسلمين وتكفير وقتل ونهب ، باسم الاصلاح الديني السلفي ، ولم تكن سوى امتداد مرير للوحشية الجاهلية الاولى نكوصاً على عقب . وقد استغلها الاستعمار الغربي ــ المنتهض حديثاً ذلك العهد ــ تمزيقاً لبلاد الاسلام وتفريقا لكلمة المسلمين .تحقيقاً لمبدأ« فرق تسد » . والحركة ــ شاءت ام لم تشأ ــ فانها خدمت الاستعمار الكافر اكبر خدمة ممكنة في الذهاب برونق الاسلام المجيد ، «ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه ــ سبأ :٢٠» . «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ــ الكهف : ١٠٤» . ←

واليك من تشبثات أبى الحسن الاشعرى دليلاً على مذهبه فـى التجسيم والتشبيه :

الرؤية :

١ـ قال ـفى قوله تعالى :«وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـ القيامة :٢٣»ـ يعنى رائية . اذليس يخلو النظر من وجوه ثلاثة ، اما نظر الاعتبار ، كما فى قوله تعالى : « أفلاينظرون الى الابل كيف خلقت ـ الغاشية : ١٧ » . أونظر الانتظار ، كما فى قوله : «ماينظرون الاصيحة واحدة ـيس :٤٩» . أونظر الرؤية . أما الأول فلايجوز ،لأن الآخرة ليست بدار اعتبار .و كذا الثانى ، لأن النظر اذا ذكر مع الوجه فمعناه نظر العينين اللتين فى الوجه . ولأن نظر الانتظار لايقرن «الى» ، كما فى

← والعقيدة الوهابية فى الصفات هى العقيدة السلفية الظاهرية ، قال شاعرهم :

لله وجه لايحد بصورة ولربنا عينان ناظرتان
وله يدان كما يقول الهنا ويمينه جلت عن الايمان
كلتا يديه يمين وصفها فهما على الثقلان منفقتان
كرسيه وسع السماوات العلى والارض وهو يعمه القدمان
والله يضحك لاكضحك عبيده والكيف ممتنع على الرحمان
والله ينزل كل آخر ليلة لسمائه الدنيا بلاكتمان
فيقول : هل من سائل فاجيبه ؟ فانا القريب اجيب من ناداني

(من قصيدة عبدالله بن محمد الاندلسى المالكى ، نشرت فى «اربح البضاعة فى معتقد اهل السنة والجماعة » ص ٣٢ جمع على بن سليمان آل يوسف ـ منشور مكة المكرمة سنة ١٣٩٣) ،

قوله تعالى:«فناظرة بم يرجع المرسلون ـ النمل :٣٥» .فان قال قائل: لم لايجوز أن يراد «الى ثواب ربها ناظرة» ؟ ، قيل له : ثواب الله غيره ، وقد قال تعالى : الى ربها ناظرة ، ولم يقل : الى غيره ناظرة . والقرآن على ظاهره . وليس لنا أن نزيله عن ظاهره ، الا لحجة . ألا ترى أنه لما قال: صلوا لى واعبدونى لم يجز أن يقول قائل :انه أراد غيره، ويزيل الكلام عن ظاهره ، فلذلك لما قال : الى ربها ناظرة ،لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة .

٢ـ وتشبث ـ أيضاً ـ بقوله تعالى : «رب أرنى أنظر اليك ـ الاعراف :١٤٣» قال : دلت الآية على أن الله تعالى يرى بالأبصار ، اذ لايجوز أن يكون موسى عليه السلام قد سأل ربه ما يستحيل عليه ، وقد ألبسه الله جلباب النبوة وعصمه بعصمة المرسلين . واذا لم يجز ذلك على موسى عليه السلام فقد علمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلاً ، وأنَّ الرؤية جائزة على ربنا عزوجل .

٣ـ قال : ودليل آخر ، مما يدل على جواز رؤية الله بالأبصار ، قوله تعالى لموسى : «فان استقر مكانه فسوف ترانى ـ الاعراف : ١٤٣» . فلما كان الله قادراً علي أن يجعل الجبل مستقراً ، كان قادراً على الامر الذى لو فعله لرآه موسى . فدل ذلك على أن الله تعالى قادر على أن يرى نفسه ، وأنه جائز رؤيته . فان قال قائل : فلم لاقلتم ان هذه الآية تبعيد للرؤية ؟،قيل له :لو أراد الله تبعيد الرؤية ، لقرن الكلام بما يستحيل وقوعه ، ولم يقرنه بما يجوز وقوعه ،فلما قرنه باستقرار الجبل ،وذلك أمر مقدور لله عزوجل ، دل ذلك على أنه جائز أن يرى الله . ألا ترى أن الخنساء لما أرادت تبعيد صلحها لمن كان حرباً مع أخيها، قرنت الكلام بمستحيل ،فقالت:

ولا اصالح قوماً كنت حربهم　　　حتى تعود بياضاً حلكة القار [1]

قال : والله تعالى انما خاطب العرب بلغتها ، وما نجده مفهوماً فى كلامها ومعقولاً فى خطابها ، فلما قرن الرؤية بأمر مقدور جائز ،علمنا أن رؤية الله بالابصار

١ـ الحلكة :شدة السواد .والقار : القير

جائزة غير مستحيلة .

٤ـقال :ودليل آخر،قال تعالى:«للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ـيونس:٢٦» قال أهل التأويل : الزيادة الموعودة هناهو النظر اليه تعالى ، قالوا : ولم ينعم الله عزوجل أهل جنانه بأفضل من نظرهم اليه[1] .

٥ـ وهكذا قوله تعالى : « لهم فيها مايشاءون ولدينا مزيد ـق : ٣٥ » قيل : المزيد هو النظر الى الله عزوجل[2] .

٦ـ وقال تعالى : «تحيتهم يوم يلقونه سلام ـالاحزاب :٤٤» قال : واذا لقيه المؤمنون رأوه .

٧ـ وقال تعالى : « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ـ المطففين : ١٥ »

١ـ قال ابن كثير : وافضل ماينعم به اهل الجنة واعلاه هو النظر الى وجهه الكريم ،وقد روى ذلك عن ابى بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وعبدالله بن العباس ، وسعيد بن المسيب وعبدالرحمان بن ابى ليلى، وعبدالرحمان بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ،وعطاء والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن اسحاق ، وغيرهم من السلف والخلف . وقد وردت فيه احاديث كثيرة .التفسير ج٢ ص٤١٤ . وراجع : الطبرى ـ التفسير ـ ج١١ ص٧٣ ـ٧٥. وغيره من اصحاب التفسير بالمأثور .وهكذا ارباب التفسير الصوفى كالقشيرى فى«لطائف الاشارات» ج٣ ص٩١ .والخواجا عبدالله الانصارى فى تفسيره العرفانى .راجع ملخصه للامام احمد الميبدى ج١ ص٤٢٩ . يقول الخواجا :«وشرط است كه ميزبان ديدار خودرا ازمهمانان بازنگيرد» .

٢ـ قال ابن كثير : فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى :انها النظر الى وجه الله الكريم . وعن انس بن مالك قال: يظهر لهم الرب عزوجل فى كل جمعة . التفسير ج٤ ص٢٢٨

فحجبهم (أى الكفار) عن رؤيته ، ولايحجب عنها المؤمن .

٨ـ واستدل ـأيضاً ـ بماروى عن النبى ﷺ قال : «ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لاتضارون فى رؤيته» .قال : وهو حديث متواتر [١] .

٩ـ قال : ودليل آخر على جواز الرؤية : انه لاموجود إلّاوجائز أن يريناه الله، ماسوى المعدوم . فلما كان الله موجوداً مثبتاً كان غير مستحيل أن يرينا نفسه وأيضاً فانه تعالى يرى الاشياء ، وليس يصح أن يرى أحد الاشياء الااذاصح أن يرى نفسه، واذا كان الله لنفسه رائياً، فجائز أن يرينا نفسه، كما أنه تعالى لما كان عالماً بالاشياء، كان عالماً بنفسه ، ولما كان عالماً بنفسه ، جاز أن يعلمناها .

قال:ومن زعم أن الله لايجوز أن يرى بالابصار ، يلزمه أن لايجوّز أن يكون الله رائياً ولاعالماً ولاقادراً ، لان العالم القادر الرائى ، جائز أن يرى ، وقدقال تعالى : «اننى معكما أسمع وأرى ـطه : ٤٦» .

١٠ـ وأجاب عن قوله تعالى :«لاتدركه الابصار ـالانعام : ١٠٣» بأنه يحتمل أن يكون لاتدركه الابصار فى الدنيا ،وتدركه فى الآخرة ، لأن رؤية الله تعالى أفضل اللذات وأفضل اللذات يكون فى أفضل الدارين .قال: ويحتمل :لاتدركه أبصار الكافرين

١ـ قال التفتازانى : رواه أحد وعشرون من اكابر الصحابة . شرح العقائد النسفية ص٥٨ . و«لاتضارون» موافق لرواية احمد فى مسنده ج٣ ص١٦ . قال الاعمش : لاتضارون اى لاتمارون . وفى رواية البخارى فى جامعه ج١ ص١٤٥ باب ١٦، وص١٥٠ باب٢٦ من المواقيت :«لاتضامون» وفى نسخة :«لاتضاهون» . قال ابن الاثير : لاتضامون ـ بالتشديد ـ اى لايزدحم بعضكم بعضاً فى رؤيته .

وذكر الامام الرازى نحو هذه الادلة ـنقلا عن اصحابه الاشاعرة ـفى تفسيره الكبير ج١٣ ص١٣١ ـ١٣٢ .

المكذبين [1] .

هذه عقيدة الاشعرى ـشيخ أهل السنة والجماعة ـفى جواز رؤيةالله تعالى بالأبصار ، وعبثاً حاول الشيخ محمد عبده تأويل كلامه و كلام أصحابه ، بارادة : كمال المعرفة بالذات [2] حيث أحس بشناعة مذهب أسلافه ، فحاول تغطيتها بهكذا تأويل مفضوح ، وقد صرّح شيخهم الاشعرى بأنه النظر بهاتين العينين اللتين فى الوجه [3] وتقدم نقله .

وقد سبق الاشعرى الى هذه الشنعة امامهم الآخر أبوسعيد عثمان بن سعيد الدارمى (٢٠٠ ـ٢٨٠) ، فى الة ردّبها على الجهمية فيما زعم . حشاها باخبار زعمها أدلة قاطعة على اثبات الرؤية والجهة والمكان والحركة فى ذاته المقدسة ، تعالىالله عنذلك .

منهامارواه عنشيخ بغدادى لايعرفه بالاسنادإلى أنسبن مالك ، قال :يتجلى لأهل الجنة فى كل جمعة، تفسيراً لقوله تعالى : «ولدينا مزيد» . وباسناد آخر فيه ضعف وجهالة ،عنجابربن عبدالله الانصارى ،يحكى ـفيما زعم ـحالة المسلمين يومالقيامة ، قال :ونحن على كوم يوم القيامة،اذ يأتينا ربنا ،فيقول : ماذا تنتظرون فنقول : ننتظر ربنا ، فيقول: أناربكم ، فنقول : حتى ننظر اليك . فيتجلىلنا وهو يضحك ، فنتبعه الى الجنة .

وروى عن أبىبكر فى قوله تعالى : «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : النظر الى وجهالله [4] الى غيرها من مخاريق وترهات ألصقوها بساحة قدس النبى

١ـ الابانة ـبابالكلام فىاثبات رؤيةالله تعالى بالابصار فى الاخرة ـص١٠ ـ١٩ ط٢ حيدرآباد الدكن .

٢ـ تفسير المنار ج١١،ص١٢٨ ـ١٧٨

٣ـ الابانة ص١١.وتقدمفىص٩٠

٤ـ رسالة « الردعلى الجهمية» للدارمى ص٤٥ ـ٥٨

ـ صلى الله عليه وآله ـ وكبار صحابته ، وهم منها براء . وانما اولع بها أصحاب الحديث من الحشوية ، حسبما تقدم [1] .

نعم تسترت الأشعرية بسفسفة اخرى ، اتخذوها شعاراً لمذهبهم ، فقالوا : انه تعالى يرى بلا كيف ، وله وجه بلا كيف ، وله يد بلا كيف ، وهلمّ جراً وحاولوا بذلك الفرار عما يوجه اليهم من اعتراض : كيف يرى ؟ وهل تكون رؤيته تعالى كرؤية بعضنا بعضاً ؟ أرادوا بذلك إلجاءهم الى محاذير التجسيم والجهة والاشارة. فقالوا : لا يسأل بكيف . ومن ثمّ هجاهم المعتزلة بأنّه قول بلا علم ، ورواية بلا دراية، قال الزمخشري : ثم تعجب من المتسمين بالاسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة (يعني بهم الاشاعرة) كيف اتخذوا هذه العظيمة (جواز النظر اليه تعالى) مذهباً، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة [2] فانه من منصوبات أشياخهم (أى حبائلهم المغرية) . والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموا هواهم سنة ... لجماعة حمر لعمرى موكفة [3]

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة [4]

* * *

أما أهل العدل والتنزيه فكانت نظرتهم فى توحيد الله نظرة فى غاية السمو والرفعة، فطبقوا قوله تعالى : «ليس كمثله شىء» أبدع تطبيق وفصلوه خير تفصيل ، وحاربوا الانظار الوضعية التى تثبت لله تعالى جسماً ، له وجه ويدان وعينان ، وله جهة هى الفوقية وأن له عرشاً يستوى عليه ، وأنه يرى بالأبصار ، وأنه خلق آدم بيده ، الى

١ـ راجع : الطبرى ـ التفسير ـ ج١١ ص٧٣ ـ ٧٥ . والدر المنثور ج٣ ص٣٠٥ ـ ٣٠٧

٢ـ البلكفة : مخفف «بلا كيف» مصدر جعلى . كالحوقلة والبسملة .

٣ـ الوكاف : البرذعة وهو ما يلقى على ظهر الدابة.

٤ـ راجع : تفسير الكشاف ج٢ ص١٥٦ ذيل الاية : ١٤٣ من سورة الاعراف .

آخر ماقالته الاشاعرة وأذنابهم من المشبهة والكرامية ـ حسبما تقدم ـ فأتى أهل العدل وسموا على هذه الأنظار، وفهموا من روح القرآن تجريد الله عن المادية، فساروا فى تفسيرها تفسيراً دقيقا واسعاً، وأوّلوا مايخالف هذا المبدأ، وسلسلوا عقائدهم تسلسلاً منطقيا. فاذا كان الله تعالى ليس مادة، ولا مركباً من مادة، فليس له يدان ولا وجه ولا عينان، لان ذلك يدل على جزء من كل، والله تعالى ليس كلاً مركباً من أجزاء، وإلّا كان مادة. واذا كان كذلك فليس تدركه عيوننا التى خلقت، وليس قدرتها إلّا أن ترى ماهو مادة، وماهو فى جهة، وهكذا ساروا فى هدى العقل جريئين، ويقررون مايرشد اليه فى شجاعة وإقدام. وهم أمام النقل يسلمون مايوافق منها البرهان العقلى ويؤولون مايخالفه بكل صراحة، من غير خوف من النتائج مهما كانت، متى اطمأنوا الى أنهم يسايرون العقل، فالعقل هو الحكم عندهم بين الآيات المتشابهات، وهو الحكم على الحديث، ليقرر عدم صحته ان لم يوافق العقل ولم يحتمل التأويل [1]

وهم انما يؤولون المتشابه على حساب تحقيق المحكم من العقل والنقل، على عكس الاشاعـرة، الذين يعمدون الى تأويل المحكم على حساب التحفظ على ظاهر المتشابه، كما تقدم تأويل أبى الحسن الاشعرى قوله تعالى: « لاتدركه الأبصار » على حساب التحفظ على ظاهر قوله تعالى: « الى ربها ناظرة ». هذا هو الفارق الاساسى بين الفريقين ـ فريق أهل العدل والتنزيه، وفريق أهل السنة والجماعة ـ حسب تعبيرهم هم.

* * *

وقد فصل الكلام ـ فى نفى رؤيته تعالى ـ القاضى عبدالجبار فى كتابه: « شرح الاصول الخمسة [2] » وأوفى البحث حقه. وهكذا الخواجا نصير الـدين

---

١ ـ راجع: ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ج٣ ص٦٨ـ٦٩.

٢ ـ باب نفى الرؤية ص٢٣٢ ـ٢٧٧.

الطوسي في مختصره: «تجريد الاعتقاد»[1] بايجاز وايفاء، وغيرهما من اصول معتمدة.

وملخص الكلام في نفي الرؤية: أن النظر بالعين، عبارة عن اشعاع نوري يحيط بالجسم المرئي، الواقع في جهة مقابلة لعين الرائي، فتنطبع فيها صورته الخارجية. وهذا مستحيل عليه تعالى، لانه يستدعي تجسيماً وجهة ومحدودية، وقبولاً للاشارة الحسية، وكل ذلك باطل - بشأنه تعالى - في ضرورة العقل ومحكم الكتاب العزيز، قال تعالى: «ليس كمثله شيء - الشورى: ١١». ولاشك أن التجسيم ومستتبعاته تشبيه محض. وكذا قوله تعالى: «لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير - الانعام: ١٠٣». والادراك المقرون بالبصر يعني النظر بالعين، كما أن الادراك بالقلب عرفان نفسي مجرد. وبما أن الآية مدح بشأن من الشؤون الكلية الالهية، فدلالتها على تأبيد النفي واضحة، ولاسيما بتلك الصيغة العامة.

وأما الآيات التي استشهد بها الأشعري، فان لها تأويلات صحيحة ومعقولة لم يعرفها أصحاب الحشو، واليك بايجاز: -

* * *

١- أما الآية الاولى: «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة - القيامة: ٢٣» فانها مسوقة لبيان الحصر، نظراً لتقديم الجار. فهي تصف موقف المؤمنين في ذلك اليوم الرهيب، انهم على رغم أهواله الجسام مسرورون مبتهجون، ليس لشيء الا لأنهم منصرفون عن غيره تعالى، ومتوجهون بكل وجودهم الى الله، تحقيقاً لقوله تعالى: «انا لله وانا اليه راجعون». فلا نظر منهم الا اليه سبحانه، وقد صار علم يقينهم عين يقين. وانكشف لهم من أسرار الملك والملكوت ما كانوا يعلمونه بالدلائل والآيات.

والنظر الى كذا، لايختص بمعنى تحديق العين اليه، بل يستعمل بمعنى القصد اليه وكمال التوجه اليه أيضاً، كما يقال: ان هذه القصيدة تنظر الى قصة كذا، أو ان هذه الاية تنظر الى مناسبة كذا. أي تهدف في مضمونها. وهكذا يقال: نظري اليك، أي رجائي منقطع عمن سواك، كقول الشاعر:

١- بشرح العلامة الحسن بن المطهر الحلي ص١٦٣-١٦٥.

واذا نظرت اليك من ملك والبحر دونك جرتني نعماً

وقال آخر :

انى اليك لماوعدت لناظر نظر الفقير الى الغنى الموسر

ولم يقصدا سوى الرجاء والتوجه بكل وجودهما ، لا بالجارحة.

قال جار الله الزمخشرى : سمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر ، حين غلق الناس أبوابهم وأووا الى مقائلهم ، تقول : « عيينتى نويظرة الى الله واليكم » تقصد راجية ومتوقعة لاحسانهم اليها .وقال :قولهم:أناأنظر الى الله ثم اليك ،معناه: أتوقع فضل الله ثم فضلك [1] .

قال الامام الرازى ـ فى قول الشاعر :

وجوه يوم بدر ناظرات الى الرحمان تنتظر الفلاحا

ـ: ان الرواية الصحيحة :يوم بكر. والمراد من هذا الرحمان مسيلمة الكذاب.

قلت : فليكن ، بعد أن لم يكن النظر هنا هو تحديق العين . بل الرجاء وتوقع الفرج، سواء أكان هو رحمان العالمين أم رحمان اليمامة .

فمعنى الآية ـ على هذا ـ ان المؤمنين يوم القيامة فى بهجة وسرور ،لأنهم لايتوقّعون النعمة والكرامة الا من عند ربهم ،وقد تحققت أمانيهم بعين شهود .

* * *

٢ـ وهكذا قوله تعالى ـ حكاية عن سؤال موسى عليه السلام ـ : «رب أرنى أنظر اليك ـ الاعراف : ١٤٣» لايدل على جواز الرؤية .لأن سؤاله ذلك كان من تجاهل العارف ، على أثر ضغط من قومه الجاهلين ،فقد جاء فى التفسير : ان قومه أبوا أن يصدّقوه الا أن يسمعهم كلام الرب تعالى ، فاختار منهم سبعين ليصحبوه الى الميقات ، فلما كلمه الله تعالى وأسمعهم أيضاً ،أبوا إلاأن ينظروا اليه يتكلم فيرونه جهاراً ، وبذلك أحرجوا من موقف نبى الله موسى عليه السلام تجاه ربه ومسؤولية رسالته

١ـ راجع : الكشاف واساس البلاغة .

الى بنى اسرائيل . روى أنه عليه السلام لم يستطع التفوه بتلك العظيمة ـ لمكان علمه باستحالتها ـ غير أنّ موقفه ذاك قدأحرجه ، فقال : يارب انك قد سمعت مقالة بنى اسرائيل ، وأنت أعلم بصلاحهم . فأوحى الله اليه : ياموسى ، سلنى ما سألوك ، فلاأؤاخذك بجهلهم . فعند ذلك تجرّأ موسى عليه السلام على ابداء تلك المسألة .

ودليلاً على ذلك ماجاء فى سورة النساء ـ١٥٣ـ : «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» .

فقد جاءت تبعة تلك المسألة العظيمة موجهة الى بنى اسرائيل ، فكانوا هم الذين طلبوا من موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ، فأحرجوه الى أن يسأل ربه فيما طلبوا .

وأصرح منها قوله تعالى فى سورة البقرة ـ٥٥ـ : «واذقلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون» . وهذا يؤكد ماجاء فى الرواية : ان الذين سألوه هذا السؤال كانوا السبعين الذين اختارهم لميقاته تعالى فأخذتهم الرجفة لهيبة مانزل بهم من صاعقة النكال ، فجعل بعضهم ينظر الى بعض وهم يتهافتون على الارض ، ثم بعثهم الله ، بعد التضرع والتذلل من موسى عليه السلام قال تعالى : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بمافعل السفهاء منا ـ الاعراف :١٥٥» أى بما فعل السفهاء منا من التجاسر على سؤال الرؤية . فاضافة ذلك الى السفهاء تدل على أنه كان بسببهم ومن أجلهم ، وانما سألوا مالايجوز عليه [١] .

وأما قوله : «سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين» فانما هو تعليم لقومه كما فى قوله تعالى : «ومالى لاأعبد الذى فطرنى واليه ترجعون ، ءأتخذ من دونه آلهة

١ـ راجع فى ذلك : امالى المرتضى ج٢ ص٢١٥ مجلس ٧٠ . ومتشابهات القرآن لابن شهر آشوب ج١ ص٩٦ .وقصص الانبياء للنجار ص٢٩٢ .وشرح الاصول الخمسة للقاضى ص٢٦٢ . ومتشابه القرآن ـ ايضاً ـ له ج١ ص٢٩١.

ان يردن الرحمن بضر لاتغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ،اني اذاً لفي ضلال مبين، اني آمنت بربكم فاسمعون ـ يس :٢٢-٢٥» .ومن ثم جاء في موضع آخر:«أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين. واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة انا هدنا اليك ـ الاعراف: ١٥٥-١٥٦ ».فكما ان السؤال كان عن قومه ، كانت التوبة ـ أيضاً ـ استغفاراً لقومه .

وقد حمل بعضهم الرؤية في سؤال موسى عليه السلام على العلم الضروري الذى لاحاجة معه الى اقامة برهان،وهذا هوجواب أبي الهذيل العلاف المعتزلي ،واختاره وأيده سيدنا الطباطبائي ـ دام ظله ـ [1] . لكن القاضي عبدالجبار ، وكذا الشريف المرتضى ، لم يرتضياه ، أما القاضي ، فقال : لان الرؤية انما تكون بمعنى العلم متى تجردت ،فأما اذا قارنها النظر فلاتكون بمعنى العلم. وأما الشريف المرتضى ،فقال: لان ذكر الجهرة في الرؤية لاتليق الا برؤية البصر دون العلم . قال:وهذا يقوى أن الطلب لم يكن للعلم الضروري .

وربما يقال : ان موسى ـ ع ـ سأل الرؤيـة لنفسه ، ولا يمتنع أن لا يعرف النبي استحالته، أو يطلب زيادة معرفة بزيادة الأدلة وترادفها.

وأجاب القاضي بأن الانبياء لايجوز عليهم أن يجهلوا ما يرجع الى معرفة الله تعالى وشؤونه ، لما في ذلك من النفرة عنهم ، حيث يؤدى الى جواز أن يسألوا عن ذلك فيجهلوه ويعرفه غيرهم [2] .

* * *

٣ـ وأما الاستدلال بامكان استقرار الجبل دليلاً على امكان الرؤية ، فيرده : أنّ التعليق في الاية كان على نفس الاستقرار و فعليتـه ، لا على امكانه « فان استقر مكانه فسوف تراني » ، فاذا علم انه لا يستقر ، علم أنه تعالى لايرى .

١ـ تفسير الميزان ج ٨ ص ٢٥٢ .

٢ـ متشابه القرآن للقاضي ج ١ ص ٢٩٥ .

ثم من أين علم المستدل امكان الاستقرار للجبل عند تجلى عظمة الله له ، فلعل الكون بأسره لا يطيق استقراراً تجاه تلك العظمة و الجبروت ، اذ التناسب بين جبروت كبريائه تعالى و دائرة نطاق هـذا الكون ، لأكبر مما بين الجمل و سم الخياط ـ الاعراف : ٤٠ ـ فكما أنّ ذلك غير ممكن فكذا هذا بالأولى اذا مالاحظنا الفارق بين النسبتين .

* * *

وأما التجلى فى قوله تعـالى : « فلما تجلى ربه للجبل » فهو اظهار عظيم قدرته وتجلى جبروته تبارك و تعالى ، بما أوجب دكاً فى الجبل ، اذ لم يستطع المقاومة . والتجلى : شدة ظهور الشيء و وضوحه ولو بالدلائل والآثار ، قال الشاعر .

تجلى لنـا بالمشرفية والقنا　　　وقد كان عن وقع الأسنة نائياً

أراد أنّ تدبيره فى تخطيط القتال دل عليه حتى علم أنّه المدبر له ، وان كان نائياً عن وقع الأسنة ولم يحضر الحرب بنفسه . فأقام ما ظهر من دلالة فعله مقام مشاهدته، وعبر عنه بأنه تجلى منه .

ويستعمل « تجلى » بمعنى « جلى » أيضاً ، كمـا يقال : تحدث وحدث . و تصدق و صدق . فيجوز فى معنى « تجلى ربه للجبـل » : « جلى شيئاً من عظيم قدرته للجبل » . كما قال تعالى : « لا يجليهـا لوقتها الا هو ـ الاعراف : ١٨٧ » [١] .

على أنه لابد من الحمل على هذا المعنى ، بعد أن لم تكن المقابلة مع الجبل أمراً معقولا ، ولا كانت للجبل تلك الرؤية التى تحققها المقابلة المذكورة ، والتى يرومها المستدل بالاية . فلابد أنه بمعنى اظهار القدرة و الجبروت ، التى لا يطيق المقاومة أمامها أىّ موجود !

١ـ راجع : امالى الشريف المرتضى ج ٢ ص ٢٢٠ . ومتشابه القرآن لابن شهر آشوب ج ١ ص ٩٨ .

وليس يجب فى المعلق على شىء أن يكون من جنس المعلق عليه ، كما فى قول الخنساء الآنف . وكما فى قوله تعالى : « ولايدخلون الجنة ـ كناية عن التنعم بنعيم الرضوان ـ حتى يلج الجمل ـ و هو حبل غليظ ـ فى سم الخياط ـ الاعراف : ٤٠ » . إذ يكفى لابداء امتناع المعلق مجرد امتناع الشىء المعلق عليه أياً كان جنسه .

* * *

٤ ـ أما الزيادة فى قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ـ يونس : ٢٦ » فهى تضعيف الحسنات ، بقرينة ما بعدها : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ـ : ٢٧ » . فهى نظيرة قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها الأنعام : ١٦٠ » . وقوله تعالى : « ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله ـ فاطر : ٣٠ » . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

والتفسير بزيادة المثوبة والأجر هو المأثور عن أئمة أهل البيت ـ ع ـ[1] وعن كبار الصحابة والتابعين بأسانيد جياد[2] فعن ابن عباس قال: « هو مثل قوله: ولدينا مزيد . يقول : يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله وقال:« من جاء بالحسنة فله عشر امثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون » .وعن علقمة بن قيس، سئل عن الزيادة ، فقال : « ألم تر أن الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها». و قال قتادة : « كان الحسن يقول فى هذه الآية : الزيادة بالحسنة عشر أمثالها الى سبعمئة ضعف » .وقال مجاهد : « زيادة مغفرة ورضوان » . وهكذا .[3]

---

١ ـ راجع : البرهان فى تفسير القرآن للمحدث البحرانى ج ٢ ص ١٨٣ و ج ٣ ص ٢٨٥ ط ٢ .

٢ ـ راجع : جامع البيان للطبرى ج ١١ ص ٧٦ .

٣ ـ الدر المنثور للسيوطى ج ٣ ص ٣٠٦ . والطبرى ج ١١ ص ٧٦ .

* * *

وماورد في تفسيرها بالنظر الى وجه الله ، مطروح رأساً ، للاسباب التالية .

أولاً ــ مخالفتها مع ظاهر القرآن ، لان تناسق لفظ الآية يستدعي أن تكون الزيادة من جنس المزيد عليه كما لو قيل اعطيك من هذا العسل رطلاً وزيادة ، ولايحسن لو كان أراد من الزيادة كتاباً أو مسحاة مثلا . وهكذا في الآية ، وعدهم الله الجزاء الحسنى ، وهو أجر عملهم ، وزيادة فضل على الأجر والجزاء .

نعم لو كان اريد من الزيادة من غير الجنس لوجب التصريح ،فيقول :وزيادة كتاب مثلا ، أما اذا اطلق ــ كما في الآية ــ فلايحسن الامن جنس المزيد عليه . هذا ماتستدعيه بلاغة اللفظ في ذاته .

وثانياً ــ انها معارضة بمثلها ، بــل وأصح منها سنداً وأصرح دلالة ، كما تقدم .

وثالثاً ــ مباينتها مع سائر الآيات التي كانت تصلح تفسيراً لهذه الآية ،والقرآن اذا كان هو المفسر لنفسه ، فلا حاجة الى غيره مما يتهم شأنه ، وقد تقدمت الاشارة الى هذا التفسير الذاتي .

ورابعاً ــ ضعف أسانيدها طراً بما لايصلح حجة اطلاقاً ، فضلا عن صلاحية تفسير كلام الله الحكيم .

اذ في طريق الاسناد ــ الى أبي بكر وكذا الى حذيفة من الاصحاب [1] ــ ابو اسحاق ، وهو : عمرو بن عبدالله السبيعي الهمداني، محدث كوفي طعن في السن [2]

١ــ روى ابوجعفر الطبري ، عن ابن بشارعن عبدالرحمان عن اسرائيل عن ابي اسحاق عن عامر بن سعد عن ابي بكر . وبنفس الاسناد ، عن اسرائيل عن ابي اسحاق عن مسلم بن نذير عن حذيفة . جامع البيان ج ١١ ص ٧٣ــ٧٤ .

٢ــ قد جاوز المئة . ولد على عهد عثمان ، ومات حدود سنة مئة وثلاثين .

حتى خرف وكان يختلط فى الحديث . وكان قبل ذلك مدلساً يروى عمن لم يره أو كان يسقط الواسطة ، و من ثم رفضوه . قال أهل الحديث : لم يفسد حديث أهل الكوفة غير أبى اسحاق . و فرض له معاوية العطاء ثلاثمئة فى الشهر. وكان أحمد بن حنبل لا يرى الرواية عنه ، قال : لان الذين حملوا عنه أدركوه فى مؤخرة حياته [١] .

ثم ان الذى يروى عنه هوحفيده « اسرائيل » ـ تارة عنه بلاواسطة ،واخرى بواسطة أبيه « يونس » عن جده « أبى اسحاق » . اذنفهل ياترى من صلة بين هذا النسب الاسرائيلى النزعة ، وهذه الرواية التى هى أشبه بالاسرائيليات ؟ ! وهلّاتتهم هذه الاسرة المتأثرة ببيئة اسرائيلية فى تسمية أبناءها، ألاتتأثر فى عقائدهاوأفكارها عن الألوهية والتوحيد ؟ !

وهكذا بقية الاسانيد هى أضعف وأوهن ولانطيل [٢] .

قال ابن شهر آشوب : وأما الحديث المروى فى ذلك عن أبى بكرفاسناده غير مرضى [٣] قلت : ومن ثم فان محمد بن اسماعيل البخارى ، عند تفسيره لسورة يونس من جامعه ، عفى تلك الروايات رأساً ، و فسر الزيادة ـ كماعن مجاهد ـ بزيادة مغفرة ورضوان [٤] .

* * *

١ـ راجع : الجرح والتعديل لابن ابى حاتم الرازى ج ٦ ص ٢٤٣ . وميزان الاعتدال للذهبى ج ٣ ص ٢٧٠ . وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٨ ص ٦٦ .

٢ـ تجدها مجموعة فى جامع البيان ج ١١ ص ٧٤ ، و هى تربو على ٢٠ اسناداً كلهاضعاف .

٣ـ متشابهات القرآن ومختلفه ج ١ ص ١٠٠ .

٤ـ صحيح البخارى ـ تفسير سورة يونس ـ ج ٦ ص ٩٠ .

٥ـ وقوله تعالى : « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ـ ق : ٣٥ » قدفسرتها الآية « فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بماكانوا يعملون ـ السجدة: ١٧». يقول تعالى: أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشر [١] .فيجد المؤمن من نعيم الجنة مالم يكن يترقبه ولا كان يتصوره ، فتقر عينه بتلك النعم الجسام التى منحه الله فوق ماكان يشتهيه، و زيادة عما كان يتوقعه. وفي سورة الزخرف: « وفيهاماتشتهيه الأنفس و تلذ الأعين ـ ٧١ » . فالاول : ما كان يتصوره من نعيم و ينتظره ، و ان كان قد اتى به متشابهاً ـ البقرة : ٢٥ـ والثانى : ما لم يكن يتوقعه ، وستقرعينه برؤيتها، وهذا هوالمزيد الموعودبه.

أما تفسيره بالنظر الى وجه الله ـ كما زعمه المستدل ـ فشىء غريب عن ظاهر اللفظ و متناف مع سائر الايات ، والكلام فيه عين الكلام فى آية يونس ، فلا نعيد .

* * *

٦ـ وقوله تعالى: «تحيتهم يوم يلقونه سلام ، و اعدلهم أجراً كريماً ـ الاحزاب : ٤٤ » لا يعنى اللقاء بالنظر اليه تعالى وجهاً لوجه . اذ نفس التعبير وارد بشأن الكفار المنافقين أيضاً: « فأعقبهم نفاقاًفى قلوبهم الى يوم يلقونه ـ التوبة : ٧٧ » وقد قال تعالى بشأنهم : « كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ـ المطففين: ١٦ » . وانما عنى بيوم التلاق ـ غافر : ١٥ ـ يوم القيامة ، وهو يوم الرجعى ـ العلق : ٨ ـ « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون ـ البقرة : ٤٦» و « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ـ الانعام : ٣١ » . فيوم اللقاء هو يوم الرجوع والانتهاء اليه تعالى : « انالله وانا اليه راجعون ـ البقرة : ١٥٦ » : سواء المؤمن

١ـ حديث قدسى مأثور . راجع : الطبرى ج ٢١ ص ٦٥ . و مجمع البيان ج ٨ ص ٣٣١ .

والكافر ، « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ـ الانشقاق : ٦».

والمقصود من هذا اللقاء هو الانتهاء الى حيث لا حكم الاحكمه تعالى ، « ويعلمون أن الله هو الحق المبين ـ النور : ٢٥ » . « وله الملك يوم ينفخ فى الصور ـ الانعام : ٧٣ » . « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ـ غافر : ١٦» . « الملك يومئذ لله يحكم بينهم ـ الحج : ٥٦ » فكل من المؤمن والكافر يلاقى جزاء عمله، انخيراً فخير، وان شراًفشر . «فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون ـ المؤمنون : ١٠١ » . «ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فىالارض فمن ينصرنامن بأس الله انجاءنا ـ غافر : ٢٩ » .

ومن ثم جاء التعبير بلقاء يوم الحساب ولقاء الاخرة أيضاً ، كناية عن نفس المعنى ، ففى سورة الاعراف : « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ـ ١٤٧ » وفىسورة الكهف : « اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ـ ١٠٥ » . «فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ـ الزخرف: ٨٣» . « انى ظننت انى ملاق حسابيه ـ الحاقة : ٢٠» . وفى: سورةالبقرة: «يظنون أنهم ملاقوا ربهم ـ ٤٦» .

* * *

٧ـ واما الحجب فى قوله تعالى : « كلا انهم عن ربهم يومئذلمحجوبون ـ المطففين: ١٥ » فهو الحرمان عن فيض قدسه تعالى ، ومن ثم جاء التعقيب بقوله: « ثم أنهم لصالوا الجحيم ـ ١٦» ، « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ـ الاعراف : ٥١ ». حيث الذنوب حالت بينهم وبين ادراك الحق ، فحرموا عنايته تعالى الخاصة باولى البصائر من أصحاب الايمان . « و رحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ الاعراف : ١٥٦ » .

* * *

٨ـ واما حديث : « سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»[١]
فان صح السند ـ ولم يصح كما نذكر ـ فلابدّ من تأويله بالعلم الضرورى ، فمن كان له شك فى وجوده تعالى ، فسوف لا يبقى مجال لأى شك بعد وضوح الحق كالعيان ، أما الأخـذ بالظاهر فمتناف مع قوله تعالى : « لا تدركه الابصار » وحكم العقل القاطع بامتناع الجهة والتقابل بشأنه تعالى. فلابدّ إمّامن الطرح، شأن كل معارض لصريح القرآن ، أوالتأويل ، على فرض صحة الاسناد .

لكن الاسناد غير نقى ، ورجاله غير موثوق بهم ، اذ أشف مايتعلقون به هو هذا الحديث ، الذى يروونه عن قيس بن أبى حازم ، عن جرير بن عبدالله البجلى ، عن النبى صلى الله عليه وآله . وقيس هذا مطعون فيه من وجهين ، الاول : انه كان يرى رأى الخوارج . وكان ممن يبغض أمير المؤمنين علياً عليه السلام[٢] الذى هو نفس الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ ومثال الاسلام الكامل ، فلايبغضه الامنافق وغد، وهو مبغض للنبى صلى الله عليه وآله وللاسلام جميعاً . قال صلى الله عليه وآله : «من زعم أنّه آمن بى وهو يبغض علياً فهو كاذب». وقال ـ لعلى عليه السلام ـ: «من أبغضك فقد أبغضنى» و«لايحبك الامؤمن ولايبغضك الا منافق» . وكان الصحابة يعرفون المنافقين على عهده صلى الله عليه وآله وسلم ببغض على عليه السلام . وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : امتحنوا أولادكم بحب على . وقال أحمد بن حنبل : ان الحديث الذى لا لبس عليه، هو قول النبى صلى الله عليه وآله: ياعلى، لايحبك إلّا مؤمن ، ولايبغضك الامنافق. وقال الله عزوجل : «ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ـ النساء: ١٤٥ » . قال أحمد : فمن أبغض علياً فهو فى الدرك الاسفل

١ـ صحيح البخارى ج ١ باب ١٦ ص ١٤٥ وباب ٢٦ ص ١٥٠ من المواقيت .

٢ـ شرح الاصول الخمسة للقاضى ص٢٦٩ . واسد الغابة لابن الاثير ج٤ ص٢١١ وميزان الاعتدال للذهبى ج٣ ص٣٩٣ .

من النار [1] .

هذا ، وقد قال قيس : منذ سمعت علياً على منبر الكوفة يقول : انفروا الى بقية الاحزاب ـ يعني أهل النهروان ـ دخل بغضه قلبي. قال القاضي : ومن دخل بغض أمير المؤمنين قلبه ، فأقل أحواله أن لا يعتمد على قوله ولا يحتج بخبره . وقد تجنّب قدماء الكوفيين الرواية عنه لذلك، اذ لا ينبغي الرواية عن منافق هو في الدرك الاسفل من النار ـ كما قال ابن حنبل ـ وقد تكلم فيه أئمة النقد ، فبين من حمل عليه ، رعاية للمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن هؤلاء الأوغاد ، ومن وثقه ، لانحراف في نفسه « ان الطيور على أشكالها تقع» لكنه اعترف بأنّ له مناكير . قال يحيى بن سعيد : قيس ابن أبي حازم منكر الحديث [2].

والوجه الثاني : أنّه طعن في السن حتى كبر وشاخ وذهب عقله وخرف [3] . قال القاضي : انه خولط في عقله في آخر عمره . والكتبة يكتبون عنه على عادتهم في حال عدم التمييز .ولا ندري أنّ هذا الخبر ـ المنكر ـ رواه وهو صحيح العقل أو مختلط العقل [4].

* * *

٩ـ وأما قوله : « لا موجود إلّا وجائز أن يرينا ه الله» فلا يعدو سفسطة ومصادرة

١ـ راجع: ابن عساكر في ترجمة الامام امير المؤمنين ج٢ ص٢٥٣ وص٢١٨ ـ ٢١٩ وكفاية الطالب ص٧٢ . وراجع : المسند ج١ ص٨٤ و ٩٥ . والترمذي ج١٣ ص١٧٧ . ومسلم ج١ ص٦٠ .وابن ماجة ج١ ص٥٥ .وشرح النهج ج٤ ص٨٣ . قال : حديث صحيح متفق عليه بين المحدثين .

٢ـ راجع : تهذيب التهذيب لابن حجر ج٨ ص٣٨٨

٣ـ نفس المصدر . والذهبي في الميزان ج٣ ص٣٩٣ .

٤ـ شرح الاصول الخمسة ص٢٦٩ .

على المطلوب ، اذلاملازمة بين مطلق الوجود وامكان الرؤية ، بعدأن لم يثبت ذلك ببرهان ، ولاكان ضروري الثبوت في الوجدان .

نعم استدل متفلسفوهم ببرهان « السبر والتقسيم » ، قالوا : انا قاطعون برؤية الأعيان والأعراض ، ضرورة أنّانفرق بالبصر بين جسم وجسم ، وعرض وعرض ، ولابدّ من علة مشتركة بين الجسم والعرض لهذا الحكم المشترك بينهما ، وهي : إمّا الوجود ، أو الحدوث ، أو الإمكان ، إذ لارابع يشترك بينهما . غير أنّ الحدوث عبارة عن الوجود بعد العدم ، والإمكان عبارة عن عدم ضرورة الوجود . والعدم لامدخل له في العلية، فتعين الوجود «وهو مشترك بين الصانع تعالى وغيره من الأجسام والأعراض» اذن جاز رؤيته تعالى لأنّه موجود [1] .

ومغالطة هذا الاستدلال واضحة ، اذالعرض بما هو عرض لايقبل تعلق الرؤية به ، مالم يقم بجسم ، فيرى من حيث كونه جسماً . وذلك كالكم والكيف والأين والوضع والجدة والإضافة والفعل والإنفعال ومتى [2] ، الأعراض التسعة المشهورة لاتقبل تعلق احساس بها في أنفسها . فإنّ العدد بماهو عدد لايرى وإنّمايرى المعدود. وهكذا بقية الأعراض .

إذن فالذي يرى هو الجسم . والعلة هي الجسمية ، المفقودة في ذاته المقدسة.

وأمّاقياس الأشعري الرؤية بالعلم فهو قياس مع الفارق ولاجامع بينهما . مضافاً الى أنّ الاستدلال بالوجود والعلم على جواز الرؤية باطل في نفسه ، بعدأن نجد في بداهة العقل اشياء لها وجود ، كالعلم والعقل والارادة والكراهة والحب والبغض[3]، هي موجودة ومعلومة ولكن لاتصحّ رؤيتها لأنّها ليست أجساماً ، وماليس جسماً لايمكن تحقق التقابل بينه وبين نظر الرائي ، وهو شرط في تحقق الرؤية .

١ــ شرح العقائد النسفية لمسعود بن عمر التفتازاني ص٥٦ ط كابل

٢ــ شرح تجريد الاعتقاد لابن المطهر الحلي ــ قدس سره ــ ص١٠٧

٣ــ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضي ص٢٧٤

* * *

١٠ـ وأمّا تقييد عموم النفى فى قوله تعالى: «لاتدركه الأبصار ـ الانعام :١٠٣»
بالرؤية فى الدنيا ، أو برؤية الكافرين ، فهو تأويل قبيح بعد أن كانت الآية اشادة
بشأن من شؤون الرب تعالى ومدحاً لائقاً بمقام قدسه جل ثناؤه .قال تعالى : «بديع
السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو
بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم ، لااله الاهو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على
كل شيء وكيل . لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير .
قدجاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وماأنا عليكم بحفيظ
الانعام :١٠١-١٠٤».

انظر الى هذا الاطراء الجميل بمقام الألوهية الكريمة ، نوّهت عن صفات ونعوت
جليلة كانت صبغتها العموم المطلق ، لاالاختصاص بهذه الحياة القصيرة المدى أو
باناس دون اناس ، الذى يتنافى وكونها صفات جلال واكرام . هذا ، فضلا عن
تذييل الآية بشبه تعليل للنعوت المذكورة : «وهو اللطيف الخبير» . اذ اللطيف
مقابل الكثيف ، لايمكن مسه ولاالنظر اليه ، والخبير هو المحيط بخصوصيات
الشيء «ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء ـ يونس : ٦١» .
فاذا ماقارنّا هذا التعليل الذى فى الذيل ، مع تلكم النعوت فى صدر الآية ، يتضح
جانب عموم تلك الصفات بجلاء ، الامر الذى لايكاد يخفى على ذوى الأذواق الأدبية
الدقيقة !

ولابن تيمية هنا محاولة فاشلة ، قال : «المراد من الادراك فى الآية هى الرؤية
المقيدة بالاحاطة ، ومن رآى جوانب الجيش أو الجبل لايقال انه أدركها ، وإنّما
يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية . قال : ونحن فى هذا المقام ليس علينا بيان ذلك ،
وإنّما ذكرنا هذا بياناً لسند المنع ، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أنّ الادراك فى

لغة العرب مرادف للرؤية ، وأنّ كل من رآى شيئاً يقال فى لغتهم أنّه أدركه ،وهذا لاسبيل إليه، كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك عموم وخصوص ، فقد تقع رؤية بلاادراك ، وقديقع ادراك بلارؤية ...» .

وأضاف : «أنّ الاية مدح ، ومعلوم أنّ كون الشيء لايرى ليس صفة مدح ، لأنّ النفى المحض لايكون مدحاًان لم يتضمن أمراًثبوتياً، ولان المعدوم أيضاًلايرى، والمعدوم لايمدح ، فعلم أنّ مجرد نفى الرؤية لامدح فيه»[1] .

وقدغفل أنّ الإدراك جاء فى الاية مقيداً بالأبصار، وهو من أوضح القرائن على أن المراد به «الرؤية بالعين» تجاه تقييده بالقلب، المراد به الدرك النفسانى المجرد ، يقال : أدركته ببصرى، ويراد معنى يغاير قولهم :أدركته بقلبى .وهذا كاف مستنداً للمستدلين بالآية على نفى رؤيته تعالى ، الامر الذى لم يتنبه له شيخ حرّان .

هذا، ونفى الرؤية فى الآية جاء معللا بأنّه تعالى «لطيف»، وهو من النفى المتضمن للاثبات لاالنفى المحض، فهو كقوله تعالى:«لاتأخذه سنة ولانوم» لكونه «حياًقيوماً» وقوله : «ولايحيطون بشيء من علمه» كناية عن عظم احاطته تعالى . وأمثال ذلك كثير فى القرآن . وهكذا قوله تعالى، «لاتدركه الابصار» ، لكونه «لطيفا» . كما أنّ قوله : «وهو يدرك الابصار» جاء معللا بكونه «خبيراً» .

وهذا من اللطائف الدقيقة التى تضمنتها الايات الكريمة، لاتنالها أفهام القشريين من أهل الحشو .

وهذا الشيخ عدى بن مسافر الاموى (ت٥٥٧) أحسن تقديساً لمقام الالوهية من هؤلاء المقلدة السلفيين ،قال: «وانه تعالى ليس بجوهر ولاعرض ولاجسم ، وانه ليس فى جهة من الجهات، وليس مستقراً على مكان وأنّه مرئى بالقلوب والابصار ـ بكسر الهمزـ ولاتحويه الأقطار والأبصار ـ بالفتح ـ ولاتحيط به الجهات ، وأنّه واحد فرد صمد ، لاثانى معه ولاشيء مثله» .

١ـ منهاج السنة ، تحقيق محمد رشاد طبيروت ج٢ ص٢٤٣ ـ٢٤٤

قال: «فهذا هو العلم بذاته، مستو على عرشه بالمعنى الذي أراده تعالى، استواءً منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والمقدار، لايحمله العرش، بل العرش وحملة العرش واللوح والكرسي والسماوات والارض ومابينهما ومافيهما وماتحتهما وماوراءهما وجميع المخلوقين والمخلوقات، محمولون بقدرة الله تعالى ومقهورون في قبضته ...»[1].

الجهة والمكان

ذهب الاشعري وأذنابه من مشبهة ومجسمة الى أنّـه تعالى كائن في جهة «فوق» مستوياً على عرشه فوق أطباق الثرى. وأنّه ينزل ويصعد ويتحرك من مكان إلى مكان، فيحويه مكان ويخلو منـه مكان. وتشبثوا بآيات و روايات حسبوها دالة على ما فهموا منها وفق ظواهرها، ونحن نذكرها جميعاً، ثم نتبعها بماصحّ لدينا من تأويلها المعقول تباعاً حسب الارقام:

١- قال تعالى: «الرحمن على العرش استوى - طه: ٥».

٢- وقال: «اليه يصعد الكلم الطيب - فاطر: ١٠».

٣- وقال: «بل رفعه الله اليه - النساء: ١٥٨».

٤- وقال: «يدبّر الأمر من السماء الى الارض ثم يعرج إليه - السجدة: ٥».

٥- وقال - حكاية عن فرعون -: «ياهامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السمٰوات فأطلع إلى إله موسى واني لأظنه كاذباً - غافر: ٣٦ - ٣٧». كذب موسى - عليه السلام - في قوله: «ان الله فوق السماوات».

٦- وقال: «ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض - الملك: ١٦»

١- في رسالته «اعتقاد اهل السنة والجماعة» ط بغداد سنة ١٣٩٥هـ ص ١٥.

٧ـ وقال : «يخافون ربهم من فوقهم ـ النحل : ٥٠» .

٨ـ وقال : «تعرج الملائكة والروح اليه ـ المعار ج : ٤» .

٩ـ وقال : « ثم استوى الى السماء وهى دخان ـ فصلت : ١١» .

١٠ـ وقال : «ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ـ الفرقان : ٥٩» .

١١ـ وقال : « ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ـ السجدة : ٤» .

١٢ـ وقال : «وجاء ربك والملك صفاً صفاً ـ الفجر : ٢٢» .

١٣ـ وقال : « هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ـ البقرة : ٢١٠» .

١٤ـ وقال : « ثم دنافتدلى فكان قاب قوسين أوأدنى ـ النجم : ٩».

١٥ـ وقال : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّاوحياً أومن وراء حجاب أويرسل رسولاً فيوحى باذنه مايشاء ـ الشورى : ٥١» .

١٦ـ وقال : «ثمّ ردوا إلى الله مولاهم الحق ـ الانعام : ٦٢» .

١٧ـ وقال : « ولوترى اذ وقفوا على ربهم ـ الانعام : ٣٠» .

١٨ـ وقال : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ـ السجدة: ١٢» .

١٩ـ وقال : « وعرضوا على ربك صفاً ـ الكهف : ٤٨» .

قال : كل ذلك يدل على أنه تعالى ليس فى خلقه ، ولا خلقه فيه، وأنّه مستو على عرشه [١].

---

١ ـ الابانة ص ٣٨ باب ذكر الاستواء على العرش .

٢٠- وقال تعالى : «الله نور السموات والأرض - النور: ٣٥» .

٢١- واستدل أيضاً بماروى : أنّ الله تعالى ينزل كل ليلة الى السماء الدنيا، فيقول : هل من سائل فأعطيه : هل من مستغفر فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر . الى أمثالها من روايات نسبت النزول اليه تعالى [٢] .

٢٢- وبما روى - أيضاً - عن ابن عباس ، أنه قال : تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله ، فان بين كرسيه الى السماء ألف عام ، والله عز و جل فوق ذلك .

٢٣- وبما روى عن النبى -ص- أنّه قال : إنّ العبد لا تزول قدماه من بين يدى الله عزوجل حتى يسأله عن عمله .

٢٤- وبما روى : أنّ رجلاً أتى النبى -ص- بأمة سوداء ، فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وآله انى اريد أن اعتقها فى كفارة ، فهل يجوز عتقها ؟ فقال لها النبى صلى الله عليه وآله : أين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : فمن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال النبى صلى الله عليه وآله : اعتقها فإنّها مؤمنة . قال الأشعرى : فهذا يدلّ على أنّ الله على عرشه فوق السماء [٣] .

٢٥ - وزاد أبوسعيد الدارمى : أنّ هذه العصابة - يعنى بهم المعتزلة - أقرت بهذه الآيات بألسنتها ثمّ نقضوا دعواهم بدعوى غيرها ، فقالوا : الله فى كلّ مكان ولا يخلو منه مكان . ثمّ ذكر حديث الجارية السوداء وقال : ففى هذا دليل على أنّ الرجل إذا لم يعلم أنّ الله فى السماء دون الارض فليس بمؤمن ، ألاترى أنّ النبى صلى الله عليه وآله جعل أمارة ايمانها معرفتها أنّ الله فى السماء .

١- نفس المصدر ص ٣٥ - ٣٨ .

٢- نفس المصدر ص ٣٧ . وكتاب التوحيد والصفات لابن خزيمة ص ١٢٦ .

٣- نفس المصدر ص ٣٩ .

وفى قول رسول الله ﷺ « أين الله ؟ » تكذيب لقول من يقول : هو فى كل مكان ، لا يوصف بأين . لأنّ شيئاً لا يخلو منه مكان يستحيل أن يقال : أين هو ؟ ولا يقال : أين ؟ الا لمن هو فى مكان و يخلو منه مكان [1] .

واستدل أبو سعيد بأحاديث أخر أيضاً منها :

٢٦ـ حديث الاعرابى، جاء الى النبى ﷺ يشكو الجدب ، فقال: يامحمد هلكت المواشى ونهكت الاموال ، وانا نستشفع بك على الله ، وبالله عليك فادع الله أن يسقينا ! فقال النبى ﷺ: يا أعرابى ويحك ، وهل تدرى ما تقول ؟ ان الله أعظم من أن يستشفع عليه بأحد من خلقه ، ان الله فوق عرشه ، فوق سماواته ، وسماواته فوق ارضيه مثل القبة ، وانه ليئط به أطيط الرحل بالراكب .

٢٧ـ وحديث المطر ، حسر النبى ﷺ عن ثوبه حتى أصابه ، قيل : يا رسول الله ﷺ لم صنعت هذا ؟ قال : لانه حديث عهد بربه . قال ابو سعيد: ولو كان على مايقول هؤلاء الزائغة ـ يعنى بهم المعتزلة ـ انه تعالى فى كل مكان، ما كان المطر أحدث عهداً بالله من غيره من المياه والخلائق .

٢٨ـ وحديث أبى بكر : أيها الناس ان كان محمد الهكم فان الهكم قدمات، وان كان الهكم الله الذى فى السماء ، فان الهكم لم يمت !

٢٩ـ وحديث بنى اسرائيل : قالوا : يارب أنت فى السماء ونحن فى الارض فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك ؟ قال : اذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم ، واذا غضبت عليكم استعملت عليكم شراركم .

٣٠ـ وحديث كعب الاحبار: مامن سماء إلّا لها أطيط كأطيط الرحل العلافى، أول مايرتحل ،من ثقل الجبار فوقهن [2] .

١ـ رسالة «الرد على الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمى ص ١٤ و ١٧ .

٢ـ نفس المصدر ص ١٨ـ٢٥ .

واستدل ـ أيضاً ـ بآيات جاء فيها التعبير بالنزول من عند الله تعالى .

٣١ ـ منهـا قوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبـده الكتاب ـ الكهف : ١ » .

٣٢ـ وقوله : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لمابين يديه وأنزل التورية والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ـ آل عمران : ٣ » .

٣٣ـ وقوله : « حم تنزيل من الرحمن الرحيم ـ فصلت : ٢ » .

٣٤ـ وقوله : «تنزيل من حكيم حميد ـ فصلت : ٤٢» .

٣٥ـ وقوله : «انا انزلناه فى ليلة القدر ـ القدر : ١» .

٣٦ـ وقوله : «انا انزلناه فى ليلة مباركة ـ الدخان : ٣» .

٣٧ـ وقوله : « سورة أنزلناهـا و فرضناها و انزلنا فيها آيـات بينات ـ النور : ١ » .

٣٨ـ وقوله : « ومانتنزل الا بامر ربك ـ مريم : ٦٤» .

٣٩ـ وقوله : « نزل به الروح الامين على قلبك ـ الشعراء : ١٩٣-١٩٤» .

٤٠ـ وقوله : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ـ النحل : ١٠٢» [١] .

وعقبها بأحاديث نزوله تعالى عن عرشه .

٤١ـ منها: حديث نزوله تعالى فى كل ليلة الى السماء الدنيا اذا مضى منه شطره فيقول: هل من مستغفر ؟

٤٢ـ وحديث نزوله تعالى فى ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل نفس الا مشرك أومشاحن .

٤٣ـ وحديث نزوله يوم القيامة للحساب وتجليه للمؤمنين فيتبعونه الى الجنة .

١ـ نفس المصدر ص ٢٦

٤٤- وحديث نزوله لأهل الجنة ، فيقول : سلونى ، فيقولون بأجمعهم : نسألك الرضا .

٤٥- وحديث عمر بن عبدالعزيز : فاذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل « فى ظلل من الغمام والملائكة -البقرة: ٢١٠» فسلم على أهل الجنة فى أوّل درجة ، فيردون عليه السلام. قال القرظى :وهذا فى القرآن «سلام قولا من رب رحيم -يس:٥٨». فيقول : سلونى . قال : ففعل بهم ذلك فى درجهم حتى يستوى فى مجلسه، ثم يأتيهم التحف من الله تحملها الملائكة اليهم .

قال أبو سعيد : فان قالوا : كيف نزوله هذا ؟ قلنا : لم نكلف كيفية نزوله فى ديننا، ولاتعقله قلوبنا، وليس كمثله شىء من خلقه فنشبه منه فعلا أوصفة بفعالهم وصفتهم . ولكن ينزل بقدرته ولطف ربوبيته كيف يشاء ، فالكيف منه غير معقول، والايمان بقول رسول الله ﷺ فى نزوله واجب ولايسأل الرب عما يفعل ، كيف يفعل ، وهم يسألون . قال : واذ لو آمنتم باستوائه على العرش كايمان المصلين به ، لقلنا لكم: ليس نزوله من سماء الى سماء بأشد عليه من ذلك فكما قدر على الاولى قدر على الأخرى كيف يشاء [1] .

٤٦- واستدل ابن خزيمة بأن فطرة المسلمين علمائهم وجهالهم ، أحرارهم ومماليكهم ، ذكرانهم وأناثيهم ، بالغيهم وأطفالهم ، كل من دعا الله جل وعلا ،فإنّما يرفع رأسه الى السماء ،ويمد يده الى الله الى أعلاه لا الى أسفل . وزاد المعلق(محمد خليل هراس) فى هامش الكتاب : ان التوجه الى السماء فى الدعاء ، ليس فطرة فى المسلمين وحدهم ، بل هو فطرة عامة فى سائر الناس ، بل إنّ الحيوانات نفسها لترفع رأسها الى السماء زمان الجدب ، كأنها تستمطر ربها ، ولايجحد هذه الفطرة إلّا معطل قدفسدت فطرته [2] . وهكذا استدل أبو الحسن الأشعرى .

١- نفس المصدر ص ٢٧-٣٩ .

٢- كتاب التوحيد والصفات ص ١١٠. وراجع :الابانة ص ٣٥-٣٦

هذا جل ماتشبث به القوم فى هذا المجال ، فانتظر للاجابة على جميع ذلك واحدة واحدة تباعاً حسب الارقام .

وللاشاعرة ومن لف لفهم ـ هنا ـ كلام سيء ، زعموه نقضاً على أهل التنزيه. قال أبو الحسن الاشعرى : زعمت المعتزلة أن الله فى كل مكان ، فلزمهم أنّه فى بطن مريم ، وفى الحشوش ، وفى الأخلية ، وهذا خلاف الدين ، تعالى الله عن قولهم ! [1]
وقال أبو سعيد : فما الذى دعا الملك القدوس ، اذ هو على عرشه فى عزه وبهائه ، أن يصير فى الامكنة القذرة وأجواف الناس والطير والبهائم ، ويصير بزعمكم ـ خطاب الى أهل التنزيه ـ فى كل زاوية وحجرة ومكان منه شيء ؟! [2] .

والحشوش : الكنف ومواضع قضاء الحاجة ، الواحد : حش ، وأصله من الحش : البستان ، لانهم كانوا كثيراً مايتغوطون فى البساتين . قاله ابن الاثير . والأخلية : الخلاء . وهو الكنيف ايضاً . انظر الى هذا التعبير السيء فى مقام التكلم عن شؤون رب العزة ، ولاغرو فإنّ الغريق يتشبث بكل حشيش، ونحن نقدرهم اذ عبروا ببطن مريم !

هكذا لفق أصحاب التشبيه تلفيقاتهم لاثبات الجهة له تعالى ، وقد أتى عليها أهل العدل والتنزيه بعاصفة البرهان القاطع ، فنسفوها نسفاً وذروها أدراج الرياح .

* * *

قال أهل التنزيه : انه تعالى ليس بجسم ولا فيه شيء من خواص الاجسام ، فليس يوصف تعالى بالابعاد الثلاثة ، من طول وعرض وعمق ، ولا هو ذو حركة وسكون ، ولاخفة ولاثقل ولاوزن ، ولا هو محدود بجهة ، ولايحويه مكان ، وان كان لايخلو منه مكان ، ولا هو معروض الحوادث من الاجتماع والافتراق ، والحضور والغياب ،

١ـ الابانة ص٣٦

٢ـ الرد على الجهمية ص١٤

والانتقال والذهاب والاياب . اذكل ذلك هومن ملزومات الجسمية ، وهي عوارض حادثة ، والله تعالى قديم في ذاته وصفاته ، متنزه عن كل عروض اوحدوث [1] «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ الشورى : ١١» .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «من أشار اليه فقد حده [2] . ومن حده فقد عده [3] . ومن قال : فيم ؟ فقد ضمنه . ومن قال : علام ؟ فقد أخلى منه [4] . كائن لاعن حدث ، موجود لاعن عدم [5] مع كل شيء لابمقارنة ، وغير كل شيء لابمزايلة» [6] .

وقال عليه السلام : «لايشغله شأن ، ولايغيره زمان ، ولايحويه مكان» [7] . وقال : «لايدرك بوهم ، ولايقدر بفهم ، ولايشغله سائل ، ولاينقصه نائل . ولاينظر بعين ، ولايحد بأين ، ولايوصف بالازواج ، ولايخلق بعلاج ، ولايدرك بالحواس ، ولايقاس بالناس» [8] .

وقال الامام جعفر بن محمد الصادق ـ عليهما السلام ـ : «ان الله عظيم رفيع لايقدر العباد على صفته ، ولايبلغون كنه عظمته ، لاتدركه الابصار ، وهو يدرك

١ـ راجع في ذلك بالخصوص : تجريد الاعتقاد لنصير الدين الطوسي ، بشرح العلامة ابن المطهر الحلي ، بحث الالهيات ، المسألة : ١٢ ـ ٢٠ ، ص ١٦١ ـ ١٦٤ . وشرح الاصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص ٢١٦ ـ ٢٣٠ .

٢ـ لان الاشارة الحسية تستدعي حصر المشار اليه في جهة منقطعاً عن غيرها من الجهات فيكون محدوداً ، اي ذا طرف ينتهي اليه . فمن اشار اليه فقد حده .

٣ـ لان التحديد هو منشأ العد ، فلولا الانتهاء الى حد لما صح العد .

٤ـ لأنه لو كان على شيء ـ كالعرش مثلا ـ لزم اخلاء سائر الامكنة منه .

٥ـ فهو تعالى موجود ازلي قديم .

٦ـ من اولى خطبة من نهج البلاغة ط ١ ج ١ ص ١٥ ـ ١٦

٧ـ شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١٠ ص ٥٨ رقم : ١٧٩

٨ـ المصدر ص ٨٨ رقم : ١٨٣ : من رواية نوف البكالي .

الأبصار ، وهو اللطيف الخبير . ولايوصف بكيف ،ولاأين ولاحيث .وكيف أصفه بالكيف ؟ وهو الذى كيّف الكيف حتى صار كيفاً ، فعرفت الكيف بما كيّف لنامن الكيف . أم كيف أصفه بأين ؟ وهو الذى أيّن الأين حتى صار أيناً ، فعرفت الأين بما أيّن لنا من الأين . أم كيف أصفه بحيث ؟ وهو الذى حيّث الحيث حتى صار حيثاً ، فعرفت الحيث بما حيّث لنا من الحيث . فالله تعالى داخل فى كلّ مكان، وخارج من كل شىء [1] ، لاتدركه الابصار . وهو يدرك الابصار ، لااله الاهو العلى العظيم،وهو اللطيف الخبير» [2].وقال فى جواب ابن أبى العوجاء: «فأمّا الله العظيم الشأن الملك الديان ، فلايخلو منه مكان ، ولايشتغل به مكان ، ولايكون الى مكان أقرب منه الى مكان» [3] .

وقال الامام أبوابراهيم موسى بن جعفر ـ عليهما السلام ـ وقدذكر عنده أنّ قوماً يزعمون أنّ الله تبارك وتعالى ينزل الى السماء الدنيا ! ـ :«إنّ الله لاينزل ، ولايحتاج الى أن ينزل ، إنّما منظره (اى علمه المحيط) فى القرب والبعد سواء ، لم يبعد منه قريب ، ولم يقرب منه بعيد،ولم يحتج الى شىء ،بل يحتاج اليه كل شىء،وهو ذو الطول لااله الاهو العزيز الحكيم . أماقول الواصفين : انه ينزل ـ تبارك وتعالى ـ فإنّما يقول ذلك من ينسبه الى نقص وزيادة . وكل متحرك محتاج الى من يحرّكه أو يتحرّك به ، فمن ظنّ بالله الظنون هلك ، فاحذروا فى صفاته من أن تقفوا له على حد تحدونه بنقص أو زيادة ، أو تحريك اوتحرّك ، أو زوال أو استنزال ، أو نهوض أو قعود ، فان الله جلّ وعزّ عن صفة الواصفين، ونعت الناعتين،وتوهم المتوهمين» [4] .

١ـ اشارة الى مسألة . «لايحويه مكان ولايخلو منه مكان» . وقدمر فى كلام الامام امير المؤمنين ـ ع ـ : «مع كل شىء لا بمقارنة . وغير كل شىء لا بمزايلة» .

٢ـ الكافى الشريف ـ الاصول ـ ج١ ص١٠٣ ـ ١٠٤ .

٣ـ المصدر ص١٢٦ رقم ٣: باب الحركة والانتقال .

٤ـ المصدر ص١٢٥ رقم ١:

هكذا جاء تنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين ، فى كلام الائمة ومحققى العلماء،وحتى من متأخرى الأشاعرة ممّن أوّل كلام أوائلهم ،ماعدى أصحاب الحشو منهم فجروا على سلفيتهم القديمة حتى هذا العهد ، ولنتعرض لتفنيد مازعمته المشبهة أدلّة على ثبوت الجهة له تعالى .

* * *

قال تعالى : «ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم ـ البقرة : ١١٥» .هذه الآية من المحكمات ، دلت على أنه تعالى ليس بجسم ، ولاهو محدود بجهة دون اخرى ، «وكان الله بكل شيء محيطاً ـ النساء :١٢٦» .

قال الامام الرازى ـ فى الاية الاولى ـ : « الآية من أقوى الدلائل على نفى التجسيم واثبات التنزيه ،لانه تعالى خالق الجهات ، والخالق متقدم على المخلوق لامحالة ، فقد كان البارى تعالى خلق العالم منزهاً عن الجهات والاحياز ، فوجب أن يبقى بعد خلق العالم كذلك . وأيضاً ، فانه لو كان جسماً وله وجه جسمانى لكان وجهه مختصاً بجانب معين وجهة معينة،فلم يكن يصدق قوله تعالى : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله»[1] .

هذا مضافا الى قوله تعالى:«ليس كمثله شيء ـ الشورى : ١١» نزهته عن مشابهة المخلوقين، ولاريب أنّ كونه تعالى فى جهة يستدعى محدودية، وهو تشبيه بمحدودية المخلوقين ، تعالى الله عن ذلك .

فهو تعالى ليس بجسم ولا فيه خواص الجسمانيات ،التى منها التحيز والتحديد بجهة دون اخرى . فكل ماورد ـ بظاهره ثبوت الجهة له تعالى ـ يجب أن يؤول وفق سائر المحكمات . وعلى ضوء هذا المقياس نستعرض الآيات التى تمسك بها أهل التشبيه ، مع بيان وجه تخريجها الصحيح :

١ـ التفسير الكبير ج٤ ص٢١ «المسألة الرابعة» .

* * *

أماقوله تعالى : «الرحمن على العرش استوى ـ طه :٥» فالكلام فيه يستدعى النظر فى جهتين ، الاولى : ماهى حقيقة العرش الذى تكرر ذكره فى القرآن فى أحد وعشرين موضعاً [١] ؟ الثانية : مامفهوم الاستواء الذى جاء ذكره فى القرآن فى سبعة مواضع [٢] مما يتناسب وشأنه تعالى ؟

العرش والكرسى

رغم تكرر ذكر «العرش» فى القرآن أكثر من عشرين مرة، لم يأت ذكر «الكرسى» إلّا مرة واحدة فى سورة البقرة :٢٥٥. وهل هما تعبيران عن شىء واحد أم هما شيئان ؟ ذهب أهل الحشو من أصحاب الحديث الى أنّ العرش هو سرير ملكه تعالى متربع عليه، والكرسى دكة أو مصطبة دون العرش ، يكون موضع قدميه تعالى ، وهو يئط [٣] من ثقله تعالى أطيط الرحل الجديد . ورووا فى ذلك أحاديث اعتمدوا ظواهرها من غير تعمق أو تحقيق [٤] .

أمّا اهل النظر والتمحيص فقد شطبوا على هكذا روايات هى مخالفة لضرورة العقل ومحكم الشريعة ، وفسروا العرش والكرسى بالعلم والقدرة ، لمناسبة جلية

١ـ الاعراف :٥٤ .التوبة :١٢٩ .يونس :٣. هود :٧ .الرعد :٢ . الاسراء : ٤٢. طه :٥ .الانبياء :٢٢ . المؤمنون :٨٦ و١١٦ . الفرقان :٥٩ . النمل : ٢٦ .السجدة : ٤ . الزمر :٧٥ . غافر :٧و١٥ . الزخرف : ٨٢ . الحديد:٤. الحاقة : ١٧ . التكوير :٢٠ . البروج: ١٥ .

٢ـ الاعراف : ٥٤ . يونس :٣ .الرعد :٢. طه: ٥ .الفرقان : ٥٩ . السجدة : ٤ . الحديد : ٤ .

٣ـ أط أطيطا اى صوت .

٤ـ راجع بالخصوص : تفسير ابن كثير ـ ذيل آية الكرسى ج١ ص٣٠٩ ــ ٣١٠

من نفس الآيات، وشواهد من اللغة والآثار [1].

والذي نستخلصه من مفاد الآيات والروايات الصحيحة: ان العرش والكرسي تعبيران عن معنى واحد، هو: جليل قدرته تعالى وسعة علمه المحيط بكل شيء. غير أنّ «الكرسي» جاء تعبيراً عن «ملكه» تعالى بالذات، و«العرش» تعبيراً عن جانب «تدبيره» لشؤون الخلق كله. فالكرسي كرسي الملك، والعرش عرش التدبير. وكلاهما يشفان عن سعة علمه وعظيم قدرته تعالى، حيث القدرة الشاملة والعلم المحيط يستدعيان ملكاً يسع السماوات والارض، وتدبيراً شاملا لعالم الوجود أجمع.

قال ابن فارس: الكرسي أصل عربي يدل على تلبد شيء فوق شيء وتجمعه ومنه اشتقت الكراسة اسماً لمجموع أوراق يكتب فيها بعضها على بعض. والكرسي أصل البناء أيضاً، لضخامته. قال الزمخشري: يقال هو طيب الكرسي أي الأصل[2]. والكرسي منسوب الى كرس الملك، وهو ما يعتمد عليه، كما يقال دهري ـ بالضم ـ نسبة الى الدهر. ومن ثم اطلق على العلماء «الكراسي» لأنّهم عماد الامة ومرجعها فيما ينوب. وقد أنشد قطرب:

تحف بها بيض الوجوه وعصبة ... كراسي بالأحداث حين تنوب

أراد بهم علماء خبراء بحوادث الامور ونوازلها. وقد قيل، خير الحيوان الأناسي، وخير الأناسي الكراسي، اى العلماء العقلاء العارفون بشؤون التدبير[3].

قال تعالى: «وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما ـ البقرة: ٢٥٥»

١ـ راجع بالخصوص: تفسير الطبري هنا «جامع البيان» ج٣ ص٨ وسننقل بعض كلامه في آخر الفصل.

٢ـ كما قال العجاج:

ان ابا العباس اولى نفس ... بمعدن الملك الكريم الكرس

٣ـ راجع: معجم مقاييس اللغة، واساس البلاغة.

أي وسع ملكه أرجاء عالم الوجود من غير أن يعجز عن ادارة شؤونه بما يدوم مزدهراً مع الأبدية . فهذا التعبير (لايؤده) يدلّنا بوضوح على ارادة الملك من «وسع كرسيه» بالذات ، ومن عبر عن الكرسي بالعلم ـ كابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ أراد نفس المعنى ، اذ ملكه تعالى منبعث عن علمه المحيط المعبر عنه بالعرش أيضاً ، حيث التدبير الحكيم يستدعي الاحاطة والعلم بمزايا الامور .

قال تعالى: «ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ـ يونس :٣». وقال: «ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والامر ـ الأعراف :٥٤» .

انظر الى الآية الاولى كيف رتبت التدبير على قوله : «استوى على العرش» ليكون المعنى: استوى على عرش التدبير، وتوضحه الآية التالية «ألا له الخلق والامر» فالخلق هو ماعبر أولاً من خلق السماوات والارض، والأمر هو اقامة شؤونهن وحفظهن عن الفساد والاختلال .

وهكذا جاء التعبير فى سورة الرعد : ٢ «ثم استوى على العرش . . . يدبر الامر» . وفى سورة الفرقان : ٥٩ «ثم استوى على العرش الرحمن ، فأسئل به خبيراً». وفى سورة السجدة: ٥ «ثم استوى على العرش ... يدبر الامر من السماء الى الارض» وعلى نفس النمط فى سورة الحديد : ٥ ، وغافر : ١٥ ، وطه : ٨ ، وغيرهن من آيات .

وفى سورة الحاقة : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية ـ١٣ـ١٨» .

فالعرش فى هذه الآية هو عرش التدبير وادارة شؤون الملك يوم لاملك الا

ملكه، كما جاء في آية اخرى: «كلا اذا دكت الارض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ـ الفجر: ٢٢» . وقوله :«لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ـ غافر :١٦» وقوله : « وله الملك يوم ينفخ في الصور ـ الانعام : ٧٣ » . كلها تعابير عن معنى واحد ، وهو تصوير سيطرة حكمه تعالى في ذلك اليوم الرهيب «ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ـ الانعام: ٦٢» .«ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ، وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ـ الكهف : ٤٨».«هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً ـ الكهف : ٤٤».

وقد جاء تأويل «العرش» في روايات أهل البيت عليهم السلام الى وجهين ، احدهما: العلم ، والثاني : كل ماسوى الله تعالى .ففي الحديث الصحيح عن الامام أبي الحسن الرضا عليه السلام : « والعرش اسم علم وقدرة . وعرش فيه كل شيء . ثم أضاف تعالى الحمل الى غيره ـ في قوله : «الذين يحملون العرش» ـ خلق من خلقه ، لأنّه تعالى استعبد خلقاً بحمل عرشه ، وهم حملة علمه . وخلقاً يسبحون حول عرشه ، وهم يعملون بعلمه . . .»[1]

أراد ـ عليه السلام ـ تدبيره تعالى الشامل ، المنبعث عن علم وقدرة ، ومن ثم قال : هم حملة علمه . وهم يعملون بعلمه، أي ينفذون تدبيراته في شؤون هذا العالم. كما أن قوله تعالى : « وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ـ هود : ٧ » يعني : أنّ تدبيره تعالى قبل خلق السماوات و الأرض لم يكن قد تعلق بشيء سوى الماء . اذ لم يكن في عالم الطبيعة يومذاك موجود ولا معلوم سوى الماء ، لأنّ أوّل شيء خلقه الله من الماديات هو الماء كما في الأثر[2] .

قال أبو جعفر الطبري : « وأمّا الذي يدلّ على صحّته ظاهر القرآن فقول

١ـ الكافي الشريف ـ الاصول ـ ج١ ص١٣١

٢ـ راجع : بحار الانوار ج١ ص١٠٢ وج ٥٧ ص٣٠٨

ابن عباس الذى رواه جعفر بن أبــى المغيرة،عن سعيد بن جبير عنه أنه قال : هو علمه و ذلك لدلالة قوله تعالى «ولايؤده حفظهما»على أنّ ذلك كذلك ،فأخبر أنّه لايؤده حفظ ماعلم وأحاط به ممافى السماوات والارض . وكماأخبر عن ملائكته أنهم قالوا فى دعائهم «ربناوسعت كل شىء رحمة وعلماً ــ غافر : ٧»فأخبر أنّ علمه وسع كلّ شىء ،فكذلك قوله «وسع كرسيه السموات والارض»[١] .

الاستواء

و الاستواء هــو التمكن و الاستيلاء الـتّام ، دون الجلوس كما زعمت المجسمة، كقول الأخطل يمدح بشراً أخا عبدالملك بن مروان حين ولى على امرة العراقين :

قد استوى بشر على العراق　　　　من غير سيف و دم مهراق[٢]

وجاء بمعنى استقامة الأمر أيضاً ، كماقال الطرماح بن حكيم :

طال علــى رسم مهدد أبــده　　　　و عفا و استــوى به بلده[٣]

و هكذا جاء بمعنى عمد و قصد ، كقوله تعالى : « ثم استوى الى السماء ــ البقرة : ٢٩» . و كلما جاءذكر «الاستواء على العرش»فى القرآن، انمايعنى الاستيلاء التام بتدبير شؤون العالم ، بعدأن كان «العرش» كنايةعن مجموع الخلق ،كماجاء فى تعبير الصدوق ــ عليه الرحمة ــ[٤] .

١ــ جامع البيان ج٣ ص٨ط الاميرية

٢ــ البداية والنهاية لابن كثيرج ٩ ص٧

٣ــ جامع البيان للطبرى،ج١ ص١٥٠

٤ــ راجع : بحارالانوار ج ٥٨ص ٧

الفوقية

وأمّا الايات التى جاء فيها ذكر العلو والفوقية له تعالى [1]. أو أنّه فى السماء [2] أو أنّه يدبّر الأمر من السماء [3]. أوتعرج اليه الروح [4]. أوتنزل الملائكة من عنده [5] وأمثال ذلك، فهذه الفوقية والعلو لاتعنى الجهة التى هى احدى الجهات الست التى تحدد بها الأجسام، من فوق وتحت ويمين ويسار وخلف وأمام. اذ بعدما انتفت الجسمية عن ذاته المقدسة، لم يبق مجال لتصوير الجهة له تعالى اطلاقاً. وأما هذه التعابير الواردة فى الايات، فإنّ لها تأويلات حكمية دقيقة، أوضحها علماء الكلام، وجاء بعض تفاصيلها فى رسالة كتبها أبو العباس أحمد بن ابراهيم الواسطى، المعروف بابن شيخ الحزاميين (٦٥٧-٧١١) [6]. ونحن نذكر منها مايجيب على غالبية الأسئلة الموجهة بهذا الصدد:

انه تعالى كان و لامكان، لاخلاء، ولاملاء، فلم يكن فوق ولاتحت و لاجهة من الجهات، اذ لاموجود سواه تعالى. ولما خلق الله هذا الكون ذا الجهات الست، انتزعت له تعالى صفة الخالقية والإبداع وتكوين الأكوان، ولاشك أنّه تعالى قبل أن يخلق الكون لم يكن فى كون، وهكذا بعدما خلق الكون لم يحل فى كون، فلم يزل كائناً لافى كون. ولم يزل موجوداً لافى جهة، كما كان قبل أن يكوّن الكون

١- تقدمت فى كلام الاشعرى برقم: ٣٩٢ و٧٩٥

٢- تقدم برقم: ٦ «ءأمنتم من فى السماء»

٣- تقدم برقم: ٤ «يدبر الامر من السماء».

٤- تقدم برقم: ٨ «تعرج الملائكة والروح اليه».

٥- تقدم فى كلام الدارمى برقم: ٣١-٤٠

٦- نشرت ضمن مجموعة «اربح البضاعة» بمكة المكرمة: ١٣٩٣ هـ ص ٣٩ - ٥٥.

ويوجّه الجهات .

وبعد فنسبة ذاته المقدسة الى الأكوان والجهات نسبة الترفع والتعالى عنها ، لأنّها محدثات ، ولاتناسب بين الحادث الممكن بالذات والازلى الواجب بالذات. انه تعالى فوق كل شيء ومتعال عنها ،لأنّه أوجدها وأحدثها، والمخلوق تحت الخالق والصانع فوق المصنوع ، تحتية لابالجهة وفوقية لابالجهة ، بل بالاعتبار والسببية المنتزعة ممّا بينهما من نسبة قائمة .

وهذا اذاما لاحظنا من تباين مابين عالم المادة وعالم ماوراء المادة ، وبماأننا عائشون فى وسط من العالم المادى ،فاذا أردنا الاشارة الى العالم الآخر غير المادى، أشرنا -طبعاً- الى خارج عالمنا هذا ، وهذه الاشارة تقع الى جهة «فوق» لابما أنّه «فوق» ، بل باعتبار أنّ كل خارج عن هذا العالم المادى -فى المحسوس- فوق من كل الجهات ، حيث الواقف فى مركز كرة إذا أراد الإشارة الى خارجها ، لابدّ ان يشير الى خارج سطح الكرة ، الذى هو فوق بالنسبة اليه من كل الجهات .

وهكذا بالنسبة الينا ونحن عائشون على الارض إذا اردنا الإشارة الى خارج عالمنا هذا ، اشارة بالحس ، لابدّ أن تقع إشارتنا الى خارج هذا المحيط ، وهو فوق فى جميع جوانب هذه الارض .

وعليه فإذاما اعتبرنا أنّ تدابير هذا العالم المادى فى جميع أرجائه، تنحدر من عالم ماوراء المادة من عند ربنا العزيز الحكيم ، صحّ إطلاق الفوق عليه تعالى ، وهكذا التعبير بالنزولِ من عنده والصعود اليه وماأشبه .لا لارادة التحديد والجهة الماديين ، بل الاعتباريين بالنظر الى مابين العالمين من تباين وفرق ، ذاك الى ذروة العلى والشرف والغنى وهذا الى حضيض الخسة والذل والافتقار .

قال تعالى: «وان من شيء إلّا عندنا خزائنه ،ومانُنزله الا بقدر معلوم -الحجر: ٢١» . أى ننزله الى عالم المادة تنزيلاً بالإعتبار . حتّى اذا مانبت زرع أو استخرج معدن من تحت الارض أو اصطيد سمك من جوف الماء، قلنا انّه من بركات الله النازل

علينا أهل الأرض .

* * *

وعلى ضوء هذا البيان يبدو أن لاغموض على وجه الآيات التى تمسك بها الأشعرى وأتباعه ، ممّا لادلالة لها على مقصودهم لودققنا فيها الانظار .

وإليك الإجابة الوافية على كلّ واحدة من الآيات حسب الأرقام المتقدمة :

١ـ اماقوله : «الرحمن على العرش استوى ـ طه : ٥»، فقدتقدّم أنّ العرش هوعرش التدبير كناية ، والاستواء هو الاستيلاء التام والتمكن الكامل من الاحاطة بشؤون التدبير .

٢ـ وقوله : «اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ـ فاطر : ١٠» ، فإنّه صعود ورفع معنوى، لاحسىّ، أى الأعمال الحسنة ترتفع من هذا العالم المادى ، لتنقلب درجات فى عالم آخر لامادى هو فوق هذا العالم شأناً ورفعة .

٣ـ وقوله: «بل رفعه الله اليه ـ النساء:١٥٨» يعنى الرفع المعنوى ، وتخليصه من شرور هذه الحياة السفلى الكدرة ، الى حياة عليا كريمة ، كما جاء فى سورة آل عمران : ٥٥ « ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا » . وكقوله تعالى : « ثم الىّ مرجعكم ـ آل عمران : ٥٥» . وقوله فى شأن ادريس عليه السلام : « ورفعناه مكانا علياً ـ مريم : ٥٧». وقوله بشأن الشهداء فى سبيل الله : «أحياء عند ربهم ـ آل عمران: ١٦٩» . وغيرها من نظائر كثيرة كان المقصود فيها من التعبير بـ «عندالله» أو «الرفع اليه» هو شرف القرب والرفع المعنوى ، لاالقرب المكانى والصعود الحسى .

٤ـ وقوله :«يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مماتعدون ـ السجدة : ٥» ، هذه الآية عبارة أخرى عن قوله تعالى :«وان من شىء الاعندنا خزائنه ومانتنزله الابقدر معلوم ـ الحجر : ٢١»، فالسماء والارض

اخذتا هنا كناية عن عالم العلو اللامادى وعالم السفل المادى، وأنّ تدابير هذه الحياة إنّما تتخذ في عالم أعلى من عند ربنا عزوجل. ومن ثم عقبها بقوله: «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شيء خلقه ـ السجدة: ٦ ـ ٧».

٥ ـ وقوله: «فاطلع الى اله موسى ـ غافر: ٣٧»: ليس فيه دلالة على أنّ موسى ـ عليه السلام ـ قال له: «الله فوق السموات»، فلعله هو توهم ذلك، اذ لم ير في الارض من يصلح أن يكون الاله الذى يدعيه موسى ـ ع ـ فتوهمه موجوداً جسمانياً في احدى طبقات الجو. أو نفرض أنّ موسى ـ ع ـ قال له ذلك، لكنه لقصور فهمه زعم من السماء طبقة جوية كانت مسكن إله موسى ـ ع ـ ولم يدر ان معنى كون الاله في السماء، انه متعال عن الماديات وأنّه فوق أطباق العلى لا بالجهة والحدود، بل بالرفعة والشموخ. وهكذا الأشعرى وأذنانه لم يعد أفهامهم فهم فرعون من أمثال هذا المقال.

٦ ـ وقوله: «ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض ـ الملك: ١٧». قيل: المراد بمن في السماء هم الملائكة الموكلون بشؤون الارض. لكن الصحيح أنّ المراد به هو الله تعالى كما في آية اخرى: «أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ـ النحل: ٤٥». والمقصود بكونه في السماء كون تدابيره لشؤون الخلق تنزل من مكان عليّ هو عالم ماوراء المادة، حسبما تقدم.

٧ ـ وقوله: «يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون ـ النحل: ٥٠» فوقية بالغلبة والقهر لا بالجهة والحدود، اذ الملائكة رهن أوامره تعالى وتحت ارادته «لايعصون الله ماامرهم ويفعلون مايؤمرون ـ التحريم: ٦». وهذا كفوقية الرئيس على المرؤوس والامير على المأمور.

٨ ـ وقوله: «تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـ المعارج: ٤»، عروجاً الى الملاء الأعلى بعد انتهاء أمد هذه الحياة السفلى،

رجوعاً اليه تعالى «إليه مرجعكم جميعاً ، وعدالله حقاً ، انه يبدؤ الخلق ثم يعيده ـ يونس : ٤» .

٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ و استوى في سورتي البقرة : ٢٩ ، وفصلت : ١١ ، جاء بمعنى عمد وتوجه . وهو لايستلزم الحركة ولا هو بمعنى الجلوس والاستقرار كما زعم الاشعرى . وفي السور السبع الباقية ـ التى جاء فيها ذكر الاستواء على العرش ـ كان بمعنى الاستيلاء والتمكن من التدبير التام لشؤون عوالم الخلق ، تعبيراً كنائياً لاغير ، وقد تقدم ذلك .

١٢ ـ ١٣ ـ وقوله : «وجاء ربك ـ الفجر : ٢٢ » . وقوله : «يأتيهم الله : البقرة : ٢١٠» فمجاز الحذف ، و قد صرح بهذا المحذوف فى قوله : « فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ـ غافر : ٧٨ » .وقوله : « هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك ـ النحل : ٣٣ » . ونظائر ذلك فى الاضمار فى آية والاظهار فى اخرى كثيرة فى القرآن ، كما فى آية الانعام « أو يأتى ربك ـ ١٥٨ » وآية النحل « أو يأتى أمر ربك ـ ٣٣ » . و كما فى آية الزمر : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ـ ٤٢ » وآية السجدة : « قل يتوفيكم ملك الموت الذى وكل بكم ـ ١١ » . و لكن أنّى لذوى الأفهام المتحجرة فى اطار « الدعوة السلفية » من ادراك فنون كلام الله البديع .

١٤ ـ و قوله : « ثم دنى فتدلى ـ النجم : ٨ » الضمير يعود الى جبرائيل المعبر عنه قبل الاية بقوله : «علمه شديد القوى ، ذومرة فاستوى ، و هو بالافق الاعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى ـ أى جبرئيل بما حمله الله أو الله برسالة جبرائيل ـ الى عبده ما أوحى ـ النجم : ٥ ـ ١٠ » وقد تقدم شرحه[١] .

وعلى تقدير عود الضمير الى الله ، فالمقصود من هذا الدنو هو قرب الشرف

---

١ ـ فى الجزء الاول ص ٣٤ فما بعد .

ودنو الكرامة لديه تعالى ، لاالقرب المكانى المحدود بالجهات .

١٥ ـ وقوله : « أومن وراءحجاب أويرسل رسولاً ـ الشورى : ٥١ » لايدلّ على أنه تعالى منحاز عن خلقه انحيازاً بالمكان والجهة ، ليكون هو فى جهة أوبقعة والخلق فى جهة وفى رقعة اخرى من هذا العالم الفسيح ، كلّا، بل هو حجاب ذاتى لما بين الواجب تعالى و سائر الممكنات من بينونة ذاتية ، لا سنخية بينهما و لا تجانس .ذاك كمال مطلق فى علو العزوشرف الغنى والاقتدار ، وهذا غاية فى النقص والعجز والافتقار . وتقدم ان الحجاب ـ هنا ـ حجاب معنوى ، لبعد الفاصلة بين كمال الواجب ونقص الممكن .

١٦ ـ وقوله : «ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ـ الانعام : ٦٢ » ، كقوله : «ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ـ الجمعة : ٨ » ردالى حكمه تعالى يوم لاحكم الا حكمه ، حسبما تقدم فى آيات مشابهة لذلك. و من ثم تعقبها قوله « ألاله الحكم وهو أسرع الحاسبين ـ نفس الآية » . قال تعالى : « كل شىء هالك الاوجهه ، له الحكم واليه ترجعون ـ القصص : ٨٨ » .

١٧ ـ وقوله : « ولوترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ـ الانعام : ٣٠ » .

المقصود : الوقوف على صدق ما انذروا به على لسان أنبيائهم ، فقد وضح الحق لهم حينذاك وكانوا قبل ذلك فى شك من لقائهم هذا . حيث « قالوا انهى الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين ـ الانعام : ٢٩» .«لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد ـ ق : ٢٢ » . « بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لمانهوا عنه وانهم لكاذبون ـ الانعام : ٢٨ » . و من ثم جاء التعقيب بقوله : « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة

قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ـ ٣٠ » .

١٨ ـ و قوله : « و لو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون ـ السجدة : ١٢ » كالاية المتقدمة المقصود هو كشف الحق ووضوح الامر . و من ثم جاء في الاية قبلها : « و قالوا ءاذا ضللنا في الارض ءانا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ـ ١٠ » . و جاء التعقيب : «فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم ـ ١٤ » .

١٩ ـ وقوله: « وعرضوا على ربك ـ الكهف : ٤٨ » كقوله : « انهم ملاقوا ربهم ـ هود : ٢٩ » كناية عن إلجائهم للمثول بين يدى حكمه تعالى يوم لا حكم الا حكمه .

٢٠ ـ وقوله : « الله نور السموات والارض ـ النور : ٣٥ » تعبير رمزى عن كونه تعالى هو منبعث الحياة والازدهار في عالم الوجود ، كقوله : « وأشرقت الارض بنور ربها ـ الزمر : ٦٩ » . ومن ثم قال المفسرون : أى منور السماوات والارض ، اذ النور جسم وهو تعالى ليس بجسم ، بل هو خالق الاجسام كلها ، وقد تقدم وجه استعارة النور لذاته المقدسة ، حيث النور ظاهر بنفسه ومظهر لغيره ، ولا يظهر شيء في المحسوس الا باشعاعه عليه . وكذلك ربنا تعالى موجود بنفسه ولنفسه ، وموجد لغيره ، ولم يوجد ولا يوجد شيء الا بايجاده تعالى ، فكل شيء ظهر في عالم الوجود ، فانما هو باشراق فيضه تعالى شأنه .

٢١ ـ أما أحاديث نزوله تعالى الى السماء الدنيا ـ إن صحت [١] ـ فهى كناية

---

١ ـ وقد ورد بهذا اللفظ في رواياتنا ايضاً بشأن ليلة الجمعة . راجع : التهذيب ج ٣ ص ٣ رقم : ٣. واما في حديث العامة فقد ورد بالفاظ منكرة لاشك انها مختلقة وضعتها الايادى الاثيمة . راجع : الموضوعات لابن جوزى ج ١ ص ١٢٢

عن نزول رحمته قريباً من الناس ، مطلة على رؤوسهم ، رحمة بعباده ورأفة ، وإلّا فهل هناك فرق - في محسوسنا نحن أهل الارض - بين أن ينزل الى السماء الدنيا أم يبقى فوق السماوات العلى ، أو ينادى « هل من مستغفر » أم لم يناد . بعد أن لانحس بهذا الاقتراب الودّى ، ولا نسمع ذلك النداء العطوف ، لولا أنّـه مجاز وكناية عن قرب رحمته تعالى وتواصل دعوته الى الانابة والاستغفار .

وفى روايات أهل البيت -عليهم السلام- : ان فى الليل لساعة اذا ما وافقها العبد وهو يصلى ويدعو الله عزوجل استجاب الله له ، وهى اولى ساعة بعد منتصف الليل من كل ليلة [1] .

وروى محمد بن على بن الحسين الصدوق باسناده عن امير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - قال : « من كان له الى ربه حاجة فيطلبها فى ثلاث ساعات: ساعة فى يوم الجمعة . وساعة تزول الشمس .وساعة فى آخر الليل . فان ملكين يناديان: هل من تائب يتاب عليه ؟ هـل من سائل يعطى ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ هل من طالب حاجة فتقضى له ؟ فأجيبوا داعى الله واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس، فانّه أسرع فى طلب الرزق من الضرب فى الارض ، وهى الساعة التى يقسم الله فيها الرزق بين عباده » [2].

٢٢- والفواصل المأثورة لتحديد ما بين أجرام السماء ، كلها تقريبية حسب أفهام البسطاء ذلك العهد ، كما اثر عن أمير المؤمنين (ع) أنّه سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب ، فقال : مسيرة يوم للشمس .وسئل : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم : فقيل : وكيف يحاسبهم ولا يرونه ؟

١- الكافى الشريف ج ٢ ص ٤٧٨ رواها ثقة الاسلام الكلينى عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) .

٢- الخصال (ط نجف) ص٥٨٠ من حديث الاربعمئة .

فقال : كما يرزقهم ولايرونه . وسئل : كم بين السماء والارض ؟ فقال : مدالبصر ودعوة المظلوم[1] .

وهذا الإجمال المقنع لأفهام العامة فى كلام الامام (ع) أبعد عن التمويه والدجل الذى جاء فى كلام غيره من تحديدات مقياسية لاأصل لها ولا توصلت اليها آراء علماء الفلك آنذاك فكيف بعرب الجزيرة الجاهلة .

٢٣ـ وقوله : «بين يدى الرب» أى بين يدى حكمه وقضائه .

٢٤ـ وحديث « الأمة السوداء » يعنى شيئاً آخر غيرماظنه الاشعرى وأتباعه، وذلك : أنّ العرب يومـذاك كانت تعبد أوثاناًهم نحتوها بأيديهم من أحجار و أخشاب ، وكانوا يزعمونها آلهة فى الأرض تمثل اله السماء ، « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ـ الزمر : ٣ » فلما جاء الاسلام وأمر بنبذ الآلهة غير الله ، أصبح عنوان التوحيد هو الاعتراف باله السماء،ونبذ آلهـة الارض ، كناية عن الاعتقاد بالله الهاً واحداً لاشريك له ولانظير ولا مثيل ، فإذا قال انسان : انى لا أعبد سوى الاله الذى فى السماء ، اعتبر ـ ذلك اليوم ـ موحداً، بالنظر الى هذا المعنى، اى بالنظر الى جانب سلب القضية ، وهو نفى آلهة الارض المزعومة ، لا اثبات كون الاله فى السماء مكاناً له بالخصوص، وقد قال تعالى ـ اشارة الى هذا المعنى ـ « وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله ـ الزخرف : ٨٤ » . فهو الـه الارض والسماء جميعاً ، « فأينما تولوا فثم وجه الله ـ البقرة : ١١٥ » . لكن من المؤسف أنّ الاشاعرة لم يهتدوا الى فهم هذا المعنى .

والقصة التالية ـ أيضاً ـ شاهدة صدق لهذا المعنى الذى تنبهنا له ، رواها عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين . قال : حدثنى أبى عن

١ـ قضاء اميرالمؤمنين للتسترى ص ١٨٩ـ١٩٠ عن نهج البلاغـة باب قصار كلماته ٢٩٤/٣ و ٣٩٦/٣ . وكتاب الغارات للثقفى .

أبيه عن جده :« ان قريشاً جاءت الى الحصين وكانت تعظمه ، فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل ـ يعنون محمداً (ص) ـ فانه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبى ـص ـ ودخل الحصين ، فلما رآه النبى ـص ـ قال : أوسعوا للشيخ ـ وعمران وأصحابه متوافدون . فقال الحصين :ما هذا الذى يبلغنا عنك ، أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ، وقد كان أبوك جفنة وخبزاً ـ يريد بسط جوده وكرمه على قريش ـ فقال : يا حصين كم الهاً تعبد اليوم ؟ قال : سبعة ، ستة فى الارض واله فى السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء. قال : فاذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . فقال له النبى صلى الله عليه وآله : فيستجيب لك وحده و تشركهم معه ؟ !»[1]

٢٥ـ وأسوأ فهماً وأردأ ادراكاً لحقائق الدين ومفاهيمه العليا، هم الحشوية من أصحاب الحديث ، أمثال أبى سعيد عثمان بن سعيد الدارمى (٢٠٠ ـ٢٨٠) ، وأبى بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة السلمى (٢٢٣ ـ ٣١١) ، ومن لف لفهما فى كرف حثالات الأخبار والأسقاط وحشو كتبهم منها ، من غير دراية ولا تمحيص . هذا ابن خزيمة حشى كتابه الذى أسماه « التوحيد والصفات » من خزعبلات اسرائيلية كانت رائجة ذلك العهد ، فأثبت بها للرب تعالى أعضاء وجوارح، وبذلك انحرفوا عن مسير الاسلام وأخذوا فى اتجاه معاكس ، مغبة اعراضهم عن مسائلة اهل الذكر الذين هم آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وذريته الأطيبون . وقد قال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ـ النحل : ٤٣ » . لكنهم أعرضوا فعموا فأعمى الله قلوبهم « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ الحج : ٤٦» .

٢٦ـ وهكذا استدلال أبى سعيد بحديث الاعرابى الذى جاء الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم

١ـ كتاب التوحيد لمحمد بن اسحاق ص ١٢٠ـ١٢١ .

يشكو الجـدب ـ الى قوله ـ ان الله فوق عرشه ، فوق سماواته ، وسماواته فوق أرضيه مثل القبة ، وانه ليئط به أطيط الرحل بالراكب . فان مضمون ما استشهدبه باطل ، اصطنعه أهل التجسيم افكاً وزوراً . هذا فضلاً عن أنّ هذا الحديث يرويه أبوسعيد عن محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة عن جبير، وقدذكر الذهبى يعقوب فى «المغنى» فى الضعفاء ، قال :روى حديث الأطيط عن جبير بن محمد ، ولم يرو عنه هذا الحديث سوى ابى اسحاق . وأبو اسحاق هذا أيضاً فيه مافيه .

٢٧ـ وحديث المطر ، يرويه ثابت بن أنس عن أبيه ، وهومجهول فى رواة الحديث، صرح بذلك الذهبى فى «المغنى» .

٢٨ـ وحديث أبى بكر لايصلح للاستناداليه ،لاسنداً ولامدلولاً ،بعد أن كان تعبيراً من نفسه لا غير .

٢٩ـ٣٠ـ وهكذا حديث بنى اسرائيل ، وحديث كعب أحبارهم ، اذلا ينبغى لمسلم أن يتشبث بكلام عليه صبغة يهودية .

٣١ـ٤٠ـ وآيات جاء فيها التعبير بالنزول من عندالله، قد تقدم حلّ اشكالها، وأنّه نزول من مكان على ، علواً بالشرف والمنزلة ، لا علواً بالحس والجهة . اذ كان لعالم ماوراء المادة رفعة شأنية على عالم المادة ،وباعتبار احاطة ذلك العالم بهذا الكون المحسوس ، احاطة تدبير وتربية ، توجه أهل الارض الى خارج محيطها، لتصور هذا المعنى فى مرتكزهم فصوروه فى صورة المحسوس ، ومن ثم توقعوا نزول البركات من جهة العلو، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس، وقياساً للغايب بالمشهود .

٤١ ـ ٤٢ ـ وأحاديث نزوله تعالى ، قد تقدم أنّه تعبير عن اقتراب رحمته من الناس وترفرف بركاته عليهم ، «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ـ ق:١٦».

٤٣ـ وحديث نزوله يوم القيامة وتجليه للمؤمنين ، قد تقدم الجواب عنـه في أحاديث الرؤية . وأنّها أحاديث مفتعلة سوى التى دلت على معنى معقول قابل لتأويل صحيح .

٤٤ ـ ٤٥ ـ وهكذا أحاديث إقباله تعالى على أهل الجنّة ، فإنّها لم تصحّ ، والصحيح منها لايدلّ على ماحسبه القوم من المقابلة الحسية وما أشبه ، وإنّماهى زلفى فى دار رضوان .

رفع اليدين الى السماء

٤٦ـ وأمّارفع الرأس واليدين الى السماءحالة الضراعة الى الله والدعاء ،فقد تقدم (ص١٢٧)أنّ الانسان فى فطرته يعلم بأنّ تدابير شؤون هذه الحياة المادية ، إنّما تتخذ فى عالم آخر غيرمادى ،حيث يشاهد أنّ ماأحاط به من مظاهر هذا الكون جميعاً أمثاله ، ذوات حاجة وافتقار الى من يدبّر شؤونها، ومن يقوم بسداد خللها ، فلابدّ أنّ وراء هذا المظهر ذى النقص والعجز ، من جهاز مقتدر غنى ذى قدرة و كمال ، هو الذى يقوم بهذا التدبير وذاك السداد ، وما هو إلّا عالم خارج عن المادة المفتقرة فى ذاتها .

واذا كان الانسان يرى من ذاك العالم اللامادى وراء هذا العالم ، فانه يراه محيطاً به من كل الجوانب ، احاطة المدبر ـ بالكسر ـ بالمدبر ـ بالفتح ـ ، وأعلى منه ، علو الكمال على النقص ، ومتبائناً منه ، تبائن القدرة عن العجز .

وبعد فاذا كان الانسان يرى مابين العالمين هذا التباعد ، وكان يرى من عالم الشهود مدبصره فى جميع جوانبه ، ياترى ،فأين يقع عالم الغيب ؟! لابد أنه محيط بهذا العالم ، واذا كان محيطاً به فهو فوقه ، لأنّ كلّ محيط بجسم كرى فهو فوقه من جميع الجهات لامحالة ، هكذا يتصوره تجسيم الخيال . اذن فعالم الغيب هو فوق هذا العالم الذى نعيش فيه هذه العيشة المادية، قياساً لغير المحسوس بالمحسوس

فى كـلّ مايتصوره الإنسان من شؤون ماوراء محسوسه إذا ماقاسها بمالديه من محسوسات .

قال تعالى : «وان من شىء الاعندنا خزائنه وماننزله الابقدر معلوم ـ الحجر: ٢١» تنزيلا من عالم الغيب الى عالم الشهود، الامر الذى دعا بالمؤمنين وغير المؤمنين من سائر الموحدين ، بل ومن كل من يعتقد بما وراء الحس والشهود ، أنّ الرحمة والبركات تنزل من عندالله العلى القدير ، من عالم هو أسمى وأسنى : «وفى السماء رزقكم وماتوعدون ـ الذاريات :٢٢» .

وهكذا جاء في كلام الامام أمير المؤمنين عليه السلام في جواب ابن سبا عند ما سأله عن سبب رفع اليدين الى السماء عند الدعاء

الاعضاء

تقدم أنّ المشبهة أثبتوا لله سبحانه أعضاء وجوارح كمافى المخلوقين ،وحكى عن داوود الجواربى أنه قال :اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عماوراء ذلك . وقال :ان معبوده جسم ولحم ودم ،وله جوارح وأعضاء ، من يد ورجل ورأس ولسان وعينين واذنين ، ومع ذلك هو جسم لا كالاجسام، وله لحم لا كاللحوم، ودم لا كالدماء وكذلك سائر الصفات ، وهو لايشبه شيئاً من المخلوقات ، ولايشبهه شىء [١] .

وماورد فى التنزيل من الاستواء والوجه والعين واليدين والجنب والمجىء والاتيان والفوقية ، أجروها على ظاهرها ، وكذلك ماورد فى الاخبار من الصورة وغيرها ، أجروها على مايتعارف من صفات الأجسام ، وزادوا فى الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها الى النبى ﷺ زوراً وبهتاناً . وقدتقدّم نقل بعضها عندالكلام عن مذهب أهل التشبيه والتجسيم .

---

١ ـ الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص١٠٥

ونحن في هذا المجال لانتعرض لهم بالذات ، لأنّهم قوم بادوا ولم يبق منهم سوى نقل آثار في بطون الكتب وقد أكل عليهم الزمان وشرب. إنّما المهمّ التعرض لأناس زعموا أنّهم من صميم الاسلام ، في حين أنّهم لم يبتعدوا عن القول بالتشبيه والتجسيم مايفصلهم عنه ،سوى إعادة ماقالوه في شيء من اللف والالتواء في مراوغة خبيثة ، وبذلك شوهوا من وجه الاسلام الأغر ، فضلّوا وأضلّوا .

وهؤلاء هم الأشاعرة بالذات ومن لفّ لفّهم من المتشدقين بالسلفية من غير دراية «واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون ـ البقرة : ١٧٠» .

وفيما يلي بعض ماذكره أبو الحسن الاشعري وأذنابه ومن حذا حذوه في الأخذ بظاهر المتشابهات، لاثبات الوجه والعين واليد والرجل وسائر الاعضاء والجوارح لله سبحانه ، من غير بيان الكيف ولاتشبيه بشيء من المخلوقين ـ فيما زعموا ـ على غرار مانقلنا من كلام الجواربي حرفاً بحرف .

قال أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري : بالله نستهدي واياه نستكفي ولاحول ولاقوة إلّا بالله وهو الله المستعان . أمّا بعد فمن سألنا فقال : أتقولون ان لله سبحانه وجهاً ؟ قيل له : نقول ذلك ، خلافاً لما قاله المبتدعون ، وقد دلّ على ذلك قوله عزوجل :

١ ـ «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ـ الرحمان : ٢٧» .

قال : فان سألنا أتقولون ان لله يدين ؟ قيل : نقول ذلك ، وقد دل عليه قوله عزوجل :

٢ ـ «يد الله فوق أيديهم ـ الفتح : ١٠» .

٣ ـ وقوله عزوجل : «لما خلقت بيدي ـ ص : ٧٥» .

٤ ـ وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «ان الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته». قال: فثبتت اليد.

٥ـ وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ ان الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده .

٦ـ وقال عزوجل: «بل يداه مبسوطتان ـ المائدة :٦٤» .

٧ـ وجاء عن النبي ﷺ أنّه قال : كلتا يديه يمين .

٨ـ وقال عزوجل : «لأخذنا منه باليمين ـ الحاقة :٤٥» .

قال : وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي ويعني به النعمة ، واذا كان الله عزوجل انما خاطب العرب بلغتها ومايجري مفهوماً في كلامها ومعقولاً في خطابها ،وكان لايجوز في لسان أهل البيان أن يقول القائل : فعلت بيدي ويعني النعمة، بطل أن يكون معنى قوله عزوجل بيدي النعمة . وذلك أنّه لايجوز أن يقول القائل : لي عليه يد بمعنى : عليه نعمة [1] .

قال :وقد اعتل معتل بقول الله عزوجل :«والسماء بنيناها بأيد ـ الذاريات:٤٧» قالوا : الأيد القوة . قيل لهم : هذا التأويل فاسد من وجوه ، أحدها : أنّ الأيد ليس بجمع لليد التي بمعنى النعمة ، لأنّها تجمع على «أيادي» . الثاني: أنّ مخالفنا لايثبت قدرة واحدة فكيف بقدرتين. الثالث: لماثبتت لآدم مزية على ابليس في قوله عزوجل « لما خلقت بيدي » لو كانت اليد بمعنى القدرة ،لأنّ ابليس أيضاً مخلوق بقدرته تعالى [2] .

وعقد محمد بن اسحاق بن خزيمة باباً في كتابه «التوحيد والصفات» حاول فيه اثبات الوجه وسائر الجوارح له تعالى ، وتشبث بآيات وروايات ، منها قوله تعالى «ويبقى وجه ربك» المتقدم في كلام الاشعري ، ومنها :ـ

٩ـ قوله تعالى : « كل شيء هالك الا وجهه ـ القصص :٨٨» .

١ـ الابانة للاشعري ط حيدر آباد ص ٤٠ ـ ٤١

٢ـ نفس المصدر ص ٤١ ـ ٤٢

١٠- وقال: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه -الكهف :٢٨».

١١- وقال : «فاينما تولوا فثم وجه الله -البقرة :١١٥» .

١٢- وقال : «للذين يريدون وجه الله -الروم :٣٨» .

١٣- وقال : «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله -الروم :٣٩» .

١٤- وقال : «انما نطعمكم لوجه الله -الانسان :٩» .

١٥ - وقال : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى - الليل : ١٩ -٢٠» .

١٦- ولما نزلت الآية «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم - الانعام : ٦٥» قال رسول الله ﷺ : «أعوذ بوجهك» .

١٧- وقال رسول الله ﷺ فى دعاء : «وأسألك لذة النظر الى وجهك» .

قال ابن خزيمة : ألا يعقل ذو الحجى -ياطلاب العلم -أنّ النبى ﷺ لايسأل ربه مالا يجوز كونه ! ففى مسألة النبى ﷺ ربه لذة النظر الى وجهه أبين البيان وأوضح الوضوح أن الله - عزوجل - وجهاً يتلذذ بالنظر اليه [1] وقد أكثر ابن خزيمة من سرد روايات جاء فيها ذكر «وجه الله» ، لافائدة فى تكرارها .

كما عقد باباً آخر [2] ذكر فيه صورة ربنا جل وعلا ! وأسهب بغير طائل .

ثم ذكر حديث أبى هريرة :«اذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ولايقل قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فان الله خلق آدم على صورته» أى صورة هذا المضروب [3] وحديثه الآخر : «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق

١- رسالة «التوحيد والصفات» لابن خزيمة ص١٠-١٣

٢- نفس المصدر ص١٩- ٣٦

٣- نفس المصدر ص٣٦-٣٧ . وراجع :كتاب الاسماء والصفات للبيهقى ص٢٩٠ .

ينقص حتى الآن»[1] .

وهكذا عقد الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي فصلاً ـ في كتابه «الاعتقاد» الذي ألفه على مذهب السلف ـ ذكر فيه آيات وأخباراً في اثبات صفة الوجه واليدين والعين[2] .

لكنه في آخر الفصل أوّل ذلك كلّه بما لا يستلزم التشبيه ، تمسكاً بقوله تعالى « ليس كمثله شيء » وبدلائل من العقل والنقل . ومن ثمّ نعتبره الحد الوسط بين الأشاعرة ومشرب الإعتزال .

وعقد ابن خزيمة في كتابه «الصفات» باباً لاثبات الرجل والقَدَم لله تعالى ، حاملا على أصحاب التنزيه الذين ينفون الاعضاء عنه تعالى ، قائلاً : رغم انوف المعطّلة الجهمية الذين يكفرون بصفات خالقنا التي أثبتها الله في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال تعالى : «ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ـ الاعراف : ١٩٥» فأعلمنا ربنا جل وعلا أن من لا رجل له ولا يد ولا عين ولا سمع فهو كالانعام بل هو أضل .

ثمّ جعل يسرد من أخبار جاء فيها ذكر «الرجل» لله تعالى ، منها : ـ

١٨ ـ ما رواه المغيرة بن الأخنس عن عكرمة مولى ابن عباس «ان رسول الله صلى الله عليه وآله أنشد قول امية بن الصلت ـ وكان ممن تنصر في الجاهلية وكان ينشد الأشعار في تمجيد الله ـ :

رجل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للاخرى وليث مرصد

قال صلى الله عليه وآله : صدق . ثم قال :

والشمس تصبح كل آخر ليلة ... حمراء يصبح لونها يتورد

---

١ ـ المصدر ص ٤٠ ـ ٤١ . والبيهقي ـ كتاب الاسماء والصفات ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

٢ ـ الاعتقاد على مذهب السلف اهل السنة والجماعة ص ٢٩ ـ ٣٠ .

تأبى فما تطلع لنا فى رسلها الا معذبة والا تجلد

فقال رسول الله ﷺ : صدق[1] » .

١٩ ـ وماروا ابن سيرين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «وأمّا النار فيلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ ويلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه ، هناك تمتلىء ويدنو بعضها الى بعض وتقول : قط قط» . هذا الحديث رواه أهل الحشو فى تفسير قوله تعالى : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ـ ق : ٣٠»[2] .

٢٠ ـ قال تعالى : «يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون ـ القلم: ٤٢-٤٣» .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن أبى سعيد ، قال :سمعت النبى ﷺ يقول : «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً» .وهكذا أخرج ابن منده فى كتابه «الرد على الجهمية» عن أبى هريرة، الحديث.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن منده عن ابن مسعود ،قال : «يكشف عن ساقيه تبارك وتعالى»[3] .

* * *

هكذا زعمت المشبهة ومن على شاكلتهم من حشوية وأشاعرة ، ان لله تعالى يداً ورجلاً وساقاً ، ووجهاً وعيناً وغيرها من أعضاء وجوارح . هى حاجة المفتقر

---

١ ـ رواه احمد فى مسنده ج١ ص٢٥٦ . وابن خزيمة فى التوحيد والصفات ص٩٠ .

٢ ـ رواه البخارى فى صحيحه ج٦ص١٧٣ عندتفسير سورة ق .وابن خزيمة فى التوحيد والصفات ص٩٤ . والسيوطى فى الدر المنثور ج٦ ص١٠٧ .

٣ ـ الدر المنثور ـ جلال الدين السيوطى ـ ج٦ ص٢٥٤. وراجع : صحيح البخارى ج٦ ص١٩٨ عندتفسير سورة القلم .

الى عضو وآلة في مزاولة الأمور ..! ونحن في غنى عن اقامة البرهان على استغنائه تعالى عن الاستعانة بشيء على الاطلاق ، لأنّ الحاجة مطلقاً صفة الممكن بالذات ، والله تعالى واجب الوجود بالذات ، وهومرجع الحوائج والافتقارات وملجأ كل ذى حاجة وفقير ، ويستحيل أن تعرضه تعالى حاجة أوافتقار الى شيء سوى ذاته المقدسة ، وإلّا لانقلب الغنى الواجب بالذات الى الفقير الممكن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . « يـاأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هـو الغنى الحميد ـ فاطر : ١٥» .

وإذا لاحظنا صفة الغنى فى ذاته المقدسة «وربك الغنى ذوالرحمة ـ الانعام : ١٣٣» ورجعنا الى الآيات الكريمة التى تصفه تعالى بالغنى الذاتى فى جميع شؤونه تبارك وتعالى «فان ربى غنى كريم ـ النمل : ٤٠» . «وأنه هو أغنى وأقنى ـ النجم: ٤٨ » كفانا مؤونة البحث عن تنزيهه تعالى عن الاعضاء والجوارح . انها آيات محكمات لها صراحة وموافقة لحكم العقل الرشيد ، هن ام الكتاب ويجب ارجاع ما ظاهره التنافى لها اليها فى ضرورة الدين . وعليه فكل آية أوقول مأثور جاء فيه ذكر الوجه أواليد أو العين لله تعالى فمؤول الى معان اخر غير ظاهرها اللغوى البحت .

وحاول بعض المشبهة وكذا الأشاعرة تحويراً فى اسناد الجوارح الى الله ، فقالوا : له يد لاكالايدى ، ووجه لاكالوجوه ، وعين لاكالعيون ، اوان له يداً بلا كيف . . . الخ ، أى لاينبغى أن يسأل : كيف هذه اليد التى أثبتّموها لله تعالى ، وكيف هذه الرجل التى يضعها الجبار فى جهنم فتقول : قطقط ؟!

لكنها محاولة عقيمة وفاشلة الى حدبعيد ، اذلايفرق فى حكم العقل بين يد ويد أوجارحة وجارحة ، انه تعالى مستغن عن استعمال جارحة اطلاقاً ، سواء أكانت على نحو جوارح الناس أم كانت نحواً آخر ، اذلو كانت له تعالى جارحة ، فمعناه انه تعالى بحاجة اليها ، مهما كانت نوعيتها . كما أنّ اثبات الاعضاء ـ على أىّ نحو

كانت ـ يستدعي تركبه تعالى منها ، والتركيب في ذاته المقدسة مستحيل ، نظراً لان المتركب من الاجزاء محتاج اليها في تركيبه ، الامر الذي يمتنع بشأنه تعالى اطلاقاً .

* * *

أمّا الآيات التي تمسكوا بها فلادلالة لها على ثبوت عضو له تعالى ، حتى في ظاهر تعابيرها البديعة ، فضلاً عن امكان تأويلها الى مايتوافق ومحكمات الآيات والعقول . ولنذكر من الآيات ماجاء فيها ذكر الوجه والعين واليد واليمين والساق على الترتيب . وننظر فيما خرجه العلماء في تأويلاتها الحكيمة ، ثم لنتعرض لما تشبثوا به من أحاديث .

الوجه

ذكر «الوجه» مضافاً اليه تعالى في القرآن في أحد عشر موضعاً ، في البقرة: ١١٥ و٢٧٢ . والانعام : ٥٢. والرعد : ٢٢ . والكهف :٢٨ . والقصص : ٨٨. والروم ٣٨ و٣٩ . والرحمان : ٢٧ . والانسان : ٩ . والليل : ٢٠ . وليس واحد من هذه المواضع مراداً به العضو الذي فيه الأنف والعينان . بل اما بمعنى الذات اوبمعنى القصد اوالتقرب والزلفى لديه تعالى، ولايمكن ارادة الوجه بمعنى العضو المعروف بتاتاً : ـ

قال تعالى : «كل شيء هالك الاوجهه ـ القصص : ٨٨ » . وقال : «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذوالجلال والاكرام : الرحمان ٢٧» . ليس المعنى أنّ الباقي بعد فناء كل شيء هو وجهه بمعنى العضو ، بل المراد : لايبقى شيء سوى ذاته المقدسة تبارك وتعالى ، أي كل شيء هالك الاهو . فجاء الوجه في هاتين الآيتين بمعنى الذات لاغير . ونستغرب كيف فسر الأشعري وتابعوه «الوجه» في الآية بمعنى العضو ! في حين أنّ هذا التفسير تحريف واضح بمدلول الآية الظاهري ، يعرفه

كل من ألقى الى الآية نظرته ولو بدوية . نعم قد يخفى ذلك على من كان على بصره غشاوة .

وقال تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ـ البقرة : ١١٥» . أيضاً بمعنى ذاته المقدسة ، المحيطة بهذا العالم احاطة علم وتدبير ، لايخلو منه مكان ولايحويه مكان دون مكان . والاية رد على اليهود كانت تزعم أنّ الصلاة تجب الى البيت المقدس كما كانت قبل تحويل القبلة الى البيت الحرام ، وقامت تعير على المسلمين هذا التحويل المفاجيء : ان كان الاتجاه الى البيت المقدس اتجاهاً الى الله ـ كما كان من ذى قبل ـ فالاتجاه الى الكعبة اتجاه الى غيره تعالى. وان كان الاتجاه اليه هو الاتجاه الى الكعبة ، فالاتجاه السابق كان الى غيره تعالى هذا هو الاعتراض الذى وجهه اليهود الى المسلمين . «سيقول السفهاء من الناس ماوليهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ـ البقرة : ١٤٢» .

فجاءت الآية الكريمة رداً حاسماً على هذا الاعتراض ، انه تعالى لم ينحصر فى جهة أو مكان ، «قل لله المشرق والمغرب ـ البقرة :١٤٢» .«ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ـ البقرة : ١١٥» . أى أنّ الجهات كلها لله وتحت ملكه ، لايختصّ به مكان دون مكان ، وإنّما كانت النسبة إليه تشريفية محضة ، فإن كان الله أمركم بالاتجاه الى البيت المقدس ، لم يكن ذلك لسبب غير التشريف والاعتبار ، لالأنّه مكانه الخاص أو أنّه تعالى حالّ فيه جل شأنه .فهكذا اقتضت المصلحة تحويل هذا الاتجاه العبادى الى الكعبة وهو بيت الله العتيق ، له نسبة تشريفية قديمة اليه تعالى ، لالشيء آخر سواه . « وماجعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ،وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ـ البقرة: ١٤٣ » .

فقوله : «فثم وجه الله» يعنى : أينما اتجهتم فى عباداتكم فثمّ اتجاه الى الله تعالى ، لانه هو المقصود بالعبادة الخالصة لوجهه الكريم . وإنّما جاء الامر باتجاه

خاص ، لمصلحة فى ذلك ، ربما كانت وحدة الاتجاه العبادى لجميع المسلمين فى عامة عباداتهم ، الامر الذى كان يشد من وحدتهم فى سائر الامور .

وقال تعالى: «انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكوراً ـ الانسان: ٩» ، أى لقصده ، وان ليس المقصود من هذا الاحسان سوى التقرب والزلفى لديه تعالى ، فهو المقصود بالذات لا المكافئة ولا الثناء . وهكذا قوله : «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ـ الروم : ٣٩» أى كانت خالصة لله . الى غيرها من آيات نظائر . والوجه بمعنى القصد كثير فى القرآن وفى الشعر . قال تعالى : «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ـ النساء : ١٢٥» أى أخلص قصده الى الله . وأنشد الفراء .

أستغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل

أى اليه القصد والعمل . وغيره من أشعار استشهد بها الشريف المرتضى لبيان أوجه المعانى المقصودة من «الوجه» فى الاستعمال ، وقد استوفى البحث حقه ، فراجع [١] .

العين

ذكر العين ـ مضافة اليه تعالى ـ فى القرآن فى خمسة مواضع ، أحدها مفردة فى سورة طه : «وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ـ ٣٩ » . خطاباً مع موسى عليه السلام . والباقى جمعاً : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ـ هود : ٣٧ » . «فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ـ المؤمنون : ٢٧» . «تجرى بأعيننا ـ القمر : ١٤» . الثلاثة خطاباً مع نوح عليه السلام . « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا الطور : ٤٨» . خطاباً مع محمد صلى الله عليه وآله . والمراد فى الجميع هى الرعاية الخاصة .

اذ هذا النحو من الاستعمال لا يقصد منه سوى هذا المعنى حتى فيمن كانت له

١ـ الامالى ج١ ص٥٩٠ـ٥٩٣ . المجلس :٤٥ .

الجارحة المعهودة .

وذلك لأنّ دخول الباء عليها متعلقة بفعل مذكور ، يجعلها ظاهرة فى معنى الرعاية ، أمّا الجمود على ظاهر اللفظ حينئذ فيقتضى وقـوع الفعل المذكور فى نفس الجارحة ، وهو فاسد قطعاً ، فليس المراد سوى وقوعه تحت الرعاية الخاصة .

وأيضاً لو كان المراد نفس الجارحة ، لم يصح الإفراد ولاالجمع فى مثل الآيات المذكورة ، حيث اضافتهاالى شخص واحد .فاذا قلت : إنّك تفعل بعينى أوبأعيننا ، لم يصح وأنت ذوعينين إذاكنت قصدت الجارحة الخاصة . أمّـا ارادة الرعاية والعناية الخاصة فصحيحة ، كما فى قولهم ـ عند تشييع مسافر ـ سر فعين الله ترعاك ، أى رعايته الخاصة تحفظك عن الأخطار .

اليد

ذكرت اليد فى القرآن مضافة اليه سبحانه فى اثنى عشر موضعاً [1] ، منها فى سورة المائدة ـ٦٤ـ « وقالت اليهود يدالله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» . غل اليد وبسطها كنايتان عن الامساك والانفاق ، كما فى قوله تعالى : « ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط ـ الإسراء : ٢٩» . اذليس المقصود شد يديه الى رقبته كالكسير ، ومدهما الى طرفيه افقياً كلاعب رياضة . غير أنّ صاحب الذوق الاشعرى لايرى سوى الجمود على ظاهر التعبير ، بعيداً عن ذوق العرب الرقيق .

وفى سورة آل عمران : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقيرونحن

١ـ آلعمران : ٧٣ و٢٦ . المائدة : ٦٤ مكررة . المؤمنون : ٨٨ . يس : ٧١ و٨٣ ص:٧٥ .الفتح : ١٠ .الحديد : ٢٩ . الملك:١ . الذاريات . ٤٧

أغنياء ـ ١٨١ ». تعبير آخر عما جاء فى سورة المائدة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقوله تعالى : « قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ـ آل عمران : ٧٣ » . وقوله : « وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ـ الحديد : ٢٩ » . أى فى ملكه وتحت اختياره ، ومن ثم عقبه بايتاء من يشاء دليلا على ارادة هذا المعنى ، اذ ليس الفضل شيئاً ملموساً قابلا للامساك باليد.

وكذا قوله : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون ـ يس : ٨٣ » . وقوله : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ـ الملك : ١ ». عبارة أخرى عن قوله : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير ـ آل عمران : ٢٦ » . يكون المقصود استقلاله تعالى بملكوت كل شىء « وهو يجير ولايجار عليه ان كنتم تعلمون ـ المؤمنون : ٨٨ » . أى يمنع من يشاء ويعطى من يشاء لا يزاحمه فى ملكه أحد وهو الله الواحد القهار .

وقوله تعالى : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ـ ص : ٧٥ » كناية عن مزيد عناية بشأن الانسان ، خلقه تعالى بلاتوسيط سبب كمافى سائر المخلوقات. وهكذا قوله : « أولم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ـ يس : ٧١ » كناية عن تفرده تعالى بخلقهن لم يشركه أحد فى الخلق ، يعنى انهن مصنوعات لله تعالى، وهم يتصرفون فيها تصرف الملاك كأنّها مصنوعات أنفسهم ، فبدلاً من الشكر يكفرون .

وقوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون ـ الذاريات : ٤٧ » أى بقوة واحكام ، كما فى قوله : « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولى ـ

الأيدى والأبصار ـ ص : ٤٥ » .أى اولى قوة وبصيرة ، زادهم بصطة فى العلم والجسم .

وأما قولة الاشعرى : لايجوز فى لسان العرب أن يقول القائل : عملت كذا بيدى يعنى به النعمة .. فكلام شعرى ودعوى بلا علم ، اذ اليد فى الآيات المذكورة كان المقصود بها الحصر فى ملكه تعالى . وفى آية الذاريات القوة والاحكام. وقد خبط الأشعرى فى انكاره الجمع على « الايدى » اذ التى لاتجمع على «الايدى» هى التى بمعنى النعمة، التى تجمع على « الايادى » . ولا بحث عنها فى آية الذاريات المقصود منها القوة ، وهى تجمع على « الايدى » بلا كلام ، كما فى سورة ص: ٤٥ « اولى الأيدى والأبصار » . كما أنّ النافى للقدرة إنّما ينفى قيام مبدئها بذاته المقدسة صفة زائدة ، ولاينفى قدرته تعالى على الاطلاق . وهذا تلبيس من الأشعرى فى اسناد مالم يقل به خصمه .

كما أنّ اليد فى «خلقت بيدى» كانت بمعنى العناية الخاصة ولم تكن بمعنى القدرة كمازعمه الأشعرى رداً على خصومه أهل العدل والتنزيه .

وقوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يدالله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ـ الفتح : ١٠ » . أى أنّ يد رسول الله ﷺ التى فوق أيديهم فى المبايعة ، هى يد الله العليا، لأنّ يد الرسول يد المرسل،فمن كان يبايع رسول الله ﷺ فإنّما يبايع الله ، ومن ثمّ فإنّ الناكث لبيعته ناكث لما عاهد عليه الله .

وأمّا قوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ـ الحاقة : ٤٤-٤٦» . فاليمين يمين المأخوذ ، أى لو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الأقوياء بمن يتكذب عليهم ،معالجة بالسخط والانتقام . فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيد المقتول

وتضرب رقبته . وخص اليمين عن اليسار لأنّ القاتل اذاأراد ايقاع الضرب فى قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد ايقاعه في جيده و أن يكـفحه بالسيف ـ وهو أشد على المصبور لنظره الى السيف وهو واقع به ـ أخذ بيمينه [1]. وعلى أىّ حال فهذا التعبير كناية عن قتل الذل والهوان ، وليس كماذهب أهل الحشو الذين ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون .

الساق

قال تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعـون الى السجود فلا يستطيعون ـ القلم : ٤٢ » . قال الزمخشرى : الكشف عن الساق والابداء عن الخدام [2] : مثل يضرب لشدة الأمر وصعوبة الخطب. وأصله فى الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن وابداء خدامهن عند الهرب . قال حاتم :

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها   وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال ابن الرقيات :

كيف نومى على الفراش ولما   تشمل الشام غـارة شعـواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى   عن خدام العقيلة العـذراء

فمعنى « يوم يكشف عن ساق » : يوم يشتد الامر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق ، كما تقول للا قطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل. وانما هو مثل فى البخل . وأما من شبه [3] فلضيق عطنه [4] وقلـة نظره فى علم البيان . والذى غره

١ـ راجع : الكشاف للزمخشرى ج ٤ ص ٦٠٧ ط بيروت .

٢ـ الخدام جمع خدمة وهي الخلخال، وذلك كرقاب جمع رقبة .

٣ـ اى من تشبث بهذه الآية من اصحاب التشبيه لاثبات ساق له تعالى ورجل ، كما تقدم نقله .

٤ـ اى ضيق مجال فكرته وقصور عقله

حديث ابن مسعود : « يكشف الرحمان عن ساقه : فاما المؤمنون فيخرون سجداً، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقا طبقا كأن فيها سفافيد [1] » . ومعناه : يشتد الامر ذلك اليوم ويتفاقم هوله ، وهو الفزع الاكبر يوم القيامة .قال :ولو كان حيث ذهب المشبهة لكان من حق الساق أن تعرف، لانها ساق معهودة عندهم وهى ساق الرحمان سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون [2] .

الرجل والقدم

لم يأت فى القرآن ذكر رجل أو قدم لله تعالى ،وإنّما تشبث المشبهة بأحاديث زعمتها دالة على ذلك حسبما تقدم.

وأغرب من الجميع استدلال ابن خزيمـة بآية الاعراف : ١٩٥ ، اذ تعبير الآلهة (الاصنام) بعدم الاعضاء والجوارح انما كان بالقياس الى سائر الناس ، حيث هم أفضل مما يعبدون مما لا حركة له ولانشاط . فلا دليل على وجودها لله تعالى ، اذ الكل معترفون بأنّه خالق السماوات والارض رب العالمين . أما هـذه الاصنام التى يعبدونها من دون الله، فانها خشب مسندة جماد لافعالية لها ولا عمل، فهى لاتضر ولا تنفع ، فكيف يعبدونها ! ؟

أمّا رواية عكرمة لشعر امية بن الصلت ، فواضحة الفساد ، لاحتوائها على مناكير ، فضلاً عن اتهام عكرمة ذاته ، فقد كذّبه مجاهد وابن سيرين ومالك ،وكان يرى رأى الخوارج ،وهكذا انسان لايعتمد على رواياته ،لاسيما فيما يخص جانب التوحيد والصفات ، وعلى غرارها رواية أبى هريرة لحديث جهنم ، فان أباهريرة بنفسه متّهم فى أحاديثه ، فضلاً عن استدعائها التجسيم فى ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك .

١ـ جمع سفود ـ بالتشديد ـ وهى حديدة يشوى بها اللحم .

٢ـ راجع : الكشاف ج ٤ ص ٥٩٢-٥٩٤ .

ثم لو صح الحديث ـ حسبما زعمه أهل السنة ـ فإنّ له تأويلاً تعرض له العلماء من وجوه ذكرها الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى . منها: أن يكون المراد اذلال جهنم حيث بالغت فى الطغيان وطلب الزيادة ، فأذلّها الله بأن وضعها تحت قدمه ، وليس المراد حقيقة القدم ، والعرب تستعمل ألفاظ الاعضاء فى ضرب الامثال ولا تريد أعيانها ، كقولهم: «رغم أنفه» و«سقط فى يده» ونحو ذلك[1] وذكر تأويلات اخر لابأس ببعضها ، فراجع.

واما ماذكره الاشعرى من وجوب الوقوف عند ظاهر اللفظ حتى يقوم دليل على خلافه ، فحق . لولا مايبدو عليه من مراوغة خبيثة ، اذ حجية ظواهر الكلام مما ثبتت فى الاصول ، وهو اصل من الاصول العقلائية ، وعليه بنيت مجارى الافادات والاستفادات لدى أهل المحاورة من جميع الأعراف العامة والخاصة. لكن هذا فيما لم يقم دليل من عقل أو نقل قطعى يصلح قرينة صارفة لظاهر الكلام ، وعند ذلك تكون القرينة هى الحجة القاطعة دون أصل وضع الكلمة اللغوى . هذا صحيح ، غير أنّ أمثال الأشعرى إنّما تفوهوا بهذا الكلام تمويهاً وتدليساً على العوام، اذ لم يتعرض أهل العدل والتنزيه لتأويل كل ظاهر من الكلام ، سوى ماقام دليل قاطع على ارادة خلاف ظاهره من عقل رشيد أو محكم فى الكتاب والسنة .

وقد تقدم الفارق بين الأشاعرة الذين يؤولون المحكم على حساب المتشابه كتأويل الاشعرى « لاتدركه الابصار » على حساب التحفظ على ظاهر « الى ربها ناظرة » وأهل العدل الذين يؤولون المتشابه على حساب المحكم ، وكم بين الطريقتين من فرق واضح، وكم ابتعدت الاشاعرة عن منهج الاستقامة فى استنباط المفاهيم الاسلامية العريقة ، لان الابتعاد عن منهج العقل ابتعاد عن صميم الاسلام ، فضلاً عن استدعاء منهج الأشعرى تشويهاً لمبادىء الاسلام واصوله الضافية ، وذلك حط من كرامة

---

١ ـ فتح البارى ج٨ ص٤٥٧ . وراجع : مشكل الحديث لابن فورك ص٤٤

هذا الدين وتحريف بمواضع الكلم ، وذنب لايغفر .

مسألة الاستطاعة

من المسائل التى وقع فيها الخلاف بين الأشاعرة وأهل العدل ، هى مسألة «الاستطاعة» : هل للعبد قدرة على اختيار مايريد وترك مايكره ، أم ليس له اختيار لاعلى فعل ولاعلى ترك ، وإنّما هومضطر على الفعل أوالترك وفق ماأراد الله.

وبعبارة أوجز : هل للعبد ارادة فيما يوجده من أفعال ، أم لاارادة له ، وانما يفعل مايفعل بارادة الله ، كآلة صماء فى يد الفاعل المختار، وهو الله الواحد القهار ؟

ذهب أهل الجبر ـ وفى مقدمتهم أبو الحسن الاشعرى ـ الى سلب اختيار العباد، وإنّماهى ارادة الله مسيطرة على عالم الوجود، فلايقع فعل ولايتحقق عمل من الاعمال إلّا بإرادته تعالى ، لامدخل لاختيار العباد وإرادتهم ، بل لااختيار لهم ولاارادة .

ولشناعة هذا المذهب وبداهة بطلانه ، ابتدع الاشعرى مسألة هى مسألة «الكسب» قال :ليس للعباد اختيار فيما يفعلونه، وإنّما لهم اكتساب فى الأفعال ، بسبب الإرادة الحادثة .

قالوا : هناك ارادتان ، قديمة وحادثة ، فارادة الله القديمة هى العلة الاصلية لوقوع مايقع من أفعال وأعمال ، وان كانت منسوبة الى العباد ، وهذه النسبة انما جاءتهم من قبل ارادتهم الحادثة ، حيث إنّهم أرادوا فعل شىء أو تركه، وهذه الارادة وان كانت لم تؤثر فى وقوع ماوقع ، لكنها صارت سبب هذا الانتساب ، ومن ثم كانت نسبة الأفعال الى العباد نسبة اكتساب ، فهم مكتسبون لها بسبب ارادتهم هذه الحادثة تجاه ارادة الله القديمة التى هى العلة والسبب ، وسابقة على ارادات العباد.

وعليه فالعباد مكتسبون لافعالهم وليسوا مختارين فيها ، وبذلك قال : إنّ لارادة العباد تأثيراً ما ، وأراد جهة الاكتساب والانتساب لاالتأثير فى الوقوع ، أمّا تأثير إرادتهم فى وقوع الافعال وعدمه فينفيه ، لأنّه تحت إرادة الله المستقلة السابقة على هذه الإرادات الحادثة .

وقد شنع عليهم هذا الرأى - أيضاً - بأنه اذا لم يكن لارادة العبد واختياره تأثير فى الفعل وعدمه، فما موقعية مسألة الكسب لتكون فاصلة بين الجبر والاختيار ؟ ! وقد تقدم [1] أنّ الاشعرى مهما حاول التخلص عن شناعة القول بالجبر، فإنّه جبرى خالص، وإنّما محاولته تلك مراوغة ونفاق، ولامفهوم لمسألة الكسب اطلاقاً.!

واليك من تشبثات الاشاعرة وسائر أهل الجبر فيما زعموه دليلا على نفى الاستطاعة وسلب القدرة عن العباد :-

١- قال تعالى :«قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون - الصافات : ٩٥-٩٦» أى عملكم، على أن «ما» مصدرية أو معمولكم، على أن «ما» موصولة. فعلى الاول يكون نفس الايجاد والايقاع من فعله تعالى. وعلى الثانى فالعمل المتحقق خارجاً هو فعله تعالى. وعلى كلا التقديرين يثبت أن لاعمل للعبد. قاله التفتازانى.

٢- وقوله تعالى : «وخلق كل شىء فقدره تقديراً - الفرقان : ٢».

٣- وقوله : « ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه - الانعام : ١٠٢».

٤- وقوله: «قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار - الرعد :١٦».

٥- وقوله : «الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل - الزمر :٦٢».

٦- وقوله:«ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا اله الا هو - غافر:٦٢».

قال التفتازانى : أى خالق كل شىء ممكن، بدلالة العقل، وفعل العبد شىء فهو داخل فى عموم مخلوقاته تعالى.

٧- وقوله تعالى : «أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون - النحل :١٧»،

١- تقدم فى ص ٧١ ان ابا الحسن الاشعرى يرى من تعلق القدرة الحادثة بالمقدور كتعلق العلم بالمعلوم ليس له تأثير أصلا. وقد تكلمنا هناك عن مذهب الاشعرى فى الجبر، ووهن مسألة الكسب التى ابتدعها للتخلص عن شناعة القول بالجبر، الامر الذى كان فراراً من المطر الى الميزاب.

قال التفتازاني: وهذا مقام التمدح بالخالقية، وأن الخالقية هي مناط استحقاق العبادة فلو كان غيره تعالى خالقاً لاستحق العبادة أيضاً .

٨- وقوله : «هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض -فاطر :٣» .

٩- وقوله : « هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى - الحشر : ٢٤ » .

١٠- وقوله : « ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين -الاعراف :٥٤» .

١١- وقوله : « والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون - النحل : ٢٠» .

١٢- وقوله :«الذى خلق السموات والارض ومابينهما - الفرقان٥٩».قالوا: وأعمال العباد فيما بين السموات والارض ،فيجب أن تكون من خلق الله .

١٣- وقوله : «ان ربك فعال لمايريد -هود : ١٠٧» . قالوا : وفي أفعال العباد مايريده الله تعالى فيجب انيكون فاعلا لها .

١٤- وقوله : «ماأصاب من مصيبة في الارض ولافي أنفسكم الافي كتاب من قبل أن نبرأها -الحديد :٢٢» .

١٥- وقوله : «واختلاف ألسنتكم وألوانكم -الروم :٢٢» . فما يخرج من اللسان كاللون مخلوق لله.

١٦- وقوله: «وأسروا قولكم أواجهروا به انه عليم بذات الصدور، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير - الملك : ١٣ و١٤» . فكل سرّ أوجهر من القول فهو مما خلقه الله.

١٧- وقوله : « ربنا واجعلنا مسلمين لك - البقرة : ١٢٨ » . يدل على أنّ الاسلام والايمان من قبله تعالى .

١٨- وقوله : «وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة -الحديد :٢٧».

١٩- وقوله : «وأنه هو أضحك وأبكى -النجم : ٤٣» .

٢٠ـ وقوله: «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ـ الطور : ٣٥» .

٢١ـ وقوله : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ـ الرعد : ١٦» .

٢٢ـ قالوا : ان الواحد منا لو كان محدثاً لتصرّفاته لوجب أن يسمى خالقاً لها، والأمة قد اتفقت على أن «لا خالق الا الله» .

٢٣ـ وقالوا : لا تجتمع قدرتان على مقدور واحد ، فإمّا أن يكون المؤثر في ايجاد الفعل هي القدرة القديمة (قدرة الله) او القدرة الحادثة (قدرة العبد) . وبما أنّ القدرة القديمة سبقت الحادثة ، فهي المستقلة بالتأثير المستغنية عن علة اخرى هي متأخرة وهي القدرة الحادثة .

٢٤ـ وأيضاً فان لازم القول بتأثير قدرة العبد ـ في ايجاد الافعال ـ هو الشرك مع الله في الخلق والايجاد ، ولا مؤثر في الوجود إلّا الله .

٢٥ـ وقالوا : لو كان العبد خالقاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها ، ضرورة أنّ ايجاد الشيء بالقدرة والاختيار لا يكون إلّا كذلك، واللازم باطل، فان المشي من موضع الى موضع قد يشتمل على سكنات متخللة وعلى حركات بعضها أسرع وبعضها أبطأ ، ولا شعور للماشي بذلك . وليس هذا ذهولاً عن العلم ،بل لو سئل لم يعلم . وهذا في أظهر أفعاله . وأمّا إذا تأملت في حركات أعضائه في المشي والأخذ والبطش ونحو ذلك وما يحتاج اليه من تحريك العضلات ومدّ الأعصاب ونحو ذلك فالأمر أظهر .

٢٦ـ وزادت المجبرة الصريحة تمسكاً بقوله تعالى:«ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون ـ الاعراف :١٧٩».

٢٧ـ وبقوله تعالى:«ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ، ولكن حق القول منّي لأملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ السجدة :١٣»ـ

٢٨ـ وبقوله : «ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ـ الانعام :١١١» .

٢٩ـ وبقوله : «وماتشاؤون الا أن يشاء الله ـ الانسان : ٣٠» .

٣٠ـ وبقوله : «ولو شاء الله ما أشركوا ـ الانعام : ١٠٧» .

٣١ـ وبقوله : «ولو شاء الله ما اقتتلوا ـ البقرة : ٢٥٣» .وغيرها من آيات جاء فيها ذكر المشيئة .وبآيات الهداية والضلالة منسوبتين الى الله[١] سنعرض لها فى فصل قادم .

٣٢ـ وأجاب أبو الحسن الأشعرى عن قوله تعالى: «وماخلقت الجن والانس إلّا ليعبدون ـ الذاريات : ٥٦» بأنّ الله عزوجل إنّما عنى المؤمنين دون الكافرين ، لأنّه أخبر أنّه ذرأ لجهنم كثيراً من خلقه ، فالذين خلقهم لجهنم وأحصاهم وعدهم وكتب باسمائهم وأسماء آبائهم وامهاتهم غير الذين خلقهم لعبادته .

٣٣ـ وعن قوله تعالى: «وماأصابك من سيئة فمن نفسك ـ النساء: ٧٩» بالحمل على الاستفهام الانكارى ، أى أتزعم أنّها من نفسك ؟! . جمعاً بينه وبين قوله : «قل كل من عند الله ـ النساء : ٧٨»[٢] .

٣٤ـ وعن قوله تعالى : « وما الله يريد ظلماً للعباد ـ غافر : ٣١ » . وقوله : «وما الله يريد ظلما للعالمين ـ آل عمران : ١٠٨» بأنه تعالى لايريد أن يظلمهم ، لأن يظلم بعضهم بعضاً ، إذ لم يقل : لايريد ظلم بعضهم لبعض. فلم يرد أن يظلمهم ،وان كان أراد ظلم بعضهم لبعض[٣] .

٣٥ـ وقالوا ـ فى قوله تعالى :«فتبارك الله أحسن الخالقين ـ المؤمنون: ١٤».وقوله تعالى : « واذ تخلق من الطين كهيئة الطير ـ المائدة : ١١٠ » . ـ : انّ الخلق هاهنا

١ـ راجع: الابانة لابى الحسن الاشعرى ص٦ وص٤٩ـ٥٩ .وشرح الاصول الخمسة للقاضى ص٣٨٢ ـ٣٨٧ وص٤٦٤ و٤٧٥. وشرح العقائد النسفية للتفتازانى ص٦٠ ـ٦١.

٢ـ الابانة ص٥٩

٣ـ الابانة ص٥٨

بمعنى التقدير [1] .

٣٦ـ واعترض عليهم بأنّ الكافر و الفاسق حينذاك مجبوران على الكفر والفسق فلايصح تكليفهما بالايمان والطاعة . فأجابوا : انه تعالى اراد منهما الكفر والفسق باختيارهما فلاجبر . كما أنّه علم منهما الكفر والفسق بالاختيار ولم يلزم تكليف المحال [2] .

والكلام في هذا المجال كثير اقتبسنا نماذج هي رؤوس مطالب القوم [3] حاولوا فيها اثبات شمول قدرته تعالى، بمايستلزم سلب القدرة عن العباد اطلاقاً على ايجاد فعل أو ترك ، وإنّماهم مضطرون فيما يفعلون ،لاارادة لهم ولااختيار . وبذلك حاولوا ـ فيما حسبوا ـ نفى الشريك عنه تعالى ، وطعنوا على أهل العدل بأنّهم يثبتون لله شركاء لاحصر لها ولاحدّ . قالوا : المجوس أسعد حالاً منهم ، حيث لم يثبتوا إلّاشريكاً واحداً ، وهؤلاء يثبتون شركاء لاتحصى [4] .

ونحن ـ في هذا العرض ـ نقدم فصولاً نبحث خلالها عن مسائل : «الاختيار» و«الإرادة» و«الأمر بين الأمرين» وعن نسبة مابين قدرة العبد وقدرته تعالى . وعن السر فى اضافة الافعال والمولدات اليه سبحانه ، ومااِلى ذلك من بحوث لها صلة بالموضوع ،وأخيراً نتعرج الى شبهات أهل الجبر وحلّ متشابهات آيات تشبثوا بها فى هذا المجال ، وتخريج تأويلها الصحيح انشاءالله تعالى ، ومنه التوفيق :ـ

١ـ شرح العقائد النسفية ص٦٢

٢ـ شرح العقائد النسفية ص٦٣

٣ـ ولتفصيل اكثر راجع اصل نظرية الجبر ، فى شرح المواقف للشريف الجرجانى ـ المرصد السادس ص٥١٥ .وراجع نقد النظرية باسلوب منطقى حكيم، فى محاضرات سيدنا الاستاذ ـ بقلم الفياض ـ ج٢ ص٤٤ـ ٧٧ .

٤ـ شرح العقائد النسفية ص٦١

الافعال الاختيارية

أما أهل العدل والتنزيه فوقفوا من مسألة «الاستطاعة» موقفاً نزيهاً، وقدّسوا ساحة قدسه تعالى أجمل تقديس، في هدى العقل الرشيد ومحكمات الآيات والآثار الصحيحة.

قالوا: ان الله خلق الخلائق لاشريك له في الخلق، ولاخالق سواه، وركب في كل مخلوق صفة وجعل لكل موجود أثراً. وجعل من أوصاف الأشياء وآثارها نوعين، منها مايصدر عنها صدوراً لا باختيارها ولاهي مقيدة بارادتها، كطلوع الشمس واشراقها، ونبت الشجر واثماره. ومنها مايصدر عنها صدوراً تحت اختيارها ومقيدة بارادتها، كمشي الدابة ووقوفها وطلبها للحشائش وأكلها.

قالوا: هناك فرق ضروري بين حركة يد المرتعش الحادثة لاعن اختياره، وتحريك اليد لتناول الطعام والشراب، المنضبط تحت الاختيار. كالفرق بين التنفس والتكلم، وهكذا بين نبات الشعر وحلقه، الاول لا اختياري والثاني اختياري.

والفعل الاختياري هو ماإذا شاء الانسان فعله أوشاء تركه، الامر الذي يجده الانسان في صميم فطرته فارقاً بين الامرين بديهياً لاغبار عليه.

كمايجد الانسان من نفسه الفرق بين تعلق الارادة بالعمل الذي يريده، وتعلق العلم به. حيث لاأثر للعلم في تحقق المعلوم، أما الارادة فهي الباعثة على تحقق المراد. وكذا القدرة على عمل هي التي جعلته تحت اختياره انشاء فعله أوتركه، ولاهكذا اثر للعلم بالنسبة الى المعلوم.

والخلاصة: أنّ هناك أفعالا اختيارية تصدر من الفاعل المختار حسب ارادته واختياره، يكون هو المسؤول عنها، تحسينا أوتقبيحاً، مدحاً أوذماً، ثواباً أوعقاباً. ولايسأل عنها غيره بتاتاً. لايؤخذ الجار بذنب الجار. ولاتزر وازرة وزر اخرى،

ومضاعفات كل عمل إنّما ترجع على العامل وتستند اليه تبعاته من خير أو شر، صلاح أو فساد، حق أو باطل.

هذا ما تشهد به ضرورة العقل وبداهة الوجدان، وعليه صحّ التكليف والتشريع وبعث الرسل وانزال الكتب، والامر والنهى، والوعد والوعيد، والمثوبة والعقوبة وما اليها، وإلّا لغى التكليف وبطل التشريع والبعث والزجر، ولم يكن موقع لتحسين أو تقبيح ولا استحقاق جزاء. ولأصبح تحسين المحسن على احسانه عبثاً كمدح الجميل على حسن صورته. وهكذا لغى ذم المسىء على اسائته كذم الدميم على قبح منظره وقدح القصير على قصر قامته أو الأعرج على عرج رجله.

ولنتساءل الأشاعرة: هل تجدون من انفسكم الفرق بين جود الكريم وصفاء اللؤلؤ؟ أو شح البخيل وسواد الفحم؟ فإن قالوا: نعم، سألناهم فإلى من يرجع مدح الجود إذا جاد الكريم، والى من يعود ذم الشح إذا بخل البخيل؟ فإن قالوا: الى الله قلنا: فلم يكن فرق بين الكريم واللئيم اذا كان كرم ذاك ولؤم هذا كلاهما من عند الله، غير داخلين تحت اختيارهما وارادتهما، وبالتالى لم يكن فرق بين كرم الكريم وصفاء اللؤلؤ، أو بين شح البخيل وسواد الفحم، فقد نقضتم ما اعترفتم به أوّلاً!

* * *

وقد دل صريح القرآن فى محكمات آياته الكريمة على صحة ماشهدت به العقول واعترفت به العقلاء، وذلك جميع الآيات التى جاء فيها ذكر الوعد والوعيد والامر والنهى، والتكليف والتشريع، والمثوبة والجزاء، والدعوة الى الايمان والخروج عن طاعة الشيطان، ومدح المؤمنين وذم الكفار والمنافقين. وهى تشكل غالبية آى القرآن الكريم ولنذكر منها شواهد:

١ـ قال تعالى: «ألا تزر وازرة وزر اخرى، وأن ليس للانسان الاماسعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزية الجزاء الأوفى ـ النجم: ٣٨ـ ٤١».

٢ـ وقال: «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم

مشكوراً ـ الاسراء : ١٩» .

٣ـ وقال: «ان الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ـ طه: ١٥».

٤ـ وقال: «فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون ـ الانبياء : ٩٤».

٥ـ وقال : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ـ الزلزله : ٧ـ ٨».

٦ـ وقال : «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ـ النساء : ١١٠» .

٧ـ وقال : «من يعمل سوءاً يجز به ـ النساء : ١٢٣» .

٨ـ وقال : «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات ـ الطلاق : ١٠».

٩ـ وقال: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ـ الانسان : ١٢» .

١٠ـ وقال : «ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون ـ الانعام : ١٤٦» .

١١ ـ وقال : « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب ـ الانعام : ١٥٧ » .

١٢ ـ وقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ـ النحل : ٩٦» .

١٣ـ وقال : « كل نفس بما كسبت رهينة ـ المدثر : ٣٨» .

١٤ـ وقال : «فأصابهم سيئات ما كسبوا ـ الزمر : ٥١».

١٥ ـ وقال : « لايكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت البقرة : ٢٨٦» .

١٦ـ وقال : « كل امرء بما كسب رهين ـ الطور : ٢١» .

١٧ـ وقال : «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ـ النساء:

«٣٢» .

١٨- وقال: «ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس - الروم: ٤١».

١٩- وقال: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم - غافر: ١٧».

٢٠- وقال تعالى: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم - البقرة: ٢٨». لو كان الله هو خلق الكفر فى الكافر لم يتوجه هذا التوبيخ. كما لاتوبيخ على الصحة والمرض والموت والحياة.

٢١- وقال: «ومامنع الناس أن يؤمنوا اذجاءهم الهدى - الاسراء: ٩٤». ماهذا الاستفهام الانكارى اذا كان الله هو الذى منعهم عن الايمان ؟!

٢٢- وقال: «وماذاعليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر - النساء: ٣٩».

٢٣- وقال: «ومالكم لاتؤمنون بالله - الحديد: ٨». فلولا أنّ الايمان موقوف على اختيارنا لم يستقم هذا الكلام، ولجرى مجرى أن يقول لهم: لم لاتطول قوائمهم أولاتبيض أبدانهم ونحو ذلك. ولكان للممتنع عن الايمان أن يقول: أنت الذى منعتنى عن الايمان ولم تخلقه فىّ، فكيف توبخنى عليه ؟!

٢٤- وقال: «فما لهم عن التذكرة معرضين - المدثر: ٤٩». ماهذا الانكار لو كان اعراضهم بفعل الله ؟!

٢٥- وقال تعالى: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - الكهف: ٢٩». دليلا على أنّ الكفر والايمان كليهما واقعان تحت اختيارنا وليسا مخلوقين فينا من غير جهة ارادتنا، وإلّالم يصح هذا الكلام. ولما فى الآية التالية:

٢٦- «لااكراه فى الدين قدتبين الرشد من الغى - البقرة: ٢٥٦». فان اعتناق الايمان والكفر يأبى الاكراه والاجبار، مادام الاعتقاد بشىء رهن وضوح الحق واقتناع النفس به.

٢٧- وقال: «وماخلقت الجن والانس الاليعبدون - الذاريات: ٥٦». دليلا

على أن الله تعالى لا يريد من العباد جميعاً سوى الاطاعة والانقياد، ارادة تشريع وحكم فكيف يخلق فيهم الكفر والعصيان بارادة تكوينية، ثم يطلب منهم الاطاعة والانقياد تشريعاً ؟!

٢٨ـ وقد قال تعالى : «وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ـ ص: ٢٧».

٢٩ـ وقال تعالى : «ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ـ المزمل : ١٩» .

٣٠ـ وقال : «لمن شاء منكم ان يتقدم أو يتأخر ـ المدثر : ٣٧» .

٣١ـ وقال : «كلا انه تذكرة، فمن شاء ذكره ـ المدثر : ٥٥».

٣٢ـ وقال : «كلا انها تذكرة، فمن شاء ذكره ـ عبس : ١٢» .

٣٣ـ وقال : «ان هو الا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم ان يستقيم ـ التكوير : ٢٧-٢٨» .

٣٤ـ وقال تعالى: «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وإن أنتم إلّا تخرصون ـ الانعام : ١٤٨» .

لا تعدو قولة المشركين ـ فى الجبر وأن اشراكهم مفروض عليهم من قبل الله ـ قولة الاشاعرة فى أن الكفر والايمان مخلوقان فى الكافر والمؤمن بمعزل عن اختيارهما ـ كما تقدم فى كلام الاشعرى بالذات ـ ومن ثمّ فهذه الاية الكريمة رد صريح على مذهبهم الفاسد، ويوجه اليهم الاعتراض : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم ـ أيتها العصابة الأشعرية ـ إلّا تخرصون.

وأمّا الاية التى بعدها : «قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهديكم اجمعين ـ الانعام : ١٤٩» فالمشيئة هنا هى المشيئة التكوينية، اما المشيئة التشريعية فقد شاءها

الله تعالى بلاشك ، لأنه تعالى وجه دعوته الى عامة الناس : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم ـ البقرة : ٢١» . «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ـ النساء : ٣٦» . « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول و اولى الامر منكم ـ النساء : ٥٩ » . « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا ـ التغابن : ١٦» .

٣٥ـ وقال : «وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ـ الزخرف: ٢٠ » . وهكذا الاشاعرة قالوا : لوشاء الرحمان ماكفر الكافر و لاعصى العاصى . مالهم بهذا الكلام الباطل من علم « إن هم إلّا يخرصون » .

٣٦ـ وقال تعالى : «وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ـ آل عمران : ١٣٢» . ماهذا الأمر وماهذا الطلب ، لو كانت الاطاعة والعصيان خارجتين عن تحت قدرتهما ، ولايستطيعان الايمان ولاالكفر إلا اذا خلق الله ذلك فيهم ، فهل هذا الاطلب مالايقدر العباد على فعله ؟!

٣٧ـ وقال : « أطيعوا الله و رسوله ولاتولّوا عنه و أنتم تسمعون ـ الانفال : ٢٠ » .

٣٨ـ وقال : « وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ـ طه: ٩٠» .

٣٩ـ و قال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين ـ التغابن: ١٢ » .

والايات من هذا القبيل ـ تسند الاطاعة والعصيان ، والكفر والايمان، وسائر أفعال العباد الى أنفسهم و اختيارهم ، ان شاؤوا فعلوا وان شاؤوا تركوا ـ كثير فى القرآن ، وقد أرجعت تبعات أعمال العباد الى أنفسهم بالذات ، من خير أوشر ، صلاح أوفساد . ـ ٤٠ـ «وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الارض جميعاً فان الله لغنى حميد ـ ابراهيم : ٨ » . فكيف هذا الكلام لو كان الله هو خلق فيهم الكفر ؟ !

ومن ثم نقول للاشاعرة بالذات : « ان تكفروا ـ أنتم أيضاً ـ فان الله غنى عنكم

ولايرضى لعباده الكفر ـ الزمر : ٧ » . اذ كيف يخلق فيهم الكفر مريداً منهم الكفر ـ حسب تعبير الاشعري[١] ـ وهو تعالى لايرضى لعباده الكفر ؟ ! نعم «فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ـ هود : ٢٨» . « فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ الحج : ٤٦ » .

و بعد هذا العماء و العمه و الانحراف فى قلوبكم ـ أيتها الاشاعرة حتى اليوم ـ « لاينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم ـ هود : ٣٤» .

ارادة تكوينية وارادة تشريعية

اصطلح أهل الفن على تسمية ارادة الله المتعلقة بتكوين شىء بالارادة التكوينية وتسمية طلبه وأمره لشىء بالارادة التشريعية ، وهو يشكل طرفاً من بحث «الطلب والارادة » فى علم الاصول .

فمن الاول قوله تعالى : « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ـ يس : ٨٢ » : وقوله : « قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ـ الاحزاب : ١٧» . وقوله : « واذا أراد الله بقوم سوءاً فلامرد له ـ الرعد : ١١» . الى غيرهن من آيات .

ومن الثانى قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ـ البقرة : ١٨٥ » . وقوله : «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيماً . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً ـ النساء : ٢٦ ـ ٢٨» . وقوله : «مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ـ المائدة : ٦» .

---

١ ـ الابانة ص ٦ ـ ٧ وص ٦٦ ـ ٦٧ .

والارادة التكوينية لاتتخلف عن تحقق المراد ، ماأراداللّه كان ومالم يرد لم يكن ، «انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون ـ النحل : ٤٠ » بل لا حاجة الى قولة « كن » . وانما هي تقدير ، وبعبارة فنية : ان نفس ارادته تعالى لتكوين شيء كافية في تحققه وجوداً ، والامر في قوله « كن » أمر تكويني أيضاً ، حيث ارادته تعالى هو فعله .

قال الشيخ أبوعبداللّه المفيد : ان ارادةاللّه تعالى لافعاله هي نفس أفعاله ، و إرادته لافعال خلقه أمره بالأفعال ، وبهذا جاءت الآثار عن أئمة الهدى من آل محمد ـ صلى اللّه عليه وآله ـ و هو مذهب سائر الامامية الا من شذ منها عن قرب [1] وفارق ماكان عليه الاسلاف .واليه يذهب جمهور البغداديين من المعتزلة وأبو القاسم

---

١ ـ شاع تفسير الارادة بالعلم بالمصلحة الداعية في عصر متأخر عن الشيخ المفيد ، ومن ثم اعتبروا الارادة صفة ذاتية ، ولم يعتبروها من صفات الافعال . راجع : تجريد الاعتقاد للطوسي بشرح العلامة الحلي ، بحث الالهيات ـ المسألة الرابعة ـ ص١٥٩ ط الهند .وشرح الباب الحاديعشر للفاضل المقداد في الصفة الرابعة، اختارمذهب الحسن البصري قال : هي عبارة عن علمه تعالى بما في الفعل من المصلحة الداعية الى ايجاده .ص٢٩ ط١٣٩٥ ه .

ومن ثم قال العلامة المجلسي في ذيل الرواية : اعلم ان ارادةاللّه تعالى ـ كما ذهب اليه اكثر متكلمي الامامية ـ هي العلم بالخير والنفع وماهو الاصلح ، ولايثبتون فيه تعالى وراء العلم شيئاً . بحار الانوار ج٤ ص١٣٧ .

واعترض عليه السيد الطباطبائي في الهامش ، بأن الذي ذكروه انما هو في الارادة الذاتية، التي هي عين الذات ـ ان صح تصويرهم لذلك ـ واما الارادة التي جاءت في الاخبار فهي الارادة التي هي من الصفات الفعلية كالخلق والرزق ، وهي نفس الموجود الخارجي من زيد وعمرو والسماء والارض ، كما ذكره شيخنا المفيد رحمه اللّه .

قلت : اتفق علماؤنا ـ الامامية ـ في هذا العصر المتأخر، على ان الارادة ـ فيه تعالى ـ من صفات الفعل ، كما كانت عليه علماؤنا السلف ، وجاء في روايات اهل البيت ـ عليهم السلام ـ ←

البلخي خاصة وجماعة من المرجئة [1].

وروى ثقة الاسلام الكليني عن صفوان بن يحيى ، قال : قلت لابى الحسن (الامام الرضا) ـ عليه السلام ـ : أخبرني عن الارادة من الله ومن الخلق ؟ قال : فقال عليه السلام : «الارادة من الخلق الضمير ومايبدو لهم بعد ذلك من الفعل . وأمامن الله تعالى فارادته إحداثه لاغير ذلك ، لأنّه لايرويّ ولايهمّ ولايتفكر .وهذه الصفات منفية عنه ، وهى صفات الخلق . فارادة الله : الفعل [2] ، لاغير ذلك . يقول له : كن ، فيكون . بلالفظ ولانطق بلسان ولاهمة ولاتفكر و لاكيف لذلك ، كمانه لاكيف له » .

وروى أيضاً باسناده الصحيح عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سأله عاصم بن حميد عن ذلك ، قال : قلت : لم يزل الله مريداً ؟ قال : « ان المريد لايكون الالمراد معه ، لم يزل الله عالماً قادراً ثم أراد » فقد فرق عليه السلام بين العلم والقدرة وبين الارادة ،رداً على مازعمه بعض المتفلسفين من تفسير الارادة بالعلم والقدرة [3] يدلنا على ذلك مافى حديث بكير بن أعين ، قال : قلت لابى عبدالله

← وشطبوا على ماذكره لفيف من المتكلمين فى العصور الوسطى ،بعدان وضح لديهم ان الارادة فعل النفس فى غيره تعالى ، فتكون فيه تعالى فعله خارجاً واحداثه كما فى نص الخبر . وقد عرضت على سيدنا الاستاذ الامام الخوئى ـ دام ظله ـ تجديد النظر فى البحوث الكلامية التى صيغت على نهج المتكلمين فى العصور الوسطى، فى صيغة حديثة تتوافق مع ما تجدد من انظار ، وعادت سليمة طبق آراء السلف المستقاة من نصوص اهل البيت عليهم السلام ، فوعد ـ دام ظله ـ بالانجاز . وراجع بالخصوص: محاضرات سيدنا الاستاذ بقلم محمد اسحاق الفياض ج٢ ص٣٤ ـ ٤٣ .

١ـ اوائل المقالات للشيخ المفيد ص١٩

٢ـ وفى رواية الصدوق فى كتاب التوحيد : « فارادة الله هى الفعل » . راجع البحار ج٤ ص١٣٧ .

٣ـ تقدم فى كلام الحسن البصرى واختيار الفاضل المقداد ص١٨٦ بالهامش

(الامام الصادق) عليه السلام: علم الله ومشيئته هما مختلفان او متفقان؟ فقال: «العلم ليس هو المشيئة، الاترى انك تقول: سأفعل كذا ان شاء الله، و لاتقول: سأفعل كذا ان علم الله. فقولك: ان شاء الله، دليل على أنه لم يشأ، فاذا شاء كان الذى شاء كما شاء. و علم الله السابق للمشيئة».

وباسناده الصحيح -أيضاً- عن محمد بن مسلم عن أبى عبد الله عليه السلام قال: «المشيئة محدثة».[1]

وروى الصدوق باسناده عن الامام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «المشيئة من صفات الافعال فمن زعم أن الله لم يزل مريداً شائياً فليس بموحد».[2]

ولعل ما فى ذيل الحديث تعريض بمذهب أهل الصفات (الاشاعرة) حيث زعموا من الارادة صفة ذاتية قائمة به تعالى، زائدة على ذاته المقدسة، فلزمهم القول بتعدد القديم تعالى عن ذلك[3]. أما من ذهب من متكلمى الامامية الى أنّ الإرادة صفة ذات، فلم يعتبرها زائدة على ذاته المقدسة، بل اعتبرها عين ذاته تعالى كما فى سائر الصفات الذاتية من العلم والقدرة والحياة، ومن ثم لا يشملهم الحديث.

* * *

وأما الارادة التشريعية فهى عبارة عن أمره تعالى ونهيه، بعثاً وزجراً للعباد، فيما يعود عليهم من مصالح ومفاسد كامنة وراء التكاليف.

١- الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف -الاصول- ج ١ ص ١٠٩-١١٠. باب الارادة: انها من الصفات الفعل. وراجع: مراة العقول بشرح الكافى للعلامة المجلسى ج ٢ ص ١٥-٢٢. وبحار الانوار ج ٤ ص ١٣٧.

٢- كتاب التوحيد للصدوق ص ٩٣ باب صفات الافعال. وراجع: بحار الانوار ج ٥٧ ص ٣٧.

٣- راجع: تجريد الاعتقاد بشرح العلامة الحلى ص ١٥٩. واوائل المقالات للشيخ المفيد ص ١٩.

وهذه الارادة قد تتخلف عن المراد ، حيث يعصى العباد ويخالفون أمره تعالى ، ولا محذور فى ذلك بعد أن كانت دار التكليف دار اختيار ، حيث لا موقع للتكليف لولا اختيار المكلفين فى الاطاعة والعصيان ، وأنّ مصلحة التكليف هى التى تستدعى اختيار العباد فى الامتثال والترك تمهيداً لاختبارهم فى هذه الحياة ، « ليميز الله الخبيث من الطيب ـ الانفال : ٣٧ » . « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ـ آل عمران : ١٧٩ » .

والتفكيك بين الارادتين شيء معروف فى روايات أهل البيت ـ عليهم السلام ـ منها : ما رواه الصدوق باسناده عن الامام على بن موسى الرضا عليه السلام قال : « ان لله ارادتين ومشيئتين ، إرادة حتم ، وارادة عزم » .

ثم شرح عليه السلام الثانية بقولـه : « ينهى وهو يشاء » أى يشاء أن يقع وان كان نهى عنه ـ فى الظاهر ـ أن لا يقع . فنهيه نهى تشريع ، أمّا اشاءته فاشاءة تكوين ، وقـد مثل له الامام ـ ع ـ بنهى آدم عن أكل الشجرة ، وقد كانت المصلحة تستدعى الأكل منها ، حيث خلق آدم ليعيش على الارض ويكون خليفة الله فيهـا . فتخلفت ارادته التشريعية عن إرادته التكوينية .

ثم قال ـ ع ـ : « ويأمر وهو لا يشاء » ومثل بأمره تعالى ابراهيم بذبح ابنـه اسماعيل ـ عليهما السلام ـ حيث تخلف التشريع عن التكوين .[1]

وعلى هـذا الضوء من البيان الوارد عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ نستطيع دفع الشبهة عن كثير من آى القرآن ، مثل قوله تعالى : « ولو شاء لهديكم أجمعين ـ النحل : ٩ » . وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً ـ يونس : ٩٩ » . وأمثالهما من الآيات وهى كثيرة جداً . والمشاءة فيها هى التكوينية ،

---

١ ـ راجع : بحار الانوار ج ٤ ص ١٣٩ . و مراة العقول ج٢ ص ١٦١ . والكافى الشريف ج١ ص ١٥١ باب المشيئة والارادة .

أى لو أراد ربك أن يجعل الناس كلهم مؤمنين بارادته التكوينية لفعل ، ولما تخلفت ارادته عن المراد ، كما فى قوله تعالى : « فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ـ فصلت : ١١ » .

لكنه تعالى لم يشأ الإيمان إلّا عن اختيارهم لغرض الاختبار ، حيث لاتمييز مع الإلجاء .

وبذلك يرتفع ايهام التناقض بين أمثال هذه الآيات ، وآيات اخر جاء فيها : انه تعالى هدى الناس جميعاً ، ولا يرضى لعباده الكفر ، حيث هذه الطائفة من الآيات تعنى مشيئته تعالى التشريعية ، أمراً ونهياً ، بعثاً وزجراً ، فى هداية شاملة وارشاد عام . قال تعالى : « انا هديناه السبيل اما شاكراً إمّا كفوراً ـ الانسان : ٣» . وقال : « واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ـ فصلت : ١٧» . وقال: «والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ـ الاحزاب : ٤» . وسنبحث عن انحاء الهداية ودرجاتها فى فصل قادم .

مسألة التوحيد فى الأفعال

التوحيد الكامل هو الاعتقاد بانه تعالى واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى افعاله . ثلاث مسائل تبحث عن توحيده تعالى ، الاولى : توحيد الذات « ليس متركباً من أجزاء» . الثانية: توحيد الصفات «ان صفاته الثبوتية جمع لاتنم عن تعدد معان قائمة بذاته المقدسة ، بل كمال توحيده نفى الصفات عنه ، ولاشىء هناك سوى ذاته القديمة انتزعت لها تلك النعوت» . الثالثة : توحيد الافعال «لاشريك له فى الخلق والايجاد» .

وهذه المسألة الأخيرة هى موضوع بحثنا الآن : اذا كان العبد مستقلا فى أفعاله ، وكان هو الذى يوجدها ويحدثها وفق مايريد ، ان شاء فعل وان شاء ترك ، ـ كما عليه مذهب أهل العدل ـ فهلا يصدق حينذاك أنّ فى عالم الخلق والايجاد مؤثرين:

الله فيما يختص به من أفعال . والعبد فيما يختص به من أفعال ؟! وان قلنا : انما يصدر من العبد من أفعال اختيارية ، ليس مستقلا فى ايجادها ، بل الله يشركه فى الاحداث والايجاد ، فالأمر أسوأ ، لانه يقتضى التشريك فى الخلق والايجاد ، المنافى لمسألة توحيد الافعال؟!

قلت: لامنافاة بين الأمرين، استقلال العبد فيما يحدثه من أفعال (الافعال الاختيارية) وكونها لاتحدث ولاتتحقق خارجاً الاباذنه تعالى وايجاده، تحقيقاً لقاعدة «لامؤثر فى الوجود الاالله» ولقوله تعالى : « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ـالزمر : ٦٢» .

وذلك انه تعالى جرت سنته فى ايجاد ما يريد العباد ايجاده ، تحقيقاً لمبدء الاختيار الذى منحه لعباده ، وليصح تكليفهم واختبار نياتهم . وان شئت فقل : انه لايوجد شىء الاباذنه تعالى ،لكن الله جعل من سنته أن توجد الاشياء عند مايريد العباد ايجادها ، فهو تعالى الموجد لكن عند ارادة العبد ،وقد جعل اختيار وجودها رهناً باختيار العباد ان شاؤوا وجدت باذن الله، وان لم يشاؤوا لم توجد، حيث ذلك الارتباط هو من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وبذلك صح القول: «ان لاخالق الاالله» و«لاموجد الاالله» و«لامؤثر فى الوجود الاالله» . كما صح القول بان العبادهم يحدثون مايريدون فعله ويتركون مايكرهون وجوده من أفعال اختيارية .

كما أن مسألة «الامر بين الامرين» عبارة عن هذا المعنى ، واليك توضيحها بالبيان التالى :

مسألة الامر بين الامرين

ان مسألة «الامر بين الامرين» تعود فى أساسها حداً فاصلاً بين مسألة «الجبر الاشعرى» ومسألة «التفويض الاعتزالى» ،أرشد اليها أئمة أهل البيت ـعليهم السلامـ

فى نصوص وتصريحات كثيرة ،مما جعل مذهب الامامية طريقاً وسطاً بين المسلكين لاجبر ولاتفويض بل أمر بين امرين [1] .

هذه المسألة مرتبطة مع عدة مسائل متشابكة مع بعضها ، يصعب التوفيق بينها غالبياً ،الا من عصم الله ، وأجاد التفكير فيما اثر عن أهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ منها : مسألة «التوحيد المطلق» . ومسألة « العدل المطلق » . ومسألة « الحكمة فى التكليف» . ومسألة «الحسن والقبح العقليين». ومسألة «استحقاق الثواب والعقاب» . الى غيرها من مسائل مشابهة.

وقد احتار القوم فى التخرج عن هذه المسائل جميعاً بما لايستلزم تناقضاً أو معارضة مع بعضها . فى وئام ووفاق بسلام . ومن ثم أخذوا يمنة ويسرة ، فى اعتراف ببعض ونكران لبعض ،بما ازدادوا شكاً فى ريب .

أمّا الاشاعرة فزعمت أنها أخذت بجانب مسألة التوحيد المطلق ، وقالت : لاخالق الاالله ، ولامؤثر فى الوجود الاالله ، ومن ثم نفت صحة استناد الافعال الى العباد . وأسندتها الى الله. فلزمها القول بالجبر ، وأنّ العباد مضطرون فيما يفعلون، وبذلك خسرت مسألة العدل المطلق ، وأنكرت الحكمة فى التكليف ، ولم تدع مجالاً لمسألة الحسن والقبح العقليين ولا لمسألة استحقاق المثوبة والجزاء.

وأمّا المعتزلة فأسندت الأفعال إلى العباد بصورة مطلقة، وقالت: إنّهم مختارون فى فعل مايريدون وترك مايكرهون. تحكيماً لمسألة العدل المطلق ، ومسألة الحسن والقبح والثواب والعقاب، وتحقيقاً لمسألة الحكمة فى التكليف وبعث الرسل وانزال

١ـ بهكذا لفظ ورد مستفيضاً عن ائمة الهدى عليهم السلام . راجع : الكافى الشريف ـ الاصول ـ ج١ ص ١٦٠ حديث ١٣ باب الجبر و القدر والامر بين الامرين . وكذا باب الاستطاعة .وراجع :بحار الانوار للعلامة المجلسى ، باب نفى الظلم والجور عنه تعالى وابطال الجبر والتفويض ، واثبات الامر بين الامرين واثبات الاختيار والاستطاعة . ج٥ ص٢ـ٦٧ .

الكتب .. لكنهم أسرفوا فى القول بالاستطاعة المطلقة ، حتى نفوا كل تأثير لارادة الله وحوله وقوته فى أفعال العباد ، ومن ثم لزمهم القول بالتفويض ، وأنّ العبادهم المحدثون لأفعالهم باختيارهم وارادتهم وقدرتهم الخاصة . وأنّ القدرة وإن كانت منحة من الله منحها لعباده ، لكن إعمال هذه القدرة وتأثيرها فى الايجاد والاحداث منوطة كل الاناطة باختيارهم واستقلالهم فى الإرادة والإقتدار .

واختارت الإمامية ـ فى ضوء تعاليم أئمة الهدى ـ مذهباً وسطاً فى مسألة القدرة والاستطاعة . فلم يعترفوا للعبد استقلاله الكامل فى الخلق والايجاد ، ولم ينفوا عنه القدرة والاختيار رأساً، قالوا: لاشك أنّ كلّ مافى الوجود واقع تحت ارادته تعالى، فلايحدث أمر ولايوجد شىء إلّا باذن الله ، لكن إرادته تعالى قد تعلقت بأن توجد الأشياء وفق قوانين كلية ركبها فى طبيعة الموجودات ، فهى تتفاعل مع بعضها ، إمّا بنفسها كما فى الأمور الطبيعية ـ حسب تعبيرنا ـ مثل دورة الماء فى الطبيعة، تبخيراً وتكاثفاً وتقاطراً وخزناً ثم جرياً وأخيراً عوداً الى البحر. وفق نظام رتيب لايتخلف عبر الدهور ، وإمّا بعلاج كيمياوى أو فيزيائى تزاولها يد بشرية حسب مآربه فى الحياة .

كل ذلك واقع تحت قوانين عامة فى سلسلة من العلل والمعلولات « قانون العلية العامة» .

مثلا إذا بذر الإنسان حبة فى الارض الصالحة ، واهتمّ بشأنها من تسميد وسقى ودفع آفات ، فإنّها تنبت ، لكن بفضل تفاعلها مع أملاح الارض وغيرها من مواد كامنة فى التراب والماء ومايصل اليها من شعاع الشمس وهبوب الرياح وما الى ذلك، فاذا مااجتمعت الأسباب المؤاتية لنبات الزرع ونمائه ، حصل الزارع على نتيجة، لم تكن هى وليدة يده فحسب، وانما ساعده على ذلك عوامل طبيعية كثيرة لاتحصى، كان لها القسط الأوفر ،بل علة العلل لهذا الاثمار والانتاج .

ومع ذلك فانا ننسب الزرع اليه ، فنقول : هو الذی بذر الحبة وزرع النبتة وغرس الشجرة وأثمرها ، ونطلق عليه اسم الزارع والفلاح اطلاقاً حقيقياً ، من غير عناية مجاز أواستعارة . فی حين أنّالودقفنا النظر لوجدنا الفضل الاكبر بل كل الفضل يعود الی عوامل أخر كانت هی المؤثرة لهذا الاثر والمنتجة لهذه النتيجة .

وعليه فبماأنّهذه العوامل ـ التی نعبر عنهابعوامل طبيعية ـ ليست سوی قوانين كلية ركبهاالله فی ذوات الأشياء، فاذاماتفاعلت مع بعضها أنتجت تلكم النتائج العظام، فهی فی ذات وجودها وفی بقاءها علی التأثير رهن قدرته وارادته تعالی ، ومن ثم فان نسبة الأنبات والزرع والاثمار وماشاكل اليه تعالی،أولی من نسبتها الی ذلك الانسان الذی لم يكن حظه منها سوی تقارب وتـالف بين عدة عوامل قليلة لتتفاعل هی بنفسها مع البعض ، وتستمد من قوی اخری كثيرة اودعهاالله فی هذا الكون .

قال تعالی : «أفرأيتم ماتحرثون ، ءأنتم تزرعونه امنحن الزارعون» . وقال: «أفرأيتم الماء الذی تشربون ، ءأنتم انزلتموه من المزن امنحن المنزلون» . وقال : «أفرأيتم النار التی تورون ، ءأنتم أنشأتم شجرتها امنحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ـ الواقعة : ٦٣-٧٣» .

وأوضح مثال لذلك هی ظاهرة الولادة ، لـم يكن حظ الوالد والوالدة من تكوين الولد ، سوی تلقيح النطفة ، وليس تحققه ـ أيضاً ـ واقعاً تحت اختيارهما الكامل وقدرتهما ، ومع ذلك فان الولد فی وجوده منسوب الی والديه، فی حين أنّ جميع العوامل التی أثرت فی اللقاح والانعقاد وقضاء المراحل الجنينية الی مرحلة التولد ، كانت طبيعية مودعة فی ذات الرحم والنطفة بقدرة الله ، وبارادته فی اصل التأثير والبقاء علی التأثير . قال تعالی : « أفرأيتم ماتمنون ،ءأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون ـ الواقعة : ٥٨-٥٩ ».

والخلاصة : ان مايوجد ويتحقق فی عالم الوجود ، انما يوجد بفضل تفاعل القوی المودعة فی هذا الكون ،وان حظ الانسان من ذلك هو مجرد تقارب مابين هذه

القوى لتتفاعل هي مع بعضها . وبعبارة أوجز : أنّ الانسان إنّما يوجد شرط التفاعل أمّا أصل الايجاد فهو من فعل العوامل والقوى الطبيعية ، وهي بدورها مجعولة ومنتظمة بارادة الله وحوله وقوته أبدياً .

* * *

وبذلك نستطيع أن ندرك وجه انتساب الأفعال الاختيارية الى فاعليها ، في حين صحة انتسابها الى الله والى القوى الطبيعية التي أودعها الله في هذا الكون .

أمّا وجه انتسابها الى العباد ، فلأنّهم هم أوجدوا شرائط وجودها باختيارهم وقصدهم الخاص ، ولولا ذلك لما وجدت. فإنّ الزارع إنّما عمد الى الحرث والزرع بمحاولته الخاصة للحصول على الثمرة . فقد تصور الفائدة أوّلاً واشتاقتها نفسه ، فعمد ـ باختياره وارادته الخاصة ـ الى ترتيب المقدمات المنتجة لما كان يتوخاه . وهذا دليل اختيارية العمل.

ومن ثم تقع تبعات كل عمل اختياري على عاتق العامل، ويكون هو المسؤول عنها مدحاً أوذماً ، مثوبة أوعقوبة . حتى في مثل الايلاد ، لولا أنّه واقع امرأته لما حصل الولد ، ويكون حصول الولد منتسباً اليه بالذات .

فلو فرضنا أنّ عملاً خارجياً يوصف بالقبح أو الحسن ، فان المسؤول عن ذلك هو العامل ، ولايمكنه الاعتذار بأنّ أكثر القوى العاملة في تكوينه كانت خارجة عن اختياره ، حيث كانت تلك القوى بانفسها معدات ومقتضيات ، أمّا الذي وافق بينها وأوجد شرط تفاعلها مع البعض ، فهو هذا العامل الذي عمد باختياره الى ايجاد شرط الوجود .

وأمّا وجه انتسابها الى الله تعالى ، فمن جهة أنّ القوى العاملة في تكوين الأشياء، كلّها مخلوقة ومقدرة بقدرة الله ، وهو الذي أكسبها تلك الخاصيات بحيث اذا تقاربت مع بعضها تفاعلت في الايجاد والتكوين وهو تعالى لايزال يمدّها بتلك الخاصيات

وفق مامنحها أوّلاً ، فهو تعالى كما أفاض عليها حدوثاً ، هو يمدها بالافاضة بقاء ، فلاتزال تلك القوى تستمد ـ في تأثيراتها المتواصلة طول وجودها ـ من فيوضه تعالى المتواصلة ، سنة الله التي جرت في الخلق.

وهذا هو الذي يعبر عنه بـ «اذن الله» في لسان الشريعة المقدسة. فلولا أنّه تعالى يمد القوى في تأثيراتها آناً فآناً ، لما أمكنها التأثير شيئاً أصلا .

وليس معنى ايداعه تعالى الخاصية في شيء : أنّه أودعها فيه وتركها تعمل بذاتها وتؤثر بنفسها فيما بعد . إن هذا إلّا التفويض الذي يتحاشاه مذهب أهل الحق . بل كما أودعها الله حدوثاً ، فهو تعالى لايزال يمدها بتلك الخاصية والتأثير بقاء حسب الآنات باستمرار .

فكل قوة من القوى الطبيعية اذا أثرت في شيء ، فإنّ هذا التأثير يعود الى إذنه تعالى ، حيث أمدّها بخاصية ذلك التأثير في نفس الوقت ولولاه لما أمكنها التأثير اطلاقاً . قال تعالى ـ بشأن تأثير سحر السحرة ـ : « وماهم بضارين به من أحد إلّا باذن الله ـ البقرة : ١٠٢ » . حيث الساحر يسخر خواص الأشياء في سحره ، لكن هذه الخواص مما أودعها الله في ذوات الأشياء ، إن لم يشأ لم يمدّها فينقطع أثرها ، غير أنّ سنته تعالى جرت في امداد القوى وان كانت مستخدمة في تأثير الفساد في الارض. وهكذا قوله تعالى: «والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ـ الاعراف: ٥٨» . وقوله : « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ـ ابراهيم : ٢٥» .

حتى أنّه تعالى ليضيف فعل العباد الى اذنه «واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني ـ المائدة: ١١٠» حيث خاصية تشكل الطين وتماسك أجزاءه ، مما أودعها الله في الطين ولم يزل يمده بهذه الخاصية أبدياً ولم يكن من عيسى عليه السلام سوى جعل أجزاء الطين على بعضها في نسبة معينة، أمّا نفس التماسك فكان بفعل الله، كما أنّ نفس عمل عيسى ـ أيضاً ـ كان باقداره تعالى وافاضته القدرة عليه آنذاك ، ومن ثم كان جميع ماوقع إنّما وقع باذن الله .

وأقرب مايمثل هذه القاعدة في مثل المقام، إنّك إذا عرضت يدك للنار، فإنّها

تحترق . ولكن هذا الاحتراق لايكون الاباذن الله ، فالله هو الذى أودع النار خاصية الحرق ، ولايزال يمدها بتلك الخاصية ، كماأودع يدك خاصية الاحتراق بالنار. ولايزال يمدها بتلك الخاصية ، وهوقادر على أن يوقف تلك الخاصية حين لايمدها ولا يأذن ، لحكمة خاصة يريدها ، كما فعل فى قصة ذبح اسماعيل ، سلب السكين خاصية القطع ، وسلب حلقوم اسماعيل خاصية الانقطاع ، أى لم يمدهما فى هذه الخاصية فلم يأذن لهما فى القطع والانقطاع ، فلم يتحقق الذبح .

ومثال آخر تمثل به سيدنا الاستاد ـ دام ظله ـ قال : ان الأشياء (الممكنة بالذات) كما تفتقر فى حدوثها الى افاضة المبد تعالى، كذلك فى بقائها ـ الذى هو حدوث فى آن ثان ـ فلابد فى بقائها واستمرارها من استمرار افاضة الوجود عليها من المبد تعالى .فلو انقطعت الافاضة عليها فى آن لانعدمت من فورها. بداهة استحالة بقاء الممكن بالذات (وهو المفتقر فى وجوده الى مبدء يفيض عليه الوجود حدوثاً وبقاءً) بدون تلك الافاضة المستمرة .

نظير وجود النور داخل الزجاجة الكهربائية ، تشع به مادامت الطاقة الكهربائية تتصل اليها من مركز التوليد عبر الأسلاك،لايمكن تحقق هذا الوجود النورى ـ داخل الزجاجة ـ حدوثاً وبقاء إلّا باستمرار ذلك الاتصال المفاض عليها من المركز ومتى ما انقطعت تلك الافاضة أو انقطع السلك ، فإنّ النور ينقطع فى آنه .

وحينئذ لو فرضنا أنّ انساناً وضع يده على زر الكهرباء ، كانت انارة الزجاجة واقعة تحت اختياره بالمباشرة ، ان شاء ضغط على الزر فتنور الزجاجة، وان شاء رفع يده فتنطفى . وصحت نسبة إنارة الغرفة وإظلامها إليه بنفس هذا الاعتبار ،وان كان حظه من ذلك هو نفس القطع والوصل لاأكثر .وهكذا حظ الانسان فى إحداث مايريد من أعمال وايجادها ، فتدبر جيداً[1] .

١ـ راجع: المحاضرات بقلم محمد اسحاق الفياض ج٢ ص٩١

وبعد ، فقد تبين ـ في ضوء ما قدمنا ـ صحة اسناد حدوث جميع المحدثات الى الله سبحانه ، واطلاق القول بأن لاخالق إلّاالله ولامؤثّر في الوجود إلّاالله . إذ ترجع جميع القوى في تأثيراتها إلى امداد فيضه تعالى باستمرار .

كما صحت نسبة الأفعال الاختيارية الى فاعليها وارادتهم الخاصة ، بما أوجدوا من جو صالح لذلك التفاعل الطبيعي والتأثيرات والتأثرات .

ومن ثمّ فإنّ مضاعفات الأعمال السيئة تعود الى مرتكبيها بالذات ، حيث استخدموا من القوى الصالحة، في سبيل العيث والفساد . وأمّا نتائج الاعمال الحسنة فإنّ القسط الاكبر من فضلها يعود الى الله سبحانه ، نظراً لاعداده سبل الخير والسلام، واقداره العباد على الاستفادة منها والاستخدام . فكان حقاً توجيه المحامد كلها الى الله ، « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ـ الزخرف : ١٣» . « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدينا الله ـ الاعراف : ٤٣».

وبهذا المعنى جاءت الآثار عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فقد روى ثقة الاسلام الكليني عن الحسن بن علي الوشاء ، قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام فقلت : الله فوض الأمر الى العباد ؟ قال : الله أعز من ذلك . قلت : فجبرهم على المعاصي ؟ قال : الله أعدل وأحكم من ذلك . ثم قال الامام عليه السلام : « قال الله : يا ابن آدم ، أنا أولى بحسناتك منك ، وأنت أولى بسيئاتك مني ، عملت المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك» .

وعن الامام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «من زعم أنّ الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله . ومن زعم أنّ الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج من سلطانه . ومن زعم أنّ المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله . ومن كذب على الله أدخله الله النار» . وقوله صلى الله عليه وآله : « بغير قوة الله » يعني الامداد بافاضة القوى ، حسبما ذكرنا .

وسأل رجل الامام الصادق عليه السلام : أجبر الله العباد على المعاصي ؟ فقال عليه السلام :

لا .قال: ففوض اليهم الامر ؟ فقال : لا. قال :فماذا ؟ قال : لطف من ربك بين ذلك.

يعنى عليه السلام الامداد والاقدار بما يجعل العباد مستقلين فى الارادة والاختيار .

وعن الامامين الباقر والصادق ـ عليهما السلام ـ قالا : «ان الله أرحم بخلقه من أن يجبرهم على الذنوب ثم يعذبهم عليها ، والله أعز من أن يريد أمراً فلا يكون ، قيل: فهل بين الجبر والقدر (التفويض) منزلة ثالثة؟ قالا : نعم ، أوسع مما بين السماء والارض».

وسئل الامام الصادق عليه السلام عن الجبر والقدر [1] . فقال : «لا جبر ولا قدر ولكن منزلة بينهما فيها الحق ، لا يعلمها الا العالم أو من علمها اياه العالم » . يعنى عليه السلام : العالم من اهل بيت العصمة .

وقال له رجل: «جعلت فداك ، أجبر الله العباد على المعاصى ؟ فقال: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصى ثم يعذبهم عليها . فقال له: جعلت فداك ، ففوض الله الى العباد ؟ فقال : لو فوض اليهم لم يحصر بالأمر والنهى . قال له : جعلت فداك ، فبينهما منزلة ؟ فقال : نعم ، أوسع ما بين السماء والارض» [2] .

اختيارية الإرادة

قالوا : دليل اختيارية كل عمل هو أن يصدر عن ارادة فاعله وعن اختياره الخاص فلا يوصف عمل بالاختيارية إلّا إذا سبقته إرادة ، فرقاً بينه وبين الآثار المتولدة من أشياء لا ارادة لها ولا اختيار فى التوليد .

وعليه فقد يستشكل فى نفس الإرادة ، هل هى اختيارية أم غير إختيارية ، نظراً لانها لو كانت اختيارية لوجب أن تسبقها ارادة اخرى ، وهذا يتسلسل الى غير نهاية ، ومن ثم أنكر بعض المتفلسفين أن تكون الارادة بنفسها اختيارية ، وان كانت هى السبب لاختيارية سائر الافعال الاختيارية [3] . وبذلك ربما انتقضت القاعدة المعروفة «فاقد

١ـ كثيراً مايطلق «القدرية» ـ فى روايات اهل البيت ـ على اهل التفويض .

٢ـ الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف ـ كتاب التوحيد ـ باب الجبر والقدر والامر بين الامرين ج١ ص١٥٥ ـ ١٦٠ رقم :٣ و ٦ و ٩ و ١٠ و ١١.

٣ـ راجع : كفاية الاصول ـ للمحقق الخراسانى ـ بحث الطلب والارادة ج١ ص١٠٠

الشيء لايعطى» !

قلت: كلّ مابالغير لابدّ أن ينتهي الى مابالذات، وإلّا لتسلسلت حلقات الحاجة والافتقار. فاختيارية كلّ عمل إنّما هي بمسبوقيته بارادة الفاعل المختار، والارادة هي التي تكسبه وصف الاختيارية. هذا صحيح: غير أنّ نفس الارادة توصف بالاختيارية ذاتاً، لابسبب غير ذاتها. كما أنّ ملوحة الأشياء مكتسبة من الملح، أمّا ملوحة الملح فذاتية له، وكذا تنوّر الأشياء بالنور، وتنوّر النور ذاتي. وهكذا الإرادة بذاتها اختيارية، وأمّا سائر الأفعال فإنّما تكون اختيارية إذا كانت تحت الاختيار، وكانت تصدر عن ارادة الفاعل المختار.

وأيضاً فإنّ معنى اختيارية الأفعال الأختيارية ـ على ما أسلفنا ـ أنّها تتحقق باذن الله وارادته لأن توجد عند ارادة فاعليها واختيارهم الخاص. أما نفس الارادة والاختيار من العباد فانهم مستقلون فيها عند تحقق مباديها، من تصور العمل وفائدته والشوق اليها وما الى ذلك. فالارادة من العباد انما تتحقق بتكوين نفسي منهم، وتنبعث بذاتها من داخل كيانهم وباطن وجودهم بالذات، وليست معلولة لشيء آخر، من قبيل جوهر النفس اللااختياري ـ كما ذهب اليه المحقق الخراساني ـ أو ارادة الواجب تعالى ـ كما ذهب اليه مجبرة الفلاسفة ـ. اذ كل ذلك نقض لاساس الاختيار ورجوع ملتو عن القول باختيارية الأفعال.

ارادة الله الحادثة

تقدّم أنّ الارادة من صفات الفعل [1] ومن ثم فهي حادثة وقائمة بمتعلقاتها، كما هو الشأن في سائر الصفات الفعلية كالخلق والرزق والاحياء والاماتة.

وهذه الارادة من الله بالنسبة الى أفعال العباد الاختيارية واقعة في رتبة التابع من

---

١ ـ صفحة: ١٦٨ـ١٦٩

المتبوع ، حيث جرت سنته تعالى على تحقق مايريد العباد فعله ، وقدعبر عنها في القرآن بالاذن. فمايريد العباد ايجاده من أفعال اختيارية ،فانه تعالى يأذن في تحققها وفق مايريدون ـ حسبما تقدم ـ وعليه فلم تكن ارادة العبد معلولة لارادته تعالى ، ولامنبعثة عنها ، كما توهمه بعض المتفلسفين . وانما ارادته منبعثة عن داخل ذاته عند حصول مقدماتها السالفة ، لاعن شيء آخر. وبذلك أثبتنا اختيارية الارادة من العباد اختيارية تامة . هكذا جعل الله العباد مختارين تمام الاختيار في الارادة ،لئلا يكون اجبار أواضطرار الى هذا النمط من الافعال ،ومن ثم صح التكاليف، وجازت المؤاخذة ، وحسن المدح والذم.

انتساب الحوادث الى الله

في كثير من تعابير القرآن الكريم جاءت نسبة الحوادث ، سواء أكانت ذوات علل وعوامل طبيعية ، أم كانت وليدة صنع الانسان وعمله [1] .

قال تعالى : «انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ـ الحاقة : ١١» . وقال : «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ـ الرحمان :٢٤» . وقال: «والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ـ الى قوله ـ وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ـ النحل : ٨١» .

وقال تعالى: «جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ـ الكهف :٣٢» . وقال : «والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ـ الاعلى: ٥» . وقال :«ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً ـ النور : ٤٣» وقال : «الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً ـ الروم : ٤٨» . وقال : « ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ـ الزمر : ٢١ » .

---

١ ـ راجع في ذلك :اوائل المقالات للمفيد ص٨٦ ـ ٨٧ .

والآيات من هذا القبيل كثيرة جداً. وسبب ذلك يعود الى ماذكرنا : ان جميع ظواهر هذا الكون، سواء أكانت طبيعية أم اصطناعية، فانها تتكون وفق قوانين عامة جعلها الله في جبلة الاشياء، وهي تتفاعل مع بعضها في نظام متسق، من غير أن تستغني عن امداد افاضته تعالى في كل آن. فمن ألقى حطباً في النار واحترق الحطب، صح القول : انه تعالى أحرقه ، لما أودع في طبيعة النار من خاصية الاحراق وفي طبيعة الخشب من خاصية الاحتراق ، وهو تعالى يمدهما بابقاء تلك الخاصية في كل آن . كما صح القول بأن الملقي في النار هو الذي أحرق الحطب ، لانه أوجد شرط هذا التفاعل الكيمياوي بين النار والخشب .

حل شبهات المجبرة

وبعد فقد حان وقت التعرض لما تشبث به أهل الجبر (الاشاعرة وأذنابهم) من آيات وروايات حسبوها دالة على نفي استطاعة العبد وسلب قدرته وارادته في الفعل والترك... وماهي الاشبهات تنقشع على ضوء ماقدمنا من بيان. واليك الاجابة ـ تفصيلاً ـ على ما لفقوها ، تباعاً حسب الارقام المتقدمة : ـ

١ ـ أما قوله تعالى : «والله خلقكم وما تعملون ـ الصافات : ٩٦» فسواء اريد الاصنام أم الأعمال ذاتها، فانها مخلوقة لله بالمعنى المتقدم، حيث لم يكن صنع البشر سوى ايجاد شرط التفاعل بين قوى التكوين ، ولم يكونوا هم مستقلين في تحقيق أي صنع أو عمل مادامت القوى الطبيعية هي التي تتجاذب وتتماسك مع بعضها باذن الله فهي بالانتساب الى الله أولى من انتسابها الى العباد ، غير أنّ مضاعفاتها السيئة تعود عليهم حسب ارادتهم واختيارهم للعمل ، وبالفعل هم أوجدوا شرط تحققه بارادتهم الخاصة . ومن ثم قال المفسرون : « وما تعملونه ، فان جوهرها بخلقه ، ونحتها باقداره » .

وقال القاضي : ظاهر الآية كون «ما» موصولة ، لان ظاهر قولهم :«أعطيتك

ماتأكل وماتشرب» هو ارادة المأكول والمشروب ، لانفس الأكل والشرب . نظير قوله تعالى : «تلقف مايأفكون ـ الاعراف : ١١٧» . وقوله : « تلقف ماصنعوا ـ طه : ٦٩» . وذلك لان الكلام ظاهر في التعليل ، وهويتناسب وكونه تعالى خالقاً لانفسهم ولمانحتوه ، أما كون نفس النحت فعله تعالى ، فهو يصلح تبريراً لفعلهم وعذراً لهم ، اذحينئذ تكون عبادتهم أيضاً من فعله تعالى ، فلم يصح توجيه اللائمة اليهم بالذات[1] .

٢ـ الى ٦ـ والآيات من سورة الفرقان :٢ . وسورة الانعام: ١٠٢ .والرعد: ١٦ . والزمر : ٦٢ . وغافر : ٦٢ . أيضاً بنفس المعنى ، ولاسيما والتعقيب في سورة الفرقان : « فقدره تقديراً » شاهد على ارادة ايداع القوى التى تتماسك مع بعضها في نظام واتقان . وهكذا التعقيب في سورة الزمر : « وهـو على كل شيء وكيل» دليل على ذلك النظم والتدبير ، وافاضة القوى الفاعلة عبر الوجود .

وقال القاضي : «ظاهر (خلق) ـ هنا ـ يقتضي أنه قدرودبر» . قال ابن منظور ـ في لسان العرب ـ :«والخلق : التقدير . وخلق الأديم يخلقه خلقاً : قدره لمايريد قبل القطع ، وقاسه ليقطع منه مزادة أوقربة أوخفاً» . وقال ابن قتيبة ـ في تأويل مشكل القرآن ص٣٨٨ ـ : «وأصل الخلق : التقدير . ومنه قيل : خالقة الأديم» .

قال القاضي : ولذلك قال الشاعر [2] :

ولأنت تفري ماخلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لايفري [3]

قال : ومتى حمل الكلام على هذا الوجه كان حقيقته : أنه تعالى قد قـدر

١ـ متشابهات القرآن ج٢ ص٥٨٠ـ٥٨٦

٢ـ هو: زهير بن ابي سلمى . راجع : ديوان زهير ص٥٤ ط دار الكتب .ولسان العرب وشرح الاصول الخمسة ص٣٨٠ .

٣ـ قال ابن منظور في معنى البيت : انت اذاقدرت امراً قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر مالايقطعه ، لانه ليس بماضي العزم ، وانت مضاء على ماعزمت عليه .

أفعال العباد ودبرها وبين أحوالها . فكان الخلق خلق تدبير لاخلق ايجادواحداث.

قلت : حتى ولو كان بمعنى الإحداث والإيجاد ، صحّ أيضاً على مابينّا من صحّة إضافة الأحداث والمولدات اليه تعالى حقيقة ، وإن كان الفاعل لها غيره باعتبار خلق الجوّ الملائم لذلك التفاعل والتماسك الطبيعي العام .

قال : ووجه آخر : ان هذه اللفظة ليست للتعميم : كقول القائل : أكلت من كل شيء، وتحدثنا بكل شيء، وفعلت كل شيء .وقد قال تعالى : «تبيانا لكل شيء ـ النحل : ٨٩ » . وقال : « مافرطنا في الكتاب من شيء ـ الانعام : ٣٨ » . وقال : «تدمر كل شيء بأمر ربها ـ الاحقاف : ٢٥» . وقال :«يجبى اليه ثمرات كل شيء ـ القصص : ٥٧» . الى غيرهن من آيات . حيث المقصد بذلك هي المبالغة في الكثير من ذلك النوع المذكور [١] .

وروى الصدوق في الخصال عن الامام الباقر عليه السلام وكذا في عيون الأخبار عن الامام الرضا عليه السلام : «ان أفعال العباد مخلوقة خلق تقدير لاخلق تكوين . والله خالق كل شيء ، ولانقول بالجبر والتفويض» [٢] .

وأيضاً فان الآية بذاتها تعبير صريح عن هذا المعنى ، قال تعالى : « بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ،وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لااله الاهو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ـ الانعام : ١٠١-١٠٢» . انظر الى هذه الدقة في التعبير ، ذكر خلق كل شيء أوّلاً ثمّ عقّبه بعلمه بكل شيء . ثمّ ذكر خلق الأشياء ثانياً وعقّبه بكفالته لحفظها وتدبير شؤونها . . . فلو فرضنا الآية تشمل خلق أفعال العباد أيضاً ، فإنّ ذلك خير قرينة على ارادة علمه الشامل وتدبيره العام لشؤون المحدثات على الإطلاق .

١ـ متشابهات القرآن ج١ص٢٥١-٢٥٤ .

٢ـ تفسير الصافي ج١ ص٥٣٦ نقلاعن الخصال وعيون اخبار الرضا ـع ـ

٧-الى ١١- وقوله «أفمن يخلق كمن لايخلق - النحل : ١٧» يريد الخلق بمعنى الايجاد والابداع ، الذى لاحظ لمخلوق فى ذلك سوى خلق الجو الملائم وفعل الشرط لاأكثر . وهكذا بقية الآيات التى تنفى قدرة غيره تعالى على الخلق يعنى الاستقلال التام فى الخلق والتكوين . الذى هو شأن المعبود تعالى وتقدس .

١٢ - وقوله : «خلق السموات والارض ومابينهما - الفرقان : ٥٩ » ظاهر فى الموجودات العينية ، لمناسبة السنخية الملحوظة بين المتعاطفات : السماء والارض وكل موجود جسمانى واقع بينهما . والدليل على ذلك تمام الآية : «الذى خلق السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش - الفرقان : ٥٩» . ولو كانت تشمل أفعال العباد أيضاً لوجب حملها على ارادة التقدير والتدبير ، لأنّ الأفعال متدرجة الحدوث بعد الستة الايام التى تمّ فيها خلق السماوات والارض ومابينهما من موجودات . ويشهد لذلك التعبير بالرب فى آيات مماثلة : « رب السموات والارض ومابينهما - الشعراء : ٢٤ » . وفى قوله تعالى : «وماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق - الحجر : ٨٥» لدليل على خلقة سبقت وجود العباد وأفعالهم ، وشاهد صدق على ارادة الموجودات العينية .

١٣ - والارادة فى قوله تعالى : «فعال لمايريد - هود : ١٠٧» ارادة تكوين . أى يفعل مايريد أن يفعله هو تعالى «انما امره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون - يس : ٨٢» . وهذا هو الظاهر من أمثال هذا الكلام عند حذف المتعلق .. أمّا إرادته تعالى المتعلقة ببعض أفعال العباد ، فهى إرادة تشريعية قد تتخلف عن المراد على ماسبق البحث عن ذلك إجمالياً [1] .

١٤- وقوله : «ماأصاب من مصيبة فى الارض (كجدب وآفة) ولافى أنفسكم

١- راجع : صفحة ١٦٧

(كمرض وعاهة) إلّافي كتاب من قبل أن نبرأها ـ الحديد : ٢٢» . إشارة إلى مسألة القضاء والقدر ، التي ليست سوى علمه تعالى بماسيحدث وعلى الصفة التى تحدث فى علمه القديم . من غير أن يكون علمه تعالى علة لتكوين المعلوم ، حيث لاشأن للعلم أن يكون مؤثراً فى تحقق المعلوم ، سواء تعلق به قبل حدوثه أم بعده أم مقارناً له . وسنبحث عن هذه المسألة فى فصل قادم ، ان شاءالله .

١٥ـ وقوله : «واختلاف ألسنتكم ـ الروم : ٢٢» لايعنى تكلماتهم فيما ينطقون ، وانما عنى اختلاف لهجاتهم ، واقدارهم على النطق بمختلف اللغات . وقد فسر باختلاف نبرات الصوت ، حتى لاتشتبه نغمات صوتين ، كمالاتشتبه لمحات وجهين حتى ولو تشابهت الالوان .

قال القاضى : وذلك أنّ اللسان آلة فى الكلام ، وبحسبه يختلف الكلام ، فأراد تعالى أن يبيّن أنّه خالف بين الألسنة لكى تختلف الأصوات والنغم فى الكلام ، فيفصل بين متكلم ومتكلم ، كما خالف بين الألوان ، ليقع للمشاهد التمييز[١] .

١٦ ـ وقوله : « وأسروا قولكم أواجهروا به انه عليم بذات الصدور ـ الملك : ١٤» كان المشركون يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيخبر الله نبيّه ، فقال بعضهم : أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمّد ، فنزلت : أنّه لافرق عندالله بين الجهر والاخفات ، إنّه يعلم ماتختلج به صدوركم قبل النطق به . ثمّ جاء التعقيب معللا : « ألايعلم » ـ أى خفايا جوانحكم ـ «من خلق» ـ أى من خلقكم ، فهو أعرف بخباياكم قبل مظاهركم ـ « وهو اللطيف الخبير ـ الملك : ١٣ـ١٤» فلايعزب عنه شيء وان دق ولطف .

إذن فلادلالة فى الآية الكريمة أنّه تعالى خلق الخواطر والألفاظ ، كما زعمه الأشعرى وأذنابه ممن يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه .

١ـ متشابهات القرآن ج٢ ص٥٥٣ـ٥٥٤ . وتفسير الصافى ج٢ ص٢٩٨ .

١٧ـ وقوله : «ربنا واجعلنا مسلمين لك ـ البقرة : ١٢٨» اى وفقنا لنكون مسلمين لك ،وذلك بافاضة ألطاف خاصة يفيضها الله على من استهدى من عباده وجاهد فيه ، «والذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقويهم ـ محمد:١٧» . «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت : ٦٩ » وسنتكلم عن مراتب الهداية ، وانها عامة وخاصة ، منها ما عمّ الناس جميعاً ابتداء منه تعالى . ومنها ماخصّ المستر شدين المستهدين ممن ساروا على مناهج الهدى وكانت لهم سابقة جد واجتهاد .

والدليل على ذلك ماجاء في تعقيب الآية : «ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم ـ البقرة: ١٢٨ـ ١٢٩ » . فهو دعاء وابتهال الى الله أن يمنحهم بلطفه ومعونته وتأييده الخاص . لا أن يخلق فيهم الاسلام ديناً قهرياً مجبرين عليه ، كما زعمه الأشعرى .

١٨ ـ وهكذا قوله : «وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ـ الحديد: ٢٧ » تعبير عن لطفه وعنايته الخاصة بشأن متبعى المسيح ﷺ جزاء بماصبروا وصدقوا ماعاهدوا الله عليه . «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ـ فصلت: ٣٠ـ٣١» .

١٩ ـ وقوله : «وأنه هو أضحك وأبكى ـ النجم : ٤٣» كناية عن مناشىء الأفراح والسرور ، وعوامل الأحزان والغموم . وبدليل مابعدها من آيات : «وأنه هو أمات وأحيى» . «وأنه هو أغنى و أقنى» . «وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى» .

اذ لو كان المقصود : أنّه تعالى هو يخلق الضحك والبكاء ـ جموداً مع ظاهر اللفظ ـ لتنافى مع قوله: «وأن ليس للانسان الاماسعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الأوفى ـ النجم : ٣٩-٤٢ » قبل هذه الآية الصريحة فى أنّ للعباد نشاطات

ومساعى هم يحاولونها عن إرادة واختيار ، وتعود عليهم بالذات مضاعفات أعمالهم في هذه الحياة .

٢٠ـ وقوله : «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ـ الطور :٣٥» . لايعني سلب قدرة العباد عن الإحداث والايجاد حتى لمثل أفعالهم الاختيارية ، لأنّ وجه هذه الاية إلى غير هذه الجهة ، وإنّما تعنى نفى أنّهم خالقون لأنفسهم ، بصدد اثبات أنّه تعالى هو خالق الأرض والسماء وجميع الخلائق ، ببرهان السبر والتقسيم : إذ يدور أمر الخلق بين ثلاث :الاولى ـ أنّهم خلقوا من غير شيء ، فلم يكن هناك مبدع ولاصانع ، وإنّما وجدوا صدفة من العدم المحض . الثانية ـ أنّهم هم الذين خلقوا أنفسهم .الثالثة ـ أنّ الله خلقهم كما خلق سائر المخلوقات .

قال تعالى : «أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السملوات والارض بل لايوقنون ـ الطور : ٣٥-٣٦» .

وبما أنّ الصدفة والخروج عن العدم المحض من غير علة ولاسبب موجد مستحيلة ، في بداهة العقل الرشيد ، وكذا أن يكون موجود هو أوجد نفسه فيكون بذاته علة لذاته وفي نفس الوقت معلولاً عن ذاته ،ليتّحد العلة والمعلول ، هذا أيضاً مستحيل ، فثبتت الثالثة ، وأنّ هناك صانعاً مدبراً هو الذى خلق وقدر .

٢١ ـ وقوله : «شركاء خلقوا كخلقه ـ الرعد :١٦» نفي أن يكون من زعموه شريكاً مع الله في العبادة أن يكون شريكاً معه في الخلق . فإذا لم يكونوا شركاء في الخلق ،فكيف أصبحوا شركاء في العبادة ؟! والخلق المنفى هنا هو الإستقلال والإستبداد في الإحداث والإبداع ، الأمر الذى لايتنافى واختيارية أفعال العباد ، الذين هم غير مستقلين فيها ، فلم يكونوا شركاء له تعالى في الخلق والتدبير التام . اذ نسبة الفعل الى فاعله ـ باعتبار أنّه موجد لشرطه ـ لاتقتضى استقلاله في الإحداث.

٢٢ـ والاجماع على أنّه لاخالق إلا الله ، كالآيات المتقدمة ،ينفى استقلال غيره

فى الإحداث والإيجاد، أمّا إيجاد شرط الشىء لتتفاعل القوى الطبيعية مع بعضها تماسكاً وتجاذباً، وفق سنة الله التى جرت فى الخلق، فهذا شىء لا ينفيه الاجماع المذكور ولا الآيات السابقة. وقد تقدم الكلام فى ذلك. واطلاق الخلق على هذا النمط من الإحداث والصنع ليس شيئاً ينكر، قال تعالى -خطاباً مع عيسى عليه السلام: «واذ تخلق من الطين كهيئة الطير - المائدة: ١١٠» أى تصنع. فأسند الخلق الى عيسى ذاته. وقال تعالى: «فتبارك الله احسن الخالقين - المؤمنون: ١٤». «اتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين - الصافات: ١٢٥». أى أحسن الصانعين، حيث استقلاله واستغناؤه فى الصنع والإحداث، وافتقار غيره من الصناع الى فعل القوى التى أودعها الله فى جبلة الأشياء.

٢٣- أمّا عدم اجتماع قدرتين على مقدور واحد، فان اريد قدرتان مستقلتان على ايجاد الشىء خارجاً. فحق، ولا كلام لنا فى ذلك. إنّما الكلام فى قدرتين إحداهما على ايداع القوى فى طبيعة الأشياء والأفاضة عليها فى خط البقاء. والثانية على إيجاد شرط التفاعل بين هذه القوى. كما فى مثال الإحراق والإحتراق بالنار وهذا شىء بديهى لا غبار عليه.

٢٤- وأمّا التشريك فى الخلق فإنّما يلزم لو قيل بتأثير قدرتين مستقلتين كل على مقدور غير مقدور الأخرى، كما ذهب اليه الثنوية. أمّا لو كانت هناك قدرتان إحداهما فى طول الاخرى وفى إمتدادها - وفق سنة الله التى جرت فى الخلق - لحكمة التكليف والاختبار، فلا شرك، بل هو توحيد خالص، كما لا يخفى على اولى النهى.

٢٥- أمّا العلم بتفاصيل المصنوع فواجب لو كانت جميع تلك التفاصيل من صنعه وواقعة تحت اختياره وعن قصده، أمّا لو كانت جملة المصنوع إجمالياً واقعة عن قصده، لكن لزمتها بعض الخصوصيات لا عن اختياره، فلا يجب تعلق علم

الصانع بها .

ففى مثال المشى ، كان الذى قصده الماشى هو : رفع رجله ووضعها الى الأمام فى اتجاه خاص . وهذا المقدار هو الذى ينسب إليه ويكون عن اختياره وقصده وارادته الخاصة. أمّا قدر ما بين قدميه من مسافة وكم خطوة يريد تخطيها، فهذا لم يقصده ولا واقع تحت ارادته ، ولا هو منسوب إليه كعمل اختيارى . وهكذا حركات أعضائه عند الأخذ والبطش ، ومدّ الاعصاب والايعازات العصبية ، وما إليها كلّها خارجة عن إختياره وإرادته الخاصة ، ولا ينسب إليه شىء من ذلك [1] .

٢٦ ـ وأمّا قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ـ الاعراف : ١٧٩ » فهو كقوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ـ القصص : ٨» . كانت اللام فى أمثال هذا الكلام للعاقبة والنتيجة ، كقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام : لدوا للموت وابنوا للخراب . أى كلّ ولادة لابدّ أن تنتهى الى الموت . وكل بناء لابدّ أن ينتهى الى الخراب . وهكذا كثير ممن خلقهم الله تؤول عاقبة أمرهم الى جهنم . بدليل التعليل فى ذيل الآية : لهم قلوب لا يريدون أن يفقهوا بها . ولهم أعين لا يحاولون الإبصار بها . ولهم آذان لا يسترعون الإستماع بها. وقد جعلوا من أنفسهم كالأنعام بل أضل . الامر الذى هم طلبوه ومهدوا السبيل الى تحقيقه ، كأنّهم يجتهدون مساعيهم لدخول النار وبئس المصير .

وأخيراً فالذى يدلنا بوضوح على أنّ دخولهم النار كان لسوء اختيارهم ـ لأنّه تعالى خلقهم لذلك بحيث اراد منهم فعل المعاصى ليدخلوا جهنم ، كما زعمه الأشعرى وأذنابه الاغبياء ـ قوله تعالى : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ـ الذاريات : ٥٦ » . وهذه الآية صريحة ومحكمة ، فيجب رد غيرها من متشابهات اليها .

---

١ ـ راجع ـ بالخصوص ـ محاضرات سيدنا الاستاد ـ دام ظله ـ ج٢ ص٤٤ـ٤٥ .

٢٧ ـ وقوله : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ـ السجدة : ١٣» . المشيئة فيها تكوينية ، أى لو أردنا اجبارهم على الهدى لفعلنا ، غير أنّه «لا اكراه فى الدين». إذ حكمة التكليف تقتضى منح المكلفين اختيارهم فى الاهتداء او البقاء على الضلال. ولولا ذلك لم يحصل اختبار ولا تمييز الخبيث من الطيب . ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وقوله ـ بعد ذلك ـ :«ولكن حق القول منى لأملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين» لايدلّ على أنّه تعالى حتم عليهم الكفر والعصيان ليدخلوا جهنم . بل المعنى :أنّه تعالى حق القول منه أن لايكره الناس على الطاعة والايمان ، بل يجعلهم مختارين فى الاهتداء والبقاء على الضلال تحقيقاً لحكمة التكليف . ومن ثم فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ـ الكهف : ٢٩» ، الامر الذى ينتهى بامتلاء جهنم من العصاة والكفار ، لسوء اختيارهم الفسوق والطغيان.

وتدلنا على ذلك الآية بعدها: «فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ـ السجدة : ١٤» فكان استحقاقهم العقاب، لسوء تصرفاتهم فى هذه الحياة ، وتناسيهم لقاء يوم الحساب . الامـر الذى يتنافى ومقصود الاشعرى فى الجبر على الكفر والعقاب .

٢٨ ـ والآيات التى جاء فيها تعليق الايمان على مشيئة الله ، إنّما تعنى ارادته التكوينية للايمان المتنافية مع حكمة التكليف: «ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً ـ يونس : ٩٩» . لكنه تعالى لم يشأ ذلك ، بل خول الناس اختيارهم فى الكفر والايمان «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ـ الانفال:٤٢».

وبذلك اتضح تفسير قوله تعالى : «ماكانوا ليؤمنوا ـ أى باختيارهم ـ الا أن يشاء الله ـ أن يجبرهم على الايمان . لكنه تعالى لايفعل مايخالف حكمته فى التكليف ـ الانعام : ١١١»

٢٩ ـ وقوله : « وماتشاءون إلا أن يشاء الله ـ الانسان : ٣٠ » يعنى اذنه فى

تحقق الاشياء ـ على ماسلف تحقيقه ـ فكل مايريد العباد فعله ، لايقع إلّا باذن الله، وبارادته الحادثة . الواقعة إثر إرادة العباد ، وفق سنته الجارية في الخلق .

٣٠ ـ ٣١ ـ وكل آية جاء فيها تعليق الايمان أوعدم الشرك أوعدم القتال على مشيئة الله تعالى ، فإنما هي المشيئة التكوينية ، بنفس التقريب المتقدم برقم : ٢٨ .

٣٢ ـ وتأويل الأشعري آية الذاريات : ٥٦ بأنه تعالى انما عنى المؤمنين ، فهو تخصيص لحكم عام من غير مخصص ، ولايعدو تأويلاً باطلاً وتحريفاً بالكلم عن مواضعه من غير مبرر . اذ لم يخلق الله خلقاً لجهنم ـ كما زعمه أهل الزيغ والانحراف ـ ليكون ذلك تخصيصاً في آية الذاريات . وقدتقدم الكلام عن آية الأعراف : ١٧٩ برقم : ٢٦ .

٣٣ ـ وهكذا تأويله آية النساء : ٧٩ بالحمل على الاستفهام الانكاري تأويل غير مستند ، وتحريف بظاهر الكلام لايعمد اليه غير الذين في قلوبهم زيغ ، ابتغاء الفتنة وطلب الفساد بين العباد .

قال القاضي ـ معرضاً بالأشعري ـ: فأمّا من حرّف التنزيل لكيلا يلزمه بطلان مذهبه ، وزعم أنّ المراد به :فمن نفسك ؟! على جهة الانكار ، فقدبلغ في التجاهل، وردّ التلاوة الظاهرة الى حيث يستغني عن مكالمته [١] .

* * *

(ملحوظة) قديزعم البعض وجود التنافي بين الآيتين التاليتين :

الاولى ـ قوله تعالى : « وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عندالله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل : كل من عندالله فمالهؤلاء القوم لايكادون

---

١ ـ متشابهات القاضي ج١ ص١٩٩ .

يفقهون حديثاً ـ النساء : ٧٨» .

الثانية ـ قوله تعالى ـ بعقب الاولى ـ : «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ـ النساء : ٧٩» .

حيث الاولى دلت على أنّ كلاًّ من الحسنة والسيئة من عندالله ، ودلت الثانية أنّ الحسنة خاصة من عندالله ، وأمّا السيئة فمن العباد أنفسهم . فماوجه التوفيق ؟

وتخلص الاشعري بنفسه بحمل الاولى على الاستفهام الانكاري ، وقد تقدم وهنـــــه برقم : ٣٣ . وقدشنعوا عليه هذا التأويل الذى لايعدو تحريفاً ظاهراً لامبرر له سوى قلة الورع وعدم المبالاة بالدين .

وقدجاء مثل التعبيرين فى قصة موسى عليه السلام ، قال تعالى : «فاذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه . وان تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه ـ الاعراف : ١٣١ » . فقال تعالى مكذباً لهم فى ذلك : «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ـ الاعراف : ١٦٨» . فبين أنّه تعالى هو الذى يفعل الامرين بلاء ومصلحة ، لكى يرجع العاصى ويقتلع عن كفره ومعصيته .

وتفسيرهما الصحيح : أنّ الحسنة هنا : الرخاء ووفور النعم . والسيئة : الجدب والقحط والبلايا . فكلتاهما من عندالله ابتلاء لعباده بالنعم شكراً أم كفراناً ؟ وبالبلايا ارعواء أم زيادة طغيان ؟ . وقد تكون النعم تفضلاً ومزيداً فى الاحسان جزاء لشكرهم «لئن شكرتم لازيدنكم ـ ابراهيم : ٧» . وتكون البلايا نقمة وعقاباً « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بماكانوا يكسبون ـ الاعراف : ٩٦» . «فلولا اذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ـ الانعام : ٤٣» .

فالسيئة ـ كالحسنة نازلة من عندالله لحكمة الرجوع الى الرشد والارعواء عن الباطل لطفاً ، أونكالا وعقاباً على المرود والطغيان . غيرأنّ السبب الموجب

لنزول البلاء عليهم هم أنفسهم جزاء بما كسبوا .

وبهذا يجمع بين قوله ـ بشأن الحسنة والسيئة ـ : «كل من عندالله» .وقوله ـ بشأن السيئة ـ : «فمن نفسك» . نعم كانت الحسنة (النعم والرخاء) تفضلا من الله محضاً ،حيث لااستحقاق ذاتياً للجزاء على الحسنات الاماوعدالله من المثوبة والاحسان والتفضل والرضوان .

٣٤ـ وماأقبح قول الأشعرى : انه تعالى لم يردأن يظلم العباد بنفسه وان كان قدأراد أن يظلم بعضهم بعضاً !!

وقد قال هذا القول الشنيع تبريراً لمذهبه الباطل ، أن أفعال العباد منسوبة الى الله لاتأثير لارادتهم ولالقدرتهم فى تحققها . فهو تعالى أراد ظلم الظالمين وعيث الفاسدين !!

لكن ذهب عنه أولم يستطع فهم هذه الحقيقة : أن الله تعالى وإن كان قدأقدر الظالم على ظلمه ، وجعل له الأختيار فيما يريدفعله ، لحكمة التكليف والاختبار لكنه تعالى لم يرد هذا الظلم بإرادته التشريعية ، حيث نهاه ونهره عن الظلم والفساد فكيف يجبره ـ بما يخرج عن استطاعته ـ على الظلم والعصيان ؟!

٣٥ ـ ولاندرى كيف جازلهم تفسير الخلق بالتقدير فى آيتى المائدة : ١١٠. والمؤمنون : ١٤ . ونسوه فيما دل على أنّه تعالى خالق أفعال العباد « خالق كل شىء » ؟!

وقدتقدم [١] أنّ الخلق فى قوله «أحسن الخالقين» . وقوله «تخلق من الطين» بمعنى الصنع والإحداث باعتبار أنّ العباد ـ فيما يصنعون ـ هم موجدون لشرائط الحدوث والتحقق بفعل القوى تجاذباً مع بعضها .وبذلك صح اطلاق الخالق ـ بمعنى الصانع للشىء ـ عليهم .

١ـ راجع صفحة ١٧٨ و١٩١

٣٦ ـ وجوابهم ـ عن اعتراض لزوم الجبر ، بأنه تعالى أراد منهم الكفر والفسوق عن اختيارهما ـ كلام فارغ لامحصل له ، إذ كيف يريد تعالى منهم الكفر بارادته التكوينية التى لاتتخلف عن المراد ، وتكون علة تامة لتحقق المراد ، ثم ينسب ذلك الى اختيارهم ، ولا اختيار لهم مساكين الى جنب سلطان ارادة الله القديمة، حسبما زعموا ! !

وأىّ معنى لارادة العباد الى جنب ارادة الله إذا لم يكن لإرادة العبد تأثير فى تحقق المراد ، كما لاتأثير للعلم فى تحقق المعلوم ، حسب تصريح الأشعرى؟!

والغريب : أنهم قاسوا ارادته تعالى المتعلقة بافعال العباد بعلمه تعالى المتعلق بها ؟! اذ لو كانت ارادته كعلمه ، كانت لاتأثير لها كما لاتأثير للعلم . وهم إنّما يرون أنّ كل التأثير لارادته تعالى ، تحقيقاً لقانون « لامؤثر فى الوجود الاالله » . وينفون أىّ تأثير لارادة العباد ، فكيف هذا التناقض المفضوح ؟!

ولنختم الكلام بأصرح آية تقضى على مزعومة الجبر نهائياً ، وتنسب أفعال العباد ومايترتب عليها من تبعات ومضاعفات الى أنفسهم . وهى فى نفس الوقت تبكيت قاطع ومكافحة صارمة فى وجه أمثال الأشعرى ممن يجادلون فى الله بغير علم ، ويحاولون تحريف الكلم عن مواضعه زوراً وبهتاناً .

قال تعالى : «ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بماقدمت يداك [1] وأن الله ليس بظلام للعبيد ـ الحج : ٨-١٠» .

---

١ ـ انظر الى هذا التعبير الذى لايحتمل أى التباس فى ان العباد هم فاعلون لأعمالهم إن حسنة وان سيئة .

مسألة الهداية والتوفيق

أصل الهداية: الدلالة والارشاد [1]، غير أنّ أنحاء الدلالة تختلف حسب نوعيتها ومرتبتها في التأثير والبلوغ. فمن دل غيره على طريق يؤدّي الى مقصده فقد هداه، كما أنّ الذي أخذ بيده وأوصله الى مطلوبه أيضاً هداه. ففي الأوّل يحتمل الضلال، والثاني لايحتمله. فقوله تعالى: «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى – فصلت: ١٧»، هداية من النوع الاول. وقوله تعالى: «ومن يهد الله فماله من مضل – الزمر: ٣٧» هداية من النوع الثاني. وقد استعملت «الهداية» في القرآن على انحاء ودرجات، نلخصها فيما يلي: –

الاولى: هداية فطرية مرتكزة في جبلة الأشياء، سواء أكان حيواناً أم نباتاً أم جماداً. اذ ما من موجود إلّا وهو يهتدي – اهتداء ذاتياً – الى طرق الصلاح والفساد، ممّا يتلائم وطبعه فيسعى في جلبه، أو يينافره طبعه فيقوم في وجهه، بدافع من فطرته التي فطره الله عليها «ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى – طه: ٥٠». «والذي قدر فهدى – الأعلى: ٣». الامر الذي نشاهده – بوضوح – في مظاهر هذا الكون. كل يسعى الى كماله في الوجود، واستجلاب المنافع ودفع المضار، دار تنازع في البقاء.

الثانية: ركب تعالى في هذا الانسان قدرة تفكيرية جبارة (العقل) بها يستطيع التغلب على قوى الأرض والسماء وتسخيرها في سبيل منافعه، كما استخدم ماأمكنه من حيوان ونبات وجماد، وسائر مافي الوجود من قوى وطاقات، في سبيل تحضره

١– كما في قوله تعالى: «فاهدوهم الى صراط الجحيم – الصافات: ٢٣». وقوله: «أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر – اي بالاهتداء بالنجوم – النمل: ٦٣»، كما في قوله: «وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر – الانعام: ٩٧».

والصعود على مدارج الترقي والكمال المدنى ، ولايزال .

وبهذه المقدرة العقلية يستطيع تمييز الخير عن الشر والحق عن الباطل ، كما ميز بين المنافع والمضار والصلاح والفساد ، نعم اذا لم يغلبه هواه ولم يستسلم لقيادة النفس الأمارة بالسوء !

قال تعالى : «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ـ البلد : ٨ ـ ١٠» ، ومن ثمّ جاء فى روايات أهل البيت ـ عليهم السلام ـ : أنّ العقل رسول باطنى ، وإنّما جاء الانبياء الى البشرية ليؤيدوا ماهداهم اليه نور العقل ، وهو حجة الله ودليله المتركب فى صميم الانسان . ولولاه لم ينفع هدى رسول ولا ارشاد نبى .

روى ثقة الاسلام الكلينى عن هشام بن الحكم ، قال له الإمام موسى بن جعفر ـ عليهما السلام ـ : «ياهشام ، ان الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ، ونصر النبيين بالبيان ، ودلّهم على ربوبيته بالأدلّة ـ الى أن قال ـ : ياهشام ، إنّ لله على الناس حجتين ، حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ وأمّا الباطنة فالعقول»[1] .

الثالثة : نصب الدلائل وبعث الرسل وانزال الكتب والشرائع ، هداية خارجية تؤيد تلك الهداية الباطنية ، كما فى الحديث الآنف .

وهذه الانحاء الثلاثة من الهداية عامة ، شاملة لجميع المخلوقين . ولعامة الناس على مختلف الأمم والطوائف . « انا هديناه السبيل اما شاكراً - بالاجابة والعمل ـ إما كفوراً ـ بالإعراض والتولى ـ الانسان : ٣» . « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات ـ الأنبياء : ٧٣» . « وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون ـ الاعراف : ١٨١» . «والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ـ الاحزاب : ٤» . وقال تعالى مخاطباً لنبيه الكريم صلى الله عليه وآله : «وانك لتهدى الى صراط مستقيم ـ الشورى :

---

١ ـ الكافى الشريف ـ الاصول ـ ج١ ص١٣ ـ ١٦ .

٥٢» . وقال عن القرآن الحكيم : «ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ـ الاسراء : ٩» . والهداية ـ فى أمثال الآيات ـ هداية بالدلالة والارشاد، المصطلح عنها بالهداية التشريعية ، التى هى وظيفة النبى ﷺ الواجبة عليه . أمّا الهداية التى ينفيها تعالى عن نبيه ﷺ فهى من النوع الآتى ، المصطلح عنها بالتكوينية قال تعالى : « انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ـ القصص : ٥٦» . وبذلك يرتفع التنافى بين هذه الآية وآية الشورى: ٥٢ . كما يحصل بذلك التوفيق بين كثير من آيات كانت بظاهرها متخالفة ، على ماسننبه .

الرابعة : توفيق رحمانى وتسديد للخطى نحو الصواب ، منحة الهية خاصة، لاولئك الساعين فى سبل الاهتداء . «ومن يؤمن بالله يهد قلبه ـ التغابن : ١١» . «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اولئك الذين هداهم الله ، واولئك هم اولوا الالباب ـ الزمر : ١٨» . «اولئك الذين هدى الله فبهديهم اقتده ـ الانعام: ٩٠» . «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت: ٦٩» . «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقويهم ـ سورة محمد: ١٧» . «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ـ سورة مريم: ٧٦» . الى غيرهن من آيات جاءت الهداية فيهن بمعنى العناية الخاصة واللطف الخاص ، يختص بها المؤمنون حقاً ، المتنورون بنور العقل ، السائرون على هدى الرسل بسلام. «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ـ المائدة : ١٥-١٦» .

واما المعاكسون لهدى الفطرة فلم يجيبوا دعوة الانبياء، فقد حرموا على انفسهم سعادة هذا الاهتداء الرحمانى فعموا وصموا، «ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم ـ النحل: ١٠٤» . «ان الله لايهدى من هو كاذب كفار ـ الزمر :٣» . «كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءتهم البينات والله لايهدى القوم الظالمين ـ آل عمران :٨٦» .

* * *

والهداية ـ بهذا المعنى الرابع ـ هى التى يمنحها الله من يشاء ، ويمنعها عمن يشاء. لايمنحها إلّا لاولئك الذين جاهدوا فى الله وحاولوا البلوغ الى كمال الاهتداء سيراً حثيثا من مرحلة «علم اليقين» الى مرحلة «عين اليقين» . ومن جدّ وجد . «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً ـ الاسراء: ١٩».

وهكذا لايمنعها إلّا عن اولئك الذين أعرضوا عـن ذكره وسعوا فى آياته معاجزين . «ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ـ طه : ١٢٤ ـ ١٢٧» .

وبذلك تفسر مشيئته تعالى المتعلقة بهداية من يشاء واضلال من يشاء «فيضل الله من يشاء و يهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ـ ابراهيم : ٤ » . أى يخذل[1] من أعرض عن ذكره ، ويهدى من سعى اليه . اذ ليست مشيئته تعالى اعتباطاً متنافياً لمقام حكمته عز شأنه، «ولا يرضى لعباده الكفر»[2]، «وما الله يريد ظلماً للعالمين»[3].

الخامسة : قدرة ايمانية عاصمة عن الخطل والزلل، وعن الخطأ والانحراف، هى عصمة ربانية تتحلى بها نفوس قدسية من عباد الله المصطفين الاخيار « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ـ فصلت: ٣٠ ٣١» . وهذا جزاء استقامتهم على هـدى الفطرة وصبرهم فى جنب الله « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غـدقا ـ الجن : ١٦» . ومن ثمّ فإنّ العصمة

١ـ وسنشرح ـ فى فصل قادم ـ ان الاضلال من الله هو الخذلان بمعنى ترك المتمرد ونفسه، حيث أصر على العناد والاستكبار .

٢ـ سورة الزمر :٧

٣ـ سورة آل عمران : ١٠٨

خاصة بالانبياء والائمة الأولياء ، هداهم الله اليها جزاء بماصبروا ، وجعلهم الأئمة المقتدى بهم في الناس ، حيث «لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ـ التحريم: ٦».

قال تعالى: «ووهبناله (لابراهيم) اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، كل من الصالحين، واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ،وكلا فضلنا على العالمين ـ الى قوله ـ اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ـ الى قوله ـ اولئك الذبن هدى الله فبهديهم اقتده ـ الانعام : ٨٤ ـ ٩٠ ».

وسنتكلم عن مختلف جوانب هذه العصمة الرحمانية الخاصة في فصل قادم ان شاء الله .

* * *

وهناك هداية اخرى هي : هداية إلجاء ، لم يشأ الله ـ فيما عدا هدى الفطرة ونور العقل ـ أن يلجىء عباده عليها ، ولاأن يكرههم على الطاعة والايمان ، حيث هذه الحياة الدنيا دار اختيار واختبار ، ولا اختبار مع الإلجاء والإكراه . وبذلك نوه الذكر الحكيم ، قال تعالى : «فلو شاء لهداكم أجمعين ـ الانعام : ١٤٩ » . وقال : « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ـ الرعد : ٣١» . لكنه تعالى لم يشأها، حيث منافاتها للتكليف والاختبار .

* * *

وقسم سيدنا الاستاذ ـ دام ظله ـ انحاء الهداية الى ثلاثة :

الاولى ـ هداية تكوينية عامة ، أعدّها الله في طبيعة الموجودات ، وهي تسير بطبعها نحو الكمال ، وتهتدي بنفسها الى طرق الاستكمال « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ـ طه: ٥٠» .

الثانية ـ هداية تشريعية عامة ، أفاض على الانسان العقل وقدرة تمييز الحق

عن الباطل، وأيّده بارسال رسل وانزال كتب وشرايع «اناهديناه السبيل اماشاكراً إماكفوراً ـ الانسان :٣» .

الثالثة ـ هداية تكوينية خاصة ،عناية ربانية خص الله بها بعض عباده ممن وفقهم وسددهم نحو الصواب وفق اقتضاء حكمته ولطفه «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت : ٦٩».

وبذلك فسر ـ دام ظله ـ طلب الهداية في قوله : «اهدنا الصراط المستقيم ـ سورة الفاتحة» .حيث المسلم بعدمااعترف بأنّ الله قدمن عليه بهدايته العامة التشريعية، يطلب من الله أن يمنحه هدايته الخاصة التي يختص بها من يشاء من عباده[١] .

* * *

والهداية في كل مرتبة من مراتبها الخمس المتقدمة هي ذات درجات أعلافأعلا ، يتدرجها عباد الله النابهون درجة بعد درجة ومرحلة بعد اخرى الى غير نهاية حيث لا نهاية ولا غاية لرحمته تعالى الواسعة ،فكلما بلغ العبد منزلة رفيعة من رحمته تعالى تكون وراءها مراتب أرفع وأعلا وأقرب الى فيض قدسه تعالى ، ولايزال مثل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم يرتفع درجات الى قرب رضوانه تعالى ، كلما صلت عليه امته عبر الدهور ، صلى الله عليه أكمل صلاة وأرفع تحيات ، وعلى آله الميامين الأطهار .

ومن ذلك يتضح لنا السبب في ترغيب وتكليف طلب الاهتداء عبر الساعات والأيام ، حيث تتواصل رحمة الله الواسعة ، الشاملة لعباده المؤمنين عبر الدقائق والآنات .

وإذا لاحظنا من درجات النور المتصاعدة الى الأقوى ، واعتبرنا كل درجة لاحقة هي أشد تنوراً من سابقتها ، كانت الدرجة السابقة فاقدة لهذا المقدار الأشد وكانت هذه بنفس النسبة مظلمة بالاضافة الى الدرجة اللاحقة ذات التنوير الأقوى

---

١ ـ راجع : البيان ـ عند تفسير سورة الفاتحة ـ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩

ـ وهكذا درجات الهداية التي هي نور في حقيقتها ـ فحيثما يتدرج العبد على مدارج الهداية صعوداً الى الأكمل ، فانما هو ينتقل من درجة هي ضلال بالنسبة الى تاليتها وظلمة انتقل عنها بتوفيق الله وهديه الخاص الى نور هي درجة جديدة من نور هدايته تعالى .

وبهذا المعنى فسرنا قوله تعالى : «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ـ البقرة : ٢٥٧» ، حيث الفعل المضارع دل على استمرار وجودي لهذا الانتقال التدرجي ، وماذاك إلّا عنايته تعالى بشأن المؤمنين من عباده ، أخذاً بأيديهم صعداً على مدارج الهداية والكمال ، من نور هي ظلمة نسبية الى أنور ، سيراً تقدمياً مع الأبدية . أمّا الكافر العنود فانه في سير تقهقري ، رجوعاً من نور عقله وهدى فطرته الى ظلمات الغي والجهالة المردية «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات» . عصمنا الله من غواية النفس وانقذنا من حبائل الشيطان ، وهدانا الى سبيل رشده هدياً متواصلاً مع الأبد ، آمين رب العالمين .

* * *

إضلال أم خذلان ؟

تلك هدايته تعالى بالمعاني الخمسة المتقدمة ، منها ما كانت اختيارية ، وهي المتوسطة بين سابق «فطرة وعقل» ولاحق «توفيق وتسديد» فاذا مالبى العبد نداء فطرته وسار على رشد عقله ، انقاد لهدى الشريعة وأطاع ربه ، ومن ثم أدركه توفيق رباني وانشرح صدره فبلغ الحقيقة والصواب بعنايته تعالى ولطفه الخاص .

أمّا اذا عاكس فطرته وخالف رشد عقله ، فإنّه لا يجيب الى دعوة الأنبياء ولا يمتثل تكليف ربه ، ومن ثم لم يستعد بنفسه لشمول نفحات قدسه تعالى ، فأخطأه التوفيق وضاق صدره فلم ينل الاهتداء الى الصواب ، فكان قد حرم سعادة الحياة في شقاء دائم .

وعليه فمعنى اضلاله تعالى لمن يشاء ، هو خذلان عبده المتمرد الطاغى ، يتركه يعمه فى ظلمات غيّه ،جزاء متناسباً مع عناده واصراره على الجهالة والطغيان. كسائر على مزالق هاوية سحيقة، لايعرف درب النجاة وغمته ظلمات السماء والارض، فيناديه الدليل العارف: ناولنى من يدك لأهديك سواء السبيل، واتبعنى أهدك صراطاً سوياً، لكنه لسوء اختياره يترفع بنفسه ـ علواً واستكباراً ـ أن ينخرط مع سائر المهتدين أو يسير معركب المؤمنين «واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ـ البقرة : ١٣» . «اذقال لهم اخوهم نوح : ألاتتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله واطيعون قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ـ الشعراء :١٠٦ـ ١١١» . «فقالوا : أبشراً مناواحداً نتبعه إنا اذاً لفى ضلال وسعر ـ القمر : ٢٤» .

هكذا أطاحوا بحظّهم وألقوا بأيديهم الى التهلكة «فلمازاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ـ الصف : ٥» ، قال تعالى:«سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق، وان يروا كل آية لايؤمنوا بها،وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ،وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا،ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ـ الاعراف ـ١٤٦» .

هذا هو اضلاله تعالى بمعنى خذلانه الطغاة وتركهم فى ظلمات الغى يعمهون معاكسة طبيعية وحتمية مع اتجاههم ذاك العاتى «وما الله يريد ظلماً للعباد ـ غافر: ٣١» « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ـ ابراهيم : ٢٧» . وهو تفسير قوله :«يضل من يشاء» بدليل قوله: «قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب ـ الرعد : ٢٧ » . فالذين يريد الله اضلالهم ـ أى خذلانهم ـ هم الذين لاينيبون الى الله مولاهم الحق[1] وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون[2] .

١ـ مقتبس من قوله تعالى :«ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ـ الانعام:٦٢» .

٢ـ سورة آل عمران : ٢٤ .

«فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً ـ النساء : ١٧٥» .

قال سيدنا الطباطبائى ـ دام ظله ـ : قد وقع المؤمنون حقاً بين هدايتين : هداية اولى فطرية وانصياع الى رشد العقل ، فشملتهم عناية ربانية فى نهاية المطاف . كما ان الكافر وكذا المنافق ، واقع بين ضلالين : ضلال سابق هى معاكسة نداء الفطرة وهدى العقل ، فلحقهم ضلال وعمه عن سبيل الحق مع الأبدية ، «كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون ، صم بكم عمى فهم لايرجعون ـ البقرة : ١٧-١٨»[١].

اذن فكما أنّ الهداية اللاحقة منحة الهية يكتسبها العبد بفضل جهوده فى سبيل لقاء ربه كذلك الضلال اللاحق خذلان من الله استوجبه العبد لنفسه ، مغبة اعراضه عن الحق وصموده على الغى والضلال ، وفى كلا الجانبين يكون العبد هو السبب العامل لما يصيبه من سعادة وشقاء فى نهاية المطاف . «فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ فإنّما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل ـ يونس : ١٠٨» .

* * *

وزعم الأشعرى ومن على شاكلته من أهل الجبر ، أن لاسبيل للعبد الى اختيار طرق الهداية أو الضلال اطلاقاً ، وإنّما هى إرادته تعالى يهدى من يشاء بلاسبب ذاتى ، ويضل من يشاء بلا استحقاق موجب ، لأنّه تعالى يفعل مايريد ، ولايسأل عما يفعل وهم يسألون .

قال : ان الله هدى البعض الى الايمان ولطف به وأصلحه فكان مؤمناً ، وأضل البعض ولم يلطف به ولم يصلحه فكان كافراً ، ولو أصلحه ولطف به لكان مؤمناً ، لكنه تعالى أراد أن يكون هذا كافراً ومن ثمّ خذله وطبع على قلبه .

وتشبث فى ذلك بظواهر آيات تنسب اليه تعالى الهدى والضلال مطلقا «يهدى

---

١ ـ راجع : تفسير الميزان ج١ ص٤٢ ط دار الكتب الاسلامية .

من يشاء ويضل من يشاء». قال: الايمان والكفر كلاهما من فعله تعالى يخلقهما في من يشاء من عباده ، من شاء جعله مؤمنا ، ومن شاء جعله كافراً . والخلاصة : انه فسر الهداية – حيثما وردت في القرآن – بخلق الايمان مباشرة أو القدرة عليه ، ومن ثم فهي خاصة بالمؤمنين وحدهم ، لأنّهم هم الذين أراد منهم الايمان ، فأقدرهم عليه ووفّقهم له ، دون غيرهم من الكفار والمنافقين ، ولو كان أراد من هؤلاء الايمان أيضاً لأقدرهم عليه لكنّه تعالى أراد أن يكونوا كافرين فلم يقدرهم على الايمان .

وقال – في قوله تعالى : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» –: ان الضمير في «فهديناهم» يعود على المؤمنين من قوم ثمود خاصة ، والضمير في «فاستحبوا العمى» يعود على الكافرين منهم خاصة . ليكون المعنى : ان الله هدى البعض من قوم ثمود الى الايمان وأقدرهم عليه فآمنوا ، كما لم يهد غيرهم ولم يقدرهم فاستحبوا العمى على الهدى وصاروا كافرين .

وقد تكلم الاشعري في ذلك باسهاب ، في فصول عقدها من كتابه : « الابانة » فراجع [1] .

ورمى أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت٤٥٦) القائلين بمثل هذه التفسيرات بالجهالة ، قال: وقال بعض من يتعسف القول بلا علم – معرضاً بالاشعري – ان قول الله عز وجل :«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى». وقوله تعالى: «انا هديناه السبيل» . وقوله تعالى : «وهديناه النجدين» : إنّما أراد تعالى بكلّ ذلك المؤمنين خاصة !

قال : وهذا باطل من وجهين ، أحدهما: تخصيص الآيات بلا برهان ، وما كان هكذا فهو باطل . والثاني: ان نص الآيات يمنع من التخصيص –: ثم أخذ في الاستدلال بآيات رداً على تلك المزعومة [2] .

١– من طبعة حيدر آباد الدكن عام ١٣٦٧هـ صفحات : ٦–٧ و ٥٦ و ٥٩ و ٦١– ٦٣ و ٦٥– ٧٠.

٢– الفصل في الملل والنحل ج٣ ص٤٥– ٤٦

قلت : ونحن قدأسلفنا ـفى مقدمة الفصل ـالبحث عن الهداية والضلال وان لاموقع للالجاء مع التكليف ، كما لاملامة ولاذم ولاعقاب ولاجزاء مع عدم الارادة والاختيار ، وأنّ للهداية مراتب :أولى ووسطى ونهاية، والوسطى اختيارية محضة واقعة بين هدايتين كانتا منحتين الهيتين .وبذلك استطعنا التوفيق بين الايات الكريمة وله الحمد .

(ملحوظة) قديقال : لامانع من حمل قوله تعالى : «يضل من يشاء» على حقيقة الاضلال ، من غير تأويله الى معنى الخذلان والحرمان .وذلك لانه تعالى انما يزيد فى ضلال العاتى المتمرد عقوبة على استكباره وعناده مع الحق الصريح. فهى عقوبة اكتسبها العاصى بيده ، فكان جديراً بهذا الجزاء المماثل «وجزاء سيئة سيئة مثلها ـالشورى : ٤٠» .

لكنا اذا مالاحظنا انجد من امداد التائه فى تيهه ـمهما كان السبب ـقباحة يستنكرها العقلاء فى الأوساط المتحضرة ، ويستقبحون الاغراء بالجاهل المغرور ، زيادة فى غيه وجهالته ،حتى ولو كان هو السبب فى غروره و كان قدعاند الحق ولم يعر اهتمامه لنصح الناصحين اذ ليس من حكمة العقل ان يقوم الدليل بدفع التائه المغرور الى مهاوى الهلكة بحجة جموحه عن قبول النصح والرشاد .

فلنفرض أنّ انسانا معجباً بنفسه لم يستسلم لقيادة من كان يدله على الطريق ، ولم ينصت لنصح من كان ينصحه ،فجعل يسير على مضلات الطريق ومتعرجاته حتى وقف على حافة هاوية سحيقة حائراً فى ضلاله . فهل يجوز العقل حينئذ ان يعود الدليل فيدفع به الى السقوط فى فوهتها، أو يزلق برجله حتى يقع هو فى قعرها ؟!

واذا كان العقل لايجوز أمراً فهو ظلم وقبيح ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً اذن لامحيص عن تفسير اضلاله تعالى بالخذلان والخيبة والحرمان ، بمعنى ترك العتاة فى ظلمات غيهم يعمهون.

عرض آيات الهداية والضلال

(التي وقعت موضع تشابه)

وبعد فلنتعرض الآن لآيات ربما وقعت موضع تشبث أهل الجبر فى الهداية والضلال ، والاجابة عليها وفق ماأسلفنا من البيان :ـ

١ـ قوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم ـالفاتحة : ٦» : قالت الاشاعرة: لو كان المراد بالهداية الدلالة لكانت حاصلة لهم ، فلم يكن لطلبها معنى ، فوجب أن يكون المراد : نفس الايمان أو القدرة عليه .

والجواب: أن للهداية مراتب متلاحقة لايقف المؤمن منها عند حد ، فعلى أية درجة كان فانه يطلب المزيد والبلوغ لدرجة أعلا. ولانهاية لرحمته تعالى مع الأبدية، «والذين اهتدوا زادهم هدى ـ سورة محمد :١٧» . «ويزيدالله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عندربك ثواباً وخير مرداً ـمريم :٧٦» .

وأيضاً فانا قد بيّنا فى التفسير :أنّ العبد يطلب من الله الاستقامة فى جميع شؤون حياته المادية والمعنوية ، الامر الذى لايستغنى عن هدايته تعالى بالتوفيق والتسديد الى الصواب مع الليالى والأيام .

٢ـ «هدى للمتقين ـالبقرة :٢» . قالوا : ماوجه اختصاص الهداية بالمتقين، لو كانت هى الدلالة والارشاد ؟

والجواب : وجه الاختصاص أنهم هم الذين استعدوا بأنفسهم للاهتداء بهذا الكتاب الذى جاء هدى للعالمين . قال تعالى : « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس ـ البقرة : ١٨٥» . والآية نظيرة قوله تعالى : « انما أنت منذر

من يخشيها ـ النازعات : ٤٥» . ولاشك أنه ﷺ جاء منذراً للخلق كلهم ، كما قال تعالى : «وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ـ سبأ : ٢٨».

٣ـ «ان الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ـ البقرة: ٦» يدل على أنّهم لايقدرون على الايمان .

والجواب : انه تيئيس للنبى ﷺ عن تأثير دعوته ، بالنسبة الى اولئك المردة العتاة ، فهو اخبار عن عدم وقوع ، لااخبار عن عدم قدرة ، والالم يصح ذلك الذم والتوبيخ ، والوعيد بعذاب عظيم .

٤ـ «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ـ البقرة :٧». فاذا كان الله قد ختم على قلوبهم ، كان ذلك من ادل دليل على انه تعالى هو للايمان الخالق والكفر ، وللاسباب الموجبة لها !.

والجواب : ان ذلك تشبيه واستعارة ، وكناية عن ذلك الاعتياد على العناد مع الحق والصمود على التمرد والطغيان . كما جاء فى تعبير انفسهم فيما حكى الله عنهم «فاعرض اكثيرهم فهم لايسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون ـ فصلت : ٤-٥» .

انظر الى هذا التعبير الجافى ، جعلوا من أنفسهم صخرة صماء وحجراً صلداً لايتأثر بشيء. وإنّما هى تعابير كنائية عن تلك القسوة والجفاء العارم «ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ـ الانعام : ٤٣» . وقال تعالى ـ مخاطباً لامثالهم فى انكار لاذع ـ : «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ـ البقرة : ٧٤» . ومن ثم ردّ عليهم هذا التبرير الكاذب بقوله تعالى : «وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون ـ البقرة :٨٨» .

وإنّما أسند تعالى الختم الى نفسه، فى حين أنّهم فى آية اخرى جعلوه من ذات أنفسهم «قلوبنا فى أكنة» ، لأنّه تعالى باقداره لهم على فعل كل من الطاعة والعصيان، تمهيداً لصحة التكليف والاختبار ، فقد مكنهم على هذا الجموح و تلك المقاومة

تجاه الحق.

وأيضاً فإنّ خذلانه تعالى لهم ومنعهم شمول لطفه الخاص، على اثر استكبارهم عن قبول الهدى، جعله تعالى كأنّه هو الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة. قال تعالى: «أفرأيت من اتّخذ الهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه. وجعل على بصره غشاوة. فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون ـ الجاثية: ٢٣». فقد جاء فى هذه الاية الختم والغشاء تفسيراً لاضلاله تعالى الذى هو خذلان وترك لهم فى ظلمات لايبصرون. قال تعالى: «ولاتطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ـ الكهف: ٢٨». والآيات يفسر بعضها بعضاً.

وأخيراً فلو كان الله هو ختم على قلوبهم فلايؤمنون الاقليلا، فما هو السبب المبرر لتوجيه الملامة اليهم وذلك الاستنكار فى قوله تعالى: «فما لهم لايؤمنون ـ الانشقاق: ٢٠». وقوله: «ومامنع الناس أن يؤمنوا اذجاءهم الهدى الّا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ـ الاسراء: ٩٤». الى غيرهما من آيات؟!

٥ـ «فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ـ البقرة: ١٠» يعنى: كفراً وشكاً. وذلك يدلّ على أنّه تعالى يخلق الشك والكفر فى قلوب الكافرين والمنافقين.

والجواب: انّ المقصود بالمرض فى الآية هو الانحراف والميل الى الفساد، كما أنّ الجسم اذا انحرف عن استقامته فى الصحة كان مريضاً، كذلك الروح اذا انحرفت عن جادة العقل وأخذت فى معاكسة الفطرة، فانها مريضة، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس.

والسبب فى هذا المرض الروحى هو التفريط فى عدم تموين الروح بما يلائمها من غذاء سليم فى هدى العقل الرشيد. وكلما استبد صاحبه فى هذا الانعطاف غير الطبيعى، ازداد اعوجاجاً عن الجادة الوسطى المستقيمة، واقتراباً الى ملتويات الطريق، وأخيراً الى سقوط هائل فى مهاوى الضلال السحيق. «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ـ الصف: ٥».

ولاشك أنّ الأخذ في زيادة الانحراف كان باصرارهم على العناد واللجاج، وتمكن ابليس من قلوبهم واستحواذه على مشاعرهم فهم لايفقهون، غير أنّ نسبة ذلك الى الله كانت بمناسبة أنّه ـ عزوجل ـ أقدرهم على ذلك لحكمة التكليف والاختبار «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ـ النساء: ١٦٥».

ومن ثم قد نرى نسبة مايفعله الشيطان الى الله تعالى، لنفس السبب. قال تعالى «ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم ـ النمل: ٤»، مع أنّه قال تعالى: «وزين لهم الشيطان أعمالهم ـ العنكبوت: ٣٨. والنمل: ٢٤» وقال: «فزين لهم الشيطان أعمالهم ـ النحل: ٦٣». وقال: «واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ـ الانفال: ٤٨». الى غيرها من آيات.

٦ـ «الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ـ البقرة: ١٥». فذكر أنّ الطغيان من فعله تعالى فيهم، مضافاً الى إسناد الاستهزاء الى نفسه تعالى، دليلا على أنّه يخلق فيهم هذه الافعال!

والجواب: أنّ المد في الطغيان عبارة اخرى عن الخذلان الذي استوجبوه لانفسهم مغبة لجاجهم في الجموح. بدليل مابعده من قوله: «اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين ـ ١٦». اذ لايصح هذا الوصف إلّا اذا كانوا هم اختاروا الضلالة على الهدى، وإلّا فلو كان ذلك من فعل غيرهم لم يجز اطلاق لفظ «الاشتراء» هنا، كما لايخفى.

وأمّا نسبة الاستهزاء إليه تعالى فهي معاكسة طبيعية كانت على إثر تقصيرهم في العمل الانساني، حيث المنافق ـ في سلوكه المزدوج ـ يستهدف مصالح يبتغيها وراء أعماله الاجرامية، ويظن أنّه يبلغها في ستار نفاقه المراوغ. غير أنّ الواقعية تعاكسه في كل مايبتغيه من أهداف، وتفضحه بين حين وآخر في سلوكه ذلك المزدوج الخبيث غير الانساني، فضلاً عن عيشته تلك القلقة المضطربة «يحسبون كل صيحة

عليهم ـ المنافقون : ٤» .

اذن فسلوك المنافق المزدوج هو الذى جلب على نفسه الفشل ودوام الاضطراب فى عيشة غير هنيئة ، الامر الذى جعله سخرية الواقع وموضع استهزاء عارم .انها واقعية مرة يجابهها المنافق مغبة خطئه فى السلوك .

٧ـ «صم بكم عمى فهم لايرجعون ـ البقرة : ١٨» يدلّ على أنّهم ممنوعين من الايمان .

والجواب : انه مبالغة وتشبيه ، لأنّهم لما لم ينتفعوا بهذه الحواس صاروا كأنّهم فاقدين لها ، كما فى قوله تعالى : «انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ـ النمل : ٨٠» . وقال الشاعر :

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادى

٨ـ «يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ـ البقرة :٢٦» هلّايدل على أنّ الاضلال من فعله تعالى ؟

والجواب : ان هذا من كلام اولئك الذين كفروا ، ومن ثم جاءهم الرد والاستنكار على هذا الكلام : «ومايضل به إلّا الفاسقين» . أى لاينحرف بالأمثال التى يضربها الله ، إلّا الذين فى قلوبهم مرض ، فهم الذين تضجرهم الامثال ،حيث إنّها تفضحهم وتنهكم من موقفهم الشانىء .فمعنى الاضلال على ذلك :انه يزيد فى عتوهم وغيظا فى صدور .

٩ـ «واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ـ البقرة : ٩٣» يدلّ على أنه تعالى خلق الاشراك مزجاً فى قلوبهم .

والجواب : أنّ ذلك مبالغة فى تمكن حب الشىء من القلب ، كانه اشرب قلبه ذلك ،فهو كناية عن شدة تمسكهم بالعجل واعجابهم بعبادته .

١٠ـ «وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ـ البقرة : ١٠٢» يدلّ على أنّ اضرار السحر إنّما هو بارادته تعالى .

والجواب : قد أسلفنا أنّ اذنه تعالى فى التأثير والتأثر عبارة عن تحكيم قانون العلية ربطاً بين الحوادث، وفق سنة الله التى جرت فى الخلق . فهو تعالى أفاض على القوى تأثيراتها من فاعل وقابل ، وهو تعالى يمدها كذلك ،ولو شاء لأوقف تأثيراتها اذا قطع عنها افاضته الدائمة . وقد تقدم تفصيله [1] .

١١ـ « ربنا واجعلنا مسلمين لك ـ البقرة : ١٢٨ » يدلّ على أنّ الاسلام من فعله تعالى يجعله حيث يشاء .

والجواب :تقدم أنّ ذلك طلب التوفيق والتسديد وتمهيد السبل نحو المطلوب الحق ، بدليل «وأرنا مناسكنا وتب علينا» .

١٢ـ «يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ البقرة : ١٤٢» ولو كان تعالى هدى الكل لم يستقم هذا الكلام .

والجواب : أنّ الهداية هنا بمعنى اللطف الخاص يمنحها للذين جاهدوا فى الله واتبعوا رضوانه فهداهم سبل السلام . وقد تقدم ذلك .

١٣ـ «ولو شاء الله مااقتتلوا ، ولكن الله يفعل مايريد ـ البقرة : ٢٥٣» .

المشيئة هنا تكوينية ـ حسبما أسلفنا ـ أى لو شاء ربك أن يمنعهم عن المقاتلة منع إلجاء لفعل ،لكنه تعالى يفعل مايريد ، أى يجعلهم مختارين فيما يشاء ون لحكمة التكليف والاختبار .

١٤ـ «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ـ البقرة:٢٥٧» .

١ـ راجع : صفحة ١٧٧ و١٨٣

تقدم : أنّ الهدى درجات متلاحقة ، وكل درجة فهى بالاضافة الى سابقتها نور ، وبالاضافة الى لاحقتهاظلمة ، حسب درجات النور المتفاوتة . والمؤمن فى سيره التصاعدى آخذ دائباً من مرحلة نورانية الى أنور ، بحيث لورجع اليهالكان رجوعاً من نور الى ظلام ، كما هو فى الكافر ـ فعلا ـ كذلك ، انه يسير سيراً قهقرياً من نور الى ظلمة وإلى اظلم وهكذا .

١٥ـ «والله لايهدى القوم الظالمين ـ البقرة : ٢٥٨» .

تقدم : انه بمعنى أنّهم لاينتفعون بهديه تعالى لتوغلهم فى الضلال ومرونتهم على العصيان والطغيان . فمنعهم الله لطفه الخاص لعدم استعدادهم وعدم قابليتهم للاستفاضة من ذلك المنهل الالهى العذب .

١٦ـ «ليس عليك هديهم ولكن الله يهدى من يشاء ـ البقرة : ٢٧٢» .

اى « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ـ الغاشية ٢١ـ٢٢»، والآية تسلية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وبيان عدم مسؤوليته تجاه عدم قبول دعوته من هؤلاء العتاة الطغاة، حيث هو مسؤول عن البلاغ والاداء . أمّا التأثير والقبول فهذا شىء لايمسه « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الاالبلاغ ـ الشورى : ٤٨» .

نعم لوشاءالله ان يهديهم بالجاءهم على الهدى لفعل ، لكنه تعالى جعل لهم الاختيار فى قبول الدعوة ، لحكمة التكليف والاختبار . فالمشيئة على هذا تكوينية ويمكن أن تكون الهداية المقصودة هنا هو التوفيق والتسديد، وقدشاءهالله لعباده المجاهدين فى سبيله .

١٧ـ «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذهديتنا ـ آل عمران : ٨» طلب للمزيد من التوفيق وتسديد الخطى نحو الصواب ، لئلا ينحرف بهم الهوى ونزعات هذه الحياة الدنيا الى مهاوى الضلال ، فتزيغ قلوبهم عن ذكر الله ، فلايسلموا من شرور الشيطان

ووساوسه الخداعة ، نستعيذ منه الى الله .

ويوضح هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: «وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب» .

١٨- «والله يؤيد بنصره من يشاء - آل عمران : ١٣» . وهم الذين جاهدوا في سبيل الله ابتغاء وجهه وابتغاء رضوانه ، وليس اعتباطاً كما زعم الخصم .

١٩- «زين للناس حب الشهوات - آل عمران : ١٤» . زينتها لهم أنفسهم فرأوها جمالاً وزينة .

على أنّ في هذا التزيين حكمة ربانية ، ولولاه لما عمرت الارض ولما ازدهرت الحضارة الانسانية التي طبقت أرجاء العالم وتكاد تسرى الى جو السماء . ولانقطع التناسل البشرى المتوسع عبر الساعات والأيام .

نعم حدد الشارع المقدس لاستعمالها حدوداً وموازين ، إن هم جاوزوها كانت وبالاً وأعقبت آثاماً ، «انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم - التغابن : ١٥» .

٢٠- « قل ان الهدى هدى الله - آل عمران : ٧٣ » أى الدلالة التى ينبغى السير فى ضوءها هى دلالة الله التى جاءت فى شرايعه وأحكامه وتكاليفه ، على يد رسله وأنبيائه . وأمّا الدلالة على غير هذا السبيل فمسلكها الى الضلال البعيد «أفغير دين الله يبغون ؟! - آل عمران :٨٣» .

٢١- «قل ان الفضل بيد الله - آل عمران : ٧٣» هو التفضل بمزيد التوفيق ، وافاضة الفيوض القدسية ، لايبتغيها أحد من سوى الله عز شأنه .

٢٢- «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعاً وكرهاً

واليه يرجعون ـ آل عمران : ٨٣» . أى استسلم وخضع . وهذه مقايسة بين عبادة رب خضعت له أرجاء الكون وعبادة أصنام يبول عليها الثعلبان ؟ !

قال شاعرهم :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

٢٣ـ «كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم ـ آل عمران : ٨٦» تقدم أنها هداية توفيق وتسديد ومزيد لطف وعناية، لايستأهلها اولئك الذين سعوا فى آيات الله معاجزين .

٢٤ـ «وما النصر الا من عند الله ـ آل عمران :١٢٦» أى بتوفيقه تعالى وتسديده ومزيد عنايته، بتقوية ايمان المنتصرين وارعاب جانبهم .

٢٥ـ «ليس لك من الأمر شىء ـ آل عمران : ١٢٨» نفى لمسؤوليته ﷺ تجاه الدعوة ، وتأثيرها فى قلوب القوم . «انما أنت منذر ولكل قوم هاد ـ الرعد : ٧» . «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ـ فاطر : ٨» . «ان عليك الا البلاغ ـ الشورى : ٤٨» .

والا فالرسول ﷺ مسؤول عن تبليغ الدعوة والبيان : «وانك لتهدى الى صراط مستقيم ـ الشورى : ٥٢» .

٢٦ـ «ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتخذ منكم شهداء ، والله لايحب الظالمين ـ آل عمران: ١٤٠» .

أى أنّ الحروب لاتستمرّ على وتيرة واحدة ، فربما كانت لهم وربما كانت عليهم ، وإن كانت النصرة على جميع الأحوال ، وفى نهاية المطاف تكون مع المؤمنين ، لانه تعالى لايخذلهم ، وهم ان غلبوا أحياناً فهو اختبار لايمانهم والمزيد

من مثوبتهم على الصبر والثبات ، وليعلموا أنّ هذه الحياة منغضة ، لاتستمر احوالها على سواء ، فلاينبغي الركون إليها ، وإنّما الهناء الخالص مع الآخرة ، وانها هي التي يجب السعي إليها ، ومن ثمّ قال : وليعلم ... الخ أى ليتبين الثابت ايمانه عن الذى يعبدالله على حرف . وقوله : لايحب الظالمين . بيان أنّ ماقد يحصل للكافر من الكرة له ، ليس اكراماً لجانبه ، وانما هو استدراج له فضلاً عمافيه من المصلحة للمؤمنين . فلم تكن تلك نصرة وحباً للظالم فى الحقيقة .

٢٧- « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم - آل عمران : ١٥٢ » تبين معناه من الآية المتقدمة . فضلاً عن كونه عقوبة لمابدر منهم من تنازع وفشل ورغبة فى حطام الدنيا يوم احد .

٢٨- وهكذا قوله :«فأثابكم غماً بغم -١٥٣» .

وقد تقدم وجه نسبة مايقع -خارجاً من حوادث ومظاهر - إليه تعالى ، حيث امداده القوى واستمرار الافاضة عليها عبر الآنات ، سنة الله التى جرت فى الخلق .

٢٩- «قل ان الامر كله لله - ١٥٤» يدلّ على أنّ الأمور كلّها بيدالله ، يدبرها كيف شاء وفق مصلحته الكبرى الشاملة وهورب العالمين . لكن ذلك لايستدعى الإجبار والإلجاء بعد أن كانت المصلحة تستدعى اختيار الناس فيما يزاولون ، لحكمة التكليف والاختبار . فالله تعالى جعل من الامور تترتب بعضها على بعض حسب سلسلة المعاليل التي ركبها فى طبيعة الأشياء . فاذا مافعل الانسان أمراً فإن له آثاراً تترتب عليه لامحالة فهو بذاته مسؤول عنها وان كان ذلكم الترتب هو صنيعه تعالى ، حسبما تقدم تحقيقه .

٣٠- «ولايحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، انهم لن يضروا الله شيئاً ، يريد الله أن لايجعل لهم حظاً فى الآخرة - آل عمران : ١٧٦» .

قالت الاشاعرة : يدل على أنّه تعالى هو الذى يريد منهم الكفر وأن يصيروا الى جهنم !

والجواب : أنّه تعالى انما يريد أن لا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ، بسبب كفرهم وهذا كقولنا : اريد معاقبة فلان لأنّه خالف أمرى . وإلّا فلو كان تعالى هو الذى أراد منهم الكفر لم يصح كون الآية تسلية للنبى ﷺ ولا كونها انكاراً لاذعاً بمسارعتهم الى الكفر !

وغاية الأمر أنّ فى الآية تلميحاً الى استدراجهم على الكفر معاقبة لهم، ومعاكسة مع لجاجهم مع الحق .

٣١- وهكذا قوله : «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لانفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا إثماً - آل عمران : ١٧٨» . أيضاً استدراج عقوبة على اصرارهم فى الغى والعناد.

واللام فى «ليزدادوا» لام العاقبة ، كما فى قوله : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً - القصص : ٨» . أى يكون أثر هذا الاستدراج هى الزيادة فى الاثم والكفر . وسنبحث عن مسألة «الاستدراج» فى فصل خاص.

٣٢- «ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء - النساء : ٤٩» . استدلت الأشاعرة بهذه الآية على أنّ الايمان ليس اختيارياً، وإنّما هو فعله تعالى يجعل من يشاء مؤمناً ومن يشاء كافراً .

والجواب : أنّ التزكية - هنا - اخبار عن طهارة النفس ومدح بحسن الأحوال فلا ينبغى لأحد أن يخبر عن نفسه بحسن النية وطيب السيرة ، بل الله هو الذى يعلم الخبيث من الطيب .

٣٣- «أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا - النساء ٨٨» . والاضلال - هنا - خذلان وعقوبة عاجلة على لجاجهم فى الكفر، بدليل صدر الآية «فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا» .

٣٤- «ولوشاءالله لسلطهم عليكم -النساء :٩٠» . المشيئة هنا تكوينية ، ولم يردهاالله بشأن هذه الحياة فيما يخص باب التكاليف والتمحيص والاختبار .

٣٥- «ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً ، لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهديهم سبيلا -النساء : ١٣٧» . تمسك بها الأشعرى على أنّه تعالى أضل الكافر ولم يهده السبيل .

والجواب : أنّ هذه المعاودة على الكفر واللعب بأمر الدين، هو الذى جعلهم بمعزل عن جادة الهدى والطريق الوسطى ، فلم يهتدوا الى سبل السلام ، وحرموا غفرانه تعالى واستحقوا الخذلان .

٣٦- «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف .بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون الاقليلا -النساء : ١٥٥» .

تقدم أنّ الطبع والختم على القلوب كناية عن استفزازهم لقبول الحق، فكأنّهم وقبول الحق شيئان متنافران أحدهما عن الآخر . وهى حالة جمود نفسى تحصل على أثر الانهماك فى الفساد والاصرار على الكفر والطغيان «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» . ومن ثم علل الطبع بكفرهم . وسنتكلم عن الطبع والختم فى فصل قادم .

٣٧- «مايريدالله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون -المائدة :٦» .

الارادة -هنا -تشريعية . ومن ثم قد تتخلف عن المراد ، حسبما أسلفنا البحث عنها [1] .

٣٨- «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية -المائدة: ١٣» .قالت

١- راجع صفحة : ١٧٠

الاشاعرة: ومعلوم من قسوة قلوبهم أنّه بالكفر ،فاذا كان الله قد جعلها قاسية فقد خلق فيها الكفر .

والجواب :أنّ هذا القساء والجفاء إنّما كان على اثر ذلك اللجاج والعناد مع الحق، وقد عبّر عن هذه القسوة فى مواضع اخر من القرآن بالختم والطبع وفى غلاف وأمثال ذلك من تعابير ، كلها تنمّ عن حالة نفسية جافية كانت لليهود ، هم أوجدوها لأنفسهم بعد إعراضهم عن الحق وإصرارهم على الباطل.

أمّا النسبة الى الله فقد تقدم أنّها باعتبار أنّه تعالى أقدرهم على رفض الحق كما أقدرهم على القبول، لحكمة التكليف والاختبار ، فرفضوه باختيارهم ، لاأنّه تعالى أجبرهم على الرفض أو أرادمنهم الكفر، سواء بارادة تكوينية أم بارادة تشريعية . لأنّ ذلك يتنافى وتوجيه ذلك الإنكار والذم إليهم بالذات .

ومعنى الآية : أنّهم نقضوا الميثاق وخالفوا عهد ربهم، فلعنهم وأبعدهم عن رحمته، ومن ثمّ قست قلوبهم فجعلوا يحرّفون الكلم عن مواضعه بهتاناً وزوراً.

٣٩ـ وعلى هذا النمط جاءت الاية التالية بشأن النصارى : «ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة ـ المائدة : ١٤».

أى بما أنّهم تركوا شريعة الله المستقيمة ،ونبذوا منهاجه القويم ،أخذت دواعى الاختلاف والتكالب على حطام الدنيا ، تدبّ فى أعراقهم وترسب جذوره فى أعماقهم ، حيث مختلف النزعات والاهواء ، «فماذا بعد الحق الا الضلال ـ يونس : ٣٢» . ووجه النسبة اليه تعالى هو الوجه فى الآية المتقدمة .

٤٠ـ «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ـ المائدة : ٤١»:

هؤلاء هم الذين عاندوا الحق وأخذوا فى اتجاه معاكس للانسانية ، ومن ثم

ابتعدوا عن معالم الهدى وعن المنهج المستقيم فتحملوا خزى الحياة واستحقوا سوء العذاب .

بدليل صدر الآية : «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه ...» .

والفتنة هى العقاب الصارم «يوم هم على النار يفتنون ـ الذاريات : ١٣» . أو الامتحان بالتكليف «ان هى الا فتنتك ـ الاعراف : ١٥٥» .

فمعنى الآية: ان من يرد الله أن يعاقبه لمعاندته للحق ولسوء أعماله الهدامة ، فلن تملك له من الله شيئاً . انهم ممن استحقوا الخذلان وسوء العذاب .

٤١ ـ «ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ـ المائدة :٤٨».

المشيئة فى الآية تكوينية، ومن ثم لم يشأها، لمنافاتها لحكمة التكليف والاختبار يدل على ذلك نفس التعليل الوارد فى الآية «ولكن ليبلوكم» أى لم يشأ الإلجاء على الإيمان لغرض الاختبار . ولذلك عقبها بالأمر ـ وهى إرادة تشريعية ـ بالاستباق الى الخيرات.

٤٢ ـ «قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، اولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ـ المائدة : ٦٠» .

قالت الاشاعرة : تدل الآية أنّه تعالى هو خلق من عبد الطاغوت وجعله كذلك.

والجواب : أنّ ذلك عقوبة على كفرهم ولجاجهم مع الحق ، ومداومتهم على الدسائس الفتاكة ، فخذلهم الله وأخزاهم وسلبهم الشعور بموقفهم الانسانى الكريم، فذلّوا وابتذلت شخصيتهم المنحطّة ، واذا هم امة منفورة فاقدة لحقوقها الاممية ، داخلة فى طاعة امم اخرى ، متحملة نير المذلة عبر الحياة . الامر الذى هو من أشد

العقوبات التى أصابت اليهود طول التاريخ ولايزال. انهم اليوم اصبحوا آلة صماء فى يد طواغيت الارض يعبثون بهم كيف شاءت أهواؤهم الخبيثة فى العيث والفساد.

هذا هو تفسير «عبد الطاغوت» بشأن اليهود العنود. وهى معجزة قرآنية خالدة.

٤٣- «وليزيدن كثيراً منهم ماانزل اليك من ربك طغياناً وكفراً -المائدة: ٦٤». قالوا: انها تدل على أنّ القرآن يبعث على كفر كثير من المكلفين.

والجواب: أنّ المعنى: أنّهم يزدادون كفراً وطغياناً غيظاً وحسداً، عند مايرون من رواج هذا الدين وازدهار شريعة سيد المرسلين «وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين الاخساراً - الاسراء: ٨٢». «واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور - آل عمران: ١١٩».

٤٤- «ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وان يروا كل آية لايؤمنوا بها -الانعام: ٢٥». وقدمر نظيرها، وانها كناية عن القسوة والجفاء الذى مرنوا عليه حتى صار كالطبع لهم. بدليل الاية بعدها: «وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا أنفسهم ومايشعرون-٢٦». ولو كان ذلك من فعله تعالى لماصح هذا التعيير والتوبيخ اللاذع.

٤٥- «ولوشاء الله لجمعهم على الهدى - الانعام: ٣٥». تقدم أنّ المشيئة هنا تكوينية. أمّا المشيئة التشريعية فقدشاء الله أن يكونوا جميعاً على الهدى، حيث ارسل رسله الى كافة الناس ووجّه دعوته الى الجميع.

٤٦- «والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات. من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم - الانعام: ٣٩». اى كأنهم خشب مسندة

لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . ومن ثم حرموا توفيق هدايته تعالى التى خصها الله لمن سعى اليه واستهدى لديه . فهذا هو الذى يشاء الله أن يجعله على صراط مستقيم، أمّا الذى أعرض وتولّى فهو الذى يشاء الله أن يضلله اى يخذله ، حيث هو مهّد لنفسه سبب هذا الخذلان، «وما الله يريد ظلماً للعباد - غافر : ٣١ ».

٤٧ - « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم - الانعام : ٤٦ » أى خذ لكم وترككم فى ظلمات الغى تعمهون ، على اثر هذا اللجاج والعناد الذى اتخذ تموه تجاه وضح الحق الصراح . وقد تقدم الكلام فى مثله .

٤٨ - « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا - الانعام : ٥٣ » .

كان - ﷺ - يقرب فقراء المسلمين من نفسه ويلتزم مجالستهم ، وقد شق ذلك على أشراف العرب ، فألزمهم الاسلام بترك أمثال هذه النزعات الجاهلية، وكان ذلك امتحانا لمبلغ رضوخهم لتعاليم الاسلام ، غير أن جماعة ممن تمكن فى قلوبهم حمية الجاهلية الاولى ، ولم يستطيعوا الانقلاع عن حبائل الشيطان، كانوا لايزالون يترفعون عن مجالسة فقراء المسلمين ، ويقولون : أهؤلاء من الله عليهم بالاسلام وبالهدى من بيننا ؟ ! .

وعليه فاللام فى الآية للعاقبة ، لا للتعليل .

٤٩ - « ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا - الانعام : ٨٠ » . قالت الاشاعرة : الآية تدل على أنّه تعالى يجوز أن يشاء الشرك والكفر !

والجواب : أنّ ابراهيم - عليه السلام - استثنى من عدم مخاوفه ، فانه - ع - كان لا يهابهم ولا يهاب آلهتهم ، معتقداً أنهم لا يضرونه شيئاً . إلّا أن يشاء الله فيأذن فى إضراره كما فى آية السحر .

٥٠- « واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم - الانعام : ٨٧» . انها هداية توفيق وتسديد « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى - الكهف : ١٣ » .

٥١- « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده - الانعام : ٨٨ » . أيضاً كذلك .

٥٢- « وخلق كل شىء - الانعام : ١٠١ » . تقدم أن لا عموم فى الآية بحيث تشمل أفعال العباد ، وانما تعنى أعيان الموجودات ، كلها مخلوقة لله تعالى ، وعلى تقدير شمولها للافعال أيضاً ، فهو خلق تقدير وتدبير ، أو بمعنى الايجاد ، لكن تبعاً لارادة العبد حسبما تقدم تفصيله [١] .

٥٣- « ولو شاء الله ما أشركوا - الانعام : ١٠٧ » . انها مشيئة تكوين لم يشأها الله لدار التكليف والاختبار . وقد تقدم الكلام فى ذلك .

٥٤- « كذلك زينا لكل امة عملهم - الانعام : ١٠٨ » . أى زينت لهم أنفسهم و زين لهم الشيطان أعمالهم . وأمّا الاستناد اليه سبحانه فلما تقدم بيانه من اسناد كل ما يقع فى الوجود الى الله ، حيث اقداره وامداده للقوى الفاعلة فى هذه الحياة . وأخيراً فان هذا التعبير حكاية عن الاستدراج الذى هو عقوبة عاجلة للكافر المعاند المتمادى فى الغى والضلال .

٥٥- « و نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون - الانعام : ١١٠ » . خذلان للكافر المعاند على أثر لجاجه مع الحق .

٥٦- « ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله - الانعام : ١١١ » . تيئيس للنبى

١- راجع صفحة : ١٧٧ و١٨٣

ﷺ واخبار عن ذلك الجفاء الذى انطوت عليه قلوبهم القاسية عن ذكر الله . و اما المشيئة فيها فتكوينية، المتنافية مع التكليف الاختياري الذى هو تمهيد للاختبار .

٥٧- « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً - الانعام : ١١٢» . تسلية للنبى ﷺ واخبار عن ابتلاء الانبياء السلف - ايضاً - باعداء ألداء ، فصبروا وثبتوا على دعوة الحق . ووجه الاستناد اليه تعالى ماتقدم (ص ٢١٠) وسيجيء نظير الآية برقم: ١٧٨ .

٥٨- « ولو شاء ربك ما فعلوه - الانعام : ١١٢ » . اى بالالجاء المتنافى مع الاختيار فى التكليف .

٥٩- « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها - الانعام : ١٢٣ » . اللام فى الآية للعاقبة ، كمافى قوله تعالى : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً - القصص : ٨ » . ومعنى الآية : أن الاوضاع القائمة فى المجتمعات البشرية غير المهذبة ، جعلت من الناس طبقة أكابر هم يستغلون موارد طبقة الاصاغر ظلماً واجراماً ، ويحتالون فى الاستحواذ على مشاعر الناس وابقاءهم فى الجهل والضلال ، غير أن الظلم لايدوم وسيدور عليهم الحق من حيث لايشعرون « سيصيب الذين أجرموا صغار عندالله وعذاب شديد بماكانوا يمكرون - الانعام : ١٢٤ » .

والا فلو كانت اللام للغاية لتنافت الآية مع آية الذاريات : ٥٦ . وتلك محكمة ، ومن ثم يجب تأويل هذه على حسابها .

٦٠- « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كانما يصعد فى السماء - الانعام : ١٢٥ » .

الهداية والاضلال فى الآية : توفيق وخذلان ، ومن ثم جاء التعقيب بقوله :

« كذلك نجعل الرجس على الذين لايؤمنون » .

« ويزيد الله الذين اهتدوا هدى - مريم : ٧٦ ». « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - الصف : ٥ » .

٦١- « ولوشاء الله مافعلوه - الانعام : ١٣٧ » . اى بالالجاء المتنا فى مع الاختيار فى التكليف .

٦٢- وهكذا قوله تعالى : « فلوشاء لهداكم أجمعين - ١٤٩ » .

٦٣- « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم - الاعراف : ١٦» .

قال الأشعرى - مدافعاً عن أخيه - : انه تعالى هو أغوى ابليس واوقعه فى المعاصى ، دليلا على أن الكفرو العصيان من فعله تعالى وارادته . وقد تقدم نقل ذلك عنه(ص٦٢ و٧٠) .

والجواب : ان الغى جاء بمعان : الخيبة . الحرمان . حلول المضار . الهلاك . الضلال . الجهل عن فساد عقيدة . وقد استعمل فى القرآن بكل هذه المعانى ، وفى كل موضع أُريد معنى غير ما أُريد من المواضع الاخر . وليس هنا مجال تفصيل .

ومما جاء بمعنى الخيبة والحرمان ، شاهداً لهذا الموضع ، قول المرقش الأصغر فى قصيدة مطلعها :

الا يا أسلمى لا صرم لى اليوم فاطماً ... ولا أبداً مادام وصلك دائماً

الى ان يقول :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

أى من يخيب فى عيشه أيضاً يجد من يلومه .

وهكذا فى الآية الكريمة يكون المعنى : رب بما خيبتنى وحرمتنى من

فيض قدسك وطردتني من بابك ، بسبب التكليف الذى كلفتني به بشأن آدم وحسبته شاقاً على نفسي فعصيتك وخالفتك ، فكان ذلك سبباً لهذا الحرمان واللعنة الأبدية ، سأقوم بمقابلة المثل بشأن آدم وذريته ، وادبر لهم المكائد كي أُحرمهم من رحمتك وأُبعدهم عن بابك .

٦٤- « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة - الاعراف : ٣٠ » الهداية هنا هو التوفيق والمزيد من التسديد يختص به اولئك الذين جاهدوا في الله سعياً وراء لقاءه الكريم . وأما الفريق الآخر فهم الذين استحقوا الخذلان واستوجبوا لأنفسهم الخيبة والحرمان .

٦٥- « ونزعنا ما في صدورهم من غل - الأعراف : ٤٣ » . عناية ربانية يمنحها البارىء تعالى بشأن المؤمنين حقاً، والذين اهتدوا زادهم هدى .

٦٦- « ألا له الخلق والأمر - الاعراف : ٥٤ » . المراد من الامر هنا: شؤون التدبير والتقدير . بدليل تمام الآية : « ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين - سورة الاعراف : ٥٤» فبعد أن ذكر خلق العالم ذكر تدبير شؤونه المختلفة ، فقال : ألا له الخلق والامر . ومن ثم ناسب التعقيب بذلك المدح اللائق « تبارك الله رب العالمين » .

٦٧- « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أولتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها ، الا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً . على الله توكلنا - الاعراف:

٨٨ ـ ٨٩ » .

فى هذه الآية مواضع من الكلام :ـ

الاول : « بعد اذ نجانا الله منها » . ماهذه التنجية ؟

الثاني : « ومايكون لنا أن نعود فيها » . دليل على سلب قدرة العباد على الكفر والايمان ، وانما هم ملجأون على الدخول فى الكفر أو الايمان !

الثالث : « الا أن يشاء الله ربنا » . ما هذا الاستثناء ؟

والحل : أنه تعالى نجاهم من الضلال بهدى التشريع اولاً ثم بهدى التوفيق والتسديد ، بعد أن أبدوا استعدادهم لمزيد عنايته تعالى . «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدينا الله ـ الاعراف: ٤٣ » .

واما الذى منعهم من العود الى الضلال، فهو الوازع النفسى وشهادة وجدانهم الصريح ، اذ من وضح لديه الحق و شاهده بعيان ، لا يمكنه مخالفة ضميره اذا كان متحرراً عن وشائج الانحراف وحب التقليد الاعمى . اذ كيف يمكن لانسان حر العقيدة والاختيار ، وقد لمس الحقيقة ووجد الطريق الى سعادة الحياة ، أن يتركها منعطفا الى مهاوى الضلال ؟ ! « ومن يهد الله فما له من مضل ـ الزمر : ٣٧ » . ومن ثم قالوا : « لقد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم » !

نعم ،الاأن يشاء الله العود ظاهرياً، عن اكراه عليهم أو اتقاء شرور الاعداء . قال تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ـ آل عمران : ٢٨ » . ومن ثم أحالوا حكم ذلك الى سعة علمه تعالى بمصالح الامور ودقيق حكمته فى التكليف . «الاأن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شىء علماً» .

لكنهم فى واقع ضميرهم كانوا يتوقعون النصرة من الله والنجاة الكاملة من براثن أهل الزيغ والضلال « على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق

وأنت خير الفاتحين » . وكان الله قد وعد المؤمنين حقاً بالفتح والظفر في نهاية المطاف « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوى عزيز ـ المجادلة : ٢١ ». فكان منبعث قوتهم في المقاومة تجاه أهل الشرك والالحاد .

وهنا نكتة أدق : إن من أدب العبد العارف بموقف مولاه الجليل ، أن لا يقطع في أمر الا اذا علقه على ارادة مولاه ، حتى ولو كان واقفا على جلي الأمر . و هكذا الانبياء لم يبرموا في كلام قاطع الا وقد أحالوه على مشيئة الله جل شأنه . « ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ـ الكهف : ٢٣-٢٤ » .

٦٨ـ « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ـ الاعراف : ٩٥ » . قالت الاشاعرة : انها دليل على أنه تعالى هو الفاعل للحسنات والسيئات ، والا لم يصح التبديل منه .

والجواب : أن السيئة والحسنة ـ هنا ـ هو الجدب والرخاء ، بدليل الآية قبلها: «وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ـ ٩٤ » . والآية بعدها : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ـ ٩٦» .

٦٩ـ « تلك القرى نقص عليك من أنباءها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ـ الاعراف: ١٠١ » . قالوا : هذه الآية دليل على أنه تعالى هو المانع من الايمان .

ولكن الاية قبلها تفند هذه المزعومة : « أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم و نطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ـ ١٠٠ » . حيث كان هذا الطبع أثراً طبيعيا لتلكم الذنوب التي اقترفوها ، وقد أحاطت بهم خطيئتهم حجازاً مانعاً عن ادراك الحق فهم لايسمعون .

وقد تقدم أن الطبع : قسوة في القلب تحصل على أثر الاصرار على الذنب، ومن ثم حرمان عن ألطافه تعالى الخاصة ، وخيبة عن فيوضه القدسية ، وخذلان في

نهاية المطاف .

٧٠ ـ « سأصرف عن آياتي الـذين يتكبرون فـي الارض بغير الحق ـ الاعراف :١٤٦ ».انه صرف خذلان على أثر معاندة الحق والاصرار على اللجاج . بدليل مابعدها : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بـأنهم كذبوا بآياتنا و كانوا عنها غافلين » .

٧١ـ « ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ـ الاعراف: ١٥٥ » . الفتنة ـ هنا ـ امتحان واختبار . وبذلك يتضح مصير المهتدي عن الضال ، فالذين اهتدوا زادهم الله من فضله . والـذين غووا خذلهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . هذا هو معنى الآية الكريمة الظاهر ، فلا موضع فيها لتشبث القوم.

٧٢ـ « من يهـد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ـ الاعراف : ١٧٨ » . هذه هي الهداية بمعنى التوفيق والتسديد. كما أن الاضلال هنا الخيبة والخذلان ، بعد اتمام الحجة عليهم بالتبليغ والـدعاء . وقد تقـدم ذلك غير مرة .

٧٣ـ « ولقد ذرأ نا لجهنم كثيراً من الجن والانس ـ الاعراف : ١٧٩» تقدم[١] أن اللام هنا للعاقبة ، مثلها في قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ـ القصص : ٨ » .

٧٤ـ « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملي لهم ان كيدي متين ـ الاعراف : ١٨٢ » .

١ـ في صفحة : ١٩٢

سنبحث عن معنى الاستدراج الذى هو خذلان للكافر المعـاند ، على أثر لجاجه مع الحق وصموده على الغى والضلال .

٧٥- « من يضلل الله فلاهادى له و يذرهم فى طغيانهم يعمهون ـ الاعراف: ١٨٦ » . لان الذى خذله الله فلم يوفقه فى سبيل الهدى ـ على اثرجموحه عن قبول الحق الصراح ـ لا يجد من يهديه الى السبيل أبداً. «فما ذابعد الحق الاالضلال ـ يونس : ٣٢ » .

« وان يخذ لكم فمن ذا الذى ينصر كم من بعده ـ آل عمران : ١٦٠ » . «فان الله لايهدى من يضل (اى من استحق الضلال بسوء اختياره) ومالهم من ناصرين ـ النحل : ٣٧ » .

٧٦- « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ـ الاعراف : ١٨٨ ». احتضنت الاشاعرة هذه الآية دليلا على عدم قدرة العباد على خير أوشر، لايستطيعون شيئاً ، وهم المغلوبون على أمرهم تحت ارادة الله الغالبة !

والجواب : أن النفع والضر فـى الآية عبارة عن الصحة والسقم والسلامة عن الحدثان والآفات ، فلا يملك أى انسان مصيره الحتم فى ثنايا ركب الحياة ، إما الى سلامة أو ابتلاء . « وما أدرى مايفعل بى ولا بكم ـ الاحقاف : ٩ » .

كانت العرب تزعم من لوازم النبوة هو العلم الذاتى بالغيب [1] .ومن ثم سألوا النبى صلى الله عليه وآله عن الساعة أيان مرساها ؟ فجاءهم الردع عن هكذا اقتراح جاهلى : « قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الاهـو ، ثقلت فى السموات والارض ، لا تأتيكم الابغتة يسألونك كأنك حفى عنها (اى خبير بها) قل انما علمها عندالله

١ـ الانبياء العظام والائمة الكرام ـ صلوات الله عليهم اجمعين ـ انما يعلمون الغيب بالافاضة من واهب الغيب « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول ـ الجن : ٢٦ » .

ولكن أكثر الناس لايعلمون (هذا الاختصاص) . قل لا أملك لنفسى نفعاً (فى آجلها) ولاضراً ، الاماشاءالله (من صلاح كل انسان) ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء ان أنا الا نذير و بشير لقوم يؤمنون ـ الاعراف: ١٨٧ - ١٨٨ » .

٧٧ ـ « وما النصر الا من عندالله ـ الانفال : ١٠ » أى النصر للمبدء الحق وغلبة الحجة الظاهرة ، لايكون الا بتوفيقه تعالى وتسديده الخطى نحو الصواب.

والاية نزلت بشأن وقعة بدر اولى غزوة فى الاسلام ، حيث خشى المسلمون ضعف جانبهم تجاه قوة المشركين ، فاستجاب الله لهم بالامداد بألف من الملائكة مردفين . فكانت الغلبة مع المسلمين . وربما ظن بعضهم أن الملائكة باشرت القتال ، فى حين أنها نزلت لتبعث فى نفوس المسلمين القوة والاطمئنان ليقع النصر والظفر على يدهم هم . أما الملائكة فلم تكن سوى منبعث الثبات والاطمئنان النفسى للمسلمين . « اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ـ الانفال : ١٢ »

اذن لم يكن الغرض من نزول الملائكة سوى بعث روح الايمان فى نفوس المسلمين وخلق البشرى فى قلوبهم « وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم» أما واقع النصر فكان من عندالله بتقوية ايمانهم والقاء الروع فى نفوس المشركين « وما النصر الا من عندالله ان الله عزيز حكيم ـ الانفال : ١٠» .

والخلاصة: أن الذين باشروا القتال هم المسلمون ، وكاد الاحساس بالضعف يكسر من جانبهم ، لولا أن الله أيّدهم بالوعد بالنصر ، وتقوية جانبهم بما ازدادوا ثباتاً وايماناً وثقة بالله ، الامر الذى ضمن لهم النصر والظفر ، تجاه المشركين ذوى النفوس المضطربة غير المعتمدة الى ركن وثيق . « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ـ الانفال : ١١ » .

وعليه فحقيقة النصر من الله هو توفيقه وتسديده بخلق الثقة والاطمئنان وبعث

قوة الايمان ، ليقع النصر على يد المسلمين أنفسهم .

٧٨ـ وهكذا جاء قوله : «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ـ الانفال : ١٧» .

حيث المسلمون بأنفسهم ـ لولا تأييده تعالى وتوفيقه بخلق الثقة فى النفوس وتقوية الايمان ـ لم يستطيعوا المقاومة تجاه شوكة المشركين . فانما وقع النصر والظفر للمسلمين بحوله تعالى وقوته ، أولاً بشرى بنزول النصر . ثانياً بالربط على القلوب وتثبيت الاقدام . ثالثاً بالقاء الرعب في قلوب الكفار .

وجاز اضافة الطاعة من العبد الى الله ، اذا وقعت بتيسيره تعالى وألطافه ورعايته الخاصة .

وقد روى أنّ النبى ﷺ ناول كفاً من الحصى ذلك اليوم فحثى بها وجوه القوم وقال : «شاهت الوجوه ، شاهت الوجوه» . فما بقى أحد من المشركين هناك الا امتلأت عينه من تلك الحصباء ، الامر الذى أوهى قلوبهم ووهن من عزائمهم فكان النصر حقاً للمسلمين باذن الله العزيز الحكيم .

فلم يكن ذات الرمى الذى رماه رسول الله ﷺ مما يوجب هزيمة المشركين ، لو لا تأييده تعالى بألطافه الخاصة . فقد صح اسناد الرمى المؤثر الى الله عز شأنه ، لانه تعالى هو الذى جعل فيه ذلك الأثر الباهر العظيم .

٧٩ـ «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ـ الانفال : ٢٣» . تعلقت الأشاعرة بهذه الآية دليلا على أنه تعالى هو منع الكفار من الايمان !

والجواب : ان الآية تبدأ بقوله تعالى : «ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ... الخ .

هذا تشبيه لحالة المشركين التعنتية المتمردة ، المتوغلة فى الغى والضلال ،

فلا ينفعهم نصح الناصحين . اذ خطيئاتهم قد أحاطت بهم ، فلا تدع مجالا لتسرب وعظ أو ارشاد فى قلوبهم القاسية .

ان حالتهم السلبية أسوأ من حالة الدواب . انهم جعلوا من أنفسهم الصم البكم فهم لا يعقلون شيئاً أبداً . انهم منذ بدء أمرهم أخذوا فى اتجاه معاكس لمنهج الهدى والصلاح ، فخسروا عنايته تعالى وألطافه الخاصة بالمؤمنين المسترشدين.

وخلاصة معنى الآية : إن هؤلاء الكفار الملحدين قد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقى والاستجابة فلم يفتح الله عليهم ما أغلقواهم من قلوبهم ،وما أفسدواهم من فطرتهم . ولو جعلهم الله بحيث يسمعون دعوة الحق ويعون حقيقة مايدعون اليه ، مافتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا من حقيقته.

ولو علم الله فيهم خيراً (أى منفذاً للحق الذى يدعون اليه) لأسمعهم (أى للطف بهم بعنايته الخاصة) . ولو أسمعهم (أى ولو جعلهم بحيث يفهمون حقيقة الدعوة ، والحالة هذه ، لا رغبة لهم فى الهدى ، وتشمئز نفوسهم من ذكر الله ، بسبب إفساد استعداداتهم الفطرية) لتولوا وهم معرضون .

* * *

٨٠ـ « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم، و اعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه اليه تحشرون ـ الانفال : ٢٤ » .

هـذه الاية الكريمة وقعت موضع نقاش حاد بين أهل الجبر (الاشاعرة) وفريق الاعتزال . وهى من جلائل الآيات القرآنية وأدقها تعبيراً عن موقف الدعوة الاسلامية الضافية ، تجاه الحياة البشرية المليئة بالأكدار .

هذه الآية تجعل من شريعة الله نبضة الحياة العليا السعيدة ، التى هى منشودة الانسانية الكريمة ، فى صميم واقعها الأصيل .وانها لهى الحياة الحقيقية اذا ما تقبلتها النفوس واستسلمت لقيادتها الحكيمة .أما معاكسة هذا الاتجاه فيهددها خطر الانعطاف الى تيه الجهل والضلال ، وسقوط فاضح عن مقام الانسانية الرفيعة .

غير أن الاشاعرة بالذات أعشى أعينهم بريق هذا المعنى اللامع فحاولوا تحريفه الى مايلتئم ومذهبهم فى الجبر . الامر الذى جعل من الآية غريبة المفادعما اكتنفها من صدر وذيل .

قال الفخر الرازى : يختلف تفسير الآية بحسب اختلاف الناس فى الجبر والقدر . أما القائلون بالجبر ، فقال الواحدى ـ حكاية عن ابن عباس والضحاك ـ يحول بين المرء الكافر وطاعته ، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته . فالسعيد من أسعده الله ، والشقى من أضله . والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء . فاذا أراد الكافر ان يؤمن ، والله تعالى لايريد ايمانه ، يحول بينه وبين قلبه . واذا أراد المؤمن أن يكفر ، والله لايريد كفره ، حال بينه وبين قلبه .

قال الفخر ـ تعقيباً على ذلك ـ : وقد دللنا بالبراهين العقلية على صحة أنّ الأمر كذلك . وذلك لأن الأحوال القلبية اما العقائد واما الارادات والدواعى ـ ثم أخذ فى الاستدلال على أنها جميعاً خارجة عن اختيار العبد ـ وقال أخيراً : فتعين ان يكون فاعل الاعتقادات والارادات والدواعى هو الله تعالى . قال : فنص القرآن دلّ على أن أحوال القلوب من الله ، والدلائل العقلية دلت على ذلك ، فثبت أنّ الحق ماذكرناه [1] وبهذه السفسطة المفضوحة حاول اثبات مذهب الجبر الأشعرى .

ونحن سنبحث عن مسألة «السعادة والشقاء» فى فصل قادم . وعمدة ماستند اليه الفخر استدلالا فى هذا المجال ، هو نظرية : «لااختيارية الارادة» . حسبما تقدم [2] منهم : أن الارادة وان كانت هى الملاك لاختيارية الافعال الصادرة عن اختيار العباد ، غير أن الارادة بذاتها ليست باختيارية ، والالزم سبق ارادة اخرى فتتسلسل . وقد أجبنا عن ذلك بأن اختيارية الارادة كملوحة الملح ذاتية ، وأما غيرها فلابد أن تنتهى اليها ، فراجع .

١ـ التفسير الكبير ج١٥ ص١٤٧ ـ ١٤٨

٢ـ فى صفحة : ١٨١ ـ ١٨٢

هذا جل محاولة الاشاعرة ،وفى مقدمتهم متفلسفوهم ولاسيما امام المشككين فى التحريف بهذه الآيـة الكريمة . أما غيرهم ممن تخلوا عن تساويل الاشعرى بالذات ، أو كانوا فى اتجاه معاكس معهم فى الرأى والاختيار ، فلهم فى تفسير الآية أنظار دقيقة ، وربما آراء ثمينة ، نذكر منها الأهم .

* * *

١ـ ان من سنة الله الحيلولة بين المرء وقلبه ،الذى هو مركز الوجدان والادراك، ذى السلطان على ارادته وعمله . وهذا أخوف مايخاف منه المتقى على نفسه ،اذا غفل عنها وفرط فى جنب ربه . كما أنه أرجى مايرجوه المسرف عليها اذالم ييأس من روح الله فيها .

فهذه الجملة اعجب جمل القرآن . ولعلها أبلغها تعبيراً ، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية ، التى تعرف دقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء .

فبينا زيد يسير على سبيل الهدى ، ويتقى طرق الضلالة الموصلة الى مهاوى الردى ، اذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم ، من شبهة تزعزع الاعتقاد ،أو شهوة يغلب بها الغى على الرشاد ، فيطيع هواه ويتخذه إلهه من دون الله «أفرأيت من اتخذ إلهه هوية أفأنت تكون عليه وكيلا » . على أنه فيه مختار ، فلا جبر ولا اضطرار .

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه ،انه كان منهمكاً فى شهواته ولهوه ، تاركاً لهداه وطاعة ربه . فنزل يوماً فى زورق مع خلان له فى نهر دجلة للتنزه ، ومعهم النبيذ والمعازف فبيناهم يعزفون ويشربون ، اذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة « اذا الشمس كورت » فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة : فاستمع له وأنصت ، حتى اذا بلغ قوله : «واذا الصحف نشرت» امتلأ قلبه خشية من الله وتدبراً ،لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذ العود

من العازف فكسره وألقاه في دجلة ، وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يتردد الآية . وعاد الى منزله تائباً من كل معصية ، مجتهداً في طاعة ربه .

فتذكير الله تعالى ايانا بهذا الشأن من شؤون الانسان ، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الارادات والأعمال ، وأمره ايانا بأن نعلمها علم ايقان واذعان ، يفيدنا فائدتين لايكمل بدونهما الايمان ، احداهما : أن لايأمن الطائع من مكر الله فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه . والثانية : ان لاييأس العاصي من روح الله ، فيسترسل في اتباع هواه ،حتى تحيط به خطاياه .فمن لم يأمن عقاب الله ،ولم ييأس من رحمة الله، يكون جديراً بأن يراقب قلبه،ويحاسب نفسه على خواطره مجتنباً الافراط والتفريط، بين خوف يحجزه عن المعاصي ، ورجاء يحمله على الطاعات [1] .

ويتلخص هذا المعنى في أن في القلب نقطة تحولات مفاجئة ، قد تشرق على تائه الطريق بغتة ، فتعطف به الى المحجة البيضاء بعد مرارة وشقاء . كما أنها قد تنطفي على سالك الطريق فتنجرف به الى مزالق ردى وهلاك بعد سعادة وهناء . فلاينبغي لسالك سبيل ـ مهما كانت من طاعة أوعصيان ـ أن يغفل من نفسه تلكم الحالات المفاجئة في حياته المغيرة للمسير أحياناً .فلايغتر مؤمن بايمانه ليأخذه العجب بنفسه فيزله عن الصراط بغتة . وان في قصة ذلك التحول النفسي الذي فاجأ بلعم باعورا ،لدرساً وعظة .وهكذا لاييأس العاصي بتوافر خطيئاته مهما كانت عظيمة ، ليأخذه القنوط من روح الله والشعور بالحرمان الأبدي ، ليسترسل في طغيانه . بل العبد ـ سواء أكان مطيعاً أم عاصياً ـ فانه دائماً بين خوف ورجاء ، لايأس ولااغترار

ولعل هذا هو المراد في الحديث المأثور: «ان قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمان يصرفها كيف شاء» . وفي لفظ آخر : « اذا شاء أزاغها واذا شاء أقامها» وقد روي أن النبي ﷺ كان يدعو : «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»

١ـ الشيخ محمد عبده ـ في تفسير المنار ج ٩ ص ٦٣٤ـ٦٣٥

وفي سورة آل عمران ـ٨ـ : «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذهديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب» . وقال يعقوب منبهاً لبنيه : «ولاتيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ـ سورة يوسف :٨٧» وفي الحديث المستفيض «ان لربكم في أيام دهر كم نفحات، ألا فتعرضوا لها» . والآثار من هذا القبيل كثيرة جداً .

وهذا معنى لطيف ودقيق للغاية . غير ان تفسير الآية الكريمة بذلك ربما لايلتئم و كونها تهديداً بموقف المشركين ممن امتنعوا عن قبول الدعوة وعن اجابة الرسول .

* * *

٢ـ ان الاية كناية عن سلطانه تعالى في عالم الوجود ، وانه المتصرف فيه كيف يشاء «لاراد لقضائه» . « والارض جميعاً قبضته ـ الزمر : ٦٧ » . فهو تعالى املك من كل انسان لقلبه ،الذي هو منبعث اراداته وقصوده في كل مايعمل اويختار. فلايغترّ أحد بزعم استقلاله في متصرفاته يزاولها حسبما يريد . بل دون تحقق الأهداف والبلوغ الى مآرب الحياة ، ارادة رب العالمين القاهرة ، لايقع شيء ولايتحقق أمر الاباذنه تعالى«وماهم بضارين به من أحد الاباذن الله ـ البقرة :١٠٢». حسبما تقدم في مسألة «الامر بين الامرين»[١] .

فان كانت العصاة قد رفضوا الاستسلام لشريعة السماء رغبة في مباهج هذه الحياة وزخارفها الخلابة ،و كانوا يرون من قبول الحق خسارة لذائذ سفلي ومصالح وقتية زائلة ، فان العيش لايأمن معه الهناء ، تجري الرياح بما لاتشتهي السفن . فلاينبغي لأيّ انسان أن يأمن صروف الزمان وتقلبات الاحوال ، وهي تترى على هذه الحياة المتنغصة بالأهوال والاكدار . الامر الذي جعل من نفوس غير مؤمنة وغير

١ـ صفحة : ١٧٣ فما بعد

معتمدة الى ركن وثيق في توتر نفسي وقلق دائم . « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله تطمئن القلوب ـ الرعد : ٢٨» .

وهذا المعنى يمثله قول الامام امير المؤمنين عليه السلام : «عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ، ونقض الهمم» [١] .

ورجح كثير تفسير الاية بهذا المعنى . قال الزمخشري : وقيل : معناه ان الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ، ويغير نياته ومقاصده ، ويبدل بخوفه أمناً وبأمنه خوفاً . وبالذكر نسيانا وبالنسيان ذكراً ، وما أشبه مما هو جائز على الله .

لكن التعبير بالقلب عن مشتهيات النفس تأباه فصاحة القرآن . القلب عضو شريف في الهيكل الانساني ، وقد جاء تعبيراً عن منبعث الادراكات الانسانية النبيلة «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ ق : ٣٧» . ومن ثم فان المعرض عن ذكر الله قد ختم على قلبه ، فلا يكاد يفقه شيئاً .

نعم لو كان تعبير الآية هكذا «ان الله يحول بين المرء ونفسه» لاستقام هذا المعنى وصح تفسيرها بذلك من غير ريب .

* * *

٣ـ ان الله يحول بين المرء والانتفاع بقلبه بسبب الموت . يعني بادروا الى التوبة والانابة قبل فوات الفرصة ، فان الأجل يحول دون الأمل . والحياة فرصة ثمينة يتمكن العبد فيها من اخلاص قلبه ومعالجة أدوائه وعلله ، ورده سليماً كما يريده الله . فينبغي اغتنامها واخلاص القلوب لطاعة الله ورسوله .

٤ـ كناية عن شدة قربه تعالى من واقع الانسان ، فلا تخفى عليه نزعات ما في القلوب . يعلم سركم وجهركم وهو عليم بذات الصدور . فلا يخفى عليه اضمار كفر أو نفاق وان كان في الظاهر قد آمن بلسانه . «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد

٢ـ شرح النهج لابن ابي الحديد ج١٩ ص٨٤ .

ـق : ١٦» :

٥ـ والذى نرجحه ونرتأيه هومعنى خامس يلتئم مع ظاهر الآية تماماً : انها كناية عن اماتة القلب فلايعى شيئاً بعد فقدان الحياة .

لاتعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه الكفن [١]

الاسلام دعوة الى الحياة العليا السعيدة، وفى رفضها رفض للحياة واماتة للقلب الذى هومنبعث الادراكات الانسانية النبيلة . فاذا مات قلب انسان فقد افتقد نابض الحيوية الفعالة، وأصبح جماداً لاحراك له فى عالم الوجود الانسانى ولافعالية ،وانما هودابة صماء ، بدلا من أن يمشى على أربع ، يمشى على رجلين فى صورة انسان ، قال تعالى : «كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ـ المدثر : ٥٠ـ٥١» . بعد قوله: «فمالهم عن التذكرة معرضين ـ٤٩». وقال:«ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كمالم يؤمنوا به أول مرة ـ الانعام: ١١٠» تطابقاً مع آية الانفال تماماً !

والذى أرشدنا الى هذا الاختيار هى دلائل وقرائن من نفس الآية : ـ

أولاً : التعبير بالحياة عن الدعوة ، فيقابلها الموت فى رفضها . وماهو الاموت القلب بسلب ادراكاته الانسانية العليا التى فيها الحياة الحقيقية الكريمة . قال تعالى «انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذاولوا مدبرين ـالنمل: ٨٠» .«فانك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولومدبرين ـالروم: ٥٢» . «انمايستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون ـ الأنعام : ٣٦» . هذه الأخيرة تتفق فى نظمها مع آية الانفال شيئاًما .

ثانياً : القلب عضو شريف فى الهيكل الانسانى البديع . ومن ثم يعبربه عن واقع الانسان الكريم تارة ،وعن حيويته النابضة بالفعالية والوجود اخرى .وعن منشأ ادراكاته النبيلة الشاعرة بالمسؤولية ثالثة ، وهكذا.

١ـ الحلة فاعل للفعل المنهى عنه والجهول مفعول به .ومعنى البيت: لايغتر الجاهل بجمال ثيابه فانها لاتعدو كفنا على جسد ميت لاروح فيه ولاحركة ولاادراك.

ومن ثم فان المخالف لفطرته قد جعل من قلبه في غشاء أو في غلاف ، أو مريضاً ومنحرفاً عن وضعه الاصيل أو مختوماً بطابع يحجز دون بلوغ الهدى الى مساربه ، وهكذا يجعل القرآن القلب هو المركز الاول لقبول الهداية والتكليف ، ويجعل من رفضها كأنّه لاقلب له ،قال تعالى :«ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ ق: ٣٧» . «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ سورة محمد : ٢٤» . «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ـ البقرة : ٢٢٥» . «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ـ البقرة : ٧» . «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ـ البقرة : ١٠» . «وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـ التوبة : ٨٧» . الى غيرها من آيات جاء بنفس التعابير وهي كثيرة جداً . ولم نر القلب وقع تعبيراً عن مشتهيات نفسية إطلاقاً .

ثالثاً : انها تهديد لاذع باولئك الذين يرفضون قبول الدعوة ، فيعاكسون حظهم في سعادة الحياة لتتحول الى موت ذريع لاحيوية فيه ولااحساس ولاشعور . ومن ثم فانها سقوط من ذروة انسانية شامخة الى حضيض حيوانية ضارية تكالباً على جيفة الحياة الدنيا الرذيلة ، مما يتناسب تهديداً مع رفض الدعوة في صدر الآية . وانسجاماً مع الرجوع الى حكمه تعالى يوم لاحكم الاحكمه في الذيل . وبذلك تلتئم جملات الآية بكاملتها في تشابك ووئام وثيق . الامر الذي تستدعيه فصاحة كلامه تعالى البديع المعجز .

والخلاصة : ان الآية صدراً وذيلاً ومضموناً تستدعي تفسير القلب هنا بمنشأ الادراكات النبيلة لتكون الحيلولة بين المرء وقلبه تعبيراً آخر عن عمهه في تيه الضلال . وهكذا ختم على قلبه فلا يكاد يفقه «فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ـ النساء: ٧٨» . «وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـ التوبة :٨٧» . «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ـ الانعام: ٢٥ . والاسراء : ٤٦» . «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ـ البقرة :٧» . «ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ـ الاعراف : ١٠٠» .

«رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت ـ سورة محمد : ٢٠» . الى غيرهن من آيات كلها تعابير عن معنى واحد : من يرد الله ان يضله يسلب عنه لبّه فلا يكاد يفقه قولاً ، ولا كان يدرك صلاحاً عن فساد ، وبذلك خرج عن حريم الانسانية الكريمة ، ليدخل فى إطار البهائم البهم البكم الذين لا يعقلون .

وحصيلة البحث هى المقارنة التالية :ـ

«حال بينه وبين قلبه» ، «ختم على قلبه» ، «طبع على قلبه» ، « جعل قلبه فى غلاف» ، «فى غطاء» ، «فى غشاء» ، «مرض قلبه» ، «زاغ قلبه» ، «انحرف قلبه» ، «صرف الله قلوبهم» الى أمثالها من تعابير كلها تنمّ عن معنى واحد .

* * *

٦ـ ولسيدنا الطباطبائى ـ دام ظله ـ هنا محاولة اخرى فى تعميم مفاد الآية الكريمة لتشمل غالبية المعانى المتقدمة [١] . فقد فسر الحيلولة بسيطرته تعالى على قلب كل انسان، كما هو مسيطر على سائر أعضائه وجوارحه ، بل وعلى كل موجود فى هذا العالم الفسيح . فهو تعالى يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، ويدع للانسان تصرفاته حسبما يشاء تعالى. فهو المتوسط الحائل بين الانسان وبين كل جزء من أجزاء وجوده وكل لازم من لوازم شخصيته. بينه وبين قلبه . بينه وبين سمعه . بينه وبين بصره . بينه وبين بدنه . بينه وبين نفسه . يتصرف فيها بالايجاد ، ويتصرف فيها بتمليك الانسان ماشاء منها كيف شاء، فقد يعطيه مايشاء وقد يحرمه مايشاء . وهكذا يفعل تعالى فى سائر القوى المودعة فى هذا الكون .

فالله تعالى أقرب الى الانسان من كل شيء، قلبه وسائر مايحوى عليه من أعضاء وجوارح ، بل ومايرتبط به نوع ارتباط ، لانه تعالى هو الحائل المتوسط بينه وبين سائر الاشياء اطلاقاً ، فهو أقرب اليه منها جميعاً . والى هذا المعنى ـ أيضاً ـ أشار

١ـ وهكذا حاول ابو جعفر الطبرى تعميم مفاد الاية . وفسر الحيلولة بانه تعالى أملك لقلوب عباده منهم ... الخ فراجع : جامع البيان ج٩ ص١٤٣ س٢٣، وسننقل كلامه فى نهاية الفصل برقم ٧ .

قوله تعالى : «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ـ ق :١٦» .

قال : والى هذه الحقيقة يشير قوله : «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» فهو تعالى ـ لكونه مالكاً لكل شيء ، ومن جملتها الانسان ، ملكاً حقيقياً ، لامالك حقيقة سواه ـ كان أقرب اليه حتى من نفسه ومن قوى نفسه التي يملكها الانسان ، لأنه تعالى هو الذي ملكه اياها ، فهو الحائل المتوسط بينه وبينها ، اذا شاء ملكه اياها واذا شاء منعه منها . ولذلك عقبها بقوله : «وأنه اليه تحشرون» حيث الملك الحق لله وحده لاشريك له انما يتجلى ذلك اليوم ، وعنده يبطل كل ملك ظاهري وتنقشع كل سلطنة صورية ، «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ـ المؤمن :١٦» «يوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، والامر يومئذ لله ـ الانفطار : ١٩» .

قال : فكأنه تعالى يقول : واعلموا أن الله هو المالك حقيقة لقلوبكم ، وانه اقرب اليكم من كل شيء، وستحشرون اليه فتبدو لكم حقيقة ملكه وسلطانه الشامل فلايغني عنكم منه شيء . وبذلك لايدع مجالاً لأي اعتذار عن رفض الدعوة ،وعدم الاستجابة لله ولرسوله اذادعاهم لما يحييهم .لانه تعالى أقرب اليه من قلبه المعترف في صميمه بالله وحده لاشريك له . فان كان يشك في شيء فانه في واقع فطرته لايشك في الله الواحد الذي هورب كل شيء. ولن يضل في معرفة هذه الحقيقة وتمييز كلمة الحق .

فاذا مادعاه داعي الحق الى قبول كلمة الحق فلاعذر له في ترك الاستجابة، مادام قلبه معترفاً بها ،من غير أن يختلط عليه حقيقة الأمر أويرتاب في صميم الواقع كلا انها اجابة الى داعية الفطرة ، المنطوى عليها الضمير . وان كل ما يختلج قلبه من وساوس وشكوك فالله سبحانه هو المتوسط بينها وبين وجدانه الأصيل ، الامر الذي لايجعل للانسان سبيلا الى الجهل به تعالى أو الشك في توحده .

وعليه فليس لأي انسان ـ تجاه دعوة الحق ـ أن يضمر في قلبه مايخالف لسانه ، لانه تعالى يعلم مافي نفسه ، وسيحشره اليه فينبؤه بما انطوت عليه جوانحه «يوم هم

بارزون لايخفى على الله منهم شيء ـ المؤمن :١٦». «ولا يكتمون الله حديثاً ـ النساء: ٤٢ » .

قال :وأيضاً فان الله تعالى لما كان هو المالك لقلب الانسان ،الحائل بينه وبين قلبه ، كان تعالى هو المتصرف فى قلب الانسان بما يشاء . فكل مايجده الانسان من حالات نفسية : ايمان أوشك خوف أورجاء . طمأنينة أو اضطراب مما ينتسب الى اختياره أواضطراره فان لها انتساباً آخر اليه تعالى لتصرفه بالتوفيق أوالخذلان وسائر أنواع التربية الالهية ،وان كانت تبعاتها متوجهة الى الانسان ذاته «والله يحكم لامعقب لحكمه ـ الرعد : ٤١» . « له الملك ولـه الحمد وهو على كل شيء قدير ـ التغابن : ١» .

فمن الجهل أن يثق الانسان بمايجده فى قلبه من إيمان حق أو نية حسنة أوهمة الى صلاح وتقوى ، بأن يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته الخاصة على التصرف كيف يشاء . فان القلب بين اصبعين من أصابع الرحمان يصرفه كيف يشاء . وهو المالك له حقيقة والمحيط به احاطة «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ـ الانعام : ١١٠» .

فأجدر بهذا الانسان أن يؤمن بالحق، ويعزم على الخير ، ويلتزم الرشد ،لكن على مخافة منه تعالى أن يصرف قلبه من سعادة الى شقاء ، أويحوّله من استقامة الى انحراف ، فلايأمن مكرالله، اذلايأمن مكر الله الاالقوم الخاسرون .

قال: وكذلك اذاوجد انسان من نفسه الاشمئزاز والنفرة عن قبول كلمة الحق أورفض الخير والاعمال الصالحة ،فعليه أن يبادر الى استجابة الله ورسوله فى الدعوة الى مايحيي القلوب ،لأنه بهذه الحالة آخذ فى موت قلبه، فلايستسلم لقيادة اليأس والقنوط. انه تعالى قادر على أن يحول حاله الى أحسن الحال، فان رحمة الله واسعة والأمر اليه «انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ـ يوسف : ٨٧» . «ومن يقنط

من رحمة ربه الا الضالون ـ الحجر : ٥٦ »

قال : فالآية الكريمة ـ كما ترى ـ من أجمع الآيات القرآنية شمولاً لاصول معارف الهية حقيقية ، جمعتها مسألة «الحيلولة» . انها تقطع عذر المتكاسل عن معرفة الله جلت براهينه ، من جذوره . وتقلع غرة النفاق من اصولها . وتنير على المسلمين الذين هم فى طريق الايمان الصادق ، دربهم الى فهم حقيقة الامر بين الامرين ، لا استقلال بالذات ولا الجاء . ومن ثم فهم واقعون بين خوف ورجاء ، فلا اعجاب ولا غرور ولا يأس ولا قنوط .

قال : وبذلك نستطيع الجمع بين أقوال المفسرين التى هى بحسب ظاهرها متخالفة فى تفسير الآية الكريمة . لكنها فى حقيقة الامر متوافقة ، اذا مادققنا النظر فى فهم مسألة «الحيلولة» بالذات[1] .

* * *

٧ـ اختلفت الروايات المأثورة عن أئمة المفسرين السلف فى تخريج الآية الكريمة وتأويلها الوجيه ، وهى كثيرة نذكر منها نماذج :

أ ـ روى أبو جعفر الطبرى باسناده عن ابن عباس : «يحول بين الكافر والايمان وبين المؤمن والكفر» . وهكذا عن الضحاك : «يحول بين الكافر وطاعة الله ، وبين المؤمن ومعصية الله » .

هذا النمط من الروايات تؤيد مذهب الجبر ، على ما أسلفنا من كلام الفخر الرازى .

وحيث لا اكراه فى الدين ولا الجاء فى التكليف ، بصريح الكتاب وضرورة العقل الرشيد ، فان أمثال هذه الروايات ساقطة ، ولاسيما وانها غير مستندة الى نص معصوم .

---

١ ـ السيد محمد حسين الطباطبائى ـ فى تفسير الميزان ج ٩ ص ٤٤ ـ ٤٨ .

ب- وروى باسناده عن مجاهد: «يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لايعقل».

وهذا النمط يقرب من اختيارنا بالذات حسبما أسلفنا فى خامس الوجوه. وهو أقرب المعانى الى ظاهر اللفظ، وتناسباً مع دلائل وقرائن موجودة فى نفس الآية.

ج- وروى عن السدى: «يحول بين الانسان وقلبه فلايستطيع ايمانا ولا كفراً الا باذنه تعالى».

د- وروى عن قتادة: «انه قريب من قلبه فيما يضمر، فلايخفى عليه سر ولا اظهار ونحن أقرب اليه من حبل الوريد».

وحاول الطبرى نفسه تعميماً فى مفاد الاية بمايجمع بين المعانى كلها. قال: «والأولى بالصواب عندى فى ذلك أن يقال: ان ذلك خبر من الله عزوجل، أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها اذاشاء، حتى لايقدر ذوقلب أن يدرك به شيئاً، من ايمان أو كفر، أويعى به شيئاً أويفهم الا باذنه ومشيئته. وذلك أن الحؤول بين شىء وشىء انماهو الحجز بينهما، واذاحجز -جل ثناؤه- بين عبد وقلبه فى شىء أن يدركه أويفهمه، لم يكن للعبد الى ادراك ماقدمنع الله قلبه سبيل. واذاكان ذلك معناه دخل فى ذلك قول من قال يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والايمان. وقول من قال: يحول بينه وبين عقله. وقول من قال: يحول بينه وبين قلبه حتى لايستطيع أن يؤمن ولايكفر الا باذنه. لأن الله -عزوجل- اذا حال بين عبد وقلبه لم يفهم العبد بقلبه الذى قدحيل بينه وبينه مامنع ادراكه به، على مابينت».

قال: «غير أنه ينبغى أن يقال: أن الله عمّ بقوله: «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» الاخبار عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعانى التى ذكرنا شيئاً دون شىء. والكلام محتمل لكل هذه المعانى. فالخبر على العموم

حتى يعلم بالتخصيص[1] » .

* * *

ه ـ وروى على بن ابراهيم القمـى فى تفسيره عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام قال : « يحول بين المؤمن و معصيته التى تقوده الى النـار . ويحول بين الكافر وبين طاعته أن يستكمل به الايمان . واعلموا أن الاعمال بخواتيمها»[2] .

هذا فى المؤمن توفيق وتسديد ، رحمة من الله ولطفاً به . وفى الكافر خذلان وحرمان عقوبة بشأنه .

ويمكن تفسير الحديث بوجه آخر يلتئم مع ظاهر الجملة الأخيرة ، بأن يقال انه تعالى قد يحول بين المؤمن ـ الذى أعجبته نفسه وغره ايمانه ـ وبين المعصية التى لم يكن يرتكبها من ذى قبل فيرتكبها فى مؤخرة حياته رغم ارادته ، لشهوة غلبته أو هوى نفس قادته الى الارتكاب . فتقوده تلك المعصية شيئاً فشيئاً الى النار .

كما أنّ الكافر غير الآيس من رحمته تعالى قد يحول بينه وبين طاعة لم يكن يريدها من ذى قبل ، فيمتثلها رغم ارادته ، لظروف ساعدته على هذا التوفيق وبذلك ينجذب شيئاً فشيئاً الى ما يستكمل به ايمانه فى نهاية الأمر .

ومن ثم قال الامام عليه السلام : واعلموا أن الاعمال بخواتيمها .

و ـ وروى أبو النضر محمد بن مسعود العياشى فى تفسيره عن الامام أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال: «هو أن يشتهى الشىء بسمعه وبصره ولسانه ويده. واما انه لا يغشى شيئا منها وان كان يشتهيه فانه لا يأتيه الا وقلبه منكر لا يقبل الذى يأتى ، يعرف أن الحق ليس فيه»[3] .

لفظ الحديث مشوش ولم أجد من شرحه ، وان كثر من نقله كالمجلسى فى البحار ، والبحرانى فى البرهان ، والطباطبائى فى الميزان ، والفيض فى الصافى ،

١ـ تفسير الطبرى (جامع البيان) ج٩ ص ١٤٢-١٤٣ .

٢ـ تفسير القمى (ط النجف) ج١ ص ٢٧١ .

٣ـ تفسير العياشى ج٢ ص٥٢ برقم ٣٧ .

وغيرهم .

وظاهره : أن الانسان قد يرغب فى شىء من لذائذ المسموعات، كالاستماع الى نغمات موسيقائية .أو المبصرات كالنظر الى الأجنبى ،أو الكلاميات كالغيبة والفحش، أو الجارحيات كالضرب واللطم والبطش المحرم ، لكنه مع ذلك ومع شدة رغبته فيه لايقدم على فعله ،بل يتقاعس عنه تقاعس المتخاذل الممنوع.

وانما ذلك حؤول لاشعورى بينه وبين مشتهياته النفسية، كان لطفاً منه تعالى بشأنه ،بدليل أن الذى دعاه الى الاقدام ورغّبه فيه كانت نفسه الامارة بالسوء . أما قلبه فقد أنكره وثبط من عزمه ، اذ قد عرف أن الحق ليس فيه.

هذا ماهدانى الله بتوفيقه الى شرح هذا الحديث الشريف.

ز- وروى عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام قال :«هذا الشىء ، يشتهيه الرجل بقلبه وسمعه وبصره ، لاتتوق نفسه الى غير ذلك .فقد حيل بينه وبين قلبه الا ذلك الشىء» .

أى الذى يرغب فى شىء خاص ولارغبة له فى سواه ، فهذا هو الذى قد حيل بينه وبين غير ذلك الشىء، ومن ثمّ لارغبة له فى سواه. وقد فسر القلب فى هذا الحديث بالارادات والرغبات .

ح- وروى عن الامام الصادق -عليه السلام -قال: «لايستيقن القلب أن الحق باطل أبداً. ولايستيقن أن الباطل حق أبداً».

أى يحول تعالى بين الانسان وأن يخطأ فى ادراك الحق وتمييزه عن الباطل، فلايكاد يشتبه الحق بالباطل على أحد أبداً . وهذا من لطفه تعالى بعباده ، حيث هداهم النجدين وأوضح لهم السبيل الى حق أو باطل.

وقد تقدم -فى الجزء الاول من الكتاب (ص٤٩) - حديث الامام الصادق عليه السلام قال : «أبى الله أن يعرّف باطلاً حقاً . أبى الله أن يجعل الحق فى قلب المؤمن باطلا

لاشك فيه. وأبى الله أن يجعل الباطل فى قلب الكافر المخالف حقاً لاشك فيه. ولو لم يجعل هذا هكذا ماعرف حق من باطل» . وقال : «ليس من باطل يقوم بازاء الحق الاغلب الحق الباطل. وذلك قوله تعالى: بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ـ الانبياء : ١٨» .

ط ـ وروى عنه عليه السلام قال : «يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق[1]» . وهاتان الروايتان تضيفان وجهاً سابعاً الى الوجوه الستة التى تقدمت .

ى ـ وروى ابن بابويه الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام قال : «يحول بينه وبين أن يعلم أنّ الباطل حق». وقال: «ان الله تبارك وتعالى ينقل العبد من الشقاء الى السعادة ولا ينقله من السعادة الى الشقاء[2]» .

وهذا الأخير اشارة الى قوله تعالى: «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور». أما الذى يخرج الكافر من السعادة ـ التى مهدها الله لجميع عباده بالبلاغ والاداء ـ الى ظلمات الغى والضلال ، فهو الطاغوت « والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ـ البقرة : ٢٥٧ » .

انه تعالى خير وجميل، ولا يريد إلّا خيراً وجمالاً. «الله نور السموات والارض» ومن ثمّ فسرنا اضلاله تعالى بالخذلان والحرمان مما استوجبه العبد على نفسه «مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً ـ نوح : ٢٥» .

تلك نماذج عشرة من أحاديث السلف بشأن تفسير الآية الكريمة . والآية تحتمل الجميع ، لان القرآن حمال ذو وجوه ، ولكل آية منه سبعة بطون من المعانى يعلمها اولوا البصائر فى الدين. ومن ثم لا اختلاف ولا تعارض بعد أن كان اللفظ فى تعبيره العام

---

١ ـ تفسير العياشى ـ ط العلمية الاسلامية ـ ج٢ ص٥٢ ـ ٥٣

٢ ـ تفسير البرهان للسيد البحرانى (ط قم) ج٢ ص٧١ رقم٦

يحتمل الجميع . وأن كان بالنظر الى موقعية الآية الخاصة لايحتمل سوى وجه واحد حسبما رجحناه .

* * *

٨١- «ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا -الانفال: ٤٢» . قالوا : انه يدل على أن كل عمل يرتكبه العبد فانما هو بقضائه تعالى وتقديره ، لا ارادة للعبد فى ذلك ولا اختيار .

والجواب : أنا سنبحث عن مسألة «القضاء والقدر» فى فصل قادم ان شاء الله . وان ليس ذلك سوى علمه تعالى القديم المتعلق بالأشياء قبل وقوعها ، من غير ان يكون ذا تأثير فى تحققها خارجياً .

ثم ان ذيل الآية يتنافى صريحاً مع ما أراده هؤلاء من الجبر على الاعمال ، قال تعالى -بعد ذلك -: «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وان الله لسميع عليم -٤٢» .

أى ليكون ضلال من ضل ، باختياره بعد وضوح الحق لديه . وهكذا هداية من اهتدى تكون عن اختياره ، لاجبر ولا اكراه ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وهكذا ماجاء بعد عدة آيات : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد -٥١» . صريح فى الاستطاعة والاختيار .

٨٢- «هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم -الانفال :٦٢» . هذا تأييد وتوفيق وليس بالمبتدأ به .

٨٣- «والله لايهدى القوم الظالمين -براءة: ١٩» . «والله لايهدى القوم الفاسقين -٢٤» . « والله لايهدى القوم الكافرين -٣٧ » . تلك هداية توفيق وتسديد منحها للمؤمنين ممن جاهدوا فى لقاء ربهم . ومنعها المردة العتاة ممن حرموا بأنفسهم تلقى

٨٤ـ «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ـ براءة: ٤٠».
هذه الآية الكريمة عبارة اخرى عن قولهم : «الحق يعلو ولا يعلى عليه» . قال الامام الصادق عليه السلام: ليس من باطل يقوم بازاء الحق إلّا غلب الحق الباطل . ثم تلا : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ـ الانبياء : ١٨[١] » . وهذا من لطفه تعالى بعباده ، لئلا يشتبه حق بباطل أبداً . وقد تقدم بعض الكلام فى ذلك.

٨٥ـ « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ـ براءة : ٤٦» .

هم المنافقون كذبوا فى دعواهم الرغبة فى الخروج مع الرسول صلى الله عليه وآله وانما هو تقاعس عن الجهاد ومراوغة خبيثة ، ومن ثم كان الأفضل أن لا يخرجوا ، لانهم لو خرجوا مازادوكم الاخبالا واضطراباً فى صفوفكم ، فلم يوفقهم الله لهذه المكرمة، جزاء لنفاقهم، ورحمة بالمؤمنين .

٨٦ ـ « قل لن يصيبنا الاما كتب الله لنا هو مولينا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ـ براءة : ٥١». اى لن يصيبنا من الشدائد والبلايا والمصائب والآلام، سوى ماقدره الله تعالى لنا فى هذه الحياة ، اختباراً وبلاء لانفسنا .

وليس المراد من ذلك هو سيئات اعمال اكتسبناها بأيدينا ـ كما زعمه الاشعرى ـ وذلك بدليل الآية قبلها: « ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل» اذ المقصود من الحسنة الظفر والغنيمة ، ومن المصيبة: الانكسار والهزيمة .

وللاية نظائر ، منها قوله تعالى : «ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا

١ـ راجع : محاسن البرقى ـ كتاب مصابيح الظلم ـ رقم ٣٩٥ ص ٢٢٢ .

تفرحوا بما آتاكم ـ الحديد : ٢٢ـ٢٣» . وقوله : «ماأصاب من مصيبة الاباذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ـ التغابن : ١١» .

٨٧ـ «فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم ، انما يريدالله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ـ براءة : ٥٥» .

هذا هو الاستدراج الذى سنبحث عنه . وهى عقوبة عاجلة ينالها المعاندون مع الحق ، فلاتصيبهم محنة ولاألم فى هذه الحياة ، تلك المحنة التى كانت ابتلاء للمؤمنين وامتحاناً لمبلغ صبرهم فى جنب الله .وذلك أنها لاتنفع هؤلاء الذين مرنوا على العتو والطغيان ، ولايثنيهم عن مسير الغى والجهالة شىء.

والخلاصة : انهم لسوء اختيارهم فى الحياة استوجبوا حرمان رحمته تعالى ولطفه الخاص بالمؤمنين .

٨٨ـ «فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم الى يوم يلقونه ـ براءة : ٧٧» .

الضمير يعود الى سوء صنيعهم الذى جاء فى الآيات قبلها. قال تعالى :«ومنهم من عاهدالله لئن آتينا من فضله (اى الثروة) لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتيهم من فضله بخلوا به(فلم تطاوعهم نفوسهم فى الصرف فى سبيل الله وأداء الواجب من الحق المفروض عليهم) وتولوا وهم معرضون (عن تذكير الله اياهم) ٧٥-٧٦».

فأورثهم ذلك نفاقاً فى قلوبهم باظهار الاسلام وابطان الكفر بحدوده وتكاليفه. ومن ثم جاء التعقيب بقوله: «بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون ـ٧٧».

٨٩ـ «وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـ براءة : ٨٧» كناية عن حالة الجفاء التى كانت قدعرضت نفوسهم على اثر الاعراض عن ذكر الله ، والصمود على الغى والنفاق.وهو نظير قوله تعالى:«كلابل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ـ المطففين: ١٤». الرين: الصدأ. كأنه صدأت قلوبهم وزال صقلها وصفاؤها على أثر الخطيئات التى ارتكبوها .

٩٠- وهكذا قوله تعالى : «وطبع على قلوبهم فهم لايعلمون -براءة : ٩٣».

٩١- «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون -براءة : ١٢٧» .هذا هو الخذلان ، عقوبة عاجلة لمن أعرض عن ذكر الله وعاكس فطرته في اتجاه المسير «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - الصف : ٥» . «وجزاء سيئة سيئة مثلها - الشورى : ٤٠» .

ووجه آخر : ان هذه الجملة دعاء على المنافقين ازاء اعراضهم عن القرآن. نظير قوله تعالى : «قاتلهم الله انى يؤفكون - براءة : ٣٠» وغيرها وهي كثير في القرآن .

٩٢- «يفصل الآيات لقوم يعلمون -يونس : ٥» . «لآيات لقوم يتقون -٦» وأمثال ذلك ، قدتقدم الكلام فيها عند قوله : «هدى للمتقين - البقرة : ٢» . حيث المقصود :انهم هم الذين ينتفعون بها اعظم نفع .

٩٣- «فنذر الذين لايرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون -يونس: ١١» خذلان وعقوبة عاجلة ازاء صمودهم على النكران والعناد مع الحق الصراح .

٩٤- «كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون -يونس: ١٢».زينه لهم الشيطان «وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون -الانعام :٤٣» .بل سولت لهم أنفسهم من بعد ماتبين لهم الهدى فسول لهم الشيطان وأملى لهم[١] «ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم -الرعد : ١١» .

٩٥- «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون - يونس :

١- مقتبس من قوله تعالى :«ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم واملى لهم -سورة محمد :٢٥» .

١٩» . أى لولا أنه تعالى علم أن الصلاح فى التكليف هو الأمهال وافساح المجال تجاه اختيار المكلفين ، لحكمة الاختبار والابتلاء ، لقضى عليهم بانزال العقوبة العاجلة.

٩٦- «هو الذى يسيركم فى البر والبحر - يونس : ٢٢» . أى جعلكم بحيث تستطيعون السير فى البر والبحر ، حسبما تقدم التحقيق فى اسناد الحوادث والمولدات اليه تعالى [١]

٩٧- «والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم - يونس ٢٥» . أى يزيد فى هداية من اهتدى توفيقاً وتسديداً الى الحق والصواب.

٩٨- «كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون - يونس :٣٣». هذا اخبار عن واقعية مرة ، أى ولقد صح هذا الأخبار عن حالة الفاسقين التعنتية ، والمقاومة العنيفة تجاه قبول الحق الصريح . وليس فى الآية أنه تعالى ألجأهم على الكفر والفسوق . اذ لايلتئم الالجاء مع توبيخهم على الجموح الذى جاء فى الآية قبلها : « فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون - يونس : ٣٢ » . فهو اخبار عن علم لا القضاء عليهم بالكفر . وستجىء نظيرتها برقم : ١٠٢ .

٩٩- «ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون . ومنهم من ينظر اليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون - يونس : ٤٢ - ٤٣» .

أى انهم وان كانوا يصغون اليك بآذانهم ، إلا أنهم لايعون شيئاً من كلام الحق ، كما أنهم وان كانوا ينظرون اليك بعيونهم ، الا أنهم لايبصرون شيئاً من آياته تعالى . اذ لاعبرة بالآذان والعيون اذا لم يكن ادراك بالقلب ، الأمر

١- راجع صفحة : ١٧٧ فمابعد .وصفحة : ١٨٣

الذى لا يملكه هؤلاء المنافقون . حيث الخطايا والآثام حالت بينهم وبين قلوبهم، فهم لايفقهون .

١٠٠ـ « ربنا لاتجعلنافتنة للقوم الظالمين ـ يونس : ٨٥ » . أى سدد خطانا ووفقنا على مواكبة الحق فى طول المسير ، كى لاننحرف ولاننزلق الى مهاوى الضلال ، فنكون عبرة للظالمين . فهذا طلب توفيق من الله ليؤيدهم على تجنب الباطل ومخالفة الهوى طول الحياة .

١٠١ـ «وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ـ يونس : ٨٨» .ليست اللام ـ هنا ـ للغاية ،وانما هى لام العاقبة ،كمافى قوله :«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ـ القصص: ٨» . اى ربنا انك أمليت لآل فرعون واستدرجتهم بالترفيه عليهم فى هذه الحياة ، عقوبة عاجلة ازاء تمردهم عن منهج الهدى والصلاح ،لكنهم استغلوا هذا الامهال والافساح فى اضلال عبادك ، والافساد فى الأرض . ومن ثم دعا عليهم بزوال تلك النعم وأخذهم اخذ عزيز مقتدر. « ربنا اطمس على أمـوالهم واشدد على قلوبهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ـ ٨٨» .أى انهم مع ذلك لايؤمنون الااذا عاينوا الموت وأيقنوا بالهلاك .

وقد استجاب الله هذا الدعاء اتماما للحجّة عليهم ، وبالفعل قد تحقّق تنبّؤ موسى عليه السلام بعدم الفائدة . قال تعالى :«ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ـ الاعراف : ١٣٠» . وقال تعالى : « قداجيبت دعوتكما فاستقيما ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون . وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فـأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لااله الاالذى آمنت به بنواسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقـد عصيت قبل وكنت من المفسدين ـ يونس : ٨٩ ـ ٩١» . «فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ـ غافر:

٨٥».«وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ـ النساء :١٨».

١٠٢ ـ «ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ـ يونس : ٩٦». وقد تقدم الكلام فى نظيرتها برقم : ٩٨ . انها اخبار عن علم ،لاحكم بالقضاء . بدليل النهى عن التكذيب بآيات الله فى الآية قبلها : «ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ـ ٩٥» .

١٠٣ـ « ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً ـ يونس : ٩٩ » . تقدم أن المشيئة فى مثلها تكوينية ، أى لوشاء إلجاءهم على الايمان لفعل ، لكنه تعالى أراد الاختبار فى التكليف ، ومن ثم أفسح لهم مجال الاختيار . واما الهداية التشريعية فقد شاءها الله لكافة الناس « وان من امة الا خلافيها نذير ـ فاطر : ٢٤» .

١٠٤ ـ «وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ـ يونس : ١٠٠» . تقدم(ص١٨٢) ان الاذن تعبير عن ارادته تعالى الحادثة ، التابعة لارادة العباد،سنة الله التى جرت فى الخلق ،فما يريد العباد ايجاده فان الله يأذن فى تحققها وفق مايريدون ،تحقيقاً لاختيارية الافعال ، وليصح التكليف والاختبار .

ومعنى الآية : ان ايمان المؤمن متوقف على مقدمات يمهدها الله تعالى بلطفه وتوفيقه ، ولولا توفيقه تعالى بدءاً وختماً ، لم يستطع أحد ان يبلغ الهداية الحقة، أويهتدى الى المحجة البيضاء بين محتلكات المسالك فى هذه الحياة «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدينا الله ـ الاعراف : ٤٣» .

١٠٥ـ «ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون ـ هود : ٢٠» .قالت الاشاعرة :الاية تدل على أنه تعالى هو الذى لم يقدر الكافر على الايمان ، فلم يستطع

السمع ولاتمكن الابصار .

والجواب : أن هذه الاية توبيخ ولاتوبيخ على العاجز . بل الذى حجز قلوبهم دون نفوذ الحق فيها ، هو القسوة والجفاء الذى اكتسبته قلوبهم على اثر الخطايا والذنوب،فصدهم عن ذكر الله«الذين كانت أعينهم فى غطاءعن ذكرىو كانوا لايستطيعون سمعاً ـ الكهف : ١٠١» .

ذلك ان المؤمن ـ حيث رغبته فى الاهتداء ـ يستطيع ان يستمع الى دلائل الهدى والارشاد ، بسهولة ويسر . وأما الفاسق العاتى ، فان نفسه لاتطاوعه للانصات الى دعوة الحق ، صم بكم عمى فهم لايعقلون .

١٠٦ـ «ولاينفعكم نصحى إن اردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون ـ هود : ٣٤» .

الاغواء فى هذه الاية هو الخذلان وسلب التوفيق على اثر معاندتهم مع الحق، ومتى بلغ الانسان هذه المرتبة من الجفاء العارم ، وسلب عنه التوفيق بما كسبت يداه ، فلاموضع فى قلبه لنفاذ النصح والارشاد . فمعنى «يريد أن يغويكم» :«لايريد أن يهديكم» لعدم صلاحية فى المحل وعدم استعداده للتلقى والقبول .

والدليل على ذلك قولهم :«يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ـ ٣٢» . فهذا من التعنت واللجاج تجاه الحق بما يجعل تأثير الدعوة فيهم مستحيلا .

١٠٧ـ «فمنهم شقى وسعيد ـ هود: ١٠٥» . الشقاء والسعادة فى الآية بمعنى الضيق والسعة ، فالكافر ذاك اليوم مضيق عليه فى شدة وألم دائم . والمؤمن موسع عليه فى رفاه وسرور مستمر .

١٠٨ـ« ان ربك فعال لمايريد ـ هود : ١٠٧ ». الارادة ـ هنا ـ تكوينية وهى لاتتخلف عن المراد ، حسب ماأسلفنا توضيحه سابقاً (ص١٦٧) .

١٠٩ـ «ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . ولايزالون مختلفين الامن رحم ربك .ولذلك خلقهم .وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ هود : ١١٨ ـ ١١٩» .

أى «ولو شاء ربك» ـ بمشيئة تكوين ـ «لجعل الناس امة واحدة» برفع اختلاف نزعاتهم وأهوائهم واتجاهاتهم . وذلك بالجائهم على طريقة واحدة مسيرين عليها جبراً فى نظام رتيب كعيشة النمل والنحل .

وهذا كقوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ـ النحل : ٩». وقوله : «أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ـ الرعد : ٣١» .

ولكنه تعالى لم يشأ ذلك بشأن الانسان الذى منحه العقل والكفاءة والعبقرية ليقوم هو بتكفل شخصيته وتكوين ذاته الكريمة المفضلة على سائر المخلوقين .

«و» من ثم «لايزالون مختلفين» فى الأهواء والنزعات، دار تنازع فى البقاء.

«الا من رحم ربك» من عباده المخلصين ساروا على نهج واحد مستقيم ،فى وحدة متماسكة ، لااختلاف بينهم ولاتجاذب فى مطاليب الحياة ، انهم عثروا على ناموس السعادة وسر النجاة ،هداهم اليه ربهم برحمة منه وفضل «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ـ آل عمران : ١٧٤» . «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ـ البقرة : ٢١٣ » . «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً . والذى اوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ـ الشورى : ١٣» . «وأنّ هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ـ الانعام : ١٥٣» .

«ولذلك خلقهم» أى لأن تسعهم رحمته الواسعة وفضله الشامل ، فى ظل حياة سعيدة وهنيئة متماسكة ، لاتعب فيها ولانصب ، لاتشاحن فيها ولاتطاحن ولاعطب. «ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ـ غافر : ٣٨» . «وأن لو استقاموا على الطّريقة

لأسقيناهم ماءغدقاً ـ الجن : ١٦» .

ولكن تلك ارادته تعالى التشريعية تخلفت عن المراد ، انهم فسقوا عن أمره تعالى فاستحقوا نار جهنم « وتمت كلمة ربك» أى صدق علمه السابق بشأن عصيان الانسان «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» بسبب فسوقهم وعصيان أمر ربهم العزيز القهار .

١١٠ـ « واليه يرجع الأمر كله ـ هود : ١٢٣ » . أى هو منتهى كل مقصود وغاية كل مأمول .منه المبدأ واليه المعاد.«انالله وانا اليه راجعون ـ البقرة:١٥٦».«ألا الى الله تصير الامور ـ الشورى : ٥٣» . «ياأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ـ فاطر : ١٥» . الى غيرها من آيات كلها تهدف شيئاً واحداً : انه تعالى هو الغنى بالذات المفتقر اليه سائر الموجودات «كل مابالغير لابد أن ينتهى الى ما بالذات» وفق قانون احتياج الممكن الى الواجب ، وهو الله الواجب الوجود ،الامر الذى لاصلة بينه وبين سلب قدرة العباد على الايمان والعصيان ، كمايرومه الأشعرى واذنابه وقد تقدم (ص١٧٧) البحث عن وجه انتساب الأفعال الاختيارية الى الله، والى العباد انفسهم بالذات،فى لحاظين وباعتبارين،فراجع.

١١١ـ « كذلك لنصرف عنه السوء ـ يوسف : ٢٤» بالتوفيق والتسديد ، وهو مزيد لطف وعناية يختص به عباده المكرمين ممن حاولوا الجهد فى سبيل هديه تعالى «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتيهم تقويهم ـ سورة محمد : ١٧» .

١١٢ـ «والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن ـ يوسف : ٣٣» . ابتهال الى الله ان يمن عليه برحمته الخاصة فيوفقه على اجتناب معاصيه مزيداً من قوة ايمانه الراسخ «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ـ ٣٤» حيث صدقه فى الطلب واخلاصه فى الاجتهاد الى رضوانه تعالى .

١١٣ـ «الامارحم ربى ـ يوسف : ٥٣» بشمول توفيقه ومزيد عنايته الخاصة

١١٤- «ان الحكم الالله - يوسف : ٦٧» . تقدم نظيرها برقم : ١١٠ .

١١٥- «واذا أراد الله بقوم سوءاً فلامرد له - الرعد : ١١» . تلك ارادة تكوينية بنزول العقوبة بعد ماسجلت عليهم اللعنة وسوء العذاب، وذلك بما أغلقوا هم على أنفسهم أبواب رحمته تعالى فلامنفذ اليهم أبداً . بدليل صدر الآية «ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم» ، فلاتتغير حالة سعادة الى حالة شقاء الا اذا كانوا هم مهدوا السبيل الى احداهما بالذات .

١١٦- «ولله يسجد من فى السموات والارض طوعاً أو كرها - الرعد : ١٥» . السجود هنا هو الخضوع والاستسلام المحض لفرامينه تعالى . فكل مابالوجود من جماد وذى حياة ، هو رهن قوانين وأنظمة وأحكام ان طبيعية كانت - كما فى الجماد والنبات وأكثر الحيوان - أو تشريعية ، كما فى الانسان فيما يخص جانب تكاليفه ووظائفه الوضعية . والاستسلام طوعاً ينظر الى هذا النوع الأقل . وكرهاً الى النوع الاكثر . ولذلك جاء فى بقية الاية : «وظلالهم بالغدو والآصال» يعنى حتى الظلال خاضعة لنظمه تعالى صباحاً ومساءاً . وجاء فى سورة النحل ٤٨- «أولم يروا الى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون» .

والآية نظيرتها فى سورة الحج :١٨- «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب » (الى هنا كان السجود قهرياً وطبيعياً على حد تعبيرنا) «وكثير من الناس» (وهو خضوع اختيارى لم يقم به جميع بنى الانسان ومن ثم هذا التعبير) «وكثير» (من الناس) «حق عليه العذاب» (بسبب امتناعه عن الاستسلام لقيادته تعالى) .

١١٧- «قل الله خالق كل شىء - الرعد : ١٦». تقدم الكلام فيه بتفصيل[1].

١١٨- « لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً - الرعد : ٣١ » تقدم الكلام فيه أيضاً برقم : ١٠٣ و ١٠٩ .

١١٩- « لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم- ابراهيم : ١ » . اذ لا يقع شىء فى الوجود الا باذنه تعالى، حتى ولو كانت أفعالا اختيارية واقعة تحت ارادة فاعليها. فانها أيضاً لا تتحقق الا من بعد اذنه تعالى. وهى ارادته الحادثة المتعلقة بتحقق الأشياء وفق سنن وعوامل أودعها الله فى طبيعة هذا الكون. وقد تقدّم تحقيقه فى مسألة الأمر بين الأمرين وغيرها من مسائل مرتبطة بالموضوع . ونظيرها الاية : ١٦ من سورة المائدة .وقد تقدمت.

١٢٠- «فيضلّ الله من يشاء ويهدى من يشاء - ابراهيم: ٤» . تقدّم فى غير موضع أنّ الهداية فى مثلها توفيق وتسديد . والاضلال خذلان وحرمان ، وفق ما استعدّوا بأنفسهم من تلقي الدعوة ورفضها .

١٢١-«ولكنّ الله يمنّ على من يشاء من عباده - ابراهيم : ١١» وذلك باجتبائه نبياً مرسلا الى الناس ، لما وجد فيه من استعداد وصلاحية القيام بهذه المهمة العظمى. وليس اعتباطاً فى الاختيار .

١٢٢- «ومالنا ان لا نتوكل على الله وقد هدينا سبلنا - ابراهيم: ١٢» . هذه قولة الشاكر لأنعم الله، الواعى لعظيم لطفه تعالى بعباده ، وأجدر بها من نعمة كبرى أن

١- راجع : مسألة التوحيد فى الافعال ص١٧٢ . ومسألة الامر بين الامرين ص١٧٣ -١٨١ . ومسألة ارادة الله الحادثة ص١٨٢ . ومسألة انتساب الحوادث الى الله ص ١٨٣ . واخيراً نفس الاية وماشاكلها ص١٨٥ -١٨٧ . وص١٩٠ -١٩١ .

هداهم النجدين ، وهداهم السبيل . ولزم على نفسه المزيد من ألطافه انهم أجابوا دعوته وأسلموه قيادتهم . « قدجاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ـ المائدة : ١٦» .

١٢٣ـ «قالوا لو هدينا الله لهديناكم ـ ابراهيم : ٢١» تلك قولة المستكبرين ، زعموا انه تعالى خذلهم واضلهم عن سواء السبيل ، وذهب عنهم انهم هم كانوا السبب فى هذا الحرمان والخيبة عن رضوانه تعالى .«انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون ـ الانعام : ٢٤» .

ومن ثم كذبهم الشيطان فى هذا الزعم الباطل «وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ماانا بمصرخكم وماانتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمون من قبل ـ ابراهيم : ٢٢».

وهكذا كذبهم الله فى آية اخرى نظيرتها: «وقالوا لوشاء الرحمان ماعبدناهم مالهم بذلك من علم انهم الا يخرصون ـ الزخرف : ٢٠» .

١٢٤ـ «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين ـ ابراهيم : ٢٧» .

هذا هو التوفيق الربانى الذى يمنحه لعباده المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا « يهديهم ربهم بايمانهم ـ يونس : ٩ » . كما هو خذلان للذين سعوا فى آياته معاجزين «اولئك لهم عذاب من رجز اليم ـ سبأ : ٥» .

١٢٥ ـ « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ـ ابراهيم : ٣٢ » أى باذنه. وقد تقدم وجه انتساب الأفعال مطلقاً الى الله حتى ولو كانت اصطناعية واختيارية

صادرة عن ارادة العباد بالذات [1] .

١٢٦ـ «واجنبي وبني ان نعبد الأصنام ـ ابراهيم: ٣٥» . ابتهال اليه تعالى أن يمنحه التوفيق والتسديد، والمزيد من عناية ألطافه الخاصة بالمؤمنين .

١٢٧ـ وهكذا قوله : «رب اجعلني مقيم الصلوة ومن ذريتي ـ ابراهيم : ٤٠». أي ثبتني على القول الثابت في الحياة الدنيا. فهو سؤال التوفيق وتأييده على الاستقامة والثبات . راجع الرقم ١٢٤ .

١٢٨ـ «وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم ـ الحجر : ٢١» . قالت الأشاعرة ومن على شاكلتهم من مجبرة الاسلام: ان هذه الآية تدل على أن المعاصي من عند الله .

والجواب : أنّ المراد بالآية هي رحمته تعالى وبركاته على الارض ، بدليل تمام الآية :

«والارض مددناها وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين . وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماءاً فأسقيناكموه ، وما انتم له بخازنين ـ الحجر : ١٩ ـ٢٢» .

وأين هذا من أفعال العباد ، فضلاً عن الآثام التي يرتكبونها ، مما قد نهى الله ؟! كيف يجبرهم على المعصية وهو ينهاهم عنها ويعاقبهم عليها ، انها نقمة لا تناسب بينها وبين فحوى الاية التي هي بصدد تعداد نعمه تعالى على الانسان.

١٢٩ ـ « قال رب بما أغويتني لازينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين ـ الحجر : ٣٩» .تقدم الكلام في نظيرتها من سورة الاعراف : ١٦ . وكأنّ الاغواء

١ـ راجع مسألة «انتساب الحوادث الى الله» ص١٨٣

ـ ان صح التعبير ـ بمعنى الخذلان وعدم المزيد من عنايته الخاصة . والافكيف التوفيق بينه وبين ذمه تعالى لابليس في امتناعه عن السجود لآدم واستكباره عن أمر ربه ؟!

١٣٠ـ «ونزعنا مافي صدورهم من غل، اخواناً على سرر متقابلين ـ الحجر: ٤٧» . تلك مثوبة رحمانية تطهر قلوبهم عن أدران منافسات دنيوية لامجال لها في دار الآخرة ، «وجزاهم بماصبروا جنة وحريراً ـ الانسان : ١٢».

١٣١ـ «الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين ـ الحجر : ٦٠ » . أي علمنا في الازل أنها من الباقين الهالكين ، فهو اخبار عن واقع قبل وقوعه، وليس قضاء عليها بالجبر رغم ارادتها ، بدليل آيات غيرها كان التعبير فيها مجرد اخبار عن واقعية مرة « فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ـ الأعراف : ٨٣ » ـ « لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ـ العنكبوت : ٣٢ » ـ «اذنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ـ الصافات : ١٣٥» . نعم جاء التعبير في سورة النمل ـ ٥٧ ـ بمثل التعبير في سورة الحجر .

١٣٢ـ «وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ـ الحجر: ٦٦ » . أي أعلمناه وأخبرناه به . ويطلق القضاء على الاخبار بالحتم ، لأنه في اللغة بمعنى الفراغ من الشيء والبلوغ نهايته . فناسب اطلاقه على كل أمر قاطع للشك ، كالخبر الحتم ،اورافع للنزاع، كحكم القاضي العدل . ومن ثم يطلق على انقضاء الأجل بالموت ايضاً. وقد جاء جميع هذه الاستعمالات في القرآن بكثير .

١٣٣ـ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين ـ النحل: ٩» . هذه الاية الكريمة تعني هدايته تعالى العامة ، الشاملة للخلق كلهم : «ان علينا للهدى ـ الليل : ١٢ » . « الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ـ طه : ٥٠ » . «وهديناه النجدين ـ البلد: ١٠» . «انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً ـ الانسان:

٣» . الى غيرهن من آيات تدل على أنه تعالى تكفل لهذا الانسان هدايته الى طرق الصلاح والفساد ، وان كان قد أمره باتباع طرق الخير والنجاح .

فعليه تعالى أن يهدى قاصد السبيل اطلاقاً ، غير أن منها جائراً نهى عن اتباعها وان كان قد أقدر على الاختيار لحكمة التكليف والاختبار .

اما الجملة الأخيرة « ولو شاء لهداكم اجمعين » فقد تقدمت وتقدم الكلام فى نظائرها . راجع الفقرة : ١٠٣ و ١٠٩ .

١٣٤ـ « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولاحرمنا من دونه من شىء ـ النحل :٣٥» .

احتج الاشعرى بما حكاه تعالى عن المشركين ، فيما زعموا من الجائهم على الكفر ، حسبما زعمه الأشعرى أيضاً خلفاً عنهم . وقد تقدم نظير الاية برقم : ١٢٣ ص ٢٦٣ .

وقد كذبهم الله على هذه المزعومة فى آية اخرى نظيرتها : « وقالوا لو شاء الرحمان ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم الايخرصون ـ الزخرف : ٢٠ ». « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانو يفترون ـ الانعام : ٢٤» .

١٣٥ ـ «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً منهم أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ـ النحل : ٣٦ » .

أى فمنهم من استجاب لدعوة الحق فهداه الله الى سبل السلام .ومنهم من رفض الدعوة وأعرض عن قبول الحق ، فخذلهم الله وتركهم فى ظلمات الغى يعمهون، ومن ثم تمكن الضلال من قلوبهم فأصمهم وأعمى أبصارهم فلايفقهون شيئاً ولايعقلون.

١٣٦ـ «ان تحرص على هداهم فان الله لايهدى من يضل ـ النحل : ٣٧ » . هذا تيئيس للنبى ـ صلى الله عليه وآله ـ وأن هؤلاء قد حقت عليهم الضلالة وبذلك قد سدوا

على أنفسهم المنفذ الى الهدى. مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً ـ نوح: ٢٥. ونظيرتها قوله تعالى: «انك لاتهدى من أحببت (ممن فصلته عنك خطيئاته التى احاطت من كل الجوانب ـ انك لاتسمع الموتى ـ فلم يستعد بنفسه لقبول نصح او ارشاد) ولكن الله يهدى (بتوفيقه وألطافه الخاصة) من يشاء ـ القصص: ٥٦» ممن استوجبوا لانفسهم التأييد والتسديد وجاهدوا فى الله حق جهاده .

١٣٧ـ «ومابكم من نعمة فمن الله ـ النحل : ٥٣ » . قالوا : وهذا يدل على أن الايمان ـ وهو من أكبر النعم ـ من عندالله .

قلنا : نعم ، ولكن لادلالة فيها على أنه كان بالالجاء . بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ـ الحجرات : ١٧ . ولم يقل : انه ألجأهم على الايمان من غير أن يكونوا على اختيار فى الرفض والقبول .

وقد تقدم الكلام عن مراحل الهداية ،منها مرحلتان تكوينيتان سبقتا مرحلة الهداية التشريعية الواقعة تحت اختيار المكلفين فى القبول والامتناع . فى حين انها بجميع مراحلها نعمة كبرى من عندالله العزيز الحكيم .

١٣٨ـ «ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لايقدر على شىء ـ النحل : ٧٥» .قالوا: وهذا ـ أيضاً ـ يدلّ على نفى الاستطاعة وأن لاقدرة للعباد على الاختيار .

قلنا : هذا نفى لقدرة تشريعية فيما لم يخوله مولاه . وليس نفياً لمطلق قدرته على شىء . فهلا كان العبد المملوك غير قادر على المشى والتكلم والاختيار والارادة فيما يخص من أفعاله الخاصة ؟!

نعم هو غير متمكن تشريعاً من تصرفات مالية وفيما يخص شؤون مولاه . الأمر الذى لاننكره بشأن العبيد الحقيقيين تجاه المولى الحقيقى الكريم .

١٣٩ـ « ولو شاء لجعلكم امة واحدة . ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء

ـ النحل: ٩٣» . تقدم نظيرها فى عدة مواضع [١] . انها مشيئة تكوينية لم يشأها الله بشأن المكلفين . لتنا فيها مع حكمة التكليف والاختبار .

ولكن يضل ـ بالخذلان ـ من يشاء ـ ممن استوجب لنفسه الحرمان ـ ويهدى ـ بالتوفيق والتسديد ـ من يشاء ممن استحقوا مزيد عنايته تعالى بفضل جهادهم فى سبيل الله .

١٤٠ ـ « ان الذين لايؤمنون بآيات الله (باصرارهم على منابذة الحق) لايهديهم الله (بتوفيقه والمزيد من ألطافه الخاصة) ـ النحل : ١٠٤ » . حيث لم يدعوا مجالا لشمول عنايته تعالى اياهم ، وألقوا بأنفسهم الى التهلكة .

١٤١ ـ «وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدنّ فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ـ الاسراء : ٤» .

وهذا القضاء إخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم ، حسب ماوقع فى علمه الأزلى من مآلهم ، لا أنه قضاء قهرى عليهم تنشأ منه أفعالهم . فالله سبحانه لايقضى بالافساد على أحد « قل ان الله لايأمر بالفحشاء ـ الاعراف : ٢٨ » . وماسيكون فهو بالنسبة الى علمه تعالى كائن ، وان كان بالقياس الى علم البشر لم يكن بعد ولم يكشف عنه الستار . ومن ثم عبر بالقضاء وهو الابرام القاطع .

١٤٢ ـ « بعثنا عليكم عباداً لنا اولى بأس ـ الاسراء : ٥ » . اى هم انبعثوا بارادتهم الخاصة . وأمّا النسبة الى الله فلأنه مودع القوى المحركة فى هذا الكون ، ولايزال يفيض عليها بالامداد على طول البقاء . وقد تقدم الكلام فى ذلك بتفصيل [٢] وقال بعضهم : انه تعالى خلى بينهم وبين القوم ولم يمنعهم من محاربتهم ، الأمر الذى يعبر عنه باذنه تعالى فى الامور ، ومن ثم جاز أن يقول : بعثنا . كما قال : انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ـ سورة مريم : ٨٣ [٣] .

---

١ ـ راجع بالخصوص الفقرة ، ١٠٣ و ١٠٩ و ١١٨ .

٢ ـ راجع صفحة : ١٨٣ .

٣ ـ متشابهات القاضى ج٢ ص٤٥٧ نهاية الفقرة : ٤١٦ .

١٤٣ـ «وكل شيء فصلناه تفصيلا ـ الاسراء : ١٢» قالوا : انه يدل على أنه تعالى هو الفاعل لكل شيء .

قلنا : انه تفصيل لآيات الكون ومظاهره الطبيعية ، وهي تجري على سنن ونظم رتيب لاعوج فيه ولا اختلاف .

أما مايرجع الى أفعال الانسان الاختيارية فهي الآيـة بعدها : «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً .اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا : ١٣ ـ١٤» . فلولا أنه المسؤول عن افعاله ، وانه مختار في فعل مايريد وترك مايكره ، لما كان لمثل هذا الكلام في مثل هذه اللهجة المهددة موضع صحيح .

ولاسيما وتعقيبها بآية هي اشد صراحة في مسؤولية الانسان ذاته عما يرتكبه من أعمال :«من اهتدى فانما يهتدي لنفسه .ومن ضل فانما يضل عليها ، ولاتزر وازرة وزر اخرى . وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ـ ١٥» .

* * *

١٤٤ ـ «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ـ الاسراء : ١٦» .

وقد قامت الاشاعرة حول هذه الآية الكريمة وقعدت وطبلت وزمرت ، زاعمة صراحتها في أنه تعالى هو الذي يريد الكفر والفسوق ويأمر بهما لغرض هلاك من يريد اهلاكه ابتداء ومن غير ماسبب مبرر [١] .

والجواب : أولاً ـ وقوع هذه الآية أثر الآية المتقدمة الصريحة في اختيار العباد وتحملهم المسؤولية ، مما يحتم توجيه هذه الى مايلتئم مع قرائنها والا لوجد معارضوا القرآن الى اختلاف آياته سبيلا .

١ـ سننقل نص كلامهم في تأويل الاية ـوفق مذهبهم في الجبرـ عن الرازي في تفسيره في التعليق الاتي .

قال الكعبي :ان سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدىء بالتعذيب والاهلاك، لقوله : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ الرعد: ١١».

وقوله :«ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ـ النساء: ١٤٧».وقوله :«وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون ـ القصص : ٥٩» . فكل هذه الآيات تدلّ على أنه تعالى لا يبتدىء بالاضرار . وأيضاً ماقبل هذه الآية يدلّ على هذا المعنى ، وهو قوله: «من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر اخرى ـ الاسراء : ١٥» . ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض .فثبت أنّ الآيات التى تلوناها محكمة ، وكذا هذه الآية ، فيجب حملها على تلك الآيات . حملا للمتشابه على المحكم. التفسير الكبير ج٢٠ ص١٧٥ -١٧٦.

وثانياً ـ للاية تأويل صحيح ، وفى نفس الوقت منسجم مع ظاهر التعبير تمام الانسجام :

وذلك أنّ الارادة فى الآية ليست بمعنى أنه تعالى قد يريد بقوم سوءاً لا موجب له ، فيعمد ـ لتبريره ـ الى التماس حجج ومعاذير هو يتكلفها ويمهد أسبابها [1] !

كلا ، بل الارادة ـ هنا ـ تعبير عن واقعية محضة عملت فى تكوين ذاتها عند توفر شروط التحقق والعوامل المستدعية للتكوين . كقوله تعالى : « فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ـ الكهف : ٧٧ » . حيث لا ارادة ولا قصد وانما هو اقتضاء

---

١ ـ قال الفخر الرازى ـ وهو اشعرى ـ : احتج اصحابنا بهذه الاية على مذهبهم من وجوه ، الاول : ان ظاهر الاية يدل على انه تعالى اراد ايصال الضرر اليهم ابتداء ،ثم توسل الى اهلاكهم بهذا الطريق . الثانى : ان ظاهر الاية يدل على انه تعالى انما خص المترفين بذلك الامر ، لعلمه بأنهم يفسقون . وذلك يدل على انه تعالى اراد منهم الفسق. الثالث : انه تعالى قال «فحق عليها القول» بالتعذيب والكفر، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الايمان منهم، لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً، وذلك محال ،والمفضى الى المحال محال .

واقع الامر . وهكذا فى الآية الكريمة كانت الارادة بمعنى اقتضاء واقعهم السيء للهلاك والدمار .

وعليه فمعنى الآية : انه متى ماحان وقت هلاك قوم ، فأراد الله ان ينزل بهم العقاب حسب اقتضاء واقعهم المتفسخ المنهار ، كان من علامة ذلك ان يقوم كبراؤهم المنعمون وزعماؤهم المتبعون ، بطغيان عارم واستهتار بالمعاصي والفجور ، فعند ذلك تحق عليهم كلمة العذاب .

فقوله : « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » يعني : كان من علامة ذلك انه كلما أمرناهم بشيء خالفوا أمرنا واستعصوا عن الامتثال ، وأخذوا في معاكسة معالم الهدى والصلاح [1] .

فاذا مارأيتم قوماً سيطرت عليهم الميوعة والاستهتار بمقدسات الشريعة ، وتفشى بينهم الفساد والفحشاء ، فاعلموا أن البلايا قد وافتهم ، واقترب منهم الهلاك والدمار .

وهذا كما قيل: اذا أرادت السماء أن تمطر تغيّمت . أي اذا دنا وقت الامطار ، كان من علامة ذلك أن تتغيم السماء بالسحاب .

هذا مافهمناه من ظاهر تعبير الاية بعد تعمق ، وبلا تكلف في التخريج ، الامر الذي لايكاد يخفى على من دقّق النظر في جوانب الاية بامعان .

* * *

وهذا اختيار أكثر المفسرين السلف والخلف حيث أخذوا من الأمر متعلقاً بالطاعة دون الفسق ، نظير قولهم : أمرته فخالف . ودعوته فأبى . قال أبو جعفر الطبري ــ بعد أن ذكر عدة روايات في تأويل الاية ، وصوب قراءة « أمرنا » بالقصر والتخفيف ، لاجماع الحجة من القراءات على تصويبها ــ :

فأولى التأويلات به هو تأويل من تأوله « أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا

١ــ نظراً لان الفسق هو الخروج عن الاطار المضروب حداً للشيء .

فيها فحق عليهم القول» . لأن الأغلب من معنى «أمرنا» الامر الذى هو خلاف النهى دون غيره . وتوجيه معانى كلامه ـ جل ثناؤه ـ الى الأشهر الأعرف من معانيه أولى ، ما وجد اليه سبيل ، من غيره . ومعنى قوله « ففسقوا فيها » : « فخالفوا أمر الله فيها وخرجوا عن طاعته» . «فحق عليها القول» يقول: «فوجب عليها بمعصيتهم الله وفسوقهم فيها، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الاعذار والانذار بالرسل والحجج» . «فدمرناها تدميراً» يقول : «فخربناها عند ذلك تخريباً وأهلكنا من كان فيها من أهلها اهلاكاً» ... [1] .

ولم يرتض الزمخشرى هذا الوجه باطلاق ،وقال فى ذلك كلاماً دقيقاً ننقله بنصه :ـ

قال : فان قلت : هلّا زعمت أن معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت :لا، لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما الدّليل قائم على نقيضه !وذلك أن المأمور به انما حذف لأنّ «فسقوا» يدل عليه ، وهو كلام مستفيض ، يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ ، ولا يفهم منه إلا أنّ المأمور به قيام أو قراءة . ولو ذهبت تقدّره غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب .

ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فعصانى أو فلم يمتثل أمرى ، لأنّ ذلك مناف للامر مناقض له ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالا ان يقصد أصلا ، حتى يجعل دالّاً على المأمور به، فكان المأمور به فى هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوى ، لأنّ من يتكلّم بهذا الكلام فانه لا ينوى لأمره مأموراً به، وكأنه يقول : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة [2] .

١ـ جامع البيان للطبرى ج١٥ ص٤٣ .

٢ـ هذا هو بالذات مقصود من يقدر فى الكلام «الطاعة» اى امرته بشىء يستدعى طاعة، لكنه خالف وعصى . ولا يقصد «أمرته بنفس الطاعة» . اذ الامر بالطاعة يكون بلفظ «أطع»ـــ

كما أنّ من يقول : فلان يعطي ويمنع ، ويأمر وينهى ! غير قاصد الى مفعول.

فان قلت : هلّا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وانما يأمر بالقصد والخير دليلاً على أنّ المراد : أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لايصح ذلك ، لأن قوله : «ففسقوا» يدافعه ،فكأنك أظهرت شيئاًوأنت تدّعي اضمار خلافه، فكان صرف الامر الى المجاز هو الوجه .

وأمّا الوجه الذي اختاره هوفهو ماأشار اليه أخيراًمن صرف الأمر الى المجاز، قال ـ في قوله تعالى «واذا أردنا ..» ـ: واذا دنا وقت اهلاك قوم ولم يبق من زمان امهالهم الا قليل ، أمرناهم «ففسقوا» أي أمرناهم بالفسق ففعلوا ، والامر مجاز ، لأنّ حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم :افسقوا ، وهذا لايكون ، فبقي أن يكون مجازاً . ووجه المجاز أنه صبّ عليهم النعمة صباً ،فجعلوها ذريعة الى المعاصي واتّباع الشّهوات فكأنهم مأمورون بذلك ، لتسبب ايلاء النعمة فيه وانما خوّلهم اياها ليشكروا أو يعملوا فيها الخير ، ويتمكنّوا من الاحسان والبر ، كما خلقهم أصحّاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق.فلما فسقوا حقّ عليهم القول ، وهو كلمة العذاب فدمّرهم [1] .

* * *

وأحسن من تكلّم في الآية على وجه يوافق مذهب الاعتزال :القفال ، فانه ذكر في تأويلها وجهين :

الأوّل :أنه تعالى أخبر أنّه لايعذّب أحداً بما يعلمه منه مالم يعمل ، أي لا يجعل علمه حجّة على من علم أنّه ان أمره عصاه ، بل يأمره، فاذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه . فقوله : «واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها » معناه : واذا أردنا امضاء

← مسبوقاً بأمر آخر تعلق بشيء آخر . فالمأمور به في الاية لامقدر ولامنوى ،وانما المقصود مجرد توجه أمر اليهم بما يستدعي وجوب امتثالهم والقيام بما القي اليهم من وظائف وتكاليف ، لكنهم لم يمتثلوها وقاموا في مخالفتها ومعاكستها .كما في «دعوته فأبى» و«أمرته فعصى» .

١ـ راجع :الكشاف ج٢ ص٦٥٤

ماسبق من القضاء باهلاك قوم، أمرنا المتنعمين المتعززين ـ الظانّين أنّ أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا ـ بالايمان بى والعمل بشرائع دينى ، على مابلغهم عنى رسولى ، ففسقوا . فحينئذ يحقّ عليهم القضاء السابق باهلاكهم ، لظهور معاصيهم.

والحاصل : أنّ المعنى : واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لايقدمون إلّا على المعصية ، لم نكتف فى تحقيق ذلك الاهلاك بمجرّد ذلك العلم . بل أمرنا مترفيها ففسقوا ، فاذا ظهر منهم ذلك الفسق ، فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به .

الثّانى : أن نقول : واذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصى من أهلها، لم نعاجلهم بالعذاب فى أول ظهور المعاصى منهم، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصى . وإنّما خصّ المترفين بذلك الأمر ، لأنّ المترف هو المتنعم . ومن كثرت نعم الله عليه، كان قيامه بالشكر أوجب، فاذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد اخرى، مع انه تعالى لاينقطع عنهم تلك النعم ، بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وابتعادهم عن الرجوع من الباطل الى الحق، فحينئذ يصبّ الله البلاء عليهم صباً .

ثم قال القفال : وهذان التأويلان راجعان الى : أنّ الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة امة ظالمة حتى يعذر اليهم غاية الاعذار ، الذى يقع منه اليأس من ايمانهم ، كما قال فى قوم نوح : « ولا يلدوا الّا فاجراً كفاراً ـ نوح : ٢٧ » . وقال : « انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ـ هود : ٣٦ » . وقال فى غيرهم : «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ـ الاعراف : ١٠١» .

فأخبر تعالى أوّلاً أنه لا يظهر العذاب الّا بعد بعثة الرسول [1] . ثم أخبر ثانياً فى هذه الآية أنه اذا بعث الرسول أيضاً فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب ، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فان بقوا مصرين على الذنوب ، فهناك ينزل عليهم عذاب

---

١ ـ فى قوله تعالى : « وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا » قبل الاية المبحوث عنها.

الاستئصال .

قال الامام الرازى : وهذا التأويل الذى ذكره القفال فى تطبيق الآية على قول المعتزلة ، لم يتيسّر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله [1] .

وقال الجبائى : ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد اهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقّوا ، وذلك لانه ظلم وهو على الله محال . بل المراد من « الارادة » قرب تلك الحالة ، فكأنّ التقدير : واذا قرب وقت اهلاك قرية ، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، وهو كقول القائل : اذا اراد المريض ان يموت ازداد مرضه شدة ، واذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة ، وليس المراد : أن المريض يريد أن يموت ، والتاجر يريد أن يفتقر ، وانما يعنون أنه سيصير كذلك ، فكذا هاهنا .

وهذا الوجه الذى ذكره الجبائى هو الذى اخترناه ، ومن ثم فان مراجعة اختيارنا تذهب بمواقع الابهام من هذا الكلام .

* * *

ولعل ما ذكره الشريف المرتضى بهذا الصدد أجمع وأوفى من الجميع ، فقد ذكر فى تأويل الاية وجوهاً أربعة . كل منها يبطل الشبه الداخلة على المبطلين فيها ، ممن عدلوا بتأويلها عن وجهه ، وصرفوه عن بابه ـ على حد تعبيره ـ واليك : ـ

أولها : أنّ الهلاك قد يكون حسناً وقد يكون قبيحاً، فاذا كان مستحقاً أو على سبيل الامتحان كان حسناً . وانما يكون قبيحاً اذا كان ظلماً ، فتعلّق الارادة به لا يقتضى تعلقها به على الوجه القبيح ، ولا ظاهر للاية يقتضى ذلك . و اذا علمنا بالأدلة تنزه القديم تعالى عن القبائح ، علمنا ان الارادة لم تتعلق الا بالاهلاك الحسن . و قوله تعالى : « أمرنا مترفيها » المأمور بـه محذوف ، وليس يجب أن يكون

---

١ ـ التفسير الكبير ج ٢٠ ص١٧٦

المأمور به هو الفسق ، وان وقع بعده الفسق ، ويجرى هذا مجرى قول القائل : أمرته فعصى ، ودعوته فأبى . والمراد : أننى أمرته بالطاعة ، ودعوته الى الاجابة والقبول .

قال : ويمكن أن يقال على هذا الوجه : ليس موضع الشبهة ما تكلّمتم عليه، وانما موضعها أن يقال : أىّ معنى لتقدّم الارادة ؟ فان كانت متعلقة باهلاك مستحق بغير الفسق المذكور فى الاية ، فلا معنى لقوله تعالى : اذا أردنا أمرنا ، لأن أمره بما يأمر به لا يحسّن ارادته للعقاب المستحق بما تقدم من الافعال . وان كانت الارادة متعلقة بالاهلاك المستحق بمخالفة الأمر المذكور فى الاية ، فهذا الذى تأبونه ،لانه يقتضى أنه تعالى مريد لاهلاك من لم يستحقّ العقاب !

والجواب عن ذلك : أنه تعالى لم يعلق الارادة الا بالاهلاك المستحق بما تقدم من الذنوب، والذى حسن قوله تعالى : واذا أردنا أمرنا ... هو ان فى تكرار الأمر بالطاعة والايمان اعذاراً الى العصاة ، وانذاراً لهم ، وايجاباً واثباتاً للحجة عليهم حتى يكونوا متى خالفوا واقاموا على العصيان والطغيان بعد تكرار الوعيد والوعظ والانذار ،ممن يحقّ عليه القول ، وتجب عليه الحجة .

ويشهد بصحة هذا التأويل قوله تعالى – قبل هذه الاية – : « وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولا » .

والوجه الثانى : أن يكون قوله تعالى : « أمرنا مترفيها » من صفة القرية وصلتها ، ولايكون جواباً لقوله تعالى : « واذا اردنا» ويكون تقدير الكلام : واذا أردنا ان نهلك قرية من صفتها أنا أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . وتكون « اذا » على هذا الجواب لم يأت لها جواب ظاهر فى الاية ، للاستغناء عنه بما فى الكلام من الدلالة عليه . ونظير هذا قوله تعالى فى صفة الجنة : « حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله

الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ـ الزمر : ٧٣ ـ ٧٤ » . ولم يأت لاذا جواب فى طول الكلام ، للاستغناء عنه [1] .

ويشهدبصحة هذا الجواب قول الهذلى :

حتى اذا اسلكوهـم فى قتائدة　　　شلا كماتطرد الجمالة الشردا [2]

فحذف جواب « اذا » ولم يأت به ، لأنّ هذا البيت آخر القصيدة [3] .

والوجه الثالث : أن يكون ذكر الارادة فى الاية مجازاً أو اتساعاً [4] أو تنبيهاً على المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم ، وأنهم متى امروا فسقوا وخالفوا . وذكر الارادة يجرى هاهنا مجرى قولهم : اذا اراد التاجر ان يفتقر أتتـه النوائب من كل جهة ، وجاءه الخسران من كل طريق ، وقولهم : اذا أراد العليل أن يموت خلط فى

١ـ فى حاشية الامالى : « كان التقدير : اذا جاؤها حضروها وفتحت . اوهموا بدخولها . وما اشبه ذلك ، والله العالم » .

٢ـ هو لعبد مناف بن ربع الهذلى فى آخر قصيدة أولها :

ماذا يغير ابنتى ربع عويلهمـا　　　لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقـدا

قتائدة : موضع . والجمالة : اصحاب الجمال، كالبغالة والحمارة . وانتصاب «شلا» على المصـدر . ودل على فعل مضمر يحصل بظهوره جواب « حتى اذا سلكوهم» المنتظر . وتلخيصه : حتى اذا سلكوا بهم الى هذا الموضع شلوهم شلا مثل مطاردة الجمال اذا تزاحمت على الماء . انظر : ادب الكاتب ص ٤٢٤ .

٣ـ فى حاشية الامالى : « جواب الشرط جزء لايتم المشروط دونـه ، فاذا حذف كان أهول للكلام، كقوله تعالى : « ولو ان قرآناً سيرت به الجبال ـ الرعد :٣١» ، وكقول القائل : «لو رأيت علياً بصفين » . وكقولهم : «لو ذات سوار لطمتنى » .

٤ـ هذا بعينه اختيار الزمخشرى (ت ٥٢٨) الآنف، ولعله اخذه من الشريف المرتضى «ت ٤٣٦» عليه الرحمة .

مآكله ، وتسرّع الى كل ماتتوق اليه نفسه .ومعلوم أنّ التاجر لم يرد فى الحقيقة شيئا ، ولا العليل ايضاً . لكن لما كان المعلوم من حال هـذا الخسران ، ومن حال هذا الهلاك ، حسن هذا الكلام ، واستعمل ذكر الارادة لهذا الوجه [1] .

وكلام العرب وحى واشارات واستعارات ومجازات [2] ، ولهذه الحال كان كلامهم فى المرتبة العليا من الفصاحة ، فان الكلام متى خلا من الاستعارة ، وجرى كله على الحقيقة كان بعيداً من الفصاحة ، بريأ من البلاغة ، وكلام الله تعالى أفصح الكلام .

والوجه الرابع : أن تحمل الآية على التقديم والتأخير ، فيكون تلخيصها : اذا أمرنا مترفى قرية بالطاعة فعصوا واستحقوا العقاب أردنا اهلاكهم ، والتقديم والتأخير فى الشعر وكلام العرب كثير .

ومما يمكن ان يكون شاهداً لصحة هذا التأويل من القرآن ، قوله تعالى : «ياايها الذين آمنوا اذاقمتم الى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ـ المائدة : ٦» والطّهارة انما تجب قبل القيام الى الصلاة . وقوله تعالى : «واذا كنت فيهم فاقمت

١ـ فى حاشية الامالى: «تصوير المجاز فى الاية على أن التقدير: اذاقرب هلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا. وكذلك قولهم : اذااراد المريض ... التقدير: اذاقرب موت المريض خلط. وكذلك التاجر اذا قرب افتقاره أتته النوائب . وهذا كقوله تعالى : « فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض» اى يقرب ان ينقض .وانما كنى بالارادة عن القرب فى هذه المواضع ، لان المريد للشىء ، المخلى بينه وبينه ، ولامانع هناك ، ماأقرب مايقع مراده . والله اعلم» .

٢ـ فى حاشية الامالى: «الارادة قدتستعمل فى الجماد ،فضلا عن العقلاء . كقوله تعالى: «جداراً يريد ان ينقض ، وكقول الراعى النميرى .

فى مهمه قلقت به هاماتها   قلق الفؤوس اذا أردن نصولا»

المهمه : المفازة البعيدة المقفرة . والقلق : الاضطراب . وفأس اللجام : الحديدة القائمة فى الحنك . والنصول : الخروج .

لهم الصلوة فلتقم طائفة منهم معك ـ النساء : ١٠٢» . وقيام الطائفة معه يجب أن يكون قبل اقامة الصلاة، لأنّ اقامتها هى الاتيان بجميعها على الكمال[1].

قال : وأمّا قراءة من قرأ الآية بالتشديد ، فقال : «أمّرنا»[2] ، وقراءة من قرأها بالمدّ والتخفيف ، فقال : «آمرنا»[3] ، فلن يخرج معنى قراءتيهما عن الوجوه التى ذكرناها[4] . الا الوجه الاول ،فان معناه لايليق الا بأن يكون ماتضمنته الاية هو الأمر

١ـ وزاد شيخ الطائفة ابوجعفر الطوسى : « ومثله قوله : ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ـ القصص :٧٦» . والتقدير : ما ان مفاتحه لتنوء بها العصبة اى يثقلون بها . ومثله قول الشاعر :

ذعرت القطا ونفيت عنـه مقام الذئب كالرجل اللعين

اراد : مقام الذئب اللعين . وقد فصلوا بين المضاف والمضاف اليه ، قال الشاعر : بين ذراعى وجبهة الاسد . اراد بين ذراعى الاسد وجبهته» . (تفسير التبيان ج٦ ص٤٦٠) .

٢ـ بتشديد الميم من باب التفعيل ،هى قراءة ابى عثمان النهدى . وقراءة الليث عن ابى عمرو . وابان عن عاصم (القراءات الشاذة، لابن خالويه ص٧٥) .

٣ـ هى قراءة خارجة عن نافع (المصدر)

٤ـ قال الشيخ فى التبيان: «امرنا» ـ بتشديد الميم ـ من التأمير بمعنى التسليط ،وقد يكون بمعنى اكثرنا. ويجوز ان يكون المعنى اكثرنا عددهم اومالهم. و« آمرنا » ـ ممدوداً ـ بمعنى اكثرنا مترفيها . وانما قيل فى الكثرة : آمر القوم، لانهم يحتاجون الى أمير يأمرهم وينهاهم فقد آمروا لذلك ، قال لبيد :

ان يغبطوا يهبطوا وان آمروا يوماً يصيروا للهلاك والكند

(التبيان ج٦ص٤٦١) يعنى : ان افتقروا بحيث تمنوا مثل حال غيرهم قل عددهم . واما اذا كثروا وازدادوا نعما ، فانهم يصيرون الى الابادة وكفران النعم .

الذى يستدعى به الفعل[1] .

وقد نقل الشيخ أبو جعفر الطوسى ـ رحمه الله ـ (ت ٣٦٠) هذه الوجوه الاربعة فى تفسيره «التبيان» باختلاف يسير جداً، الامر الذى يدل على استجواده لها بشأن الاية الكريمة . وهكذا الشيخ أبو على الطبرسى فى «مجمع البيان» على عادته فى اقتفاء اثر الشيخ فى التفسير . وهكذا تجد مقتضبها فى «متشابهات القرآن ومختلفه» لابن شهر آشوب ج١ ص١٨٤ .

* * *

١٤٥ ـ «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ـ الاسراء : ١٨» لايدلّ على أنّه تعالى يريد ـ بارادته التشريعية ـ الفساد والقبائح . وانما تعنى الاية أنّ «من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون اولئك ليس لهم نصيب فى الاخرة ـ هود : ١٥» . فمن كانت همته الدنيا فحظه ما تمتع منها مشوباً بالأكدار ، ولاحظّ له فى سعادة الحياة الخالصة الباقية .

١٤٦ ـ «وقضى ربّك أن لاتعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ـ الاسراء : ٢٣» . القضاء ـ هنا ـ بمعنى الحكم التشريعى ، بدليل التخلف .

١٤٧ ـ «واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ـ الاسراء : ٤٥» . قالوا : انها تدل على أنه تعالى هو منع الكفار من الايمان .

قلنا : الآية الكريمة خصت اولئك الذين مردوا على الكفر والعصيان فلا يؤمنون أبداً، بهذا الحجاب، وهو حجاب القسوة والجفاء والتعامى عن معاينة الحق

---

١ ـ أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف على بن الحسين الموسوى العلوى (علم الهدى) ج١ ص١ـ٥ المجلس الاول.

«فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية ـ المائدة : ١٣» .

وانّماهم أوجدوا هذا الحجاب وعملوا فى تغليظه والمزيد من تكاثفه على أثر مبالغتهم فى ارتكاب الخطايا والآثام، فأبعدتهم عن رحمة الله الواسعة. فقوله: «جعلنا...» اى كان بينك وبينهم حجاب . كما فى قوله ـ بعد هذه الاية ـ: «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً» وقوله ـ فى سورة فصلت : ٥ ـ : «وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر» وانما ينسبه تعالى الى نفسه، لانه هو الذى منح القوى وجعل لهم الاختيار فى الرفض والايمان ، وأقدرهم على العمل، ان خيراً وان شراً ، حسبما تقدم .

١٤٨ ـ «فضلّوا فلايستطيعون سبيلاً ـ الاسراء : ٤٨» . قالوا : هذا صريح فى نفى استطاعة العبيد.

قلنا : عدم الاهتداء الى السبيل ـ فى الاية ـ مترتب على الضلال . فانهم بفعل خطيئاتهم وعصيان تعاليم الرسول صلى الله عليه وآله ضلّوا السبيل أولاً ، فلم يستطيعوا بعد ذلك من الاهتداء الى الطّريق .

١٤٩ ـ «ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ـ الاسراء: ٧٤».

تمسّكت الأشاعرة بهذه الاية تدليلاً على ان ثبات المطيع على الطاعة انما هو بفعل الله ، ولولاه لم يكد يثبت كما كان لم يؤمن.

قلنا: ثلاث آيات (٧٣ و ٧٤ و ٧٥) نزلن بشأن مشركى قريش ، عرضوا على النبى صلى الله عليه وآله مسالمته مع آلهتهم فلايذكرهم بسوء ، فيتوافقوا معه ولاينابذوه فى دعوته. فنزلت الايات ردعاً لاذعاً لمثل هذا الاقتراح المنافق ، وتيئيساً قاطعاً لأمل المشركين ، فلايطمعوا فى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو داعية التوحيد الخالص ، ونبذ الشرك وعبادة الأصنام قطعاً فى جذورها . فلايجامل فيما يناقض دعوته الى الله وحده لا

شريك له[1].

ذكر الشيخ ابوعلى الطبرسى وجوهاً فى سبب نزول الايات ، منها : ان قريشاً أتوا النبى صلى الله عليه وآله فقالوا له : كف عن شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا[2] واطرد هؤلاءالعبيد والسقاط[3] الذين رائحتهم رائحة الصنان[4] حتى نجالسك ونسمع منك. فطمع النبى صلى الله عليه وآله فى اسلامهم ان وافقهم على بعض ما يقولون . فنزلت الآيات ردعاً له صلى الله عليه وآله فلا ينبغى لنبى ان يجامل فى دينه أويداهن أحداً فى مقترحه المخالف لاصول التعليم الدينى الحنيف[5].

وهذا التشديد فى لحن الآيات يستهدف قطع أمل المشركين فى اى مساومة مع النبى صلى الله عليه وآله قطعاًصارماً . كما هوتهديد صريح بمن يهم مجاملة مع اعداءالدين أياً كان وأياًكانوا ، من باب « اياك أعنى واسمعى ياجارة » كماورد فى حديث الامام على بن موسى الرضا عليه السلام مع المأمون ـ الخليفة العباسى ـ بشأن عصمة الانبياء عليهم السلام فذكر الآية ، وقال : هذا ممانزل باياك أعنى واسمعى ياجارة، خاطب الله تعالى بذلك نبيه والمراد به امته[6] .

١ـ راجع الجزء الاول من كتابنا ص١٥٩

٢ـ الاحلام: جمع الحلم ـ بكسر الحاء ـ وهو العقل.

٣ـ السقاط: جمع الساقط ـ كطلاب و طالب ـ بمعنى المبتذل الفاقد للشخصية الاجتماعية .

٤ـ الصنان ـ كغراب ـ ذفر الابط ، والنتن عموماً .

٥ـ مجمع البيان ج ٦ ص ٤٣١ . وانما اخترنا هذا الوجه ـ وهو ثاني وجوه خمسة ذكرها الطبرسى ـ لقوته وموافقته مع ظاهر القرآن. والتئامه مع موقف النبى ـ ص ـ المعصوم من الخطأ والزلل لا فى عقيدته ولا فى سلوكه اطلاقاً .

٦ـ راجع تفسير الصافى ج١ ص ٩٨٣ نقلا عن العيون . وهكذا عن الكافى الشريف وغيره .

١٥٠ـ « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخساراً ـ الاسراء : ٨٢ » . هذه الاية كآية البقرة « هدى للمتقين » اختصاص من جانب القابل لا الفاعل . ان فى القرآن شفاء ورحمة لاولئك الذين خالطت قلوبهم بشاشة الايمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روح وطمأنينة وامان. اما المنهمكون فى كبرياء الشقاق واللجاج ، فلايزيدون الا عتواً ونفوراً ، وعناداً مع الحق وشقاء مع الأبد .

قال تعالى : « واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناًوهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون ـ براءة : ١٢٤-١٢٥» .

١٥١ـ « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم ـ الكهف: ١٣-١٤ » . انه توفيق ومزيد من ألطاف وعنايات خاصة بالمؤمنين حقاً.

١٥٢ـ «من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ـ الكهف: ١٧ » .

هذا توفيق وعناية ربانية للذين استعدوا بأنفسهم لتلقّى فيض رحمته الواسعة. كما هو خذلان وحرمان لمن أعرض عن ذكر ربه ونسى الآخرة .

١٥٣ـ « ولاتقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله ـ الكهف : ٢٣ ـ ٢٤ » . اى الا أن يأذن الله تعالى حسب ما تقدم تحقيقه ، اذ لولا اذنه تعالى لم يقع شيء ، وليس هذا دليلا على أنه تعالى هو الفاعل لأفعال العباد ، نعم هـو تعالى خالق لأفعالهم بمعنى أن سنته جرت فى ايجاد ما يريد العباد ايجاده ، بارادة حادثة اثر ارادة العباد . ومن ثمّ صحت نسبة الافعال إلى الله كما صحّت نسبتها الى العباد

أنفسهم نسبة حقيقية لا استعارة ولا مجاز [1].

١٥٤ ـ « ولا تطع من أغفلنا قلبه ـ الكهف : ٢٨ » . قالوا : هذا يدلّ على أنه تعالى هو يخلق فى قلب العبد الجهل والغفلة و يمنعه من الايمان !

قلنا : لو كان كذلك لما صحّ توجيه الملامة اليه والاستنكار . والآية الكريمة توبيخ لاذع وطعن وتقبيح .

والمراد : من تغافل عن قبول الهدى فخذله الله ، « فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم » . ومن ثمّ كان تعقيب الآية : « واتبع هويه و كان أمره فرطاً » أى سرفاً وتضييعاً .

١٥٥ ـ « و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤ من و من شاء فليكفر ـ الكهف : ٢٩ » . قالوا : هذا يدلّ على أنّ الكفر والايمان كليهما من قبله تعالى.

قلنا : بل على العكس أدلّ . لأنّ صريح الآية : أن الله يهدى الى الحق ، فمن شاء قبل ومن شاء رفض ، حيث لا اكراه فى الدين ولا الجاء فى التكليف. فدلالة الاية على اختيارية الايمان والكفر أوضح .

١٥٦ـ «انا جعلنا على قلوبهم أكنة ـ الكهف : ٥٧» تقدّم الكلام عنها فى نظائرها فى عدة مواضع سابقة. منها الأخير برقم :١٤٧ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

١٥٧ ـ «الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى و كانوا لا يستطيعون سمعاً ـ الكهف : ١٠١» تقدّم الكلام فى نظيرتها برقم: ١٤٨ ص ٢٨١.

١٥٨ ـ « و اجعله رب رضيّاً ـ مريم : ٦ » . طلب المزيد من عنايته

١ـ راجع مسألة التوحيد فى الافعال ص ١٧٢ . ومسالة الامر بين الامرين ص ١٧٣ فما بعد .ومسألة ارادة الله الحادثة ص ١٨٢ . وغيرها من مسائل مرتبطة

تعالى والتوفيق .

١٥٩ ـ « وحناناً من لدنّا وزكاة وكان تقياً ـ مريم : ١٣ » . اخبار عن لطف خاص يجعله تعالى في محلّ قابل حسب علمه الأزلي .

١٦٠ ـ وهكذا قوله تعالى بشأن عيسى عليه السلام خطاباً لمريم ـ عليها السلام ـ : « لأهب لك غلاماً زكياً ـ مريم : ١٩ » .

١٦١ ـ ونظيرهما قوله تعالى : « وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ـ مريم : ٣١ ـ ٣٢ » .

١٦٢ ـ « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً ـ مريم : ٨٣ » .

لا شكّ أن ليس المراد : ارسال الشياطين للاضلال كارسال الانبياء للهداية . اذ لو كان كذلك لكانت الشياطين رسل الله كالأنبياء ، تعالى الله عن ذلك ، وحاشاه من رب رؤوف رحيم ! ! .

وذلك بدليل أنّه متى اريد من الارسال هو معناه المعهود (البعث للتبشير والانذار) تعدى بـ « الى » : « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه ـ هود : ٢٥ » . أو بـ « في » : « كما أرسلنا فيكم رسولاً ـ البقرة : ١٥١ » . أو باللام : « وأرسلناك للناس رسولاً ـ النساء : ٧٩ » . ولم يأت متعدياً به « على » . أما قوله : « فما أرسلناك عليهم حفيظاً ـ النساء : ٨٠ » أو قوله : « وما أرسلناك عليهم وكيلاً ـ الاسراء : ٥٤ » ، فـ « على » متعلقة بالوصف المتأخّر .

أما اذا تعدّى الارسال بـ « على » فانه يخرج عن معناه الحقيقي ، ويكون بمعنى مطلق التحريك واثارة الأسباب المؤاتية للشيء ، ان طبيعية كانت أم اصطناعية .

ولو مجازاً وبالعناية . وأكثر استعماله فى القرآن حينئذ يكون فى مواضع ارادة الشر والنقمة المردية [1] .

قال تعالى : « وفى عاد اذأرسلنا عليهم الريح العقيم ـ الذاريات : ٤١ » . «فارسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات ـ فصلت :١٦» . «فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء ـ الأعراف : ١٦٢» .«فأرسلنا عليهم سيل العرم ـ سبأ : ١٦» . «وأرسل عليهم طيراً أبابيل ـ الفيل : ٢» ، الى غيرها من آيات .

وهكذا «أرسلنا الشياطين على الكافرين ـ مريم : ٨٣» عقوبة عاجلةوافتهم فىهذه الحياة ،اصطلاحنا عنها بالخذلان ، وحرمانهم عن ألطافه تعالى الخاصة بأهل الايمان .

ومعنى الآية ـ على ذلك ـ أنا خلّينا بين الشياطين وبين الكافرين يضلونهم ويمنونهم ويهدونهم الى سواء الجحيم [2] . جزاء متناسباً مع لجاجهم واصرارهم على منابذة الحق ، والسعى فىاطفاء نورالله عن وجه الارض .

١٦٣ ـ «ويزيدالله الذين اهتدوا هدى ـ مريم : ٧٦» هوتوفيق ومزيد عناية وألطاف .

١٦٤ـ «قال رب اشرح لى صدرى ويسرّلى أمرى ـ طه : ٢٥ ـ٢٦» .سؤال وابتهال الى الله أن يمنحه عنايته ولطفه الخاصّ الذى اختص بـه عباده المتقون

١ـ اما قوله : «وارسلنا السماء عليهم مدراراً ـ الانعام : ٦» ف«على»متعلقة ب«مدراراً» .

٢ـ قال القاضى : والمراد عندنا: انه تعالى خلى بينهم وبين الكافرين . مع قدرته على المنع والحيلولة من كل وجه. فقيل توسعاً: انه ارسلهم . كمايقال ـفيمن يمكنه ان يمنع كلبه من الاقدام على الاضرار بالغير اذا تركه وذاك ـ : انه ارسل كلبه على الناس . وكما يقال ـفى الملك اذاامكنه ضبط جنده وكفهم عن الناس فلم يفعل ـ: انه ارسلهم على الناس :(المتشابهات ج٢ ص٤٨٦ ـ٤٨٧) .

المجاهدون في سبيله ، فما هو الاطلب توفيق منه تعالى ، لا إلجاء ولا إكراه على غير مقدور .

١٦٥ ـ « قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ـ طه: ٥٠» . القراءة الصحيحة المعروفة هي بسكون اللام في « خلقه» ليكون بمعنى «خلقته »أى صورته وشكله ووجوده ، مفعولاً ثانياً لأعطى . فمعنى الآية : ربنا الذى أفاض على الاشياء وجوداتها أولاً ، ثم هداها الى طرق معايشها . وهى هداية تكوينية جعلت في جبلة الأشياء ـ حسبما تقدم .

والمقصود من الاشياء ـ هنا ـ هي الموجودات العينية بقرينة « ثمَّ هدى » . الأمر الذى يتنافى وشمول « كل شيء » للأفعال الاختيارية ، كما زعمه الأشعرى ضارباً على وتره .

١٦٦ ـ «لايسأل عمّا يفعل وهم يسألون ـ الانبياء : ٢٣» .طال ماتشبّث الأشعرى بهذه الآية لنفى لزوم الحكمة فيما يفعله تعالى ، زاعماً دلالتها على عدم مسؤوليته تعالى تجاه أفعاله ،ان حسناً وان قبيحاً اذلاحسن ولاقبح ذاتيين، وانما هما بالوجوه والاعتبارات .

قالوا : القبيح منه تعالى حسن ، وإنّما يقبح اذاكان من غيره .

والجواب : انه قدثبت بالبرهان القاطع وبالضرورة من الدين ، أنّه تعالى حكيم لايفعل عبثاً ولايخلق مالافائدة وراءه ولاغرض في الايجاد : «وماخلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين ، لوأردنا أن نتخذ لهواً لاتّخذناه من لدنا ان كنا فاعلين، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هوزاهق ،ولكم الويل مماتصفون ـ الانبياء ١٦ ـ ١٨» .

اذن فانّما لايسأل تعالى عمّا يفعل ، للقطع بأنّ جميع مايفعله صواب وكان

وفق الحكمة والمصلحة الداعية الى الايجاد ، فكلّ مايفعله تعالى حسن بلاريب . وإنّما يسأل عن السبب الداعى ، اذا كان الفاعـل ممّن يصدر عنه قبيح الى جنب اعماله الحسنة . الامر الذى لايحتمله أفعال الحكيم على الاطلاق .

وهذه الآية الكريمة كناية عن كمال عزّته تعالى «يفعل مايشاء ويحكم مايريد[1]». لكنها عزة مشفوعة بالحكمة والعدل، ومن ثمّ فهو تعالى عزيز حكيم. عزيز لايغلب على أمره ولايعجز عن تنفيذ ارادته . حكيم لايفعل الا الصواب ولايحكم الا بالحق ولايهدى الا الى سواء الطريق .

قال أهل العدل : لمّا كان تعالى عالماً بقبح القبائح ، وكان غنياً عن فعل القبيح اطلاقاً ، استحال أن يقع منه قبيح . فقد عرفنا ـ إجمالا ـ بأنّ كل مـا يفعله تعالى حكمة وصواب . وبعد هذا العلم لاموضع للسؤال الكاشف عن جهل فى نفس السائل . اللهم الا عن تفاصيل يريد أن يعرفها فى ذات المسؤول عنه .

وقال المفسّرون : السؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله : « لم فعلت كذا ؟ » . وهو سؤال عن جهة المصلحة فى الفعل اذا كانت مجهولة للسائل . أمّا الفعل المعلوم مقارنته مع المصلحة ، فلامؤاخذة عليه عند العقلاء . والله تعالى لمّا كان حكيماً على الاطلاق ـ كما وصف به نفسه فى مواضع من كلامه ـ والحكيم هو الذى لايفعل فعلاً الا لمصلحة مرجحة ، لم يكن موضع للسؤال عن فعله ، وهذا على خلاف غير الحكيم ، الّذى يحتمل بشأنه العبث والصواب والصلاح والفساد ، فجاز فى حقه ان يسأل عما يفعله ليؤاخذ على عمله ان ذماً أو عقاباً اذا لم يكن مقروناً بمصلحة.

وروى الصدوق فى كتاب «التوحيد» عن الامام محمد بن على الباقر عليه السلام « سئل : كيف لايسأل عمّا يفعل ؟ فقال : لأنّه لايفعل إلّا ما كان حكمة وصوابا[2] ».

١ـ الجملة الاولى مقتبسة من قوله تعالى : « كذلك الله يفعل من يشاء ـ آل عمران : ٤٠ » والثانية من قوله تعالى : « ان الله يحكم مايريد ـ المائدة : ١ » .

٢ـ تفسير الصافى للحكيم الفيض ج٢ ص٨٨

قال الزمخشري: اذا كانت عادة الملوك الجبابرة أن لايسأل عن أفعالهم تهيبياً لجانبهم وإجلالا لعزّتهم ، مع جواز الخطأ والزلل عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب أولى بأن لايسأل عن أفعاله ، مع ماعلم واستقرّ في العقول أنّ مايفعله تعالى كلّه مقرون بدواعي الحكمة ، لايجوز عليه خطأ ولافعل قبيح [1] .

ومن الغريب جداً ماكتبه الشيخ محمد عليان المرزوقي تعليقاً على كلام الزمخشري أخيراً «لايجوز عليه الخطأ ولافعل القبائح» . قال الشيخ عليان : «هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة ـ يعني الأشاعرة ـ فهو ـ تعالى ـ الفاعل للخير والشر ، كمابين في علم التوحيد» .

قلت : فض الله تلكم الأفواه الّتي تستطيع التفوه بهكذا كلام قبيح تشويهاً لساحة قدسه تعالى عمايقول الظالمون علواً كبيراً . « انكم ـ أيتها الأشاعرة الفئة الفاقدة لشعورها ـ لتقولون قولاً عظيما ـ الاسراء : ٤٠ » . « أم تقولون على الله مالاتعلمون ؟! ـ البقرة : ٨٠» . وأخيراً «ولكم الويل مماتصفون ـ الانبياء :١٨».

١٦٧ـ «ونبلوكم بالشر والخير فتنة ـ الانبياء : ٣٥» . قالوا : وهذا دليل على أنّ كلاً من الخير والشر من فعله تعالى .

قلنا : الخير والشر ـ هنا ـ هما : الرخاء والجدب ، والرفاه والضيق . يعتوران حياة الامم ابتلاء لهم ، واختباراً لمبلغ ثباتهم أمام البلايا والمحن ، أم كانوا يعبدون الله على حرف ، فان أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجههم ؟! (سورة الحج : ١١) .

ونظير الاية قوله تعالى : «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ـ الاعراف :١٦٨» . أي اختبرناهم بالرفاه والتوسعة تارة ، وبالضيق والتشديد أخرى. كقوله تعالى : «وأنه هو أضحك وأبكى ـ النجم : ٤٣» .

١ـ تفسير الكشاف ج٣ ص١١٠ ط بيروت

ومن ثم قال المفسرون : «ونبلوكم» : نختبركم « بالشر والخير » : بالبلايا والنعم «فتنة» : ابتلاء وامتحاناً «والينا ترجعون» فنجازيكم حسبما أبديتم من ثبات أوانهيار .

١٦٨ـ «وكلا جعلنا صالحين ـ الانبياء : ٧٢» . أى وجدناهم على استعداد من مناشىء الصلاح فزدناهم هدى وشملتهم عنايتنا بالتوفيق والتسديد الى الصواب والصلاح طول الحياة .

١٦٩ـ «ووهبناله يحيى وأصلحنا له زوجه ـ الانبياء : ٩٠» . لايدل على أن كلّ صلاح من أفعال العباد فانما هو فعله تعالى .وذلك لأن الاصلاح فى الاية لايرجع الى فعلها بالذات ، وانما هو اصلاح جسمها ، كانت لاتحيض فحاضت [١] ـ كما فى تفسير القمى ج٢ ص٧٥ ـ أو اصلاح شأنها عن الغى والفساد ، توفيقاً وتسديداً، لابالاكراه والالجاء .

١٧٠ـ « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ـ الانبيـاء : ٩٨ » . أى وما تعبدونه من أصنام وأوثان ابتدعتموها. وهذا لايشمل مـن عبدوه من الانبياء والملائكة ، نظراً لمكان « ما» الموصولة الخاصة بغير ذوى العقول .

على أنّه لو كانت للشمول فيخصصها قوله فيما بعد : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون ـ الانبياء : ١٠١» .

١٧١ـ «ان الله يفعل مايريد ـ الحج : ١٤» .

١٧٢ـ «وان الله يهدى من يريد ـ سورة الحج : ١٦» .

١٧٣ـ «ان الله يفعل مايشاء ـ الحج : ١٨» .

١ـ اى كانت عقيماً فأصبحت ولوداً .مجمع البيان ج٧ ص٦١

كلها نظائر ، وقدسبق برقم ١٦٦ : أنه تعالى لايريد الامايتوافق مع حكمته وعدله . ولا يهدى بتوفيقه وتسديده سوى من أناب اليه وسعى فى لقاء وجهه الكريم.

وقد تعلّقت الأشاعرة بأمثال هذه الايات تدليلا على أنه تعالى هو الفاعل لأفعال العباد اذلا يقع فعل الا اذا أراده الله !واجاب المعتزلة بانه تعالى ـ وفق هذه الايات ـ يفعل مايريد هو ، ولادلالة فيها على أنّه يفعل مايريد غيره !

قلنا : انه تعالى بالنسبة الى أفعال نفسه هو الفاعل لها بلا كلام . وأما بالنسبة الى افعال غيره ، فانه تعالى يأذن لها ويوجدها بارادته الحادثة اثر ارادة العباد ، وفق سنّته التى جرت فى الخلق ، فهى أيضاً من فعله تعالى لكن بهذا المعنى التبعى، الأمر الذى يصحح نسبتها الى فاعليها والى الله جميعاً ، حسبما تقدّم (ص ١٧٧) تحقيقه .

١٧٤ ـ « ولكل امّة جعلنا منسكاً ـ الحج : ٣٤ » . أى بيّنّا كيفية تعبدهم . ولادلالة لها على أنّه تعالى هو خالق العبادة . وهذا نظير قوله ـ فيمابعد ـ :« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ـ ٣٦» أى نحن فرضناها وبيناها لكم .

ومن ثمّ فانّ الاية بنفس التعبير جاءت فى موضع آخر مع زيادة هى ضاربة على ايدى المتطاولين لتحريف الكلم : «لكل امة جعلنامنسكاً هم ناسكوه ـ الحج:٦٧».

١٧٥ـ «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ـ الحج : ٤٠» . لايدلّ على أنّه بالمباشرة والالجاء . و انما هو بتمهيد مقدّماته من تشريع وترغيب وأخيراً توفيق وتسديد لمن يريد الله غلبه ، وخذلان المغلوب وحرمانه عن ألطافه الكريمة .

وهكذا انتصر المؤمنون على الكافرين بفضله تعالى ومنّه .

١٧٦ـ « ربّ فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ـ المؤمنون : ٩٤ » . ابتهال الى الله أن يمنّ عليه بألطافه الخاصّة ويسدّد خطاه إلى الصواب أبداً . وهذا طلب

توفيق لا الجاء فيه البتة .

١٧٧- «ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً -الفرقان :١٨». هذا خذلان واستدراج ، عقوبة عاجلة ومماثلة مع ذلك الاستكبار واللجاج مع الحق .

١٧٨-«وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً -الفرقان : ٣١» . هذه الاية تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اذ لم يكن بدعاً من الرسل ، فكما له أعداء ينابذونه ويسدّون في وجهه طرق الدعوة الى الله ، كذلك كان للانبياء السلف أعداء . وهذا إخبار عن واقعية مرة يجابهها كل قائم باصلاح .

أمّا نسبة ذلك الى الله - جل شأنه - فهي مجاز ، باعتبار أنّه تعالى ختم على قلوبهم وأخزاهم وخذلهم وربّما أملى لهم ليزدادوا إثماً ، فعتوا واستكبروا استكباراً جزاء متناسباً مع ذلك العناد المستمرّ مع الحقّ والطغيان العارم .

ولو كان ذلك على حقيقته لم يحسن توجيه اللائمة اليهم بالذات .

١٧٩- « كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا - الفرقان : ٣٢ » . أي كان نزول القرآن تدريجيا أثبت لموقفك واطمينان قلبك ، حيث تواصل ذلك الارتباط مع المبدأ الأعلى ، فلا تزال تتّصل بعالم الغيب بين آونة واخرى ، فيزيد من قوى عزمك ويؤكّد نشاطك في دعوتك الى الاصطلاح .انه شعور مستمرّ بالحجة البالغة كلما فتحوا له باباً من الجدل أو اعترضوا له اعتراضاً .

وهذا - أيضاً - من توفيقه تعالى وتأييده لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله . وليس فيه من الالجاء على الايمان شيء ، كما زعمه الأشعري وأذنابه .

١٨٠- « أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ! إن هم إلّا كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلاً - الفرقان : ٤٤».

استدلّ الأشعرى بهذه الآية ونظائرها على نفى استطاعة العباد على الكفر والايمان .

قلنا : اذن كانت الآية اعذاراً لهم ، فى حين أنّها استنكار وتوبيخ صريح . ولا استنكار على غير المقدور كما لا مؤاخذة ولا عقاب .

انهم قد أماتوا قلوبهم باعراضهم عن ذكر الله ، واصرارهم على الخطايا والآثام : « حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ـ الفرقان : ١٨ » . « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولّوا مدبرين ـ النمل : ٨٠» . وقد تقدّم الكلام فى نظائر الاية [1] .

١٨١ـ « واجعلنا للمتّقين إماماً ـ الفرقان : ٧٤ » . مسألة وابتهال الى الله أن يمنح بلطفه الخاصّ وتوفيقه فى تمهيد السبل نحو المطلوب الحقّ ،حسبما تقدم نظير الاية برقم : ١١ .

١٨٢ـ « فوهب لى ربّى حكماً ـ الشعراء : ٢١» .عناية خاصّة بعباده المؤمنين حقاً ، « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتيهم تقويهم ـ سورة محمد : ١٧ » . «وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ـ الجن: ١٦» .

١٨٣ـ « وأزلفنا ثم الآخرين ـ الشعراء : ٦٤ » أى تركنا فرعون وملأه يقتربون من الغرق والهلاك ، حيث صمودهم على منابذة الحق والرشاد . فقد اخزاهم الله وخذلهم فأسرعوا الى عقاب عاجل وألقوا بأيديهم الى التهلكة .

١٨٤ـ « الّذى خلقنى فهو يهدين ـ الشعراء : ٧٨ » هداية تشريعيّة عامّة.

١٨٥ـ « ربّ هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ـ الشعراء : ٨٣» . تقدّم

١ـ راجع صفحة : ٢١١ و٢١٣ و٢٢٢ و٢٢٣ و٢٣٠ وغيرها.

الكلام فى نظير تهابرقم : ١٨١ .

١٨٦- « كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لايؤمنون بـه حتى يروا العذاب الأليم - الشعراء : ٢٠٠-٢٠١» .

أى إنّ هذا القرآن قد أخذ طريقه الى قلوب المجرمين أيضـاً فسمعوه ووعوه ، وإن كانوا قدعارضوه ولم يؤمنوا به ، فقوله : « كذلك سلكناه » أى على انحراف قلوبهم واعوجاج مسالكها ومع علمنا بأنّهم لا يؤمنون به ، ولكن اتماماً للحجّة عليهم جعلنا من نفوذ القرآن ما يقهر كلّ الحواجز ولا يحـول دون اشراق أنواره أىّ مانع ، لطفاً بالناس « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل - النساء : ١٦٥» .

وعليه فالضّمير فى « سلكناه » يعود الى القرآن . والكناية فى « كذلك » تشير الى المعلوم من حال المجرم أنّه صمود على عناده ورفض الحق .

وربّما اعاد بعضهم الضمير الى نفس التكذيب ، والكناية ترجع الى هيئة عدم الايمان بالقرآن ، فعلى هذه الهيئة نظمناه فى قلوب المجرمين و أجريناه ، فهو لا يجرى فيها الا مكـذبا به ، ويظل على هيئته هذه حتى يروا العذاب الأليم .

وبهذا الوجه تمسّك الاشعرى لاسناد كفر الكافر الى الله سبحانه فلايستطيع الا هتداء الى الاسلام « ومن يضلل الله فماله من هاد - الزمر : ٢٣» .

وقد تقدّم الجواب عن أمثال هذه التشبثات المنحرفة ، حيث هذه التعابير فى الآيات الكريمة لا تعـدو مسألة « الخذلان » الذى استوجبوه على أنفسهم بسبب اصرارهم على رفض الحقّ والاطاحة بحظّهم الى المهوى السحيق [١] .

١٨٧- وهكذا قوله تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لايؤمنون به - الحجر : ١٢-١٣ » ، يحتمل التفسيرين . والاجابة على الوجه الثّانى هى الاجابة

١- راجع صفحة : ٢١٠-٢١١ و ٢٢٠-٢٢١ وغيرها.

في الآية المتقدمة .

١٨٨- «وما تنزّلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، انهم عن السمع لمعزولون - الشعراء : ٢١٠-٢١٢» .

أرجع الاشعرى ضمير الجمع الى المجرمين تدليلا على عدم استطاعتهم على قبول الحق.

لكنه تحريف فظيع بكلامه تعالى ، حيث يعود الضمير الى الشياطين ، وانهم لا يستطيعون التنزل بالقرآن ، وانما «نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين - الشعراء : ١٩٣-١٩٥» .

كانت العرب تزعم أن محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - كاهن ، وأن ما يتنزّل عليه هو من جنس ما يتنزّل به الشياطين على الكهنة ، فنزلت الايات (١٩٢ - ٢١٢) من سورة الشعراء ، تفنيداً لهذه المزعومة .

قال تعالى « وانه لتنزيل من ربّ العالمين . نزل به الروح الأمين » الى قوله: « وما تنزلت به الشياطين » - « ما » نافية - « وما ينبغى لهم » اى ليس من شأنهم ذلك « وما يستطيعون » أى هم أعجز عن القيام بهذه المهمة الملكوتية . « إنّهم » اى الشياطين « عن السمع » أى عن الاستماع الى الملأ الأعلى « لمعزولون» أى مرجومون بالشهب والقذائف « لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب - الصافات : ٨» .

ثم قال تعالى - تأكيداً لرد المزعومة - : « هل انبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كلّ أفاك أثيم - الشعراء: ٢٢١-٢٢٢» لا على مثل محمد الصادق الامين! إنّ الطيور على أشكالها تقع .

١٨٩ - « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم - النمل : ٤ » .

تقدَّم الكلام في نظير الاية [1] وأنّ المراد : ان أنفسهم هي التي زينّتها لهم ، وزينها لهم الشيطان . فقد أخزاهم الله وخذلهم مغبة صمودهم على نكران الحق ونسيان الاخرة . « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون ـ فاطر : ٨ » .

١٩٠ـ « وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لايهتدون ـ النمل : ٢٤ » ، لا يدل على الالجاء بحيث خرج الاهتداء الى سبيل الحق عن استطاعتهم . اذ لا سلطان للشيطان الا على الغاوين [2] ، وليس سوى وساوس ودعوة الى الفساد . « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ـ النحل : ٩٩ـ١٠٠» .

« وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان ، الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنّى كفرت بما أشركتمون من قبل ، ان الظالمين لهم عذاب أليم ـ سورة ابراهيم : ٢٢» .

١٩١ ـ « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون ـ النمل : ٥٠ » . تآمر قوم صالح على أن يبيتوه وأهله ويقتلوهم عن آخرهم ، ثم يقولوا لوليه : ماشهدنا مهلك أهله [3] ! لكنهم قبل أن ينفذوها قد أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين [4] « فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ـ الصافات : ٩٨ » . فانظر كيف كان

١ـ وهي الاية ١٠٨ من سورة الانعام برقم ٥٤ ص ٢٢٥ . وراجع ـ ايضاً ـ الصفحة ٢١١ـ٢١٢ برقم : ٥ .

٢ـ سورة الحجر : ٤٢ .

٣ـ من الاية قبلها (٤٩).

٤ـ من الاية ٧٨ من سورة الاعراف.

عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ـ النمل : ٥١» .

وعليه فكان قوله تعالى : «ومكرنا مكراً» من باب التشاكل في التعبير ، على سبيل الاستعارة . كما في قوله : «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ـ المائدة : ١١٦» .

١٩٢ـ « انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء ـ النمل : ٨٠ » . قد تقدم[1] أنه كناية عن تلكم القسوة والجفاء التي انطوت عليها قلوبهم القاسية . ومن ثمّ عقبها بقوله: «اذا ولّوا مدبرين». فلايعدو مثل هذا التعبير استعارة وتشبيهاً ،وإلا كان اعذاراً لهم لاتوبيخاً واستنكاراً !

١٩٣ـ وهكذا الآية بعدها : «وماأنت بهاد العمى عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ـ النمل : ٨١» .

انه عمى القلب حجز دون رسوخ الوعظ فيه، وانما تؤثّر دعوة النبي ﷺ في من لان قلبه واستسلم لقيادة الناصحين.

إنّ امثال هذه التعابير تسلية للنبي ﷺ ورفع لمسؤوليته عن التأثير والاتعاظ. واخبار عن واقعية مرة كان أرباب الجحود والطغيان قد مهّدوا هم من أسبابها وعملوا في تكوينها، بما أعرضوا عن ذكر الله ونسوا لقاء ربهم.

١٩٤ـ « لولا أن ربطنا على قلبها ـ القصص : ١٠ » تعبير كنائي عن توفيقه تعالى وعنايته الخاصّة بعباده المؤمنين المتوكّلين عليه. كما في قوله تعالى ـ بشأن أصحاب الكهف لم يهابوا سطوة ملكهم الجبار ـ: «انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا اذاً شططاً ـ الكهف : ١٣ـ ١٤» .

١ـ برقم : ١٨٠ الآية ٤٤ من سورة الفرقان ص٢٩٢ـ٢٩٣.

وهكذا قوّى من عزائم أمّ موسى ومنحها عنايته صبراً وثباتاً في موقفها ذلك الحرج، فألقت بولدها وفلذة كبدها في البحر متوكلة على الله.

وعليه فلم يكن الربط على القلوب سوى تعبير مجازي عن تلك الثقة والايمان الراسخ بالله العظيم.

١٩٥- «فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم - القصص: ٤٠». ليس ظاهر التعبير مقصوداً قطعاً، وانما هو كناية عن خذلانه تعالى لهم، فتركهم يهرعون الى مهاوي الهلكة بسوء اختيارهم ولجاجهم في رفض الحق والهدى.

١٩٦- «وجعلناهم أئمة يدعون الى النار - القصص: ٤١». أي بسبب مرودهم على الطغيان تركناهم وضلالتهم فأصبحوا دعاة الى الجحيم. وهذا هو وجه النسبة اليه تعالى. كما مرّ نظيره في قوله تعالى: «انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً - مريم: ٨٣» أي خلّينا بينهم وبين الكافرين. وإلا لو كان على حقيقته كان ذلك إعذاراً لهم، ولم تتوجّه اليهم لائمة ولا استنكار.

١٩٧- «انك لاتهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء - القصص: ٥٦». أي الهداية المؤثرة النافذة. وهي ليست من فعله صلى الله عليه وآله لأنّ الذّي عليه هو البلاغ، ليس عليهم بمسيطر انما هو منذر. لكنه تعالى يهدي بتوفيقه وعنايته الخاصة من يشاء من عباده الذين سعوا في لقاءه الكريم. وقد تقدّم الكلام في أمثال الآية في عدة مواضع [1].

١٩٨- «وربك يخلق مايشاء ويختار - القصص: ٦٨». تقدم تفصيل الكلام في نظائره [2]. وأنه تعالى لايختار الا مافيه حكمة وصلاح.

١- انظر الاية ٢٧٢ من سورة البقرة برقم: ١٦ ص ٢١٥

٢- انظر الاية ١٤ و ١٦ و ١٨ من سورة الحج برقم: ١٧١-١٧٣ ص ٢٩٠

١٩٩- «ولقد فتنا الذين من قبلهم - العنكبوت :٣» .قالوا : يدل على أنه تعالى حمل امماً على الكفر والمعصية.

قلنا: الفتنة هي الامتحان والاختبار بالمحن والمصائب والآلام. ومن ثم ابتدأت السورة بقوله تعالى: «الم .أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون» ثم قال - دفعاً لتوهم اختصاص هذه الامة بذلك -: «ولقد فتنا الذين من قبلهم» وتعقيباً على ذلك بين وجه الحكمة : «فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» . وهذا اعلام بما سيصيب هذه الامة من بلاء وامتحان . وبالفعل قد تحقّق ذلك مدة بقاءهم في مكة وبعد ماهاجروا الى المدينة، على ماجاء في سورة براءة: ١٢٦ : «أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرّة أو مرّتين » .

٢٠٠- «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - العنكبوت : ٦٩» . اختصاص بهدايته التي هي عناية ومزيد ألطاف يخص بها عباده المخلصين . أما هدايته التي هي دلالة وارشاد الى معالم الحق والطريقة الوسطى فهي عامة شاملة لجميع المكلّفين على ماسبق تحقيقه غير مرة[١] .

٢٠١- «كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون - الروم : ٥٩» .تقدم انه اخبار عن واقعية سوداء هم اكتسبوها بمرودهم على الطغيان والاستكبار عن قبول الحق. وجاء التعبير استعارة ومجازاً عن تلك الحالة القاسية التي انطوت عليها قلوبهم الجافة . وقد صرّح بهذا التشبيه في قوله تعالى : «واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً، كأن لم يسمعها ، كأنّ في اذنيه وقراً - لقمان : ٧» . في حين أنّه تعالى ذكر في كثير من الآيات : أنهم لايسمعون ، وفي آذانهم وقر . فعلمنا أنّ جميع ذلك من المجاز في التعبير ، وسنبحث عن معنى الطبع والختم والوقر وماشاكل في فصل قادم ان

١- راجع - بالخصوص - : مسألة الهداية والتوفيق في مراحلها الخمس ص١٩٨ فما بعد .

شاءالله . كما تقدّم وجه نسبة ذلك الى الله [1] .

٢٠٢ـ «ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ـ السجدة : ١٣» . أي هداية تكوينية بالالجاء على الهدى . الأمر الذى يتنافى مع دار التكليف والاختبار. وقد تقدَّم ذلك ص١٩٣ برقم : ٢٧ .

٢٠٣ـ كما تقدَّم هناك أيضاً تأويل قوله تعالى ـ بعد ذلك ـ: «ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنّم من الجنَّة والناس أجمعين ـ ١٣» . أى حقّ القول منى أن لا اُكره أحداً على التكليف والطاعة ، بل أدعهم مختارين فى الاطاعة والعصيان، تحقيقاً لحكمة التكليف الذى هو الاختبار، ولا اختبار مع الالجاء . الأمر الذى يؤول فى نهاية المطاف الى دخول كثير من الجنة والناس النار بسوء اختيارهم وقبيح تصرفاتهم فى هذه الحياة [2] .

بدليل الآية قبلها : «ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم. ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون ـ ١٢». هذا ابداء مرير لغاية الندم على ما فرطوا فى جنب الله . الامر الذى يكشف بوضوح أنه لم يكن الجاء على كفر ولا اكراه على عصيان ، ولا أنه تعالى خلق أحداً ليدخل جهنم . وانما يدخلها من استحقها بنفسه واكتسبها بجهده وألقى بيده الى التهلكة .

وهكذا جاءت الآية بعدها :«فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ـ ١٤» صريحاً فى القاء تبعات الأمر على عاتقهم فكانوا هم المسؤولين عن موقفهم هذا الفظيع !

٢٠٤ ـ « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً

١ـ راجع الصفحة ٢١٠ ـ ٢١١

٢ـ راجع الصفحة ١٩٣

ـالاحزاب :٣٣» . يعنى مزيدعناية وألطاف ، وهو تكريم خاص منحه الله لأهل بيت نبيه ـصلى الله عليهم ـحيث استعدادهم لتلقى هذا الفيض القدوسى الجليل . الامر الذى لايرتبط ومسألة الجبر فى الهداية كما يرومه الاشعرى بالذات .

والكلام عن هذه الآية الكريمة يستدعى استيفاء لايسعه هذا المجال .

٢٠٥ ـ « وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة ـالاحزاب : ٣٦» . القضاء فيها بمعنى الحكم التشريعى من ايجاب أوالزام تكليفى ونحو ذلك .

٢٠٦ـ « ليخرجكم من الظلمات الى النور ـ الاحزاب : ٤٣ » . تقدّم الكلام فى نظيرتها برقم : ١٤ ص٢١٤ ـ٢١٥ .

٢٠٧ـ «وكان امر الله مفعولا ـالاحزاب :٣٧» .أى قضاؤه المبرم فى التكوين الامر الذى لايمس مسألة الهداية فى التشريع .

٢٠٨ـ وهكذا قوله: «وكان امر الله قدراً مقدوراً ـالاحزاب : ٣٨» .

٢٠٩ ـ « فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ـ فاطر : ٨» . تقدّم الكلام عن نظائرها فى عدة مواضع . وأن المقصود : خذلان من يستحقّه ، والعناية بشأن من يستأهله .

٢١٠ـ «ان الله يسمع من يشاء وماأنت بمسمع من فى القبور ،ان أنت الانذيرـ فاطر :٢٢ـ٢٣» .تقدّم الكلام فى نظائرها،وأنها نفى لمسؤوليته صلى الله عليه وآله عن قبول الدعوة، وانما عليه البلاغ . أمّا الذى أعرض عن ذكر ربه ونسى لقاء الآخرة وجعل على بصره غشاء التعمية فلايكاد يفقه حديثاً فهو كميّت فى القبر «انّك لاتسمع الموتى».

لكنه تعالى يعلم من الناس المحل الصالح ، ممن استعدوا بانفسهم لتلقى فيوضاته القدسية ، فيضع فيهم حكمته ويفتح عليهم ابواب بركاته .

٢١١- «اناجعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً . فاغشيناهم فهم لايبصرون - يس : ٨ - ٩».

هذا تشبيه لحالتهم التعنتية تجاه الحق ، بالمغلول الممنوع بالسد والحجب، من حيث لم ينتفع بما سمع ، واعرض عن الاستدلال . وقد تقدم الكلام عن مثله برقم : ٥٤و ص ٢١٠-٢١١ .

٢١٢ - «أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تنقذ من فى النار - الزمر : ١٩» .

حق عليه كلمة العذاب ، بسبب صموده تجاه قبول الحق واصراره على المعاصى والآثام ، فقد أحاطت به خطيئاته وقادته الى الجحيم حيث مثوى الظالمين. الامر الذى حال دون تأثير الدعوة فيه فلايتعظ أبداً .

وهذا من تشبيه عاجله بآجله ، وتيئيس للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فلا تذهب نفسه الكريم عليهم حسرات .

٢١٣- « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه - الزمر : ٢٢ » تلك عناية ربانية وتوفيق إلهى خاص ، ينعم به اولئك الذين جاهدوا فى الله وسعوا فى لقاء وجهه الكريم .

٢١٤- «ومن يضلل الله فماله من هاد . ومن يهد الله فماله من مضل - الزمر : ٣٦-٣٧» . ذاك خذلان وحرمان وهذا توفيق وتسديد ، كل حسب استعداده والصلاحية التى اكتسبها لنفسه .

٢١٥- «وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل - المؤمن :٣٧». زينته له نفسه وصدته خطيئاته . وتقدم مثله برقم : ١٨٩-١٩٠ .

٢١٦- «وقالوا قلوبنا فى أكنة مماتدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بينناوبينك حجاب -فصلت :٥» هذا تشبيه وتمثيل ،واخبار عن واقعية سوداء مظلمة اكتسبوها بما اقترفوه من خطاياو آثام ، فجعلتهم صخرة صماء فى غاية قسوة وجفاء .وقدصرح بهذا التشبيه فى آية اخرى : «واذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقراً - لقمان : ٧ » . وتقدّم الكلام فى نظائرها . وتقدمت هى بالذات فى صفحة ٢١٠ .

٢١٧- «وقيَّضنا لهم قرناء . فزينوا لهم مابين أيديهم وماخلفهم وحقَّ عليهم القول - فصلت : ٢٥» .

أى خلينا بينهم وبين أبالسة الجن ، هذاخذلان مرير استوجبوه لأنفسهم بما اقترفوا من آثام ووقفوا فى وجه الحق و كافحوه .

وقدتقدَّم الكلام فى نظائر الآية من سورة مريم ، آية: ٨٣ برقم :١٦٢ص٢٨٥ وسورة النمل، آية: ٢٤برقم :١٩٠ص٢٩٦.

٢١٨ - « والذين لايؤمنون ، فى آذانهم وقر ، وهوعليهم عمى - فصلت : ٤٤» . تقدم الكلام فى نظيرتها برقم : ٢١٦ .

٢١٩- « ولوشاءالله لجعلهم امة واحدة - الشورى : ٨ » . هى مشيئة إلجاء لم يشأهاالله بشأن هذه الحياة التى هى دار تكليف واختبار . الامر الذى لايتناسب مع سوى الاختيار .

٢٢٠- « لاحجة بيننا وبينكم - الشورى : ١٥ » . قالوا : إنّه يدلّ على ان

لاحجة على الذين كفروا ، وانماهم معذورون على الكفر والعصيان !

قلنا : هذاباطل من ضرورة الدين ، اذالحجة تمت على الكفار والعصاة جميعاً «قل فلله الحجة البالغة ـ الانعام : ١٤٩ » . أمّا الحجّة المنفية فى الآية فقد فسرها مجاهد بالخصومة . لأنها لازمها ، ففسّر الشىء بلازمه .

والصحيح أنّ المقصود : أن الحجة قد تمّت حيث ظهر الحق بيننا وبينكم . ولم يبق مالاتعلمونه لنحتج به عليكم ، سوى اللجاج والعناد ، ومن ثمّ فانا نكف عنكم الآن لنلتقى جميعاً على صعيد القيامة ، فيحكم الله بيننا وبينكم . والاية ـ بطولها ـ تدلّ على هذا المعنى ، قال تعالى : «وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب . وامرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لاحجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا واليه المصير . الذين يحاجّون فى الله من بعد مااستجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ـ الشورى : ١٥ ـ ١٦» ومن ثم قال ابو على الطبرسى : الآية غاية فى التهديد [١] .

٢٢١ ـ «ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده ـ الشورى : ٤٤» أى من يخذله الله على أثر معاندته مع الحق . وقد تقدّم ذلك فى مسألة «الخذلان ـ ص ٢٠٤» .

٢٢٢ ـ «ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدى الى صراط مستقيم ـ الشورى : ٥٢» .

الهداية من الله ـ فى الاية ـ هى التوفيق والمزيد من ألطافه الخاصّة يختص بها المؤمنون من عباده الذين جاهدوا فى سبيل لقاء ربهم . وأما التى يقوم بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم فهى هداية ارشاد ودلالة ، تعمّ جميع المكلفين ، على ماسبق تفصيله . راجع : مسألة «الهداية والتوفيق ـ ص ١٩٨» .

٢٢٣ ـ « وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم ـ الزخرف : ٢٠ » . وقدضمت

---

١ ـ راجع : مجمع البيان ج ٩ ص ٢٥

الاشاعرةأصواتها الى اصوات المشركين فيمزعومةالجبر فى التكليف .

لكنّه تعالى رد عليهم بقوله : «مالهم بذلك من علمانهم الايخرصون ـ ٢٠». وقَدتقدّمت الاية برقم :٣٥ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

٢٢٤ـ «ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهوله قرين ـ الزخرف: ٣٦» . قدتقدم الكلام فى نظير الاية برقم : ١٦٢ ص :٢٨٥

٢٢٥ـ «أفأنت تسمع الصمَّ أوتهدى العمى ؟!ـ الزخرف : ٤٠» . ايضاً تقدم الكلام فى نظائرها الكثيرة منهابرقم ١٩٧ ص٢٩٨.

٢٢٦ـ وهكذا قوله : «أفرأيت من اتّخذإلهه هويه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعدالله ـ الجاثية : ٢٣» .تقدم الكلام فى الاضلال والختم والطبع وماشاكل فى عدة مواضع .

٢٢٧ـ «واذصرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ـ الاحقاف : ٢٩». لايدل على انه تعالى ارسلهم ليستمعوا ، وانما لطف بهم واعانهم بتمهيد السبل ليحضروا هم باختيارهم عندالنبى ﷺ ويستمعوا القرآن .

٢٢٨ـ «اولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم» انه خذلان استوجبوه على انفسهم بالذات ، ومن ثم كان التعقيب : « أفلايتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟! ـ سورة محمد : ٢٣ ـ ٢٤» بصورة استنكار وتوبيخ !

٢٢٩ـ «ام حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ـ سورة محمد : ٢٩» .

نزلت بشأن المنافقين ، كانوا قداستسرّوا عداوة الرسول ﷺ وتواطئوا

على النكاية به ، لكنّه تعالى فضحهم وأظهر ماحاولوا كتمانه من نفاق ومراوغة خبيثة .

٢٣٠- «وكفّ أيدى الناس عنكم ـ الفتح : ٢٠» .

٢٣١- «وهوالذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ـ الفتح : ٢٤» .

اى مهدالاسباب الّتى يحصل معها الكف المذكور . فقد منع المسلمين من مقاتلة الكفار بالنهى والزجر . ومنع الكفار من منابذة المسلمين بالقاء الرعب فى قلوبهم ، وهكذا .

٢٣٢- «ولكن الله حبّب إليكم الايمان وزيّنه فى قلوبكم ، وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان ـ الحجرات : ٧» .

حبب الايمان بنصب الدلائل على حسنه وصحّته ، كما وعد الثواب عليه والرضوان .وزينه بألطافه الخاصة وعناياته الكريمة . وكرّه الكفر بنصب الدلائل على قبحه وبالنهى عنه والوعيد عليه .

وهذا عامّ بالنسبة الى جميع الناس ، غير أن الذين استجابوا لهذه الدعوة هم الذين وعت نفوسهم وانصاعوا لنداء الفطرة الاولى وبقى المنحرفون يهيمون فى وادى الضلالة تائهين .

قال تعالى : «ولكن الله يمنّ عليكم أن هديكم للايمان ـ الحجرات :٢٧» .

٢٣٣- «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ،ألحقنا بهم ذريتهم ـ الطور: ٢١» . قالوا : يدل على أن الابن يصبح مؤمناً بايمان الأب . الامر الذى يشف عن لااختيارية الايمان بعض الشىء .

قلنا : الآية بصدد تعداد النعم التى يفيضها الله فى دار الآخرة على المؤمنين. فمنها : أنّ الاولاد سوف يهدون الى آبائهم فى الجنة لتقرّ أعينهم . لكن بشرط أن

يكون الأولاد قد تبعوا الاباء في الايمان . أي يكونوا مؤمنين كما كان آباؤهم مؤمنين. الأمر الذي لايدلّ على إلجاء أو خروج عن الاختيار.

نعم قد يكون عمل الآباء وحسن تصرّفاتهم من العوامل التي دعت الى ايمان الاولاد ، وهذا لاضير فيه ، ومن ثمّ فقد يعود ثواب الأولاد الى الاباء باعتبار كونهم السبب ،وبهذا اللحاظ ربما صح اطلاق المتابعة ،واثابة الاباء بايمان الاولاد .

لكن من غير أن ينقص من ثواب الأولاد شيء. كما لا ينقص من ثواب المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول ،مع أنّ الفضل في ايمانهم يعود الى الرسول ، وهو الذي يثاب على دعوتهم للايمان . والى هذا المعنى ، واستدراكاً لما قد يتوهم خلافه ، يشير قوله تعالى تعقيباً على ذلك : «وما ألتناهم من عملهم من شيء» ثم قال ـ تأكيداً ـ: «كل امرء بما كسب رهين» . فلا ينقص من ثواب الابناء ، ثواب إيمانهم وثواب أعمالهم الصالحة، شيء . اذ كل امرء بما كسب من خير أو شر رهين .

٢٣٤ـ «وأنه هو أضحك وأبكى ـ النجم: ٤٣» أي مايوجب السرور والحزن من رخاء وجدب . وقد تقدم ذلك (ص ١٨٩) .

٢٣٥ـ «ليخرجكم من الظلمات الى النور ـ الحديد : ٩» بهدايته التشريعية.

٢٣٦ـ «وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ـ الحديد : ٢٧» .بتوفيقه والمزيد من عنايته وألطافه .

٢٣٧ـ « لئلا يعلم أهل الكتاب ألّا يقدرون على شيء من فضل الله ـ الحديد: ٢٩ » .

زعمت الأشاعرة دلالة الآية على نفي القدرة . أي ليعلم أهل الكتاب أنّهم غير قادرين على الاهتداء إلاأن يشاء الله .

قلنا : فسرت الآية على ثلاثة وجوه :

الأول : أن تكون « لا » زائدة وضمير الجمع فى « أن لا يقدرون » يعود على أهل الكتاب ، أى ليعلم أهل الكتاب أنّهم لا يقدرون على احتجاز شيء من رحمته تعالى ، « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » ممن استحقّه و مهّد لذلك الأسباب .

وهذا كبح صارم لما كان أهل الكتاب يتشدّقون به من اختصاصهم بفضله تعالى : « قالوا كونوا هوداً أونصارى تهتدوا ـ البقرة : ١٣٥» . « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أونصارى ـ البقرة : ١١١ » . فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده، غير مقصور على قوم ولا محجور لطائفة ، ولا محدود ولا قليل «والله ذو الفضل العظيم ـ الحديد : ٢٩» .

الثانى : أن يعودَ ضمير الجمع الى المؤمنين ، أى إنّما وعدنا المؤمنين كفلين من رحمتنا لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله . وعليه ف «لا» أصلية . فمفاد الآية على ذلك هو اثبات قدرة المؤمنين على تحصيل فضله تعالى ورحمته بفعل الاسباب الموجبة لها.

الثالث : انه نفى لليأس والقنوط الذى كاد يعتور أهل الكتاب ممَّن لم يؤمنوا، فحسبوا من أنفسهم الابتعاد عن رحمته تعالى حيث غضب عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

فجاءت الاية مسلية وباعثة فى نفوسهم الرجاء والامل فى فضله تعالى ، وان المجال امام الراغبين فى شمول رضوانه تعالى واسع ، حيث الأسباب المؤاتية لذلك موفورة بالدخول فى حوزة الاسلام والرضوخ لتكاليفه القيمة .

ويشهد لصحة هذا المعنى ، أنّ الايات المتقدمة على هذه الاية جاءت ترغيباً للمؤمنين بالمسارعة الى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والارض . اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ـ ٢١ ـ ثم تعرجت الى امم سالفة فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ٢٦ ـ ثمّ قفى على آثارهم بعيسى بن مريم ، وكان قد جعل الله فى

قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة و رهبانية فما رعوها حق رعايتها ، « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون ـ ٢٨ » .

هـذا تفصيل لبيان احوال أمم غابرة وحاضرة . ثم وجّه نداءه العامّ الى من آمن و اتّقى و وعدهم كفلين من رحمته ونوراً يهتدون به فى ظلمات الحياة ـ ٢٩ ـ .

قال المفسرون : هذا الخطاب الأخير يعنى المؤمنين من أهل الكتاب خاصّة الّذين آمنوا بالله ورسوله : « يا أيها الذين آمنوا » بأنبياء سابقين ايماناً صادقاً « اتقوا الله وآمنوا برسوله » الحاضر محمد ﷺ « يؤتكم كفلين » أى نصيبين « من رحمته » نصيباً لايمانكم السابق القديم ، ونصيباً لايمانكم اللاحق الحديث .

وهذه الزيادة من عنايته تعالى بشأن هؤلاء المؤمنين من أهـل الكتاب لدليل واضح على أنّ أبواب رحمته تعالى مفتّحة للراغبين فـى شمول رضوانه والدخول تحت فضله ولطفه ، مهما كانت جنسيّة الطالبين المجاهدين فى سبيل لقاءه تعالى .

اذن فكان هذا اللطف والعناية الخاصّة « لئلّا يعلم أهل الكتاب » ممّن تخلّفوا عن الايمان برسول الاسلام « أن لا يقدرون على شيء من فضل الله » . فـلا يذهب وهمهم انهم قد أيسوا من رحمته ، أو أنّ لعنته تعالى شملتهم الى الأبد ، وحالت دون امكان التوبة والرجوع الى فضله تعالى ورحمته !! كلا .

فليأخذوا من ايمان اخوانهم الذين أسلموا دليلاً على امكان ايمانهم متى شاؤوا ووافقهم التوفيق .

« وأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » من عباده المؤمنين فى أىّ وقت وأىّ مكان ومن أى جيل أو أيّة طائفة . « والله ذو الفضل العظيم » فلا يقصره على قوم دون قوم ولا جيل دون جيل . و فى ذلك ترغيب جميل لمن شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً ـ الانسان : ٢٩ ـ وتزهيد لطيف فى اليأس و القنوط عن رحمته تعالى

الواسعة .

وهذا المعنى الأخير هو اختيارنا بالذّات ، ونراه الأصحّ والأوفق بسياق الاية ، فتدبّر .

٢٣٨- « اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه - المجادلة : ٢٢ » .

أى علم الله أنّهم يؤمنون حقاً فأيّدهم بروح منه ، وزاد فى عنايته لهم .

٢٣٩- « هو الّذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم- الحشر: ٢ » أى مهّد أسباب خروجهم ، بتأييد المسلمين ونصرهم ، وإلقاء الرعب فى قلوب اهل الكتاب من بنى النّضير ، فانجلوا من أرض يثرب الى أذرعات الشام ،أخرجهم رسول الله ﷺ فى قصة طويلة .

٢٤٠- « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم فى الدنيا ولهم فى الاخرة عذاب النار . ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقّ الله فان الله شديد العقاب- الحشر : ٣-٤ » .

أى علم منهم ذلك. وفى الحقيقة لولا انهم انجلوا، وكانوا حاولوا البقاء ومخالفة امر الرسول ﷺ فى الخروج ، لأنزل عليهم العذاب بالقتل والاستئصال على أيدى المسلمين ، كما فعل ببنى قريظة.

٢٤١- «هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن -التغابن : ٢». لايدلّ على أنه تعالى خلقهم كفاراً أو مؤمنين . والا لكان الواجب -حسب قواعد الأدب - النصب «فمنكم كافراً ومنكم مؤمناً » . قال أبوعلى : فلما ذكر تعالى بالرفع دلّ على أن الكفر والايمان من فعلهم لامن خلق الله فيهم [١] أى فمنكم من كفر ومنكم من آمن .

١- متشابهات القاضى ج٢ ص٦٥٥ الفقرة : ٧٧٤

لأنّ الرفع يدلّ على فعليّة النسبة حال التكلم اذا لم تقم قرينة قطعية على خلافها .

٢٤٢ـ «لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ـ التين : ٤ـ٥» ، أى بمخالفته لنظام الفطرة والشريعة أخذ فى التسافل والانحطاط عن منزلة الانسان الكريمة . ومن ثمّ قال تعالى على جهة الاستثناء : «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ ٦» . وأما الاسناد الى الله فمن جهة أنه تعالى أقدره على اختيار السوء والفساد ، حسبما تقدّم غير مرّة .

٢٤٣ـ «لكم دينكم ولى دين ـ الكافرون : ٦». لايدلّ على الترخيص ،وانما هو على سبيل اللوم والتوبيخ لهم على التمسك بماهم عليه من الباطل ، الأمر الذى يشفّ عن قدرتهم على الاقلاع والعدول عنه الى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

* * *

مسألة الاستدراج

الاستدراج مأخوذ من الدرج وهو المشى فى أناة خطوة خطوة ، يقال : درج الصبى أى مشى على حيطة وحذر فى خطى قصيرة . والأمّ تستدرج ولدها : تجعله يمشى كذلك ، أى تواكبه فى المشى المذكور تدريباً له .

وقد اصطلح استعماله فى امهال العصاة ليزدادوا غياً وجهالة . كأنّ النعم المتوافرة عليهم تواكبهم فى مسيرهم الى الضلال فيحسبوا أنّهم على هدى وأنّهم يحسنون صنعاً . الأمر الّذى يزيد فى ضلالهم والابتعاد عن الحق فلاينكفؤن الى طريق الرشد والصلاح أبداً . ومن ثمّ فسره أهل اللّغة بالخدعة . وهذا التفسير صحيح الى حدّ ما ، اذا مالاحظنا المبدأ القائل : «خذ الغايات ودع المبادى» . فالله تبارك وتعالى انما يفعل بالكافر المعاند مايستحقّه من عقوبة عاجلة . وكاد يشبه فعل المخادع الّذى يحاول خداع غريمه . والكافر هو الّذى ينخدع بوفرة النعمة عليه ، لفرط حمقه وجهالته

وليس الله بالذى حاول خدعه .

والاستدراج هو نوع خذلان استحقّه العاصى المتمرّد، واستوجبه لنفسه على أثر صموده فى الغىّ والضلال ،فلاتكاد تؤثّر فيه الموعظة اطلاقاً ،ومن ثمّ يتركه الله ونفسه فى غياهب هذه الحياة المغرية، المغرّرة بالمفتتن بها .

انّ المغتر بهذه الحياة الدنيا ، المعجب بلذائذها السفلى ، لايزال يزداد نهماً وانهماكاً فى مطاليب مبتذلة وخسيسة الى حدّ بعيد. الأمر الذى يزيده ابتعاداً عن معالم الانسانية العليا ، وعن الاستقامة على الطريقة المثلى الكريمة .

وقد يبلغ به التيه الى حيث لايرعوى وان بلغ به الجهد مبلغه فى العطب والعناء فقد تمكّن الشيطان من نفسه وغلبه هواه وصرعته الخطايا والآثام، الأمر الذى افتقد معه جميع دلائل الحياة[1] ،فلا فعالية له ولا ارادة ولا ادراك ولا احساس: «ان شر الدواب عندالله الصم البكم الذين لايعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم ـ والحال هذه ـ لتولّوا وهم معرضون ـ الانفال :٢٣» .

اذن فلا فائدة فى التضييق على مثل هذا الهائم فى بيداء الضلال «انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ـ النمل: ٨٠» فيوفر الله عليه نعمه فى هذه الحياة[2]، فلايمدّ يداً الى حاجة الاوقدنالها ،ولاينطلق فى جهة الاوقد وافته الأمانى وأقبلت عليه الدنيا بكلّ زخارفها ،فلايزداد الا اغتراراً وابتعاداً عن رضوانه تعالى فانقلبت نعم الله عليه نقماً وخذلاناً ،كما كانت البلايا بالنسبة الى المؤمن الصالح نعماً وألطافاً .

قال أبو عبدالله الامام الصادق عليه السلام : «إن الله اذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً

١ـ تقدم تفسيرنا لاية الحيلولة : ٢٤ من سورة الانفال ص٢٤١ ، بهذا المعنى ، فقد حالت الخطايا بينهم وبين قلوبهم فلايكادون يفقهون شيئاً .

٢ـ لان فى التضييق قد يكون انقلاع عن المعصية ورجوع الى الله بالانابة اليه ، فهو لطف ـ أحياناً ـ وتوفيق ، يمنعه تعالى عن المتمرد العنود ، حيث العلم بعدم التأثير .

أتبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار . واذا أراد بعبد شرّاً فأذنب ذنباً ، أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها ، وهوقول الله عزوجل : «سنستدرجهم من حيث لايعلمون» . قال: بالنعم عند المعاصى.

وسئل ﷺ عن الاستدراج ، فقال : «هو العبد يذنب الذنب فيملى له ويجدّد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب ، فهو مستدرج من حيث لايعلم» .

وفى رواية اخرى :قال : «هو العبد يذنب الذنب فتجدّد له النعمة معه . تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب».

وقال : «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه ؟!و كم من مستدرج بستر الله عليه؟! و كم من مفتون بثناء الناس عليه ؟!»[١] .

* * *

واليك من الآيات الكريمة مايخصّ مسألة « الاستدراج » إمّا بتصريح أو تلويح :ـ

١ ـ قال تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون . واملى لهم ان كيدى متين ـ الاعراف : ١٨٢ـ١٨٣» .

الاملاء: الامهال .والكيد ـ فى الآية ـ يعنى حصيلته، تشبيهاً بمن يحاول الخداع. وفى الآية تصريح بأنّ الاستدراج على المعاصى انما يخصّ اولئك الذين كذبوا بآياته تعالى وسعوا فى آياته معاجزين .

٢ـ « فذرنى ومن يكذّب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين ـ القلم : ٤٤ـ٤٥» . وهذه الاية ـ بملاحظة سياقها ـ أصرح فى الاختصاص المذكور .

١ـ الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف (الاصول) ج٢ ص٤٥٢ .

٣- « ولايحسبن الذين كفروا أنّ مانملى لهم خير لأنفسهم. انما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين - آل‌عمران : ١٧٨» .

اللام‌فى «ليزدادوا» للعاقبة . أى كانت وفرة النعم عليهم وغفلتهم عن الآخرة مما تنتهى الى الازدياد من‌الاثم والاجرام .

٤- «ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب -الرعد :٣٢» . الاملاء هو الاستدراج عقوبة عاجلة .

٥- «فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير -الحج : ٤٤» .

٦- «وكأين من‌قرية أمليت‌لها وهى‌ظالمة ثم أخذتها والى المصير -الحج: ٤٨» .

٧- «فلما نسوا ماذكروابه فتحنا عليهم أبواب كلّ‌شىء حتى اذافرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون -الانعام : ٤٤» .

٨- « ولاتعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذّبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون -براءة :٨٥» .هذه‌الارادة‌هى‌تكوينية، اخبار عن‌واقعية سوداء اكتسبوها لانفسهم بسوء اختيارهم .

٩ - « لايغرنّك تقلّب الذين كفروا فى‌البلاد ، متاع قليل ثم مأويهم جهنم وبئس المهاد - آل عمران : ١٩٦-١٩٧» .

١٠- «وامم سنمتّعهم ثم يمسّهم مناعذاب أليم - هود : ٤٨» .

١١- «فذرهم فى‌غمرتهم‌حتى حين. أيحسبون أنّمانمدّهم به من‌مال وبنين ،

نسارع لهم فى الخيرات ؟! بل لايشعرون ـ المؤمنون : ٥٤ـ٥٦ » .

١٢ـ «ذرهم يأكلوا ويتمتّعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ـ الحجر :٣» .

١٣ـ «كلوا وتمتّعوا قليلاً انكم مجرمون ـ المرسلات : ٤٦» .

١٤ ـ « انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً . فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً ـ الطارق : ١٥ـ ١٧» .

١٥ ـ « ولولا أن يكون الناس امة واحدة ـ (كافرة) ـ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاًمن فضّة ومعارج عليها يظهرون .ولبيوتهم ابواباً وسرراًعليها يتكئون ، وزخرفاً وان كلّ ذلك لما متاع الحيوة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ـ الزخرف : ٣٣ـ ٣٥» .

وذلك لأن أكثريّة الناس ذووا ايمان ضعيف ،وانما تبهرهم زبارج هذه الحياة وزخارفها ، فاذا ماوجدوها خاصة بالكافرين لهب أكثرهم الى الكفرونسوا الآخرة .

والآيات من هذا القبيل فى القرآن كثير ، ذكرنا منها نماذج عن البقية ،وهى في مجموعها لاتتجاوز المائة آية .

الاستهزاء والخديعة

جاء في القرآن تعابير : «الاستهزاء» و «السخرية» و «الخديعة» و « المكر » و « الكيد » . وانما هى أفعال تنمّ عن قبح وسفاهة لايرتكبها الحكيم ، ومن ثمّ لما قال بنوا اسرائيل : «أتتّخذنا هزواً ؟ ! » قال موسى ـ مستنكراً لهذه النسبة ـ : «أعوذبالله أن أكون من الجاهلين ـ البقرة : ٦٧» .

وقد تأول العلماء لذلك تأويلات لطيفة وتخريجات أدبية بديعة !ـ قال الامام جار الله

الزمخشري : والخدع : أن يوهم صاحبه خلاف مايريد به من المكروه . الامر الّذى لايصحّ من الله ولامن المؤمنين .لأنّ العالم الّذى لاتخفى عليه خافيةلاينخدع. والحكيم الّذىلايفعل القبيح لايخدع غيره . والمؤمنون وان جاز أن ينخدعوا لم يجزأن يخدعوا ، ألاترى الى قول الشاعر :

واستمطروامن قريش كلّ منخدع   ان الكريم اذا خادعته انخدعا

فقدجاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع !

ثم أخذ فى تأويل قوله تعالى : « يخادعون الله والّذين آمنوا ومايخدعون الاأنفسهم ومايشعرون ـ البقرة : ٩» . وذكر وجوها ،منها : أن يقال : كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالايمان وهم كافرون ، صورة صنع الخادعين . وصورة صنع الله معهم ـ حيث أمر باجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده فى عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار ـ صورة صنع الخادع . وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمرالله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم [1].

قلت : فى التعبير أوّلاً بـ «يخادعون» ، و بـ «يخدعون» ثانياً ، نكتة لطيفة وهى : أنهم يحاولون خداع الله والمؤمنين ، لكنهم لاينخدعون فتصبح محاولاتهم فاشلة ، أمّا حقيقة الخديعة فانها تقع بهم بالذات ، حيث انهم هم الذين ينخدعون بمايتوهّمون من تأثير محاولاتهم الفاشلة .

انهم يدبرون المكائد بالمسلمين ويبطنون كفراً فى ظاهر اسلام ، زاعمين انهم بهذه الاساليب الجهنمية سوف يعبرون بأهدافهم على عقول المؤمنين . غير أن الله يفضحهم بين آونة واخرى وتصبح مكائدهم تفشل واحدة تلو اخرى . أما عيشتهم فعيشة قلقة مضطربة ، « يحسبون كلّ صيحة عليهم ـ المنافقون : ٤ » . اما المؤمنون ففى هناء من العيش آمنين مطمئنين . كما أنّ أحكام الاسلام برمتها تجرى

١ـ تفسير الكشاف ج١ ص٥٦ـ٥٧ ط بيروت.

على المنافقين وعلى المؤمنين على سواء ، فى حين أنّ المؤمنين يقومون بها عن يسر ورحابة صدر ،ويقوم المنافقون بهاعن كراهيةوعن مشقّةشديدةحيث فقدالعقيدة الميسرة للتكاليف . «واذاقاموا الى الصلوة قاموا كسالى ـ النساء : ١٤٢» . «ولا يأتون الصلوة الاوهم كسالى ولاينفقون الاوهم كارهون ـ براءة : ٥٤» .

والخلاصة :انالمنافق المراوغ يحاول الخداع بالمؤمنين ، ويقوم بأساليب هويزعمها خدّاعة ، غيرأن الواقعيّة تعاكسه ويكون هو المنخدع بالذات :ـ

أولاً: لأنّدسائسه تفتضح على الملأ ويعود وبالها عليه فى نهاية المطاف ،«ولا يحيق المكر السيء الابأهله ـ فاطر:٤٣».

وثانياً : لأنّه متحمّل صعوبة التكليف مع فقد العقيدة الميسّرة .

وثالثاً: عيشته القلقة لايغمض جفنيه عن ارتياح نفسى أبداً، خوف الفضح وانكشاف واقعه الخبيث .

* * *

وهكذا صحّ التعبير بالاستهزاء لهم . انهم يحاولون الاستهزاء بالمؤمنين غيران الله هوالذى يستهزىء بهم باقرارهم على اسلامهم الظاهرى فيحمّلهم تكاليف الاسلام الشاقّة عليهم بالذات ، فى حين ارعابهم بين حين وآخر بفضح دسائسهم ومكائدهم بين الاشهاد ، وجعلهم فى اضطراب نفسى دائم ، وفى الآخرة لهم عذاب أشدّ وأبقى .

فالتعبير بالاستهزاء من جانبه تعالى تعبير مجازىّ ،رعاية للمشاكلة اللّفظية الّتى هى من فنون البديع ، ولأنّه تعالى يفعل بهم مايشبه فعل المستهزئين ، حيث يدعهم يخبطون على غير هدى، فى طريق لايعرفون غايته ،واليد الجبارة تتلقفهم فى نهايته قال سيد قطب : كالفئران الهزيلة تتواثب فى الفخ ، غافلة عن المقبض المكين. وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لاكاستهزائهم الهزيل الحقير.

« واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انامعكم انما نحن مستهزؤن. الله يستهزىء

بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ـ البقرة: ١٤ــ١٥».

انها معاكسة طبيعية تجابههم فى أشدّ وقعتها « خذالغايات واترك المبادىء » انه تعالى وان كان لايخدع احداً ولايستهزىء بأحد ، لكنّه يردّ كيد الخائنين فى نحورهم ويجعل من الواقعية بحيث تعاكس أهدافهم وتخيب آمالهم الى ماينافضها فى نهاية المطاف .

قال الزمخشرى : معنى استهزاءه تعالى بهم انزال الهوان والحقارة بهم لأنّ المستهزىء غرضه الّذى يرميه هوطلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وادخال الهوان والحقارة عليه وقدكثر التهكم فى كلامه تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم ، والدلالة على أنّ مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون . وأيضاً فقدسمى جزاء الاستهزاء باسمه ، كقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ الشورى : ٤٠» وقوله : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ـ البقرة : ١٩٤» . فان قلت : كيف ابتدأ قوله :« الله يستهزىء بهم» من غير عطف على كلام قبله ؟ قلت : هو استئناف فى غاية الجزالة والفخامة . وفيه أن الله عزوجل هو الّذى يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ ، الّذى ليس استهزاؤهم اليه باستهزاء. ولايؤبه له فى مقابلته ، لماينزل بهم النكال ويحلّ بهم من الهوان والذّلّ[١] .

* * *

ومن ثمّ جاء تفسير قوله تعالى: «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ـ آل عمران : ٥٤» فى آية اخرى بهدم بنيانهم من الأساس ، تجاه ماقاموا به من دسائس وخيانات ، قال تعالى : «قدمكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ـ النحل : ٢٦» أى عاكستهم الواقعية، اذ «ومايمكرون الا بأنفسهم ومايشعرون ـ الانعام :١٢٣» . « ولايحيق المكر السّىء الا بأهله ـ فاطر : ٤٣ » . وقال تعالى موضحاً لموقفه مع المنافقين الماكرين :«سيصيب الذين أجرموا صغار عندالله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ـ الانعام: ١٢٤» .

١ـ الكشاف ج١ ص٦٦ ـ٦٧

وأنت اذا قارنت بين قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ـ النحل : ٢٦ » . وقوله : «وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً ـ الرعد : ٤٢» عرفت ـ بوضوح ـ أنّ المقصود من مكره تعالى هى المعاملة بالمثل بما يناقض أهدافهم ويهدم أساس بنيانهم المنهار ، وكانت التسمية من باب التشاكل فى التعبير لاغير .

وكذلك « كيده تعالى » لايعدو الجزاء بمماثلة أعمالهم « انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً ـ الطارق : ١٥ ـ ١٧ » انهم يدبرون المكائد المفضوحة العائد وبالها على أنفسهم بالذات ، فربّما كان تعالى يستدرجهم بالنعم والموفقية فى شيء من دسائسهم ، غير أنّ الله سوف يأخذهم أخذ عزيز مقتدر « أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ـ الطور : ٤٢ » . «ذلكم وأنّ الله موهن كيد الكافرين ـ الانفال : ١٨ » . «وأملى لهم ان كيدى متين ـ الاعراف : ١٨٣ و القلم : ٤٥ » .

* * *

وقس على ذلك سائر الآيات الّتى جاء فيها ذكر الخداع والاستهزاء والسخرية والكيد والمكر ، منسوبة الى الله سبحانه . فانها تخرج جميعاً على نسق واحد حسبما تقدّم .

قال تعالى : «انّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ـ النساء : ١٤٢ » أى يفعل بهم فعل المخادع حسبما تقدّم فى كلام الزمخشري .

وقال تعالى : «فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ـ براءة : ٧٩ » . «قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ـ هود : ٣٨ » . وهذه السخرية المماثلة يفسرها قوله تعالى : «فحاق بالّذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزؤن ـ الانبياء : ٤١ » . فقد كان الكفار يستهزؤون من المؤمنين ، قيامهم بتكاليف وأعمال عبثية ـ حسبما كانوا يرون ـ لكنّهم أصبحوا موضع سخريّة المؤمنين بمافاجأهم من العذاب المهين .

وقال تعالى : «كذلك كدنا ليوسف ـ يوسف : ٧٦» . أى دبّرنا له أسباب النجاح والموفقية بما كان يخفى على اخوته ،وقد حاولوا أن يكيدوا به كيداً ،غير أنّ محاولتهم فشلت فأصبحوا من الصاغرين .

وقال تعالى: «ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون ـ النمل : ٥٠» . أى دبروا وقدّروا ودبرنا وقدرناوهم لايشعرون أن لهم الصفقة السفلى الخاسرة، وأنّ يدالله هى العليا . «قل الله أسرع مكراً ـ يونس : ٢١» . « ومكر اولئك هو يبور ـ فاطر: ١٠ » . «ولايحيق المكر السىء الا بأهله ـ فاطر : ٤٣» .

وقوله تعالى : «وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ـ الانعام : ١٢٣» . اللام فيها للعاقبة . أى إنّ المجتمعات البشرية غير المهذبة تجعل من الناس طبقة أكابر هم يستغلّون موارد طبقة الأصاغر بحيل وتـدابير شيطانية ظالمة ، غير أنّ حياة الظلم بتراء ، لايدوم معها عيش هنىء ويوشك أن يدور عليهم الرحى فينقلبوا هالكين . ومن ثمّ جاء تعقيب الآية بقوله : « ومايمكرون الا بأنفسهم ومايشعرون» ثمّ قال :«سيصيب الذين أجرموا صغار عندالله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ـ الانعام : ١٢٣ـ ١٢٤» .

وقدتقدمت الآية برقم : ٥٩ ضمن آيات الهداية والاضلال . ص٢٢٦ .

وقوله تعالى :« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ـ الانفال : ٣٠ »أى يدبّرون ويدبّر الله، غير أنّ يدالله فوق أيديهم. «وقد مكروا مكرهم وعندالله مكرهم ـ ابراهيم : ٤٦» أى مكشوف لديه لاتخفى عليه خافية . أمّا تدابيره تعالى فانها خافية عليهم وسوف تفاجؤهم وهم لايشعرون. «أفأمنوا مكر الله؟! فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ـ الاعراف : ٩٩» .

الختم والطبع

التعبير بالختم أو الطّبع على القلوب ، أوماشا كلهما من تعابير ـ وهى كثيرة ومتنوّعة فى القرآن ـ تعبير كنائى ، تشبيها لتلكم القلوب القاسية الجافة بصورة صلدة مظلمة جامدة. فلاتصل اليها حقيقة هدى ولاينفذ فيهابصيص نور . كأن بينها وبين ذلك ضخامة حجاب .

١ـ قال تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ـ البقرة : ٧» .

٢ـ وقال : «قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ـ الانعام:٤٦» .

٣ـ وقال : «أفرأيت من اتّخذ الهه هويه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه ـ الجاثية : ٢٣» .

قال الزمخشرى : «لاختم ولاتغشية ثمَّ على الحقيقة ، وانماهو من باب المجاز. ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه (أى نوعى المجاز) وهما الاستعارة والتمثيل .أما الاستعارة فان تجعل قلوبهم ـ لأن الحقّ لاينفذ فيها ولايخلص الى ضمائرها ، من قبل اعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ، واسماعهم لانّها تمجّه وتنبو عن الاصغاء اليه ، وتعاف استماعه ـ كأنّها مستوثق منها بالختم . وأبصارهم ـ لأنها لاتجتلى آيات الله المعروضة ، ودلائله المنصوبة ، كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين ـ كأنّما غطى عليها وحجبت ، وحيل بينها وبين الادراك . واما التمثيل ، فان تمثّل حيث لم يستنفعوا بها فى الأغراض الدينية التى كلفوها ، وخلقوا من أجلها ، بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ، بالختم والتغطية [1] .

١ـ الكشاف ج١ ص٤٨ـ٤٩ .

وقال البيضاوى : الختم الكتم ، سمى به الاستيثاق من الشىء بضرب الخاتم عليه ، لانه كتم له والبلوغ آخره ، نظراً الى أنه آخر فعل يفعل فى احرازه . والغشاوة فعالة من غشاه اذا غطاه ، بنيت لما يشتمل على الشىء ، كالعصابة والعمامة .

قال: ولاختم ولاتغشية على الحقيقة ، وانما المراد بهما : أن يحدث فى نفوسهم هيأة تمرّنهم على استحباب الكفر والمعاصى واستقباح الايمان والطاعات ، بسبب غيهم وانهماكهم فى التقليد ، واعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لاينفذ فيها الحق ، واسماعهم تعاف استماعه ، فتصير كأنها مستوثق منها بالختم وابصارهم لاتجتلى الآيات المنصوبة لهم فى الانفس والآفاق ، كما تجتليها أعين المستبصرين ، فتصير كأنّها غطّى عليها وحيل بينها وبين الابصار . وسماه ـ على الاستعارة ـ ختماً وتغشية . أومثّل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها ، بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ، ختماً وتغطية .

قال : وقد عبر عن احداث هذه الهيأة بالطبع فى قوله تعالى: «اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ـ النحل : ١٠٨». وبالاغفال فى قوله تعالى: «ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ـ الكهف: ٢٨». وبالاقساء فى قوله تعالى :«وجعلنا قلوبهم قاسية ـ المائدة : ١٣» .

وقال ـ فى وجه نسبة ذلك الى الله ـ : وهى من حيث أنّ الممكنات بأسرها مستندة الى الله تعالى، واقعة بقدرته ، اسندت اليه . ومن حيث أنها مسبّبة مما اقترفوه ـ بدليل قوله تعالى : «بل طبع الله عليها بكفرهم ـ النساء : ١٥٥ » . وقوله تعالى : «ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ـ المنافقون :٣» ـ وردت ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم [1] .

* * *

وهكذا الآيات جاء فيها ذكر الطبع على القلوب، تعبيراً آخر عن نفس تلك

١ـ انوار التنزيل واسرار التأويل للامام البيضاوى ج١ ص٧٠ـ ٧٢

الحالة الجافّة الجافية ،الّتي تعرض نفوس اولئك الجاحدين للحقّ المعاندين له ممّن أصرّوا على منابذة طرق الهدى والصلاح ،وصمدوا على العتوّ والاستكبار. انها حالة قسوةهم عملوا فـي تكوينها وتربيتها في نفوسهم العاتية ، مما خطيئاتهم اغرقوا .

٤ـ قال تعالى : «وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـبراءة : ٨٧» .

٥ ـ وقال : « ذلك بأنهم آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـالمنافقون : ٣» .

٦ـ وقال : «وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ـبراءة : ٩٣».

٧ـ وقال : « كذلك نطبع على قلوب المعتدين ـيونس : ٧٤» .

٨ـ وقال : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ـالاعراف : ١٠١» .

٩ـ وقال : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون ـالروم :٥٩» .

١٠ـ وقال : « كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار ـغافر : ٣٥» .

١١ـ وقال :«اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ـالنحل : ١٠٨» .

١٢ـ وقال : «اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم ـمحمد : ١٦» .

١٣ـ وقال :«بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون الاقليلا ـ النساء: ١٥٥ ».

١٤ـ وقال : «ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ـ الاعراف : ١٠٠ » .

تلك آيات الطبع ، وقد أسنده تعالى الى نفسه ، نظراً لأنّ الله تعالى هو الذى أقدرهم على ذلك ،وجعل لهم الاختيار فى الرفض والقبول، تحقيقاً لحكمة التكليف والاختبار ، حسبما تقدّم تفصيله . وفى الحقيقة انه اخبار عن واقعية سوداء هم عملوا فى تكوينها وفى تمهيد اسباب وجودها ، بما أعرضوا عن ذكر الله ونسوا الآخرة . وفى الآيات مايشفّ عن هذا الجانب السلبى فى ذوات أنفسهم ، كان هو السبب

العامل لتكوين الحالة المذكورة .

* * *

وعلى نفس المنهج تعابير اخر ، كالرين على القلوب، والأكنّة عليها، والحؤول دونها ، وتقليبها ، واغفالها ، وتعميتها ، وما أشبه من مثل كونها غلفاً أو مقفّلة أو محتجبة أومريضة أوزائغة . . . الخ ، كلّها تعابير عن تلكم القسوة والجفاء الّتى انطوت عليها قلوب جاحدة ماتت حيويتها ووقفت نبضاتها عن الفعالية والادراك الانسانى النبيل . ومن ثمّ جاء التعبير بالاموات وبالخشب المسنّدة من الجماد أيضاً فضلا عن التعبير عنهم بالحيوانات البهم : « كأنّهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة ـ المدثر : ٥٠ـ٥١» .وفيما يلى عرض نماذج من تلكم الآيات مضافة الى ماسبق :ـ

١٥ـ قال تعالى :«وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ـ الانعام: ٢٥» .

١٦ـ «والاسراء: ٤٦» .

١٧ـ وقال: «انا جعلنا على قلوبهم أكنّة ان يفقهوه وفى آذانهم وقراً ـ الكهف: ٥٧ » .

والدليل على أنّها تعابير كنائيّة وإخبار عن واقعية سوداء هم اكتسبوها ، قوله تعالى ـ حكاية عن أنفسهم :ـ

١٨ـ :«وقالوا قلوبنا فى أكنّة ممّا تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون ـ فصلت: ٥» . هذه الاية مسبوقة بقوله تعالى : «فأعرض اكثرهم فهم لا يسمعون» ،وملحقة بقوله: «قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين ـ ٦» . فلولا أنّه من صنيع أنفسهم بالذات لما صح تكليفهم ولا توجيه الملامة والتوبيخ اليهم ، لو كالوا غير

قادرين على الايمان واتيان الاعمال الصالحة !

١٩ـ وهكذا قوله تعالى . « وقالوا قلوبنا غلف » تعبير تعنّتي ، تهكّماً بمقام الانبياء العظام ، ومن ثمّ جابههم تعالى بقوله: «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ـ البقرة : ٨٨» .

٢٠ـ وقال : « فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله ،وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف (تهكماً) بل طبع الله عليها بكفرهم، فلايؤمنون الاقليلا. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناعظيماً ،وقولهم اناقتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله... النساء : ١٥٥ـ١٥٧».

هذه الاية عددت كبائر آثام ارتكبوها، مضافة الى تهكّمهم اللئيم وعقيدتهم الكاذبة فى الجبر ـ كاخوانهم الاشاعرة ـ ومن ثمّ ردّعليهم تعالى بأنها الخطيئات والاجرامات حالت بينهم وبين نفوذ دعوة الحق فى قلوبهم العاتية .

٢١ـ وقال تعالى : «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ـ الانفال :٢٤» . وقد تقدّم (ص٢٣٥ ـ٢٥١) الكلام فى هذه الآية بتفصيل . ونظيرتها الآية التالية :

٢٢ـ «وما يشعركم انها اذاجاءت لايؤمنون .ونقلب أفئدتهم وأبصارهم (اى نحول بينهم وبين ادراكاتهم الانسانية النبيلة ليتحوّلوا الى جمادات اوحيوانات بُهم) كما لم يؤمنوا به أول مرة (فكان اعراضهم عن الحق وعنادهم على الغى والضلال هو السبب لهذا الخذلان والحرمان عن رحمته تعالى ولطفه العميم) ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ـ الانعام : ١٠٩ـ١١٠» .

٢٣ـ وقوله تعالى : «ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هويه وكان امره فرطاً ـ الكهف: ٢٨» أيضاً خذلان وحرمان عن فيوض قدسه تعالى ، عقوبة عاجلة

استوجبوها لأنفسهم بماكسبت أيديهم من آثام و كبائر .

٢٤ـ وهكذا قوله تعالى : «ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصدور ـالحج : ٤٦» تعبير آخر عن الاغفال المذكور . وفى الحقيقة اخبار عن غفلة مسبّبة عن جهل وعناد .

٢٥ـ وقال تعالى: «انهم كانوا قوماً عمين ـالاعراف: ٦٤» نظيرة آية الحج المتقدمة .

٢٦ـ وقال :«فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ـالانعام: ١٠٤» . دليلا على أن هذا العماء من فعل انفسهم واختيارهم بالذات . والآيات جاء فيها التعبير بعمى القلوب كثيرة : (المائدة : ٧١). (فصلت : ١٧ ـ٤٤)، (النمل: ٦٦) . (الاعراف: ٦٤) . (الاسراء : ٧٢) . (فاطر :١٩)،(البقرة :١٨و١٧١) . (يونس : ٤٣) . (النمل :٨١) . (الروم : ٥٣) . (الزخرف : ٤٠) وغيرهن من آيات .

٢٧ـ قال تعالى : «فاما الذين فى قلوبهم زيغ ـ آل‌عمران : ٧» أى لهم ميل فى الانحراف ، كأنّهم جبلوا على معاكسة الفطرة ،بسبب ما ألفوه من الفساد وارتكاب الشرور . اذ ما أسرع ماتنقلب طبيعة الانسان عن فطرته الاولى الى طبيعة ثانية ، اذا ما استرسل بنفسه فى أجواء مظلمة وانهمك فى الاجرام والفساد فى الارض . فيصبح وهو متخلّق بأخلاق ربما كانت غريبة عن خلقه الأصيل الّذى فطره الله عليه .

ويعبّر عن هذا الانحراف الخلقى بمرض القلب ، تشبيهاً للانحراف الروحى بالانحرافات الجسمانية ، كما تقدّم .

٢٨ـ «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ـالصف : ٥» أى فلما أخذت نفوسهم فى الانحراف عن جادّة الهدى والصلاح ، وكان ذلك على أثر لجاجهم مع الحق

وصمودهم على رفض الدعوة، خذلهم الله وتركهم في ظلمات غيّهم يعمهون، اذ لم يك ينفعهم نصح الناصحين.

٢٩- وعلى هذا النمط جاء قوله تعالى: «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً -البقرة: ١٠» وهكذا الايات التالية.

٣٠- «فترى الذين في قلوبهم مرض -المائدة: ٥٢» أي ذوي مرض روحي الذي هو تعبير عن ذلك الانحراف الخلقي، المعاكس مع متجه الانسانية الكريمة.

٣١- «اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرهؤلاء دينهم - الانفال: ٤٩». هذا من عطف العامّ على الخاص، أي من على شاكلتهم من ذوي الانحرافات الخلقية الرذيلة، المنافية مع أصالة المجتمعات الانسانية الكريمة الّتي كانت وفق الفطرة الاولى النزيهة.

٣٢- «وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم -براءة: ١٢٥» اى ان هذا الانحراف الذى اكتسبوه لأنفسهم ليأخذ بهم من حالة سيئة الى أسوأ وهكذا الى غير نهاية فلا يزالون يتخبطون في مفاسد اخلاقية وفي أجواء مظلمة من فاسد الى أفسد ومن ظلام الى أظلم، استمراراً مع الأبديّة.

٣٣- «ليجعل مايلقى الشيطان فتنة (امتحاناً) للذين في قلوبهم مرض (فيظهر الله أضغانهم) - الحج: ٥٣». وذلك لأنّ تسويلات الشيطان انما تؤثر في عقول من كان على شاكلته، إنّ الطيور على أشكالها تقع.

٣٤- «أفي قلوبهم مرض (قديم) أم ارتابوا (حالياً)؟ -النور: ٥٠». اى هذا الانحراف الّذى أبدوه كان عن منشأ قديم انطوت عليه قلوبهم القاسية، أم كان شيئاً

عرض لهم لشكوك اعترضتهم أثناء المسير ؟

وهكذا بقيّة الآيات عبّرت عن تلك الحالة النفسية المنحرفة الجافّة الجافية بالمرض ، فىسورة الاحزاب :١٢و ٣٢و ٦٠ . وسورة محمد :٢٠و ٢٩ . وسورة المدثر : ٣١ .

وكذا سائر الآيات التى عبرت بالرين (المطففين : ١٤) . او فاصل حجاب (فصلت : ٥) و(الاسراء : ٤٥) . أوعلى قلوب أقفالها (محمد : ٢٤) وماشابه . كلها تعابير كنائية عن معنى واحد أوضحه قوله تعالى : « ثمَّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أوأشد قسوة ـالبقرة : ٧٤» . وقوله : « ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ماكانوا يعملون ـ الانعام : ٤٣» . وقوله : « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ـ الحديد : ٦ » . اى طال امهالهم فى التنعم بهذه الحياة السفلى . وغيرهنّ من آيات .

مسألة القضاء والقدر

من المسائل الكلامية العويصة هى مسألة « القضاء والقدر » . واختلفت فيها أنظار أرباب الكلام منذوى المشارب المختلفة فى الجبر والاختيار . وقد أخذت الأشاعرة ـبالذات ـفى هذه المسألة طريقها الى الجبر المحض ،وزعمواان القضاء والقدرهو الحتم والالجاء. ومن ثم أسندوا أفعال العباد كلّها خيرهاوشرها ، صلاحها وفسادهاحتى الايمان والكفر ،والاطاعةو العصيان، الى الله سبحانه، وأنّه الفاعل لهاحقيقة وان كان المباشر فى الظاهرهم العباد أنفسهم .ولذلك صحّت تسميتهم بالقدرية انطباقاً عليهم بالحديث المأثور عن النبى صلى الله عليه وآله قال :« لعن الله القدرية على لسان سبعين نبياً ، قيل : من القدرية ، يارسول الله ؟ قال : الذين يعصون الله تعالى ، ويقولون : كان ذلك بقضاء الله وقدره [1] ».

١ـ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص٧٧٥

والايمان بالقدر بهذا المعنى الباطل، هى عقيدة عربيّة جاهليّة امتدّت حتى مابعد ازدهار الاسلام، ورغم مكافحة النبى ﷺ والائمة الهداة من بعده لهذه العقيدة الجاهلية الاولى. قال الامام الحسن بن على ـ عليهما السلام ـ: «بعث الله محمداً الى العرب وهم قدرية يحملون ذنوبهم على الله تعالى[1]». ودليلا على ذلك قولة المشركين: «لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ـ الانعام: ١٤٨». ومن ثمّ كذّبهم الله فى هذه العقيدة الفاسدة المخالفة لصريح الوجدان، قال تعالى ـ تعقيباً على قولتهم تلك ـ: «كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن، وان أنتم الا تخرصون».

والغريب أنّ الأشاعرة استسلمت قيادتها ـ بكلّ جرأة وصراحة ـ لهذه العقيدة المنافية للفطرة ولتعاليم الاسلام النزيهة! قال امامهم المتفلسف: «اعلم أنّ افعال العباد امور ممكنة الوجود. والممكن لايترجح وجوده على عدمه الا بسبب». ثمّ أخذ فى الاستدلال على وجوب كون هذا السبب ضرورى الوجود، والا لزم المحال (التسلسل الباطل). وبذلك حاول اثبات انتهاء افعال العباد فى علل وجوداتها وفى سلسلة الحاجة، الى ذاته المقدسة الواجب الوجود. وأخيراً قال: «فثبت أنّ أفعال العباد، بقضاء الله تعالى وقدره، وأنّ الانسان مضطرّ فى اختياره، وأنّه ليس فى الوجود الا الجبر». هذا نص عبارته فى باب القضاء والقدر من كتابه «المباحث المشرقية[2]». وأما «تفسيره الكبير» فقد ملأه باحكام قواعد الجبر على اصول مذهب أبى الحسن الأشعرى وأتباعه الاشاعرة[3].

* * *

---

١ ـ راجع: اللطائف الغيبية للمير احمد العلوى تلميذ المير محمد باقر داماد ص٢٠١

٢ ـ الفصل الخامس من المجلد الثانى ص٥١٦ ـ ٥١٧

٣ ـ وقد بالغ فى ذلك حتى قال بشأن سورة الانعام: ان هذه السورة من اولها الى آخرها تدل على صحة قولنا ومذهبنا (فى الجبر). التفسير الكبير ج١٣ ص٢٢٧

أما الفلاسفة الاسلاميون الكبار فقدفسّروا مسألة«القضاءوالقدر» بعلمه تعالى الازلى بالأشياء قبل وقوعها . قالوا : القضاء هو علمه الاجمالى بالاشياء وبالامور الجارية عبر الوجود . والقدر هوعلمه التفصيلى بذلك ، أى علمه تعالى بتفاصيل ماسيقع من الذوات والافعال [1] .

قالوا: ولم يكن العلم القديم علة لحدوث الاشياء، لاالاجمالى منه ولاالتفصيلى حسبما فصلوه وبيّنوه دفعاً لشبهة الجبر .

وفسّر بعضهم « القضاء » بعلمه تعالى بالأشياء ، على ماينبغى أن يكون عليه الوجود ، حتى يكون على أحسن نظام وأبدع تشكيل. وهو المسمى عندهم بالعناية الربانية ، الّتى هى مبدء فيوضاته القدسية ، المفاضة على الموجودات من حيث جملتها على أحسن وجه وأكمل صورة . و«القدر» عبارة عن خروج تلك الاشياء الى عالم « الوجود العينى » بأسبابها وعللها ، وفق الوجه الذى قرّره القضاء القديم [2] .

قال الفيلسوف الحكيم صدر الدين الشيرازى ـ بصدد تفصيل علمه تعالى بالاشياء فى مراتبه الثلاث ،وهى «العناية» و«القضاء»و«القدر» ـ: أمّا «العناية» فهى علمه تعالى بالأشياء فى مرتبة ذاته المقدّسة، علماً مقدساً عن شوب الامكان والتركيب فهى عبارة عن وجوده ،بحيث ينكشف له الموجودات الواقعة فى عالم الامكان على نظام أتم ، مؤديا الى وجودها فى الخارج ، مطابقاً له أتمّ تأدية ، لاعلى وجه القصد والروية ، وهو علم بسيط ، واجب لذاته ، قائم بذاته . خلاق للعلوم التفصيلية العقلية والنفسية ، «على أنّها عنه ، لاعلى أنّها فيه !» [3] .

١ـ اللطائف الغيبية ص١٩٧ـ ١٩٨

٢ـ بنقل العلامة المجلسى عن شرح المواقف . بحار الانوار ج٥ ص١٢٨

٣ـ فى هذه الجملة الاخيرة نكتة دقيقة .هى ردّ على مزعومة الاشعرى فيما زعم ان علمه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته حالة فيها ومقترنة بها، فلزمه القول بتعدد القدماء .

واما «القضاء» ويقال له : أم الكتاب ، فهو عندهم عبارة عن وجود الصور العقلية لجميع الموجودات ، فائضة عنه تعالى ـ على سبيل الابداع ـ دفعة بلا زمان. قال : وأما عندنا فعبارة عن صور علمية لازمة لذاته المقدسة ، بلا جعل ولاتأثير ولاتأثّر، وهي صور قديمة بالذات باقية ببقاء الله .

وأما « القدر» ـ وهو: لوح المحو والاثبات ـ فهو عبارة عن وجود صور الموجودات في العالم النفسي السماوي ، على الوجه الجزئي ، اما انطباعاً ـ كما عليه المشائيون ـ او على سبيل المظهرية ـ كما عليه الاشراقيون ـ مطابقة لما في موادها الخارجية الشخصية ، مستندة الى اسبابها وعللها ، واجبة بها ، لازمة لاوقاتها المعينة وأمكنتها الخاصة .

قال : و«العناية» تشمل «القضاء» ، كما أنّ «القضاء» يشمل «القدر» [1] .

* * *

وأما المتكلّمون من أصحابنا الاماميين ـ قدس الله أرواحهم ـ فقد أوضحوا من هذه المسألة احسن ايضاح، وعرضوها على صعيد عقلي نزيه ، مستعينين بدلالة الكتاب المجيد و السنّة القطعيّة ، و كلمات ائمة الهدى علماء أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فجاءت المسألة مدللة في أبدع صورتها اللامعة ، يتلقّاها ـ بلاشك ـ أذهان متفتحة وعقول سليمة في رحابة وارتياح ، واليك اجمالياً : ـ

* * *

القضاء ـ في اللغة ـ جاء بمعنى الأمر الحتم والحكم الفصل ، النافذ نفوذاً قاطعاً يكون هو منتهى الشيء فلاتعلل بعده . قال الزهري : القضاء في اللغة على وجوه مرجعها الى انقطاع الشيء وتمامه ، وكل ما أحكم عمله أو أتم أو ختم

١ـ راجع : كتاب «الاسفار الاربعة» ج٦ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٣ . وراجع ـ ايضاً ـ فيما افاده ـ قدس سره ـ في شرح عنايته تعالى ورحمته الواسعة لكل شيء بحسب القضاء الرباني والتقدير الالهي ، الفصل الاول من الموقف الثامن ج٧ ص٥٥ ـ ٥٧ .

أو أدى أداء أو أوجب أو أعلم أو أنفذ او أمضى فقدقضى.

فالتكليف اذا كان الزاماً كان قضاء. ومنه قوله تعالى: «وقضى ربك أن لاتعبدوا الاإياه وبالوالدين احساناً ـ الاسراء: ٢٣».

وكذا حكم القاضي قضاء، لكونه الفصل القاطع للدعوى. ومنه قوله تعالى «ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً ـ النساء: ٦٥».

وهكذا الاخبار الحتمي والاعلام بشيء يقيني لامردّ له ـ أيضاً ـ قضاء ومنه قوله تعالى: «وقضينا الى بنى اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض ولتعلن علواً كبيراً ـ الاسراء: ٤». وقوله: «وقضينا اليه ذلك الامر أنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ـ الحجر: ٦٦».

وكذلك انتهاء الأجل المضروب قضاء. ومنه قوله تعالى: «فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ـ القصص: ٢٩» وقوله: «هو الذي خلقكم من طين ثمّ قضى أجلاً ـ الانعام: ٢» أي عيّن أجلاً محدّداً لاينقص ولايزيد.

ومن ذلك سمّي الموت قضاء، اذ به ينتهي أمد العمر انتهاء قاطعاً لامرد له. ومنه قوله تعالى: «فوكزه موسى فقضى عليه ـ القصص: ١٥». وقوله: «فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ـ الأحزاب: ٢٣». وقوله: «يامالك ليقض علينا ربك ـ الزخرف: ٧٧» اى بالموت.

وايضاً فكلّ أمر نافذ قطعي لاتعلل فيه ولاتريث هو قضاء، وهكذا العمل المبرم لايقف في وجهه شيء قضاء. ومنه قوله تعالى: «واذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ـ البقرة: ١١٧». وقوله: «فقضيهن سبع سموات ـ فصلت: ١٢» اى انفذ ارادته في جعلها سبعاً، أو أتمّ خلقهنّ كذلك. وكذا الحكم النافذ تشريعاً كقوله تعالى: «وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ـ الاحزاب: ٣٦».

ومنه قضاء الحاجة أي إنفاذها، كقوله تعالى: «إلّا حاجة في نفس يعقوب

قضيها ـ يوسف : ٦٨» .

وكذلك الانتهاء من أمر الشيء فلم تعد لصاحبه حاجة فيه ، كقوله تعالى : «فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها ـ الاحزاب :٣٧» . ومنه قوله تعالى ـ أيضاً ـ : «فاذا قضيتم مناسككم ـ البقرة : ٢٠٠» . وقوله : «فاذا قضيتم الصلوة ـ النساء :١٠٣» أى أتممتموها كملاً وفرغتم منها .

ويتلخص معنى «القضاء» فى « نفاذ الامر والانتهاء منه حتمياً » .

أمّا القدر ـ بفتحتين ـ فهو بمعنى تقدير الشيء والتعرفة الى كنهه وحدوده من زمان ومكان وسائر الجهات المحددة لوجود الشيء . ومنه التعريف الى هندسة الشيء والعلم بالظروف والاجواء المؤاتية له ، وشرائط وجوده كماً وكيفاً وجهة وغيرها . الأمر الذى يقتضى احاطة بخصوصيات الشيء وجهاته المكتنف بها ، سواء أكان عملاً يريد ايجاده ام كلاماً يريد النطق به أم حكماً يريد انفاذه أم تكليفاً يريد تشريعه فاذا عرف جهاته وملابساته وموقعيته من زمان ومكان وسائر الاحوال ، فقد قدّره تقديراً صالحاً للنفاذ .

ومنه قوله تعالى : «وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام ـ فصلت : ١٠» . وقوله : «انّه فكّر وقدّر ـ المدثر : ١٨» . وقوله : « والذى قدّر فهدى ـ الاعلى : ٣» . أى قدر الاشياء تقديراً فهداها على قدر استعدادها وحظها من عالم الوجود .

وقوله تعالى : «والقمر قدّرناه منازل ـ يس : ٣٩» أى جعلنا له منازل على قدر معلوم . وكذا قوله : «وخلق كل شيء فقدره تقديراً ـ الفرقان : ٢» أى جعله على نمط خاص وعيّن شرائطه ومبلغ استعداده من حظّ الوجود . وهو الّذى نعبر عنه بالهندسة ، أى هندسة هندسة كاملة .

ومنه ليلة القدر الّتى يفرق فيها كل أمر حكيم ، اذ فيها تقدّر الأشياء الّتى ستجرى طول ذلك العام . « والله يقدر الليل والنهار ـ المزمل : ٢٠ » فى تعاقبهما وطولهما وقصرهما على مرّ الايام والدهور . وهكذا قوله : «قدرنا فيها السير ـ سبأ : ١٨» أى

تعينت فيها مقادير السير ليل نهار .

وأمّا قوله تعالى : «الاامرأته قدّرنا انها لمن الغابرين ـ الحجر : ٦٠ »، فقد تقدّم أن المعنى : علمنا من شأنها أنها من الباقين الهالكين .

ويتلخص معنى «القدر» في «تقدير الشيء وهندسته هندسة تامة» .

* * *

وعلى ضوء هذا البيان نستطيع تخليص القول في مسألة القضاء والقدر بما يلي :

«انه تعالى اذا تعلّقت ارادته بخلق شيء وتكوينه اوتشريع حكم ونفاذه ، فانه يقدره أولاً تقديراً ، ثم يقضي بوجوده وينفذه تنفيذاً» . ومن ثم فكان الأجدر ان يقال القدر والقضاء . لان القدر ـ على هذا البيان ـ متقدم على القضاء والنفاذ .

وعليه فقضاء الله بالنسبة الى أفعاله الخاصة ، هو خلقها وايجادها تكويناً : «اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ـ آل عمران : ٤٧» . وبالنسبة الى افعال العباد هو امره والزامه تكليفاً : «وقضى ربك أن لاتعبدوا الااياه ـ الاسراء : ٢٣ » أي أمر تكليفاً واوجب ذلك. «وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ـ الاحزاب : ٣٦» . اى حكم وشرع . فالمؤمن تجاه احكام الشريعة مستسلم لارأي له سوى الطاعة والامتثال. وهذا لايعني سلب قدرته وانما هو بعث على التسليم المحض .

وهكذا قدره تعالى هو تقديره لمايريد انفاذه من خلق أوتشريع . اى علمه بمايحتوي عليه من صلاح أوفساد ، فيوجده تكويناً أويأمر به تكليفا ، وفق ذلك الملاك الواقعي الكامن وراء الاشياء والتكاليف .

قال الشيخ ابو عبدالله المفيد ـ عميد المذهب ـ : «والوجه عندنا في القضاء والقدر ، ان الله تعالى في خلقه قضاء وقدراً . وفي أفعالهم (افعال العباد) ايضاً قضاء

وقدراً معلوماً . ويكون المراد بذلك : انه قضى فى افعالهم الحسنة بـالأمر بها وفى افعالهم القبيحة بالنهى عنها،وفى انفسهم بالخلق لها ،وفيما فعله فيهم بالايجاد له.

والقدر منه ـ سبحانه ـ فيما فعله :ايقاعه فى حقه وموضعه . وفى افعال عباده: ماقضاه فيهما من الامر والنهى والثواب والعقاب ،لان ذلك كله واقع موقعه وموضوع فى مكانه ، لم يقع عبثاً ولم يصنع باطلا»[1] .

وقال العلامة جمال الدين يوسف بن على بن المطهر الحلى : « واعلم ان امير المؤمنين على بن ابى طالب عليه السلام قد بين معنى القضاء والقدر ، وشرحهما شرحاً وافياً ،فى حديث الاصبغ بن نباتة عند منصرفه من صفين ،قال : قام اليه شيخ ، فقال: اخبرنا ياامير المؤمنين عن مسيرنا الى الشام ، أكان بقضاء الله تعالى وقدره .فقال امير المؤمنين عليه السلام : والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، ماوطئنا موطئاً ، ولاهبطنا وادياً ولاعلونا تلعة ، الابقضاءه وقدره !

الشيخ : أعندالله أحتسب عنائى ؟ ماأرى لى من الأجر شيئاً ! .

الامام : مه ، ايها الشيخ ، بل عظم الله أجركم فى مسيركم وانتم سائرون وفى منصرفكم وانتم منصرفون ،ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولااليها مضطرين .

الشيخ : كيف ، والقضاء والقدر ساقانا ؟

الامام : ويحك ، لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حتماً ! لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد والأمر والنهى ، ولم تتأت لائمة من الله لمذنب ولامحمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن اولى بالمدح من المسىء ولاالمسىء اولى بالذم من المحسن ! تلك مقالة عبدة الأوثان[2] وجنود الشيطان

١ـ تصحيح الاعتقاد (اوشرح عقائد الصدوق) ص٢٠ .

٢ـ اشارة ان الاعتقاد بالقضاء والقدر بالمعنى المذكور الباطل،هى عقيدة جاهلية اولى قد رفضها الاسلام .

وشهود الزور ، واهل العمى عن الصواب [1] وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها . ثم قال الامام : ان الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً ، ولم يرسل الرسل عبثاً ، ولم يخلق السماوات والارض ومابينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

الشيخ : فما القضاء والقدر الذى ذكرته ، ياامير المؤمنين ؟

الامام : هو الامر من الله تعالى والحكم .ثم تلا قوله تعالى : «وقضى ربك ان لاتعبدوا الا اياه» .

وفى رواية اخرى : الامر بالطاعة ، والنهى عن المعصية ، والتمكين من فعل الحسنة وترك المعصية ، والمعونة على القربة اليه ، والخذلان لمن عصاه ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب . كل ذلك قضاء الله فى افعالنا وقدره لاعمالنا . اما غير ذلك فلاتظنه ، فان الظن له محبط للاعمال .

فقال الشيخ: فرجت عنى -ياامير المؤمنين -فرج الله عنك ثم نهض مسروراً وأنشأ يقول :

انت الامام الذى نرجو بطاعته ... يوم النجاة من الرحمان غفراناً
اوضحت من ديننا ماكان ملتبساً ... جزاك ربك بالاحسان احساناً
فليس معذرة فى فعل فاحشة ... قد كنت راكبها فسقاً وعصياناً
لا ، لا ، ولا قابلا ناسيه اوقعه ... فيها عبدت اذاً ياقوم شيطاناً
ولااحب ولاشاء الفسوق ولا ... قتل الولى له ظلماً وعدواناً
انى يحب وقد صحت عزيمته ... ذو العرش اعلن ذاك الله اعلاناً [2]

١- هذا الكلام المعجز ينطبق تماماً على مذهب الاشعرى كما نبهنا سابقاً

٢- شرح تجريد الاعتقاد (ط بومباى) ص١٧٥ - ١٧٦ . وكنز الفوائد للكراجكى ص١٧١ -١٧٢ . والكافى - الاصول - ج١ ص ١٥٥ . وشرح النهج لابن ابى الحديد ج١٨ ص٢٢٧ -٢٢٨ . والاحتجاج للطبرسى ج١ ص ٣١٠ - ٣١١ . وبحار الانوار ج٥ ←

قال الشيخ المفيد - بعد ايراد الحديث - : هذا الحديث موضح عن قول امير المؤمنين عليه السلام في معنى العدل، ونفى الجبر، واثبات الحكمة فى افعال الله تعالى ونفى العبث عنها.

وللسيد عبدالله شبر فى تفسير هذا الكلام الزاهي بيان وتحقيق، راجع: «مصابيح الانوار - فى مشكلات الاخبار» ج۱ ص۱۱۳ - ۱۲۳.

* * *

وخلاصة مذهبنا فى القضاء والقدر: ان «القدر» عبارة عن علمه تعالى بمصالح الامور. وذلك يمثل حكمته تعالى فى الخلق والتكاليف. و«القضاء» عبارة عن نفاذ ارادته فى تكوين شىء او تشريع تكليف. والذى يرتبط بافعال العباد هو القضاء بمعنى التشريع والالزام تكليفياً، فلاجبر ولا الجاء. وهو يمثل مبدأ الاختيار فى التكليف. هذه كانت خلاصة مااستفدناه من كلام الامام امير المؤمنين عليه السلام ودلت عليه الآثار المروية عن النبى صلى الله عليه وآله والائمة الهداة المرضيين - عليهم صلوات الله - وسنشير الى بعضها بعد عرض نماذج من آيات مرتبطة بالمقام.

* * *

۱- قال تعالى: «وماكان لنفس ان تموت الا باذن الله، كتاباً مؤجلا - آل عمران: ١٤٥». هذا من قضائه فى التكوين.

۲- «ولكن ليقضى الله امراً كان مفعولا - الانفال: ٤٢». ايضاً قضاء تكوين.

۳- «قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا - براءة: ٥١» اى قدر لنا. بمعنى علمه تعالى بماهو صلاح لانفسنا، فينفذه فينا ان شاء، وفق حكمته تعالى.

٤- «وكان امر الله مفعولا - الاحزاب: ٣٧».

٥- «وكان امر الله قدراً مقدوراً - الاحزاب: ٣٨». هو قضاؤه الحتم وقدره

← ص۱۳- ١٤. وص٩٥ - ٩٦. وص١٢٥ - ١٢٦. والارشاد للشيخ المفيد ص١٢٠-١٢١ وقد صححنا الحديث بمقابلة بعض المصادر مع البعض.

بشأن التكوين .

٦ـ «وماتحمل من انثى ولاتضع الابعلمه ، ومايعمر من معمر ، ولاينقص من عمره ، الافى كتاب . انذلك على الله يسير ـفاطر : ١١» .

الكتاب فى الآية عبارة اخرى عن علمه الأزلى ،وهو قدره تعالى بمعنى احاطته بمزايا الامور وخباياها قبل ان تتكون فى عالم الوجود . اذذاك بالنسبة الى علمه تعالى المحيط شىء ضئيل .

٧ـ «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ـ فصلت : ٤٥ » اى لولا حكمه تعالى بالتأخير والامهال لعجل لهم العذاب .

٨ـ «ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم ـالشورى : ٢١» كذلك .

٩ـ «انا كل شىء خلقناه بقدر ـالقمر : ٤٩» اى بتقدير سابق .

١٠ـ «وكل شىء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر ـ القمر : ٥٢ ـ٥٣» . اى مقدر فى علمه تعالى بالحكم والمصالح .

١١ـ «ما أصاب من مصيبة فى الارض ولافى انفسكم الافى كتاب من قبل ان نبرأها انذلك على الله يسير ـالحديد : ٢٢» : تقدم نظيرها برقم :٦ . والكتاب هو علمه تعالى بالحكم والمصالح . و«نبرأها» اى نوجدها ونخلقها ، لأن التقدير قبل القضاء على ماسبق .

وقوله ـبعدذلك ـ:«لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ـالحديد: ٢٣» يعنى اذلو عرفتم من أحداث هذا الكون هى ذوات مصالح مدروسة من قبل، لما فزعتم تجاه آلامها اوفخرتم بحظوظها، اذكل ذلك انمايجرى على حكم ومصالح ومقتضيات مدروسة من ذى قبل ، وليست مفاجأة اتفاقية كما يزعمها قاصروا النظر فى مظاهر هذه الحياة .

١٢ـ «ماقطعتم من لينة اوتركتموها قائمة على اصولها فباذن الله ـ الحشر :٥» اى باقداره وامداده لكم ، ولولا انها مصلحة لما امدكم بالقوى ولكنتم اعجز من فى الوجود . والآية نظيرة مامر من قوله : «ومارميت اذ رميت ـ الانفال : ١٧» فراجع (ص ٢٣٤) .

١٣ـ « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ـ التغابن : ١١ » تقدم نظيرها برقم : ٦ و ١١ .

١٤ـ «يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علماً ـ الطلاق : ١١ـ١٢» اى علما بالحكم والمصالح ، وهذه اشارة الى جانب تقديره تعالى للامور .

١٥ـ «فيمسك التى قضى عليها الموت ـ الزمر: ٤٢» اى نفذ فيه الحكم بالموت والانتهاء من اجله المحتوم .

١٦ـ «اذ قضينا الى موسى الأمر ـ القصص: ٤٤» اى انفذناه نفاذاً حتماً . والأمر فى الآية يراد به الشريعة التى انزلها الله على موسى عليه السلام .

١٧ـ «والله يقضى بالحق ـ غافر : ٢٠ » اى يحكم بالحق او ينفذ ماقدره وفق الحكمة .

١٨ـ «من قبل ان يقضى اليك وحيه ـ طه : ١١٤ » اى ينتهى ويكتمل الى تمام الآية .

١٩ـ « ياليتها كانت القاضية ـ الحاقة : ٢٧» . اى قاطعة لحياتى فلم ابعث بعدها .

٢٠ـ «وكان امراً مقضياً ـ مريم : ٢١» . هذا تيئيس لمريم ـ عليها السلام ـ وان حملها بعيسى ـ عليه السلام ـ كان أمراً مدروساً من ذى قبل ذا حكمة ومصلحة داعية الى الايجاد ، وقد نفذ بشأنه حكم الله بالخلق والتكوين ، فلامرد لقضائه تعالى .

٢١ـ وهكذا قوله تعالى : «انمنكم الاواردها (مشرف عليها فيوقف فيها او يمر عليها) كانعلى ربك حتما مقضياً ـمريم: ٧١» . اىذا مصلحة داعية الىذلك ومن ثماوجبه تعالى على نفسه وفقاً لحكمته فىذلك .

* * *

والاحاديث المأثورة عن اهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ بشأن مسألة «القضاء والقدر» مختلفة ،منها : الآمرة بها ، وانالناكر للقدر ليس بمسلم .ومنها: الناهية عن التعرض لمسألة القدر ، وانها سر مناسراره تعالى فلاتتكلفوه . ومنها : الشارحة لحدود المسألة اما اجمالياً اوبتفصيل .وعليه فيمكننا تنويع هذهالأحاديث الى طوائف :

الاولى ـالآمرة بالايمان بمسألة القدر : ـ

١ ـ قال رسولالله ﷺ : « لايؤمن عبد حتى يؤمن باربعة : حتى يشهد ان لااله الاالله وحده لاشريك له . وانى رسولالله بعثنى بالحق . وحتى يؤمن بالبعث بعدالموت . وحتى يؤمن بالقدر[1] » .

انظر الى هذا الحديث ، يجعل منالايمان بالقدر ، فى عداد أوليات اصول العقيدة الاسلامية : الشهادة بالتوحيد ، الشهادة بالرسالة ، الاعتقاد بالمعاد .الاعتقاد بالقدر .

وهذا ـعلىالتفسير الذىقدمنا للقدر ـواضح،اذ الايمانبالقدر ـعلى ذلكـ ايمان بسلطانالله القاهر وتدبيره الشامل، «الحمدلله رب العالمين» . «وقالتاليهود يدالله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا . بليداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـالمائدة : ٦٤». قال رسولالله ﷺ : «انالله عزوجل ـقدر المقادير ودبرالتدابير قبل انيخلق آدم بألفى عام»[2] .

١ـ الخصال للصدوق فصلالاربعة ص١٨١ (ط نجف) والبحار ج٥ ص٨٧

٢ـ عيون اخبار الرضا ص٨٠ . والبحار ج٥ ص٩٣ رقم١٢ .

ويتخلص الايمان بالقدر في «الاعتقاد بأن الله هو المدبر لشؤون هذا العالم والمنفذ لمايتكون في الوجود». لكن بالملاحظة التي قدمنابمالا يستلزم جبراً ولا الجاء فيما يخص افعال العباد الاختيارية ، فراجع مسألة الأمربين الأمرين (ص ١٧٥) ومسألة انتساب الحوادث الى الله (ص١٨٣).

٢ـ وقال ايضاً ﷺ : « اربعة لاينظر الله اليهم يوم القيامة : عاق ، ومنان ، ومكذب بالقدر ، ومدمن خمر »[١] .

٣ـ وقال ﷺ : «ستة لعنهم الله ... الزائد في كتاب الله ، المكذب بقدر الله، التارك لسنتي، المستحل من عترتي، المتسلط بالجبروت ،المستأثر بفيء المسلمين»[٢].

* * *

الطائفة الثانية : الأحاديث الناهية عن التعرض لمسألة القدر ، مخافة الزلة فيها .وذلك لان الايمان بالقدر كان من اصول العقائد الجاهلية بانحراف في فحواها كانوا يعتقدون من تقديره تعالى لحوادث هذا الكون وتدبيره لشؤون الخليقة جبراً للعباد فيما يزاولون من اعمال اختيارية . اذلايقع شيء في عالم الوجود الا بتقدير الله ، فلاموقع لارادة العباد واختيارهم في ذلك من شيء !

هذا في حين ان مسألة القدر تعني شيئاً آخر لاصلة بينه وبين الالجاء والاضطرار. اذعلمه تعالى الازلي بمصالح الاشياء ومفاسدها ،خيرها وشرها،ليكون خلقه وايجاده للاشياء عن مصالح وملاكات كامنة وراء وجوداتها ، تحقيقا لجانب حكمته تعالى وعدله ، لامساس له بمسألة الجبر واضطرار العباد على افعالهم الاختيارية .

ولعلك بمراجعة مااثبتنا في مسألة الامر بين الأمرين عرفت مدى دقة هذه المسألة المنطوية على سر الوجود على الاطلاق، اذمعرفة مابين وجود الموجودات

١ـ الخصال باب الاربعة ص١٨٤ . والبحار ج٥ ص٨٧ رقم ٣ .

٢ـ الخصال باب الستة ص٣٠٧ ـ٣٠٨ . والبحار ج٥ ص٨٧ رقم٤ .

طرأ ، وتأثيره تعالى فى ذلك ، من ادق المعارف الاسلامية العليا ، قد كابد العلماء الأمرين حتى عثروا على حقيقتها ووقفوا على كنهها ، على مانبهنا . وهذا هو السر فى النهى عن ولوجها، ولكن نهياً موجهاً الى اولئك القاصرى النظر من ذوى المعلومات الهابطة اوالضئيلة فـى مجالات العلوم الاسلامية الاصولية ذلك العهد . واليك نماذج منها :

٤/١ـ سأل رجل الامام امير المؤمنين عليه السلام عن القدر ، فقال : «بحر عميق فلاتلجه» . فسأله ثانية ،فقال :«طريق مظلم فلاتسلكه» . فسأله ثالثة ،فقال: «سر الله فلاتتكلفه»[١] .

٥/٢ـ وفى نهج البلاغة :قال ـ وقدسئل عن القدر ـ:«طريق مظلم فلاتسلكوه وبحر عميق فلاتلجوه ، وسر الله فلاتتكلفوه»[٢] .

٦/٣ ـ وقال ـ ايضاً ـ : «الاان القدر سر من سر الله ، وحرز من حرز الله مرفوع فى حجاب الله ، مطوى عن خلق الله ، مختوم بخاتم الله ، سابق فى علم الله وضع الله عن العباد علمه ، ورفعه فوق شهاداتهم ومبلغ عقولهم» .

هذا النهى الوارد فى كلام الامام عليه السلام ينظر الى اولئك المستضعفين . ممن تقصر افهامهم عن الخوض فى مسائل الوجود ، وفى خلق اعمال العباد ، فانه ربما افضى ذلك بهم الى القول بالجبر ،لما فى ذلك من غموض ومزالق ، تحتاج السلامة منها الى دقة ومعرفة كاملة ،كان ابناء ذلك العهد يعوزونها البتة .

ومن ثم قال عليه السلام تعقيبا على كلامه المذكور : ـ « لانهم لاينالونه بحقيقة الربانية ، ولابقدرة الصمدانية ، ولابعظمة النورانية ، ولابعزة الوحدانية . لانه بحر زاخر مواج ،خالص لله عزوجل ،عمقه مابين السماء والارض،عرضه مابين المشرق

١ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٧٤ . والبحار ج٥ ص٩٧ و١١٠ .

٢ـ شرح النهج لابن ابى الحديد ج١٩ ص١٨١ رقم٢٩٣ .

والمغرب ، اسود كالليل الدامس ، كثير الحيات والحيتان ، تعلو مرة وتسفل اخرى» .

ثم قال : «في قعره شمس تضيء ، لاينبغي ان يطلع عليها الاالواحد الفرد» اى الا الاوحدى من الناس ممن وقف على حقيقة الدين وعرف اسسه المحكمة .

وهذا دليل على ان النهى عن الولوج فيه انما كان لمعرفته عليه السلام قصور اهل زمانه في ادراك امثال هذه الحقايق العليا .

وأخيراً ندد عليه السلام باولئك القاصرين مالو حاولوا التكلف فى مسألة القدر فقال : « فمن تطلع عليها » اى حاول التطلع على تلك الشمس التى هى شمس الحقيقة ، وهو ليس من أهلها «فقد ضادالله فى حكمه ، ونازعه فى سلطانه ، و كشف عن سره وستره ، وباء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير» [1] .

٤/٧- وعن ابن اذينة قال : قلت للامام الصادق عليه السلام : جعلت فداك ،ماتقول فى القضاء والقدر ؟ قال : اقول : ان الله تعالى اذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم ! [2] .

٥/٨ ـ وقال الامام الصادق عليه السلام لزرارة بن اعين : يازرارة اعطيك جملة فى القضاء والقدر ؟ قال : نعم ، جعلت فداك . قال : اذا كان يوم القيامة ، وجمع الله الخلائق ، سألهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم [3] .

هكذا كلام من الامام عليه السلام بالنسبة الى هذين العلمين الجليلين ، لعله من باب «اياك اعنى واسمعى ياجارة» فيأمرهما الامام ان يكفا عن التعرض لمثل هذه المسألة

١- كتاب التوحيد للصدوق ص٣٩٢ . والاعتقادات ص٧١ .والبحار ج٥ ص٩٧ .

٢- كتاب التوحيد للصدوق ص٣٧٣-٣٧٤ . والبحار ج٥ ص١١٢ رقم ٣٨ .

٣- كنز الفوائد للكراجكى ص١٧١ . والبحار ج٥ ص٦٠ رقم١١١ .

الدقيقة في الاوساط العامية ، ولاسيما والبحث والجدل في هكذا امور عقائدية غامضة كان دارجاً ذلك العهد ، واكثرهم كان في تخبط وتخليط .

وخلاصة هذا الكلام : ان على العوام ان يبحثوا عن التكاليف المعهودة اليهم ، ليتبينوا ماهي وظيفتهم في العمل ، امـا البحث عن مسألة القضاء والقدر فهو بحث عن وظيفة الله في الخلق ، وليس ممايسأل العباد فهمه . فهو تدخل فيما لايعني .

* * *

الطائفة الثالثة : احاديث مفسرة لمسألة القضاء والقدر ، وشارحة لفحواها غير انها جاءت بتعابير وألسن متفاوتة ،ولعله حسب اختلاف مستوى الأوساط التي صدرت تلك الاحاديث اليها .

فمنها اشارات عابرة وفي تعابير اجمالية ،ومنها مفصلة وبعبارات توضيحية متلاحقة ، ولنذكر من كلا النوعين نماذج :ــ

٩/ ١ــ قال الامام ابوعبدالله الصادق عليه السلام : «ان الله اذا اراد شيئاً قدره ،فاذا قدره قضاه ، واذا قضاه امضاه»[١] .

٢/١٠ــ وقال الامام ابوجعفر الباقر عليه السلام : «لايكون شيء في الارض ولافي السماء الابهذه الخصال السبع : بمشية ، وارادة ، وقدر ، وقضاء ، واذن ،وكتاب واجل ... الخ»[٢] . وروى قريباً منه الصدوق في الخصال في باب السبعة[٣] .

٣/١١ــ وسئل امير المؤمنين عليه السلام عن القضاء والقدر . فقال : « لاتقولوا : وكلهم الله الى انفسهم فتوهنوه . ولاتقولوا : اجبرهـم على المعاصي فتظلموه .

١ــ محاسن البرقي ص٢٤٣ . والبحار ج٥ ص١٢١ .

٢ــ نفس المصدر ص ٢٤٤

٣ــ راجع البحار ج٥ ص٨٨ برقم٧ .

ولكن قولوا : الخير بتوفيق الله . والشر بخذلان الله . وكل سابق في علم الله

هذا الحديث الشريف من جلائل كلمات الامام امير المؤمنين عليه السلام يشرح مسألة «الامر بين الامرين» ، ومسألة «القضاء والقدر» في افعال العباد الاختيارية بأوجز كلام واوفى تعبير بليغ . يقول عليه السلام : ليست الامور موكولة الى العباد كاملة لتكون خارجة عن سلطان الله ، وهذا هو التفويض الباطل في مذهبنا .

وهكذا ليس العباد مضطرين فيما يعملون ، لتكون افعالهم واقعة لاعن ارادتهم ولاعن اختيارهم رأساً ، وهذا هو الجبر الباطل ايضاً . بل الامر بين الامرين ، لاجبر ولاتفويض . فان الافعال وان كانت لاتقع الابايقاعه تعالى وايجاده ، لكنها انما تقع بارادة تبعية لارادة العباد ـ فيما يخص الافعال الاختيارية ـ تحقيقاً لمبدء الاختيار وكان هذا هو المعبر عنه بالاذن منه تعالى ، الامر الذى لاينبغى اشتباهه بمبدء الجبر ولاالتفويض . حسبما تقدم تفصيله .

نعم هناك في الاعمال الصالحة لايعدم العباد توفيقه تعالى بالتسهيل والتسديد كما لايعدم القائمون بالشر خذلانه وحرمانه عن ألطافه تعالى الخاصة .

هذا مايستفاد من الحديث الشريف اجمالياً : فأجدر به من كلام بليغ بديع !

٤/١٢ ـ وللامام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام كلام تفصيلى عن مسألة القضاء والقدر ، وصلتها بمسألة علمه تعالى الأزلى ومشيئته ، نذكره فى تقاطيع متلاحقة حسب الترتيب الطبعى الذى رتبه الامام عليه السلام :ـ

قال : علم وشاء ، وأراد وقدر ، وقضى وأمضى !

فأمضى ماقضى ، وقضى ماقدر ، وقدر ماأراد !

فبعلمه كانت المشيئة ، وبمشيئته كانت الارادة ، وبارادته كان التقدير ، وبتقديره كان القضاء ، وبقضاءه كان الامضاء .

فالعلم متقدم على المشيئة ، والمشيئة ثانية ، والارادة ثالثة ، والتقدير واقع

١ـ الاحتجاج للطبرسى ص١١٠ . والبحار ج٥ ص٩٥ .

على القضاء .

فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء ، وفيما أراد لتقدير الاشياء ، فاذا وقع القضاء بالامضاء فلابداء .

فالعلم بالمعلوم قبل كونه ، والمشيئة فى المشاء قبل عينه ، والارادة فى المراد قبل قيامه ، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عيانا وقياماً (ووقتا خل).

والقضاء بالامضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الاجسام المدركات بالحواس من ذى لون وريح ، ووزن وكيل ، وما دب ودرج ، من انس وجن ، وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس . فلله تبارك وتعالى فيه البداء ، مما لاعين له . فاذا وقع العين المفهوم المدرك فلابداء ، والله يفعل مايشاء .

وبالعلم علم الأشياء قبل كونها[1] ، وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها ، وأنشأها قبل اظهارها . وبالارادة ميز أنفسها فى ألوانها وصفاتها وحدودها ، وبالتقدير قدر أقواتها ، وعرف[2] أولها وآخرها ، وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلهم عليها ، وبالامضاء شرح عللها ، وأبان امرها . ذلك تقدير العزيز العليم[3] .

ولعلنا فى هذا التقطيع سهلنا على القارئ فهم فحوى الحديث بعض الشيء اما شرحه المستوفى فخارج عن نطاق الكتاب . وقد شرحه العلامة المجلسى -قدس سره- فى موسوعته القيمة « بحار الانوار » ج٥ ص١٠٢ - ١٠٤ . ونقل عن بعض الافاضل هناك بياناً علمياً لابأس به . وان شئت فراجع تجد فيه مايروى الغليل ويشفى العليل .

١- لايشتبه هذا التعبير بمذهب الاشعرى القائل بقيام مبدء الصفات بذاته تعالى. اذ مراد الامام -عليه السلام- بيان اثبات نفس الصفات من غير نظر الى مبادئها . كما يظهر من بقية الجمل .

٢- بالتشديد من باب التفعيل

٣- كتاب التوحيد للصدوق ص٣٤٥-٣٤٦ .والبحار ج٥ ص١٠٢

وللسيد عبدالله شبر ـ أيضا ـ مقال ضاف حول تفسير هذا الحديث ، تكلم فيه بتفصيل وتحقيق في كتابه القيم الخالد «مصابيح الانوار في حل مشكلات الاخبار» ج ١ ص ٤٨ ـ ٥٨ .

١٣/ ٥ ـ قال امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : «ماغلا أحد في القدر الاخرج من الايمان» [١] .

الغلو في القدر هو القول بالجبر ، بجعل افعال العباد خارجة عن اختيارهم ، وواقعة تحت ارادته تعالى تقع حيثما يشاء لاشأن للعباد في ذلك رأساً . وهذا هو مذهب العرب الجاهلي الذي كافحه الاسلام بشدة .

وللحديث تفسير آخر : يكون الغلو في عقيدة التفويض ، ليكون الله قد قدر الاشياء وتركها تتحقق بذواتها وفق تقدير الله القديم . ولاشأن لاذنه تعالى في تحقق الافعال والموجودات . وهذا مذهب اهل التفويض . جاءت تسميتهم في احاديث اهل البيت بالقدرية .

ويدل على هذا المعنى الثاني مارواه الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام قال: «ان القدرية مجوس هذه الامة ، وهم الذين ارادوا ان يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه» [٢] .

١٤/ ٦ ـ وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرقى [٣] يستشفى بها ، هل ترد من قدر الله؟ فقال : انها من قدر الله ! [٤] .

---

١ ـ ثواب الاعمال للصدوق ص ٢٠٥ . والبحار ج ٥ ص ١٢٠ رقم ٦٠ .

٢ ـ كتاب التوحيد للصدوق ص ٣٩٠ .

٣ ـ الرقية : العوذة ، وهي دعاء يشد على المريض لاستشفاءه من عندالله . على شريطة ان تكون مأثورة بالاثر الصحيح .

٤ ـ قرب الاسناد ص ٤٥ . والبحار ج ٥ ص ٨٧ رقم ١ .

وهذا كالدعاء والاستغفار يرد القضاء وقدابرم ابراماً ـ كما فى الحديث ـ قال تعالى : « يمحوالله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ـ الرعد : ٣٩ » . فالتقدير الاول ـ مثلا ـ ان يشتد مرض فلان على اثر عمله كذا . ثم اذا شرب الدواء الناجح اوابتهل الى الله فى شفاءه ، فقدقدر شفاؤه لذلك . فكماان الاول تقدير كذلك الثانى تقدير . وهذا واضح اذاماراجعت تفسيرناللقدر ، وهو العلم بالملاكات والمقتضيات هل تتصادم مع الموانع املا ؟ .

٧/١٥ـ وعن ابن نباتة ، قال : ان امير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل الى حائط آخر ، فقيل له : ياامير المؤمنين ، تفرمن قضاءالله ؟ قال : أفر من قضاءالله الى قدرالله عزوجل [١] .

ولعل عمله عليه السلام ذلك كان امتثالا لدستور اسلامى « وجوب التحفظ على النفس» . قال الامام الصادق عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «خمسة لايستجاب لهم أحدهم رجل مر بحائط مائـل ، وهويقبل اليه ، ولم يسرع المشى ، حتى سقط عليه» [٢] .

اما بالنسبة الى علمه الخاص ـ فى مقام ولايته التكوينية ـ فجائز ان يعمل وفق علمه ، كمافى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام قال : ان امير المؤمنين عليه السلام جلس الى حائط مائل ، يقضى بين الناس . فقال بعضهم :لاتقعد تحت هذا الحائط فانه معور . فقال امير المؤمنين : حرس كل امرء أجله . فلما قام سقط الحائط .

قال الامام الصادق عليه السلام : وكان امير المؤمنين عليه السلام يفعل هذا واشباهه . و هذا اليقين [٣] .

١ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٧٧ . والبحار ج٥ ص١١٤ رقم٤١ .

٢ـ الخصال للصدوق باب الخمسة ص٢٧٢ برقم٧١ والبحار ج٥ ص١٠٥ .

٣ـ الكافى الشريف ج٢ ص٥٨ . والبحار ج٥ ص١٠٤ـ١٠٥ رقم ٣٠ .

وقال امير المؤمنين عليه السلام لسعيد بن قيس الهمدانى عندما نصحه ليقى بنفسه عن غيلة الاعداء : «ياسعيد، انه ليس من عبد الا وله من الله -عزوجل- حافظ وواقية، معه ملكان يحفظانه من ان يسقط من رأس جبل، او يقع فى بئر. فاذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شىء»[1].

وللعلامة المجلسى -هنا[2] - بيان لطيف فى توجيه موقف الامام امير المؤمنين من قضية الحائط المعور، حيث احتاط فى مورد ولم يعبه به فى مورد آخر. فراجع.

* * *

السعادة والشقاء

من المسائل المستعصية فى الاصول هى مسألة «السعادة والشقاء» : هل السعيد من كتبت له السعادة فى الأزل، والشقى من كتب له الشقاء فى بطن امه وقبل ان يولد؟! اذن فما موقف السعيد من سعادته، وموقف الشقى من شقاءه؟ اذا كانت السعادة والشقاء امرين خارجين عن اختيار المكلف ذاته، وانما هما مفروضان عليه رغم ارادته ومساعيه فى هذه الحياة؟!

قلت : «السعادة» قد تطلق ويقصد بها معنى نفسى، وهى حالة استقامة للنفس تجعلها ترغب - دائماً - فى الخير وفى مناشىء الصلاح، ولا تميل فى ذاتها الى شر وفساد. وفى مقابلة ذلك «الشقاء» حالة نفسية منحرفة تميل بها الى الشر والفساد ولا ترغب فى خير ولا فى صلاح. وتسمى هذه الحالة بالخباثة النفسية، وصاحبها «شقى» اى «خبيث»[3]. كما تسمى الحالة الاولى بطيب النفس، وصاحبها « سعيد »

١- نفس المصدر ص٥٨-٥٩.

٢- بحار الانوار ج٥ ص١٠٥ تحت الرقم : ٣١.

٣- كما فى قوله تعالى : «ولم يجعلنى جباراً شقياً -مريم : ٣٢». وقوله : «كذبت ثمود بطغواها، اذانبعث اشقاها - الشمس : ١٢».

اى «طيب النفس» .

وللسعادة والشقاء معنى آخر يرتبط وحالة الانسان الظاهرية ممايمس عيشته فى‌هذه الحياة . اذتكون السعادة حينذاك بمعنى الرفاه فى العيش ، والشقاء بمعنى العنـاءاى الضيق والشدة فى‌الحياة .

قال تعالى : «طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى» اى‌لتضيق على نفسك بكثرة العبادة و نبذلذائذالحياة رأساً . وقال : «فلايخرجنكما من‌الجنة فتشقى ـ طه:١١٧» اى فتتعب وتقع فى‌عناء العيش بعدهذا الرغد والمرفهية .

كماورد فى‌الحديث : « من‌سعادة المرء سعة داره ، ومن شقاءه ضيق داره » اى من‌قدرله الرفاه فى هذه الحياة كان من دلائله ان ينعم بسعة فى داره ، ومن قدر له الضيق فى‌الحياة ، كان من‌دلائله ان يرزق بدار ضيقة . اذليست سعة الدار ولاضيقها ممايرتبط ومسألة السعادة والشقاء بمعنى طيب النفس وخبثها ، ومن ثم جاء فى‌رواية اخرى : «من‌شقاء العيش ضيق المنزل» اى من‌سوء الحظ فى‌الحياة ان‌تكون دارسكنى الانسان ضيقة [1] .

اذن فالسعيد ـ على هذا التفسير ـ هوصاحب الحظ الوفير فى‌هذه الحياة والشقى : المحروم التعيس .

ونحن قد فسرناالحديث المأثور «السعيد من‌سعد فى بطن امه ، والشقى من شقى فى بطن امه [2] » ـ فى‌بعض المجالات ـ بهذا المعنى الثانى [3] . اى من‌قدرله الرفاه فى‌هذه الحياة فان دلائله تبدو من‌حين انعقاد نطفته ، فانه ينعم برفاه فى‌نفسه وفى‌امه فتقضى دورحملهابه فى‌ارتياح‌ورغد من‌العيش الهنىء .اماالتعيس المحروم

١ـ مكارم‌الاخلاق للطبرسى ،والوسائل ابواب‌احكام المساكن‌ج٣ ص٥٥٧ـ٥٦٠.

٢ـ بحار الانوار ج٥ ص١٥٣ رقم ١ نقلا عن‌أمالى الصدوق .

٣ـ وللحديث تفسير آخر سيأتى فى‌حديث ابن ابى عمير مع‌الامام موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ .

فان تعاسته لتسرى الى حالة امه ، لتقضى دورحملها فى عناء وعطب وقلق نفسى واضطراب .

ولعل الاطلاق الاول من السعادة والشقاء ، استعارة من هذا المعنى ، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس ، فالسعيد الطيب النفس مرفه عليه نفسياً ، انه يعيش فى آفاق متسعة الأبعاد ، فى طمأنينة من الحياة وارتياح . « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم » والشقى الخبيث يعيش فى قلق وحرج واضطراب نفسى ، فى إطار ضيق من الحياة الدنيا الحالكة ، المليئة بالأكدار والأخطار .

اما السعادة والشقاء بالمعنى الاول ، فلم يقدر لأحد أن يكون شقياً أى خبيثاً لان الله تعالى لم يخلق أحداً للنار ، وانما خلقهم ليكونوا مؤمنين مطيعين ، ولينعموا برضوانه فى جنة عدن محبورين . وانما يخبث من يخبث بسوء اختياره وانهماكه فى شهوات دنيا ولذائذ وقتية سفلى ، ثم تحيط به خطيئاته ، وتحول دون نور عقله آثامه ، فيعمى قلبه ويعشى بصره ويصم اذنه ، واخيراً يفقد شخصيته الانسانية الكريمة. ومن ثم صح التعبير فى شأنه : قد غلبت عليه شقوته ، فأمسى من السافلين .

قال الامام ابوعبدالله الصادق عليه السلام فى قوله تعالى « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ـ المؤمنون : ١٠٦ » قال : « بأعمالهم شقوا » [١]. هذا الحديث الشريف يؤكد على ان الشقاء امر مكتسب من قبل العبد نفسه ، وليس امراً مفروضاً عليه من قبل الله سبحانه . حيث عدله وحكمته تأبى فرض الشر على أحد اطلاقاً .

وسأل ابن ابى عمير ـ المحدث العلامة العملاق ـ اباالحسن الامام موسى ابن جعفر عليه السلام عن تفسير قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الشقى من شقى فى بطن امه ، والسعيد من سعد فى بطن امه » . فقال الامام عليه السلام : « الشقى من علم الله ـ وهو فى بطن امه ـ انه سيعمل اعمال الأشقياء . والسعيد من علم الله ـ وهو فى بطن امه ـ انه سيعمل

١ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٦٦ . والبحار ج٥ ص١٥٧ رقم ١٠ .

اعمال السعداء» .

فسأله ثانية : فما معنى قوله صلى الله عليه وآله : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[1] .فقال الامام : «ان الله ـ عزوجل ـ خلق الجن والانس ليعبدوه ، ولم يخلقهم ليعصوه . وذلك قوله ـ عزوجل ـ «وماخلقت الجن والانس الاليعبدون» . فيسر كلا لماخلق له فالويل لمن استحب العمى على الهدى»[2] .

هذا من جلائل احاديث اهل البيت عليهم السلام ـ وهم أدرى بما فى البيت ـ وهو يؤكد تماماً ماذكرنا : ان احداً لم يقدّر له أن يكون شقياً اوخبيثاً .

وقوله أخيراً :«فيسر كلاً لما خلق له» اشارة الى قوله تعالى : «ثم السبيل يسره ـ عبس : ٢٠» اى ان الله تبارك وتعالى انما خلق العباد ليعبدوه وليختاروا طاعته على معصيته ، ومن ثم أقدرهم على كلا الأمرين ويسر لهم طرق الامتثال لتكون اطاعتهم عن اختيار وعبادتهم عن رغبة وارادة ،وهكذا كانت منحة الاختيار لحكمة التكليف والاختبار ،الاان من العباد من يستغل هذه المنحة الالهية فى اغراض مخالفة فيستعمل من قدرته وقواه،فى اتجاه معاكس لغرضه تعالى .فويل له من هذه الاستفادة السيئة .

وقد جاء هذا المعنى فى احاديث كثيرة ، منها : مارواه البزنطى عن الامام

١ـ هذا الحديث رواه اهل السنة بعدة اسانيد ، منها مارواه البخارى فى جامعه باب قول الله تعالى : «ولقد يسرنا القرآن للذكر» عن عمران قال : قلت : يارسول الله ، فيما يعمل العاملون ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له» .وهكذا رووا عن على ـ ع ـ قال :«اعملوا فكل ميسر» . (صحيح البخارى ج٩ ص١٩٥) .وقد أخذت الاشاعرة ـ وهم جل اهل السنة ـ من هذه الاحاديث دليلا على مذهبهم فى الجبر ، حسبما يأتى . ومن ثم فان الامام ـ ع ـ مع اقراره لاصل الحديث يخطؤهم فى فهم معناه وان له تفسيراً يتوافق مع عدله وحكمته تعالى على ما بينه الامام ـ ع ـ .

٢ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٦٦ . والبحار ج٥ ص١٥٧ رقم ١٠ .

عليه السلام فيما نقله من الحديث القدسي : « ياابن آدم ،بمشيئتي كنت انت الذى تشاء (اى الاذن منه تعالى) وبنعمتي اديت الى فرائضى ، وبقدرتى قويت على معصيتى خلقتك سميعاً بصيراً . انااولى بحسناتك منك ،وانت اولى بسيئاتك منى ...الخ»[1].

وفى حديث الزنديق ، سأل الامام اباعبدالله الصادق عليه السلام فقال : اخبرنى عن الله ، كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين ؟ قال : لوخلقهم مطيعين لم يكن ثواب، لان الطاعة اذا لم تكن من فعلهم لم تكن جنة ولانار . لكنه تعالى خلقهم فأمرهم ونهاهم ، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون .

الزنديق : أليس العمل الصالح والعمل الشر من فعل العبد ؟

الامام : العمل الصالح يفعله العبد والله أمره به ، والعمل الشر يفعله العبد والله نهاه عنه .

الزنديق : أليس فعل العبد بالآلة التى ركبها الله فيه ؟

الامام : نعم . ولكن بالآلة التى عمل بها الخير ، قدر بها على الشر الذى نهاه ... الخ[2] .

* * *

وبعد فاليك من آيات السعادة والشقاء نماذج :

١ـ قال تعالى : «يوم يأت لاتكلم نفس الاباذنه ،فمنهم شقى وسعيد ـ هود: ١٠٥ » .

زعمت الاشاعرة ـ وهم جبرية خالصة على ماأسلفنا[3] ـ انهذه الآية الكريمة تدل على مذهبهم فى الجبر ، وان السعيد من كتبت له السعادة فلايستطيع غيرها والشقى من كتب له الشقاء فلايستطيع غيره ،ومن ثم اخبر سبحانه بان من يدخل الجنة

١ـ قرب الاسناد ص١٥١ . والبحار ج٥ ص٤ـ٥ رقم٣ .

٢ـ الاحتجاج للطبرسى ص١٨٦ . والبحار ج٥ ص١٨ـ١٩ رقم ٢٩ .

٣ـ راجع : ص٦٨ فيما اثبتناه عن ابى الحسن الاشعرى فى قوله بالجبر .

هم السعداء ، وان من يدخل النار هم الأشقياء !

قال مفسرهم وامامهم المتفلسف الفخر الرازى ـ بشأن دلالة الآية ـ : اعلم انه تعالى حكم الآن على بعض اهل القيامة بأنه سعيد ، وعلى بعضهم بـأنه شقى ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الامر ، امتنع كونه بخلافه. والالزم ان يصير خبر الله تعالى كذبـاً وعلمه جهلا ، وذلك محال . فثبت ان السعيد لاينقلب شقياً وان الشقى لاينقلب سعيداً . قال : وتقرير هذا الدليل مر فى هذا الكتاب (يعنى تفسيره الكبير) مراراً لاتحصى .

قال : وروى عن عمر بن الخطاب انه قال : لمانزل قوله تعالى « فمنهم شقى وسعيد» قلت : يارسول الله ، فعلى ماذا نعمل ؟ على شىء قدفرغ منه ، ام على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال : «على شىء قدفرغ منه ياعمر ، وجفت به الأقلام ، وجرت به الأقدار ، ولكن كل ميسر لما خلق له» [1] .

ثم قال : وقالت المعتزلة : « نقل عن الحسن انه قال : فمنهم شقى بعمله وسعيد بعمله» .

واجاب بأن الدليل القاطع (الذى اقامه ـ فيما زعم ـ على اثبات الجبر) لايدفع بهذه الروايات !

وقال ـ أخيراً ـ : وايضاً فلانزاع انه انما شقى بعمله ، وانما سعد بعمله ، ولكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء الله وقدره ، كان الدليل الذى ذكرناه باقياً [2] .

قلت : اما الرواية التى رووها عن ابن الخطاب فلانعتمدها نحن بـالذات أولاً ـ لضعف الاسناد ، لان فى طريقها سليمان بن سفيان عن عبدالله بن دينار . وقد

---

١ ـ هذه الرواية رواها جميع ارباب التفسير وغيرهم من محدثى العامة . انظر : الطبرى ـ التفسير ـ ج١٢ ص٧٠ .

٢ ـ التفسير الكبير ج١٨ ص٦٠ ـ ٦١ .

ضعفه ائمة النقد والتمحيص[1] .

ثانياً ـ لمخالفتها لاصول العدل والحكمة في ذاته تعالى المقدسة .

ثالثاً ـ وعلى فرض تسليمها فلابد من تفسيرها بمالايتنافى مع مذهب العدل.

قال الشيخ محمد عبده :ومعناه ـ الذى غفل عنه اوجهله الكثيرون على ظهوره ـ: ان الله يعلم الغيب ، وعلمه بان زيداً يدخل الجنة اوالنار ، ليس معناه انه يدخلها بغير عمل يستحقها به بحسب وعده وحكمته ، ولا انه لافرق فيما يعمله فى الجزاء وانما يعلم الله المستقبل كله بجميع اجزائه واطرافه ،ومنه عمل العاملين ومايترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده فى كتابه المنزل و كتابته للمقادير ولاتناقض ولاتعارض بينهما . ونحن لانعلم الغيب ، ولكن النبى صلى الله عليه وآله علمنا مانعلم به ماسيكون فى الجملة ، وهو «ان الجزاء بالعمل» وان كل انسان ميسر له ومسهل عليه ماخلقه الله لأجله من سعادة الجنة وشقاوة النار ، وان ماوهبه للانسان من العزم والارادة يكون له من التأثير فى تربية النفس مايوجهها به الى مايعتقد ان فيه سعادته[2] .

وهذا المعنى الذى تنبه له الشيخ عبده هو الذى نقله اصحاب الاعتزال عن الحسن وانكره الرازى الاشعرى .

وهكذا تقدم فى روايات اهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ [3] مايتوافق ومذهب العدل ، تفسيراً لما روى عن النبى صلى الله عليه وآله بهذا الشأن .

ولسيدنا الطباطبائى رد لطيف على تلفيقات الامام الرازى ، على اصول فلسفية حكيمة ، بين فيها اوجه المغالطة التى ارتكبها امام المشككين ، فراجع [4] .

من ذلك قوله ـ اخيراً ـ : كان العمل حاصلا بقضاء الله ... الخ . اذ ليس

١ـ انظر : المغنى فى الضعفاء للذهبى ج١ ص٢٨٠ برقم ٢٥٩٠ .

٢ـ تفسير المنار ج١٢ ص١٥٩ .

٣ـ الصفحة : ٣٤٠ـ٣٤٩

٤ـ تفسير «الميزان» ج١١ ص ١٨

هذا الكلام سوى تكرار لكلامه الاول ومصادرة على المطلوب ، لانا قد بينا ان ليس معنى القضاء والقدر سوى علمه تعالى بمقادير الأشياء وامضاءه الوجود وفقها من غير ان يكون علمه تعالى علة فى التأثير.

اذ لو لاحظنا من السعادة والشقاء امرين مفروضين على العباد، فان مسؤوليتهما تقع على الذى فرض عليهم - وهو الله تعالى حسب مزعومة الاشعرى - وهذا بعينه الجبر. اما اذا اعتبرنا انهما من عمل العباد انفسهم، وانهم بالعمل يسعدون أو يشقون ، فمعناه ان المسؤولية ترجع اليهم بالذات لا الى الله ، كما عليه مذهب اهل العدل والتنزيه . اذن فارجاع الاعمال الى الله حينئذ ، ليكون الله هو المسؤول عن افعال العباد - كما يرومه القائل بالجبر - يكون ذلك عوداً الى القول الاول و سلب المسؤولية عن العباد تجاه اعمالهم وما يستتبعها من سعادة وشقاء ، لاشيء آخر !

و كم لامام المشككين و شيخه الاشعرى امثال هذه المغالطات المفضوحة !!.

* * *

اما مدلول الآية الكريمة بالذات فان الشقاء والسعادة فيها يعنيان سوء الحال وحسنه ذلك اليوم ، اى فمنهم التعيس المتضايق عليه بالعذاب وشدة المؤاخذة ومصيره الى النار ، ومنهم الفاره المنعم عليه بالثواب ورفق اللطف به ومآله الى الجنة . نظير قوله تعالى فى آية اخرى : « وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته (وهم الذين استحقوا رحمته بايمانهم واعمالهم الصالحة) والظالمون ما لهم من ولى ولانصير . (وهم الاشقياء الأذلاء الذين استوجبوا الذل والهوان لأنفسهم ، بما اعرضوا عن ذكر الله ونسوا لقاء يومهم هذا) - سورة الاعراف : ١٥».

اذن ليست السعادة والشقاء فى الآية من النوع المصطلح المبحوث عنه وانما هما بالمعنى الثانى الذى قدّمنا شرحه ، ولا صلة بينه وبين مسألة الجبر والاختيار فى شىء .

ودليلا على ذلك ما جاء فى تعقيب الآية بالذات : « فأما الذين شقوا (اى ساء حظهم ذلك اليوم) ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموات والارض ، الا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد . واما الذين سعدوا (اى رجحت صفقتهم وحظوا برحمته تعالى الخاصة) ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض ، الا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ هود ١٠٦-١٠٨ » .

* * *

٢- « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين - المؤمنون : ١٠٦ » .

بعد قوله تعالى موبخاً اياهم : « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » . فكأنهم حاولوا بذلك ابداء الاستعذار ، اى بلى تليت علينا آياتك غير ان شقاءنا النفسى المسيطر على وجودنا و مشاعرنا ، غلبنا ولم يدعنا نجيب دعوتك فضللنا ! ! .

وربما تمسكت الأشاعرة بهذه الآية - ايضاً - دليلا على الجبر و عدم استطاعة العباد على الايمان وعلى الاستقامة على طريق الهدى ، الا ان يكون حافز من خارج ذاتهم ، حسبما كتبه رب العالمين من سعادة أو شقاء !

ورووا عن مجاهد فى قوله « غلبت علينا شقوتنا » قال : التى كتبت علينا [1] .

قال اهل العدل والتنزيه : هذا الذى رامه اهل الجبر تحريف بظاهر الآية وتأويل بمدلولها من غير ما سبب معقول . لأن ظاهر الآية الكريمة أن العصاة انما قالوا ذلك اعترافاً منهم بعدم الحجة لهم وان لا عذر لهم فى الاعراض والتولى بدليل انهم اضافوا الشقوة الى انفسهم « شقوتنا » الامر الذى يدل على ان لهم فى

١- رواها محمد بن جرير الطبرى بعدة أسانيد ، انظر التفسير ج ١٨ ص ٤٤

اكتسابها يداً ، وانها كانت من صنيع اعمالهم السيئة التى ارتكبوها.

ولو كانت الشقوة ممـا سجلت عليهم فى الازل الزاماً و الجاءاً لكانت عذراً لهم البتة ، ولكان لهم ان يقولوا : انها من صنيعك يا ربنا و لا حجة لك علينـا .

والخلاصة ان الآية ـ حسب اقرار كبار المفسرين وعلماء الادب والبيان ظاهرة فـى الاعتراف باتمام الحجة عليهم وانهم بسوء اختيارهم فعلوا مافعلوا ومن ثم هم نادمون على ما فرط منهم ، راجين منه تعالى ان يمن عليهم بالعودة لاصلاح ماافسدوه من قبل، واستدراك مافات. «ربنا اخرجنا منها فان عدنا فاناظالمون - ١٠٧» .

قال سيدنا الطباطبائى ـ دام ظله ـ :هذا اعتراف منهم بتمام الحجة عليهم وكانت الشقوة شقوة انفسهم اى شقوة لازمة لسوء اختيارهم وأثر سيئات اعمالهم حيث اضافوها الى انفسهم. قـال : و يشهد لذلك وقوع الاية بعد قوله : « الم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » . وتعقيبها بقوله : « ربنا اخرجنا ... الخ » .

قال : وانما اعترفوا بالذنب والتقصير ليتوصلوا بذلك الـى التخلص من العـذاب ، وللرجوع الى كسب السعادة ، فقد كانوا عاينوا من قبل ان اعتراف العاصى بالذنب والصغار كانت توبة له ومطهرة له من الذنب ، فكانت تنجيه من العقاب .

قال : وهذا من قبيل ظهور الملكات ، كانوا يكذبون من قبل مع ظهور الحق ومعاينته بشهود ، كذلك يكذبون ذلك اليوم تجـاه رب العالمين . لاستقرار ملكة الكذب فى نفوسهم «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شىء الا انهم هم الكاذبون ـ المجادلة : ١٨» [١] .

١ـ تفسير «الميزان» ج ١٥ ص ٧٤ـ٧٥

ومن ثم جاءهم الرد القاصف : « قال اخسؤ ا فيها ولا تكلمون ـ المؤمنون: ١٠٨ » . والدليل على انهم يكذبون ذلك اليوم بكل وقاحة وشراسة ،قوله تعالى: «ثم قيل لهم: اين ما كنتم تشر كون من دون الله قالوا (كذباً وزوراً) ضلوا عنا (اى نجهلهم ولا نعرف منهم شيئاً ثم بدا لهم ان ينكر وا عبادتهم للاصنام رأساً انكاراً صريحاً ومن ثم قالوا) بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ـ غافر: ٧٣ ـ ٧٤» . انظر الى هذه الوقاحة تجاه رب العالمين الذى لاتخفى عليه خافية فى السماوات والارض !!

* * *

وقال الجبائى : « المراد ان طلبنا للـلذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا الى هذه الشقاوة ، فأطلق اسم المسبب على السبب. وليس هذا باعتذار منهم ، لعلمهم بان لا عذر لهم فيه ، ولكنه اعتراف بقيام حجة الله عليهم فى سوء صنيعهم ».

وقال القاضى : «فى الآية دلالة على انه لاعذر لهم الا الاعتراف (بالتقصير). فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبارادته ، وعلموا ذلك، لكانوا بأن يذكروا ذلك أجدر، والى العذر اقرب » .

وقدرد عليهما الفخر الرازى ـ على مذهبه الاشعرى الجبرى ـ بأن طلبهم للذات ان كان باختيارهم فذلك الاختيار محدث ، وكل محدث مفتقر الى علة خارجة عن ذاته ، وليست سوى ارادة الله القديمة . ثم اخـذ فى الاستدلال على احتياج المحدثات الى علل وهـى تتسلسل الى ذاته المقـدسة ، حسب منهجه الخاص فى ارجاع علـل الموجودات حتى الافعال الاختيارية الى ارادته تعالى الازلية .

وقد ابطل اهل العدل هكذا استدلالات هى اشبه بسفاسف سوفسطائية ، وان افعال العباد الاختيارية واقعة تحت اختيارهم بالذات ، متى ماشاءوا فعلوا ، ومتى لم يشاءوا تركوا ، حسبما اسلفنا فى مسألة « الامر بين الامرين » وغيرها من مسائل

مرتبطة .

واما الذى قاله الفخر فى تفسير الآية فهو: ان المناظرة مع الله تعالى غير جائزة بل لا يسأل عما يفعل ، فلاجرم قال لهم : « اخسؤوا فيها ولاتكلمون »[1] .

قلت : ولعله فى هذه المحاولة رجح الحجة مع العصاة ، وجعل من مقام قدسه تعالى حكومة ظالمة غير مسؤولة ولامتقيدة بنظام العقل والحكمة . تعالى الله العدل الحكيم عن ذلك علوا كبيراً .

* * *

٣ ـ « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هـداى فلا يضل ولا يشقى ـ طه : ١٢٣ » .هذا هو الشقاء المعنوى ،ومن ثم فسروه بالشقاء الاخروى .والآية دليل على انه أثر الضلال عن هداه تعالى والاعراض عن آياته البينة . وليس امراً مفروضاً محتماً على الاشقياء .

وجاءت كلمة « تشقى » قبل الاية برقم ١١٧ بمعنى الشقاء الظاهرى «التعب والعناء » ، ولكنها فى هذه الاية (١٢٣) جاءت بمعنى الشقاء المعنوى « الخباثة » وهذا من التقابل ـ اثباتا ونفيا ـ فى كلمة واحدة بين معنييها المختلفين اعتباراً ، وهو من الفن البديع .

* * *

٤ ـ « و لم يجعلنى جباراً شقياً ـ مريم : ٣٢ » . هـو من الشقاء بمعنى الخبث .

قال الامام الرازى : وهذا ـ ايضاً ـ يدل على قولنـا (يعنى كون الشقاء والسعادة من فعله تعالى يضعهما حيث يشاء) لانه لما بين انه جعله براً وما جعله جباراً ، فهذا انما يحسن لو ان الله تعالى جعل غيره جباراً وغير بار بامه ، فان الله تعالى لو فعل ذلك بكل احد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ، ومعلوم انه

١ـ انظر : التفسير الكبير ج ٢٣ ص ١٢٤ـ١٢٥ .

عليه السلام انما ذكر ذلك فى معرض التخصيص .

وقال الامام مالك : ما اشد هذه الآية على اهل القدر (يعنى المعتزلة وسائر اهل العدل المنكرين للجبر) اخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره ، وبما هو كائن الى ان يموت [2] .

هكذا زعم اهل الجبر من متفلسفة وحشوية ان العباد مضطرون فيما يزاولون لا رأى لهم ولا ارادة ولا اختيار . وانما هم مسيرون وفق ما فرض عليهم وقدر لهم فى الأزل .

واما اهل العدل والتنزيه فأجروا الآية الكريمة على سياق نظائرها من ارادة عنايته تعالى الخاصة بخلص اولياءه الصالحين ومزيد ألطافه بشأنهم ، لما علم منهم الصلاح والثبات و الاستقامة ، فأيدهم ووفقهم وجعلهم للمتقين اماما.

قال الشيخ ابو على الطبرسى ـ رحمه الله ـ : « والمعنى : انى بلطفه تعالى وتوفيقه كنت محسناً الى والدتى ، متواضعاً فى نفسى ، حتى لم اكن من الجبابرة الأشقياء» [3] .

والدليل على صحة هذا المعنى هو سياق الآية وانسجامها مع آيات قبلها وبعدها ، قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : «قال انى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً .والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً ـ مريم : ٣٠ـ٣٣» .

فمعنى «آتانى الكتاب وجعلنى نبياً» : انه تعالى اختارنى نبياً . وليس اختياره تعالى احداً لمقام رسالته الا اذا وجده صالحاً لذلك، أميناً صادقاً وفياً. وليس تحميلا فى غير محل قابل ولا اعتباطاً من غير حكمة وملاك .

١ـ التفسير الكبير ج ٢١ ص ٢١٥

٢ـ تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٠٣

٣ـ مجمع البيان ج ٦ ص ٥١٣ .

وهكذا «جعلني مباركاً» اى زاد فى عنايته تعالى بشانى ، حيث النبى هو المعلم النفاع ، فأينما يتوجه فان بشائر الخير والبركات تتقدمه .

و«أوصانى بالصلوة والزكوة» اى أمرنى بهما امر تكليف .

و«براً بوالدتى» اى جعلنى برأبها ، ومعنى جعلنى براً ، وفقنى للقيام بخدمتها حيث وجدنى راغباً فى اداء شكرها الواجب ، فحيث انه تعالى مهدله سبيل هذه المكرمة لما وجده محلا قابلا لها ، نسبه الى الله ، حسبما مر فى الحديث «انا اولى بحسناتك منك» . راجع شرحنا لهذه الفقرة [1] .

وكذلك قوله : «ولم يجعلنى جباراً شقياً» اى لم يخذلنى ولم يمنعنى ألطافه الكريمة ، كى انخرط مع الجبابرة الاشقياء ، بل منحنى عناياته والمزيد من توفيقه حيث وجدنى جاداً فى طلب السعادة ، فساعدنى برحمته ، وفق وعده الحتم «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .

والخلاصة ، ان معنى «لم يجعلنى جباراً شقياً» : انه تعالى علم منى الرغبة فى التخضع والبلوغ الى عز السعادة ، فساعدنى على ذلك وزاد فى توفيقه حتى بلغتها بعنايته تعالى .

والجعل وان كان بمعنى التكوين ، لكن حيث كانت اصل الهداية الى طرق السعادة ، وكذا المعونة على الوصول اليها ، حاصلة بفعله تعالى « الحمدلله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا ان هدانا الله» صحت نسبة تكوين شخصية الانسان المهتدية السعيدة الى الله عزشأنه. فكأن شخصيته الخاصة متكونة بفعله تعالى ، حيث جميع اسباب تكوينها والاهتداء الى طرق تكوينها ، كانت ممهدة من جانبه تعالى ، الامر الذى لا يستدعى جبراً ولا اكراهاً على هداية اوضلال.

هذا احد التأويلين فى الآية الكريمة .

---

١ - صفحة ١٨٠

وهناك تأويل آخر أشار اليه شيخ الطائفة أبوجعفر الطوسي ـ قدس سره الشريف ـ قال : «ولم يجعلني جباراً» اى لم يحكم على بالتجبر والشقاء [1].

وهذا كقولهم : جعله سارقاً اى حكم عليه بأنه سارق ، بمعنى انه علم منه ذلك اوثبت لديه انه سارق ومن ثم ابدى رأيه بشأنه ليكون معنى الآية على هذا التأويل: انه تعالى لما علم منه الخير والصلاح في الآجل ، حكم عليه انه من السعداء الاتقياء. اى ابدى علمه بشأنه .

وأخيراً فلو كانت السعادة والشقاء من فعله تعالى المباشرى او التسبيبى [2] من غير أن يكون لارادة العبد واختياره الخاص مدخل فى تحصيلهما واكتسابهما لم يكن موضع لمدح السعيد على سعادته ، ولا مجال لتوجيه اللائمة الى الأشقياء . فى حين ان جميع ماقاله عيسى عليه السلام بهذا الصدد ، كله تحدّ وفخار ، فى جوّ يتلائم وتمدح النفس بلاشائبة اعجاب ، الامر الذى لايخفى على النبيه الخبير.

* * *

٥ـ «وأدعو ربى عسى ان لااكون بدعاء ربى شقياً ـ مريم : ٤٨» . اى خائباً محروماً .

٦ـ «ولم أكن بدعاءك رب شقياً ـ مريم : ٤» كذلك .

٧ـ «اذانبعث أشقيها ـ الشمس : ١٢» اى أخبثها .

٨ـ «لايصليها الا الأشقى ـ الليل : ١٥». اى الا الخبيث المحروم ، الممنوع من فيض رحمته تعالى ، بسبب خطيئاته المتراكمة المحيطة به من كل جانب .

٩ـ وهكذا قوله : «ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ـ الاعلى : ١١ـ١٢». ضمير التأنيث يعود على الذكرى ، فالذى يعرض عنها هو الخبيث الشقى

١ـ تفسير التبيان ج٧ ص١١١

٢ـ حسبما قاله الفخر فى آخر كلامه المتقدم

والتعيس المحروم .

١٠ـ «انه لذو حظ عظيم ـ القصص :٧٩» . اى سعيد منعم بلذائذ الحياة مرفه عليه حسبما كان بنواسرائيل يرونه بشأن قارون.

١١ـ «ومايلقيها الاذو حظ عظيم ـ فصلت:٣٥» . اى سعيد منعم بكمال النفس ذوعقل وفير وادراك انسانى نبيل .

١٢ـ «يريد الله ان لايجعل لهم حظاً فى الآخرة ـ آل عمران : ١٧٦» اى نصيباً وهو حكاية عن واقعية سوداء مرة .

١٣ـ «ونسوا حظاً مماذكروا به ـ المائدة :١٣» اى اليهود اغفلوا نصيباً جزيلا كان يعود عليهم اذاماهم لبّوا دعوة الحق .

١٤ـ وهكذا قوله :«فنسوا حظاً مماذكروا به ـ المائدة : ١٤» بشأن النصارى لم يستسلموا لقيادة الحق .

* * *

التمحيص والاختبار

فى القرآن كثير من آيات انذرت بتمحيص هذه الأمة واختبارها شأن سائر الأمم السالفة. وفى ذلك فائدتان كبيرتان :ـ

الأولى: ان البلايا والمحن تعمل فى تكوين الانسان ثبات عزيمته واستقامة رأيه فلايتزعزع تجاه الحوادث والكوارث ، مقداماً صبوراً ، قوى الارادة ، حازماً وقوراً ، والله تعالى يريد من هذه الامة أمة متربية ومترقية كاملة ذات قدرة جبارة لبسط العدل فى ارجاء العالم المعمور « وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ـ البقرة: ١٤٣» . امة متربية تحت تربية الرسول وتعليمه المباشر ، لتصبح هى مربية لسائر الامم ومعلمة للاجيال، مكارم اخلاق الانسانية العليا وآدابها المثلى .

الثانية : ابداء مافى الناس من قابليات وطاقات واستعدادات متفاوتة ، ومدى ما يبذله أنواع الطوائف والآحاد فى تجسيد مافى كمونهم من قوى وصلاحيّات «ليميز الله الخبيث من الطيّب ـ الانفال : ٣٧» أى ليمتاز أحدهما عن الآخر .

وذلك تمهيداً للفوز على مختلف درجات الآخرة ، فلا يستوى الأفراد فى البلوغ الى مدارج الكمال والقرب من رضوانه تعالى . فلو كان الله يثيب الناس على حسب استعداداتهم المتفاوتة من قريب وأقرب أو بعيد وأبعد، وفق مايعلمه من اختلاف قابليّاتهم فى التقرّب والابتعاد ،لكانت صرخات الاعتراض تعلو : لما ذا هذا الافتراق والتفاوت فى العناية والألطاف ؟ !

اذن كان من الحكمة أن يعمّ امتحان شامل «ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حىّ عن بيّنة ـ الانفال : ٤٢» . ليتجلّى للناس ماهم عليه من تفاوت واختلاف . «لئلا يكون للناس على الله حجة ـ النساء : ١٦٥» .

* * *

١ ـ قال تعالى :«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ـ آل عمران :١٧٩» أى حتّى يظهر للناس أنفسهم امتياز أحدهما عن الآخر.

٢ـ وقال : «ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيّام نداولها بين الناس (اى بالاقبال والادبار) وليعلم الله الّذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين . وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ـ آل عمران : ١٤٠ ـ ١٤٢» .

قوله : «يعلم» ـ فى المواضع الثلاثة ـ أى ليبدو للناس ويتجلّى علمه الأزلى بشأن مختلف الطبقات .

٣ـ «وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحّص مافى قلوبكم ـ آل عمران: ١٥٤» اى ليمتحنكم ويبدى مافى سرائركم ، لاليعلم هو، بل لتعلموا أنتم أيّها الناس .ومن

ثم ختمت الآية بقوله :«والله عليم بذات الصدور» .أى ليس هذا الابتلاء والتمحيص لأجل أن يعرفكم ـ بالتخفيف ـ بل ليعرّفكم ـ بالتشديد ـ .

٤ـ «لتبلونّ فى أموالكم وأنفسكم، ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور ـ آل عمران: ١٨٦» .هذه الآية الكريمة تشير اشارة تامة الى الفائدة الأولى التى نبهنا عليها .حيث الابتلاء يوطّد من أركان عزم الانسان وثباته فى الامور .

٥ـ «وهو الذى جعلكم خلائف الارض ،ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ـ الانعام : ١٦٥» . أى لتبدو استعداداتكم ومدى صلاحياتكم تجاه متقلبات الامور والاحوال .

٦ـ «وحسبوا أن لاتكون فتنة فعموا وصمّوا ـ المائدة :٧١» . أى ظنّ بنو اسرائيل ان لايصيبهم بلاء وابتلاء فتاهت نفوسهم واضطربوا عند الامتحان .

٧ـ «واتّقوا ـ (أى خذوا حذركم) ـفتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة ـ الانفال : ٢٥ » . حيث الابتلاء بالمحن والآلام يعمّ الجميع .

٨ـ «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ـالانفال : ٢٨» . أى بلاء واختبار لمقدار قابليتكم فى القيام بوظيفتهما واداء حقهما الواجب .

٩ـ «ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله (اى يبدو علمه القديم بشأنكم) الذين جاهدوا منكم ـ براءة : ١٦» .

١٠ ـ « أولايرون أنّهم يفتنون فى كلّ عام مرّة أومرّتين ـ براءة : ١٢٦» . حيث تواصل الاختبار بتلاحق الفتن والبلايا ،لطفاً مستمراً بالمؤمنين ،وسخطاً على

الكافرين .

١١- «ليبلوكم أيّكم أحسن عملا - هود : ٧» أى أشدّ ثباتاً وأصوب اتجاهاً .

١٢- «لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً - الكهف : ٧» .

١٣- «وفتناك فتوناً - طه : ٤٠» .أى اختبرناك اختبارات فى مواقف عديدة، توطيداً لثبات شخصيتك ، وتمهيداً لاستعدادك لمقام النبوة .

١٤- «فاناقد فتنا قومك من بعدك وأضلّهم السامرى -طه :٨٥» .حيث اضلال السامرى بذاته كانت فتنة وابتلاء زلّت فيها أقدام بنى اسرائيل .

١٥ - « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة - الانبياء : ٣٥ » . اى بـالجدب والرخص أوبالبلايا والنعم . حتى يبدو مبلغ استعداداتكم وطاقاتكم تجاه مختلف الأحوال .

١٦- «ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للّذين فى قلوبهم مرض - الحج : ٥٣» . أى الأحداث المضلّة بعدوفاة الرسول اختبار لمبلغ ثبات المؤمنين به على الايمان غير أنّ غالبينهم ابدواما كانت نفوسهم المنحرفة منطوية عليه من الأضغان والأحقاد على هذا الدين . «أفان مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم - آل عمران : ١٤٤» .

١٧- «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً - الفرقان: ٢٠» . أى كانت البلايا التّى تصيب بعضكم من بعض ،امتحاناً لكم ليبدو لكم بالذات مبلغ ثباتكم وصبركم على الايمان . أمّاالله تعالى فهو غنىّ عن اختباركم ، لانه بصير بكم وعليم بذات الصدور .

١٨ـ «بل أنتم قوم تفتنون ـ النمل : ٤٧» . أى وقعتم فى البلاء والابتلاء . ولولا أن تتدار ككم رحمته تعالى لهلكتم عن آخركم .

١٩ـ «أحسب الناس أن يتركوا ـ (بلاابتلاءواختبار)ـ أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقدفتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ـ العنكبوت ٢ـ٣» أى حتى يمتاز الصادق عن الكاذب ، وتتمّ الحجّة على الكاذبين.

٢٠ـ «هنالك ـ(فى وقعة الأحزاب) ـ ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديداًـ الاحزاب : ١١» فتبين المخلصون الثابتون على الايمان عن الكاذبين المنافقين .

٢١ـ « إنّ هذا لهو البلاء المبين ـ الصافات : ١٠٦ » . كانت قصة الذبح اختباراً عظيما لابراهيم ـ عليه السلام ـ تبينت ـ خلالها ـ شخصيّته الفذّة الكبيرة بوضوح .

٢٢ـ «ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثمّ أناب ـ ص:٣٤» .أى بهذا الابتلاء نبهناه على مافرط منه مما لاينبغى من مثله ، لطفا بشأنه من عبد مخلص منيب .

٢٣ـ «فاذامسّ الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انمااوتيته على علم بل هى فتنة ،ولكن اكثر هـم لايعلمون ـ الزمر :٤٩» . حيث وفرة النعم قدتكون ابتلاء لمبلغ قيامه باداء الشكر الواجب .

٢٤ـ « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ـ سورة محمد : ٣١» . اى حتى يظهر علمنا السابق فيكم فيبدولكم بالذات .

قوله : «ونبلو أخباركم» أى نختبر مبلغ صدقكم فيما يؤثر عنكم من ادعاءات وتبجّحات ، حتى يتبين لكم بالذات مدى صحتها ووفقها مع الحقيقة .

٢٥ـ «ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً ـ الملك : ٢» تقدّم نظيرها برقم ١١.

* * *

الاحباط . التكفير . الموازنة

الاحباط [١] : محق حسنة بسيئة لاحقة اطلاقاً ، سواء أكانتا متساويتين أم فضلت احداهما على الاخرى ، وسواء أكانت الفاضلة هي الحسنة ، أم هي السيئة المتأخرة ، حتى وإنّ سيئة واحدة لاحقة لتبطل بها حسنات جسام .

التكفير [٢] ـ عكس الاحباط ـ : «ان الحسنات يذهبن السيئات ـ هود : ١١٤» .

الموازنة [٣] : أن يسقط الأقل بالأكثر حجماً وقدراً ، ليبقى مقدار الفضل بينهما يثاب عليه أو يعاقب محضاً .

وهي من المسائل ـ الكثيرة ـ التي اختلفنا فيها نحن ـ الامامية ـ مع أصحاب الاعتزال ، حيث أخذوا في اتجاه معاكس لمقتضى العدل والحكمة في أفعاله تعالى ،

١ـ مأخوذ من «الحبط» ـ بفتحتين ـ وهو الفساد والهلاك . واصله من حبط البعير ، اذا اكثر من أكل «الحندقوق» حتى انتفخ بطنه وافسد عليه الاكل . واسم هذا الداء «الحباط» ـ بالضم ـ . واستعمل في كل مافسد وذهب اثره باطلا ، يقال : حبط دم القتيل اذا هدر . اوحبط عمله اذاذهب سدى . وحبط ماء البئر اذا غار فلم يعد.

٢ـ مأخوذ من « الكفر » ـ بالفتح ـ وهو الستر والتغطية ، يقال : كفر درعه بثوبه ، اذا لبسه فوقها وغطاها به . ومنه اطلق اسم الكفر ـ بالضم ـ على ضد الايمان ، لان الكافر قد غطى فطرته بالانكار .

٣ـ بمعنى المقايسة ، فيقاس احدهما بالاخر ليعرف الاثقل من الاخف .

كما نقضوا مذهبهم في كون المجازاة استحقاقاً ، وماالى ذلك من تـوال فاسدة حسبما نشير .

وقبل أن ننتقل الى صلب البحث لابد أن نتعرف ـ اجمالياً ـ الى مسائل هي ذات صلة بالموضوع : ـ

الاولى : هل الجزاء على العمل استحقاق ام مواضعة ،أي مجرّد مواعدة (وعد بثواب ووعيد بعقاب) ؟ .

الصحيح هو الأوّل،في صورة ماإذا كان العمل صادراً عن طلب من المولى حتى ولو كان متفضّلا على عبيده بالنعم الجسام ،لأنّ ذلك تفضّل محض ، ولاشيء يوازي التفضل ،خصوصاً اذا كان في التكليف مشقة ، فانه ليس للمتفضّل أن يكلّف المتفضّل عليه بمايوقعه في مشقّة كثيرة بحجّة أنه منعم عليه ، لولا الالتزام على نفسه بمقابلة الأجر والثواب .

هذا ولاسيما اذاقلنا بأنّ المثوبات ليست سوى تجسّدات ذاتية لنفس الأعمال تتجسد الى درجات ودركات ، والاعمال هي ـ بـدورها ـ انعكاسات نفسية طيبة اوخبيثة تتمرن بالعمل ، وان كانت ذات مرونة و قابلة للانعطاف والتبديل ،بالتربية والتدريب [1] .

وعليه فالمحسن الممتثل لأوامر مولاه ، انما يستحقّ أجراً لذاته ، ولم يكن الوعد بالثواب سوى تأكيد ، وتعيين لمقداره لا لأصله .

وهكذا المسيء يستحق عقوبة لذاته وليس لمجرد الوعيد، ولعل استحقاق المسيء اجماعي ، حيث تمرده و كفرانه نعم المولى معاً .

* * *

الثانية : هل المثوبة والعقوبة تقتضيان الدوام والأبدية؟ فلامثوبة إلّا وهي دائمة ولاعقوبة الا وهي خالدة ؟!

١ـ وسوف نتكلم عن مسألة العقوبة في مجال التفسير ان شاءالله .

قالت المعتزلة : نعم ! ومن ثم جعلوا من الفاسق خالداً فى النار .

ودليلهم على ذلك هو : قياس المثوبة والعقوبة بالمدح والذم ، فكما أنهما دائميان ، كذلك لازمهما من الثواب والعقاب . قالوا : ولأنه اذا انقطع عقاب العاصى ودخل الجنة كان ذلك تفضّلاً عليه ، ولا تفضّل على المكلفين ، وانما هو خاص بالأطفال والمجانين [1] .

وبهذه الطريقة حاولوا اثبات الاحباط ، لئلا يعود المعاقب على معصيته مثاباً على طاعته ، فينتقض دوام العقاب بشأنه ، كما يكون ثوابه المتأخر تفضلا فيما زعموه . وهذان مما يتحاشونهما البتة [2] .

قلنا : لا خلود فى النار الا للكفار [3] ، أمّا العصاة من المؤمنين الذين احتفظوا بايمانهم حتى الممات فمرجون لأمر الله ، إما يعذّبهم حسب استحقاقهم ، عذاباً يتناسب مع نوعية العصيان الذى ارتكبوه ، واما يتوب عليهم والله عليم حكيم [4] .

قال تعالى ـ بشأن العصاة من المؤمنين ـ : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم ـ براءة : ١٠٢» . قوله : « اعترفوا بذنوبهم» اعترافاً منبعثا عن ايمانهم بالله ، حيث المؤمن هو الذى يرى من أعماله السيئة عصياناً له تعالى ، فهو دليل على احتفاظهم باصول الايمان ، وان كانوا قد ارتكبوا ما ارتكبوا من قبائح . الامر الذى وفر عليهم من شرائط الغفران .

واما قياس الثواب والعقاب بالمدح والذم ، ففى أصل الاستحقاق لا شك

١ـ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص٦٦٦ـ٦٦٧ .

٢ـ انظر نفس المصدر ص٦٢٤ .

٣ـ قال تعالى : «والذين كفروا بآيات الله ولقاءه اولئك يئسوا من رحمتى واولئك لهم عذاب اليم ـ العنكبوت : ٢٣» ونحن قد بحثنا عن جوانب مسألة الخلود فى مجال التفسير .

٤ـ مقتبس من الاية الكريمة ١٠٦ من سورة براءة .

فيه . فمن استحقّ مدحاً على عمل استحقّ ثواباً عليه ، وكذا الذم والعقاب . أما قياس دوام احدهما على دوام الآخر فلا موضع له ، بعد أن كانت مرحلة الاستحقاق بمعزل عن مرحلة الفعلية والوقوع . لان معنى دوام الاستحقاق ، هو جواز مذمّة العاصي فى أيّ وقت من الأوقات ، ولا يختص ذلك بالآن المباشر لظرف عصيانه . الامر الذى لا يعنى الاستدامة فى مذمته ليل نهار على مر الدهور .

وهكذا العقاب ، يستحقّه العاصى فى أى وقت من الأوقات ، فمتى ما أراد المولى عقابه صحّ ذلك منه . وهذا لا يعنى جواز الادامة من عقابه على مر الزمان مع الأبدية . لان ذلك عقاب فوق استحقاقه وظلم يتحاشاه عدله تعالى وحكمته المطلقة .

اما اختصاص تفضّله تعالى بالصغار القصّر فلم نعرف له وجهاً ، ولا هم أقاموا على اثباته برهاناً . فضلا عن مخالفته الصريحة لنص الكتاب والسنة المتواترة ، فان فضله تعالى عظيم [1] و رحمته واسعة [2] وقد وعد بغفران الذنوب جميعاً [3] .

* * *

الثالثة : هل المغفرة خاصة بالتائبين ام هى عامة ؟

زعمت المعتزلة اختصاصها بمن يموت عن توبة وندم واستغفار .

لكن فى نصوص الكتاب والسنة صراحة فى عمومها لمن مات عن ايمان

١ـ «يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئآتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ـ الانفال : ٢٩ » .

٢ـ « قال عذابى اصيب به من أشاء و رحمتى وسعت كل شيء ـ الاعراف : ١٥٦ » .

٣ـ « قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم ـ الزمر : ٥٣» .

فان كان تائباً فيموت مغفوراً له كمن لا ذنب له ، وغيره يموت مرجـواً لأمره تعالى اما يعذبه على قدر استحقاقه ثم يغفرله ، أو يتفضل عليه بالغفران من اول امره بلاتعذيب .وان فى كثير من العبادات الواجبة ، والاعمـال الصالحة ، لمطهرة للذنوب حتى الكبار ، فضلا عن الصغائر، فانها مغفورة بذاتها على شرط اجتناب الكبائر [1] .

قال تعالى : « وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين ـ هود: ١١٤ -١١٥» .

وقد شبه رسول الله ﷺ الصلوات الخمس بنهرعلى باب الدار يغتسل فيه صاحبها كل يوم خمس مرات ، فقال : « أكان يبقى فى جسده من الدرن شيء ؟ » . قال الامام ابوجعفر الباقر ـ عليه السلام ـ: « وهكذا مثل الصلاة مثل النهر الجارى كلما صلى صلاة كفرت مابينهما من الذنوب » [2].

وقال ﷺ : « اذا اتى العبد بسيئة ، قال الملك الموكل بحسناته لصاحب السيئات: لاتعجل، عسى ان يتبعها بحسنة تمحوها. فان الله عزوجل يقول: ان الحسنات يذهبن السيئات » [3].

وقال تعالى : « ليجزى الذين أساءوا بماعملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم [4] ان ربك واسع المغفرة ـ النجم : ٣١-٣٢» .

وقال : « ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفرعنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا

١ـ راجع : بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥١ باب ٢٧ من كتاب العدل والمعاد .

٢ـ انظر : وسائل الشيعة ج ٣ ص ٧ باب ٢ من ابواب اعداد الفرائض

٣ـ البرهان فى تفسير القرآن للبحرانى ج ٢ ص ٢٣٦ حديث ٣

٤ـ اللمم : صغار الذنوب

كريماً ـ النساء : ٣١».

والآيات والروايات المطلقة فى هذا الباب كثيرة جداً كثرة تتناسب مع سعة رحمته تعالى الشاملة. وقد تواترت الروايات[1] بشأن المستخلصين من النار الفائزين برحمته تعالى، جزاء على ثبات ايمانهم. حيث الايمان من اكبر الطاعات والله لا يضيع أجر من أحسن عملا. «وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم ـ البقرة : ١٤٣».

قال المحقق نصير الدين الطوسى ـ قدس سره ـ فى تجريد الاعتقاد : «وعذاب صاحب الكبيرة ينقطع، لاستحقاقه الثواب بايمانه، ولقبحه عند العقلاء». قال العلامة ابن المطهر الحلى ـ رحمه الله ـ فى شرحه : «الحق ان عقاب اصحاب الكبائر منقطع، والدليل عليه وجهان (الاول) : انه يستحق الثواب الدائم على ايمانه، لقوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره». والايمان اعظم افعال الخير فاذا استحق العقاب بالمعصية فاما ان يقدم الثواب على العقاب، وهو باطل بالاجماع لان الثواب المستحق بالايمان دائم. أو يقدم العقاب على الثواب ـ وهو المطلوب ـ أو يجمع بينهما ـ وهو محال ـ (الثانى) : يلزم فى من عبد الله تعالى مدة عمره ثم يعصى بمعصية مع بقاء ايمانه ان يبقى مخلداً فى النار كمن اشرك بالله مدة عمره، وذلك محال لقبحه عند العقلاء»[2].

* * *

الرابعة : هل المراد بالاحباط تأثير العمل اللاحق فى بطلان العمل السابق بمعنى انقلابه فاسداً من الأول، بعد ان كان قد وقع صحيحاً ؟ أم المراد ابطال اثره فى المستقبل من مثوبة وغيرها من آثار كانت مترتبة عليه لولا الاحباط ؟

لاشك ان المفروض الاول باطل، اذ لا تأثير للمتأخر فى المتقدم وجوداً

١ـ راجع : بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥٥ حديث ٨ . وص ٣٦٠ـ٣٦٣ .

٢ـ شرح التجريد، المسألة الثامنة فى انقطاع عذاب اصحاب الكبائر ص٢٣٣

الا اذا كان بمعنى بطلان المتقدم واقعاً ، لما فى علم‌الله : ان شرطه المتأخر (وهو عدم وجود العمل اللاحق) لا يتحقق فى ظرفه . الامر الـذى ليس من الانقلاب الحقيقى ، وانما هو انكشاف للواقعية التى كانت معلومة عندالله وخافية علينا.

مثلا اذاكانت الموافاة على الايمان شرطاً فى صحة الاعمال ، فالمرتدالذى يموت على الكفر ، فاقد لهذا الشرط فى ظرف الواقع ، ومن ثم فان اعمـاله جميعاً كانت باطلة من يومهـا الاول ، و ينكشف ذلك لنا عنـد ما يموت على الارتداد .

* * *

الخامسة : هل الفاسق مؤمن ام كافر اموسط بين‌الأمرين ؟

أثبتت المعتزلة للفاسق منزلة بين المنزلتين ، لا هو باق على ايمانه ولا هو مرتد الى الكفر والجحود . قالوا : صاحب الكبيرة لايسمى مؤمنا ولا كافراً،وانما يسمى فاسقاً . اما الاول ، فلان مرتكب الكبيرة يستحق الذم واللعن والاستخفاف والاهانة ، ولا شىء من ذلك يصلح لشأن المؤمن الذى يستحق المـدح والتعظيم والموالاة . وقد سموا من خالفهم فى هذا الرأى بالمرجئة [1] . واما الثانى ، فلان الكافر هو من يستحق العقـاب العظيم ، ويختص باحكام مخصوصة ، وله حالة جحود لنعم الله تعالى عليه ، الامر الذى لاينطبق على‌مرتكب‌الكبيرة . وخالفهم فى هذا الرأى‌الخوارج [2] .

وهى ـ ايضاً ـ من‌المسائل التى اختلفنا فيها مع اصحاب الاعتزال ، لزعمهم ان من شرط الايمان هو العمل بالأركان [3] . فأخـذوا من فروع احكام الاسلام

١ـ راجع : شرح الاصول الخمسة لقاضى القضاة ص٧٠١-٧١١ .

٢ـ راجع : نفس‌المصدر ص٧١٢ .

٣ـ الايمان عند ابى على وابى هاشم عبارة عن اداء‌الطاعات ،الفرايض دون‌النوافل ←

قيداً فى ثبوت اصوله ، ومن ثم فان المشروط والمقيد بشىء ينتفى عند فقد شرطه وقيده . قال القاضى : لأن الأمة اتفقت على ان ركعتى الفجر [1] من الدين ، واذا ثبت انه من الدين ثبت انه من الايمان ، لان الدين والايمان واحد [2] !

قلت : الايمان عندنا عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان . اما فعل الطاعات واجتناب المعاصى ، فهو من آثار الايمان المترتبة عليه مع الالتفات اليه ويختلف حسب اختلاف درجة الايمان وقوته ، كالعقل حسب درجاته فى الكمال يؤثر فى اتزان الانسان فى افعاله واجتناب القبائح . فكما لايصح ان يقال لكل مرتكب قبيح : انه فاقد للعقل اطلاقاً، كذلك لايصح نفى الايمان عن مرتكب المعصية اذا لم يكن عن جحود .

ومن ثم فان الفاسق باق على ايمانه، وهو الذى يدعوه الى التوبة والاستغفار ولولاه لم يتب ولم يكن يثوب . نعم اذا كان مرتكب الكبيرة جاحداً لحرمتها بما يرجع الى انكار قول الرسول وجحد رسالته ـ العياذ بالله ـ لكان مرتداً عن الايمان وداخلا فى حد الكفر ، وبذلك كان قد قطع حبل الله المتين، الذى اعتصم به عباده المؤمنون ، فلا آصرة تربطه مع الله سوى الرجوع الى حظيرة الايمان .

اما استحقاقه المذمة والاهانة على ارتكاب المعصية ، فلا يتنافى مع استحقاقه الاجلال والتعظيم على ثباته على الايمان ، لانهما جهتان مترتبتان على عنوانين لا يمس احدهما الآخر ، فيذم على جهة ويمدح على اخرى ، كما يقبح انسان على

→ واجتناب المقبحات . وعند ابى الهذيل عبارة عن اداء الطاعات الفرائض منها و النوافل واجتناب المقبحات . وقد اختاره قاضى القضاة . انظر : شرح الاصول الخمسة ص ٧٠٧ـ ٧٠٨ .

١ـ يعنى نافلته حسب اختياره مذهب ابى الهذيل فى كون النوافل من الايمان .

٢ـ نفس المصدر ص ٧٠٨ .

قبيحة ارتكبها ، ويستحسن فعله الآخر ، اذا كانا على جهتين وبعنوانين لاصلة بينهما .

واما التساوى بين الدين والايمان فلا موضع له ، بعد ان كان الدين عبارة عن مجموعة قوانين وانظمة لتنظيم الحياة الفردية والاجتماعية فى اكمل نظام كافل لسعادة الدارين. فليس الدين سوى الطريقة المستقيمة التى شرعها الله تعالى ، ويجب على المكلفين السير عليها تأميناً لسعادتهم المنشودة .

اما الايمان فهو نفس الاعتقاد بالله وحده لا شريك له ، والتصديق برسوله فيما جاء به من عند الله . وغير خفى ان التصديق غير العمل ، وكان الدين هو العمل .

* * *

فرضية الاحباط فى خطوات :

و بعد فالصحيح عندنا فى مسألة الاحباط ومتفرعاتها هو التفصيل التالى :

١ـ صريح الكتاب العزيز : ان الموافاة على الايمان شرط فى قبول الاعمال الصالحة ، فلا مثوبة على حسنة مع الكفر . ولعل الحبط بشأن الكافر الذى يموت على الكفر اجماعى وفق نص الكتاب .

قال تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين و يقولون حجراً محجوراً . وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ـ الفرقان : ٢٢-٢٣» .

ولعل معترضاً يقول: هلّا كان ذلك ظلماً أو تضييعاً لصالح الاعمال، ومخالفاً لقوله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ؟.

قلنا : لا ظلم مع الاشتراط ، ويجوز عند العقل ان يكون استيفاء الأجر والمثوبة على الاعمال الحسنة ، مشروطاً بوجود علائق العبودية بين العبد ومولاه

ولا يقطعها بالكفر والارتداد والخروج ضد مولاه في طغيان عارم .

اما قولـه تعالى : « انا لا نضيع اجر من احسن عملا ـ الكهف : ٣٠ » . وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » وغيرهما من آيات ، فالجواب عنهما من وجهين :

الاول : تخصيص عموم هـذه الآيات بغير من يموت على كفر ، فان آيات الاحباط اخص نسبة من هذه الآيات ، والخاص يصلح مخصصاً للعام . فيصبح الكافر فقط محروماً من الاجر اطلاقاً ، لا في هذه الحياة ، ولا في الآخرة .

الثاني: ان تبقى عمومات الأجر والجزاء على حالها في التعميم «الناس مجزيون باعمالهم ان خيراً فخير ،وان شراً فشر». غير ان المثوبات الاخروية خاصة بالمؤمنين فالكافر كالمؤمن يرى خير عمله الحسن ، لكن في هذه الحياة فقط . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ـ القصص: ٨٣ » .

وهذا الوجه الثاني اوفق بعمومات الأجر وقانون العدل والانصاف . قال تعالى: «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ الاعراف: ١٥٦». فمن رحمته الواسعة هو عمومها للكافر والمؤمن مقيدة بهذه الحياة الدنيا ، اما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين .

وقال : «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ـ مريم : ٦٣».

وقال: «سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ـ الحديد : ٢١» .

والخلاصة : الثابت ـ يقيناً ـ من حبط اعمال الكفار هو اندثارها هباء في دار اخرى لا حظ لهم فيها ولا نصيب .

قال تعالى :«الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة

من نصيب ـ الشورى : ١٩ ـ ٢٠».

وقال : «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق (اى نصيب) . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ـ البقرة : ٢٠٠ـ٢٠٢».

والآيات من هذا القبيل كثيرة ، دالة على ان الكافر قد يكون موفراً عليه فى هذه الحياة ، وربما جزاء على اعمال حسنة يقوم بها ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، وانا لانضيع اجر من احسن عملا . فتحقيقا لهذا العموم فى الجزاء ، يجازى الكافر ايضاً على حسنات يعملها ، لكن بالنظر الى اختصاص مثوبات الحياة الاخرى بالمؤمنين ، تختص مثوباته بهذه الحياة الدنيا.

وهذا يتوافق مع قولنا بالاستحقاق ايضاً ، كما لايخفى .

* * *

٢ـ ان السيئة مهما بلغت حجماً وعدداً فانها تسقط بالتوبة «التائب من الذنب كمن لاذنب له[١]» . فالنادم على معصية اذا استغفر الله ، وقام بشرائط الانابة الى الله وتاب توبة نصوحاً، غفر الله له جميع ذنوبه، «قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم ـ الزمر :٥٣». وهذا اجماع من الامة ، لصراحة الكتاب وتواتر السنة القطعية .

نعم اختلفوا فى ان التوبة بذاتها تسقط العقاب أم لمزية ثوابها على عقاب المعصية التى ارتكبها؟. كما اختلفوا ـ ايضاً ـ فى ان سقوط العقاب بالتوبة تفضل ام ذاتي واجب ؟

لكن لاتأثير ـ عملياً ـ لأمثال هذه المباحث ، بعد ثبوت اصل الاسقاط وان كان بحث عنها كبار ائمة علم الكلام امثال المحقق نصير الدين الطوسى[٢]

١ـ الكافى الشريف ج٢ ص٤٣٥ برقم ١٠ باب التوبة .

٢ـ انظر تجريد الاعتقاد بشرح العلامة ابن المطهر الحلى ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠

والقاضي عبدالجبار [1] وغيرهما من العلماء. وللبحث عن شروط التوبة وآدابها مجال آخر.

* * *

٣- الاحباط - بمعنى محق الحسنات بسيئة لاحقة - باطل عندنا [2] اذ لا دليل عليه لا من العقل ولا من النقل، فضلا عن مخالفته لعموم الكتاب والسنة، ومنافاته لاصول العدل والحكمة في باب المجازاة:

اولاً: اذا كنا نقول في باب المجازاة بالاستحقاق - كما عليه العدلية - فما الذي دعا بسقوط مثوبات كان يستحقها المحسن ازاء اعماله الحسنة، بمجرد سيئة ارتكبها، لغلبة شهوة اوشرائط أخر وافته في ذلك، من غير ان يكون قد طغى على مولاه ولا قاطعاً لأواصر العبودية التي كانت تربطه مع مولاه؟!

نعم لو كنا نقول بأن المؤمن اذا عصى خرج عن الايمان - كما يقوله المعتزلة ويثبتون له منزلة بين المنزلتين - لكان لهذا الاحتمال الباطل مجال، لكنا رفضنا هذا الرأي، وان الفاسق - عندنا - باق على ايمانه مالم يجحد اوينكر الرسالة ومن ثم فهو كما يستحق مذمة وعقاباً على معصيته، كذلك يستحق مدحاً وثواباً على ثباته على الايمان وسائر اعماله الصالحة. ولا تنافي بين الامرين - حسبما تقدم - فيعاقب عقاباً منقطعا ثم يثاب على الحسنات، اذا لم يشمله الغفران من اول الامر.

ثانياً: معنى تقييد المثوبات واشتراطها بعدم لحوق سيئة أبداً، هو اشتراط العصمة طول العمر كما في الانبياء والأئمة المعصومين! وهل من العدل والحكمة

١- انظر شرح الاصول الخمسة لقاضي القضاة ص٧٩٠ فمابعد.

٢- قال العلامة المجلسي: المشهور بين متكلمي الامامية بطلان الاحباط والتكفير بل قالوا باشتراط الثواب والعقاب بالموافاة. قال: وذهبت المعتزلة الى ثبوتهما. بحار الانوار ج٥ ص٣٣٢.

ان يشترط المولى الكريم، على عباده ـ الذين خلقهم على درجات من ضعف وعجز تجاه نزعات ومشتهيات نفسية وغيرها من مغريات ـ ان لا يرتكبوا ذنباً طول حياتهم كي يفوزوا بثواب مايعملون من الصالحات ؟ ! . وهل هذا ممكن ؟ ! وهل يمكن لأحد ان يتخرج من الايفاء بهذا الشرط بسلام ؟!

ثالثاً : منافاته لعموم الكتاب والسنة واطلاقهما من غير مامخصص اومقيد . قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . وهذا عام يشمل الاعمال الحسنة التى قام بها مرتكب السيئة المتأخرة ايضاً .

وهكذا قوله : «ان الله لايظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيماً ـ النساء : ٤٠» . والعقل يرى ـ فى بدء نظره ـ من الظلم ان تمحق سيئة واحدة لاحقة حسنات تقدمتها ، والله لايظلم من حسنات العباد حتى مثقال ذرة منها ، فكيف بالحسنات الجسام ؟ بل ومن فضله ولطفه بعباده ان يضاعف حسناتهم على الاطلاق ، سواء أكانت سابقة على السيئة ام لاحقة . هذا مايفيده اطلاق الآية ولامقيد لها على ماسنذكر .

رابعاً : منافاته لقانون التعادل بين الذنب والعقاب ، وقد قال تعالى : «ومن جاء بالسيئة فلايجزى الامثلها وهم لايظلمون ـ الانعام : ١٦٠ » . وقال : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ـ يونس : ٢٧» .وقال : «من عمل سيئة فلايجزى الامثلها ـ غافر : ٤٠» . وقال : «وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ الشورى : ٤٠» .

فاذا كان الله ـ وهو العدل الحكيم ـ يقول : جزاء سيئة سيئة مثلها ، فما الموجب للقول بأن سيئة واحدة مهما كان قدرها تمحق حسنات جساماً كانت سبقتها ؟! وهل هذا الاظلم وجور وحيف ، واضاعة صريحة لمثوبات اعمال صالحة كانت خالصة لله وحده لاشريك له . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

عموم آيات التوفية

ان مراجعة عابرة لآيات التوفية فى القرآن ـ وهى كثيرة جداً ـ تجعلنا نطمئن بعموم الجزاء على الأعمال ان حسنة وان سيئة ،حسب الأثر الوارد : «الناس مجزيون باعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر » . ولامخصص لها فيما فحصنا فيما عدا خصوص الكفار اومن يرتدعن دينه فيموت كافراً .وقدتقدم بعضها ،واليك نماذج أخر :

قال تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ـ الانعام :١٦٠».

وقال : «للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ـ النحل: ٣٠ » .

وقال : «من جاء بالحسنة فله خير منها ـ النمل : ٨٩، والقصص : ٨٤».

وقال : «للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ـ الزمر : ١٠» .

وقال : «من يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ،ان الله غفور شكور ـ الشورى: ٢٣ » .

هذه الآيات كلها عامة شاملة لكلتا الصورتين سواء ألحقت الحسنة سيئة ام لم تلحقها ! وفى الآية الأخيرة صراحة فى هذا العموم ، حيث اشار الى جانب غفرانه تعالى ، فالحسنات اذا كانت خالصة لله فالله يشكر عليها ويقدرها ويغفر لصاحبها من ذنوبه سواء أتقدمتها ام تأخرت عنها !

وهكذا قوله تعالى : «انا لانضيع اجر من احسن عملا ـ الكهف : ٣٠» عام.

وقوله : «فاستجاب لهم ربهم أنى لااضيع عمل عامل منكم من ذكر اوانثى بعضكم من بعض ـ آل عمران : ١٩٥» .

وقوله : «وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم ـ البقرة:

١٤٣» . فمقتضى رأفته تعالى ورحمته ان لايضيع اجر الايمان حتى من العصاة حيث الايمان من أفضل القربات .

وقوله تعالى :«ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون ـ آل عمران : ٢٥»

وقوله : « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون ـ البقرة : ٢٨١ . وآل عمران : ١٦١» .

وقوله : «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ـ البقرة : ٢٨٦».

وقوله : «ليجزى الله كل نفس ما كسبت ـ ابراهيم : ٥١» .

وقوله : «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ـ غافر :١٧» .

وقوله : «ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون ـ الجاثية : ٢٢».

وقوله : «كل نفس بما كسبت رهينة ـ المدثر : ٣٨» .

الآيات كلها في صياغة عموم ، بصورة تأبى عن التخصيص حسب ظاهر تعبيرها حيث فرضت اعفاء اى حسنة من حسنات العبد ظلما به ، حتى ولو كانت ملحوقة بسيئة ، اذ لاتجزى سيئة الا بمثلها ، اما محق جميع الحسنات فليس جزاء بالمثل فضلا عن قبحه العقلى على ماهو معلوم .

وقال تعالى : «فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون ـ الانبياء : ٩٤» وقد اسلفنا ان مرتكب المعصية لايخرج من الايمان فبعموم هذه الاية الكريمة تكون اعماله الصالحة جميعاً المتقدمة والمتأخرة مشكورة له مثبتة في سجل حسناته محفوظة .

وقال : «وان ليس للانسان الاماسعى ، وان سعيه (على الاطلاق) سوف يرى ـ النجم : ٣٩ ـ ٤٠» .

وقال : «لتجزى كل نفس بما تسعى ـ طه : ١٥» .

وقال تعالى: «اولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم

في اصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ـ الأحقاف : ١٦» .

ولعلها أصرح آية فى عموم التوفية ، وان لاحبط بشأن المؤمن حتى ولو كان مرتكباً للذنب ، فـان ذنوبه سوف تغفر وتتداركه رحمةالله الواسعة التى كتبها للذين يتقون .

فقد وعد تعالى ـ فى هذه الآية الكريمة ـ ان يتقبل حسنات المؤمنين ولم يشترط عليهم العصمة من الذنوب طول الحياة ، كما هولازم القول بالاحباط على مذهب اهل الاعتزال .

والآيات من هذا القبيل كثيرة فى القرآن ،وهى حسب ظاهر تعبيرها آبيةعن التخصيص فضلا عن تكاثرها وتظافرها ، الامر الذى بحاجة الى مخصص قـوى صريح ، والمفروض فقدهذا المخصص على ماسنبين .

* * *

اختصاص آيات الحبط بالكفار

أماالآيات التى جاء فيها ذكر الاحباط فكلها خاصة بالكفار والمشركين ممن يموت على الكفر والجحود : ـ

قال تعالى:«ما كان للمشركين ان يعمروا مساجدالله شاهدين على انفسهم بالكفر اولئك حبطت اعمالهم وفى النار هم خالدون ـ براءة :١٧» .

وقال تعالى ـ اشارة الى امم سابقة كفرت ـ : «اولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون ـ براءة : ٦٩» .

وقال : «اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت اعمالهم ـ الكهف: ١٠٥» .

وقال : «اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم ـ الاحزاب : ١٩» .

وقال : «ذلك بأنهم كرهوا ماانزل الله فأحبط اعمالهم ـ سورة محمد:٩» .

وقال : «ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله و كرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم ـ سورة محمد : ٢٨» .

وقال : «ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعدماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط اعمالهم ـ سورة محمد : ٣٢».

وقال : «مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لايقدرون مما كسبوا على شيء ـ ابراهيم : ١٨» .

وقال : «وقال الذين لايرجون لقاءنا ـ الى قوله ـ وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ـ الفرقان : ٢١ـ٢٣» .

الى نظائرها من آيات تخص حبط اعمال الكافر بالله الجاحد للنبوة المكذب لرسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .ولايملك القائل بعموم الحبط دليلا اذاصراحة من الكتاب العزيز، وبالتالي فان العمومات المتقدمة بموافاة كل انسان جزاء اعماله ان خيراً فخير وان شراً فشر،باقية على شمولها لاعمال مرتكب الذنب ايضاً . خرج منها منكر الرسالة وبقي الباقي ـ اطلاقاً ـ تحت العموم . الامر الذي تقتضيه قواعد علم الاصول والبيان .

* * *

هل في آيات الحبط عموم ؟

قد يزعم البعض [1] ـ احتمالا ـ دلالة آي من الكتاب على عموم الحبط وعدم اختصاصه بمن يموت كافراً . وهو وان لم يذكر من تلك الآيات شيئا ولا اشار اليها بالخصوص ، وانما ذكر ذلك تعبيراً عابراً ،ومن ثم فان كانت نظرته الى آيات الحبط المتقدمة فهي كانت خاصة بالكفار والمشركين ، وان كانت الى غيرها فلم يبين ، ونحن في عرضنا لآيات القرآن في خصوص مسألة الاحباط عثرنا على

---

١ ـ انظر : القول السديد في شرح التجريد للسيّد الشيرازي ص٣٩٦ .

آيات لعلها ذات دلالة ظاهرية ـ في بدء النظر ـ على عموم الحبط ، نذكرها فيما يلي : ـ

١ـ قال تعالى : «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا ، وماله في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب ـ البقرة : ٢٠٠ـ٢٠٢».

فاذا ارجعنا الاشارة في قوله : « اولئك » الى خصوص الفئة الثانية ، كانت الآية ـ في بدء النظر ـ دالة على اختصاص توفية المثوبات بهم ، وان لاحظ للفئة الاولى فيما اكتسبوه من الحسنات . والآية ـ بظاهرها ـ عامة تشمل ماذا كان من الفئة الاولى مؤمنون معتقدون بالله ومصدقون برسالة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم !

قلنا : هذه الاستفادة من الآية خاطئة ، لانها نزلت تعريضاً بشأن المشركين كانوا اذا وقفوا بالموقف ذكروا آباءهم ونوهوا بأمجاد جاهلية تفاخراً على بعضهم واذا سألوا الله شيئاً لم يتجاوزوا مطاليب سافلة ابلاً وغنماً ورقيقاً وظفراً على اعداء ولا يسألونه الجنة والمغفرة والرضوان ، حيث فقد العقيدة بالبعث والنشور «ان هي الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين ـ المؤمنون : ٣٧» . ومن ثم ذكر تعالى :«وماله في الآخرة من خلاق» .

ولاشك ان الذى لاخلاق له في الآخرة هو الكافر المحض ـ حسبما تقدم ـ « وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » . اما الفئة الاخرى ـ وهم المؤمنون بيوم المعاد ـ فيسألون الله تعالى خير الدنيا والآخرة والمغفرة والنجاة من النار ، فهؤلاء لهم نصيب في الآخرة: «يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وان الله لا يضيع اجر المؤمنين ـ آل عمران : ١٧١» .

قال ابن عباس : كان قوم من الاعراب يجيئون الى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً.

فأنزل الله فيهم « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، وماله فى الآخرة من خلاق » . ويجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فانزل الله فيهم «اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب» .

وعن مجاهد : كان اهل الجاهلية اذا اجتمعوا بالموسم ذكروا فعل آبائهم فى الجاهلية وأيامهم وانسابهم فتفاخروا ، فانزل الله ... الخ .

وعن ابن الزبير : كان الناس فى الجاهلية اذا وقفوا بالمشعر الحرام دعوا فقال احدهم : اللهم ارزقنى ابلا ، وقال الآخر : اللهم ارزقنى غنما ، فانزل الله... الخ .

وعن السدى : كانت العرب اذا قضت مناسكها واقامت بمنى ، لا يذكر الله الرجل منهم ، وانما يذكر اباه ، ويسأل ان يعطى فى الدنيا [1] .

وعن الامام ابى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام : انهم كانوا يجتمعون، يتفاخرون بالآباء ، وبمآثرهم ، ويبالغون فيه [2] .

هذا فيما لو كانت الاشارة فى «اولئك» الى خصوص الفئة الثانية ، اما لو ارجعناها الى كلتا الطائفتين ، كان المعنى : ان لكل نصيبه حسبما يبتغيه ان دنيا وان آخرة ، نظير قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب ـ الشورى ٢٠ » .

بل وحتى المؤمن اذا كان همه الدنيا كانت هى نصيبه من حظ الحياة ، ولا

١ـ الطبرى ـ التفسير ـ ج ٢ ص ١٧٤ . والدر المنثور ج ١ ص ٢٣٢ . واسباب النزول للواحدى ص ٣٤ .

٢ـ التبيان للشيخ الطوسى ج ٢ ص ١٧٠. ومجمع البيان ج ٢ ص ٢٩٧. والصافى ج ١ ص ١٧٨ . والعياشى ج ١ ص ٩٨ .

حظ له في الآخرة ، ذلك الحظ الاوفر . حيث قصور نظره وابتذال همته . كما روى في قوله تعالى : « ان الذين يشترون بعهدالله وأيمانهم ثمناً قليلا . اولئك لاخلاق لهم في الاخرة ـ آل عمران : ٧٧ » انها نزلت فيمن اخذ مالا بيمين فاجرة[١] .
فهؤلاء ، وان كانوا مؤمنين بحسب الظاهر ، لكنهم في واقع باطنهم لا طمع لهم في الاخرة . كما روى عن النبي صلى الله عليه وآله : « ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم[٢] » يعني المجاهدين في سبيله لأطماع دنيوية لا عقيدة لهم راسخة ، و ربما كانوا متظاهرين بالاسلام . و كما روى ـ ايضاً ـ انه صلى الله عليه وآله قال :«من لبس الحرير في الدنيا فلاخلاق له في الآخرة»[٣]. يعني ذلك الحظ الاوفر الذي يناله المؤمن المعتقد المحافظ .

وعليه فتوله : « اولئك لهم نصيب » اى النصيب الاوفر التام . واما غيرهم من المؤمنين القاصرين فان نصيبهم من الآخرة قليل .

* * *

٢ـ وقال تعالى : «ليجزى الذين أساءوا بماعملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الا ثم والفواحش الا اللمم ، ان ربك واسع المغفرة ـ النجم : ٣١ـ٣٢» .

ولعل متشبثاً يتشبث بالتقييد الذى جاء في الآية الكريمة « الذين يجتنبون...» قيداً لقوله : «ويجزى الذين احسنوا بالحسنى » . فلا ينال أحد أمثوبات أعماله الا اذا كان مجتنباً للكبائر ، الامر الذى ينطبق تماماً على مذهب الاحباط ، حيث السيئة اللاحقة تذهب بالحسنات أدراج الرياح !

١ـ تفسير البرهان ج ١ ص ٢٩٢ . والمجمع ج ٢ ص ٤٦٣ . والدر المنثور ج ٢ ص ٤٤ .

٢ـ التفسير الكبير للامام الرازى ج ٥ ص١٨٧ .

٣ـ مسند احمد بن حنبل ج١ ص ٤٦ .

قلت : هذا بناء على اعتبار « الذين يجتنبون » بياناً من « الـذين احسنوا » فيكون قيـداً له . لكن قد يستشكل : كيف يصلح الفعل المستقبل بياناً للفعـل الماضي ؟ ! ومن ثم رجح بعضهم كونه مستأنفاً به ، اى هم الذين يجتنبون . . . الخ ، أو يكون الموصول مبتدأ محذوف الخبر ، مدلولاً عليـه بقوله : « ان ربك واسع المغفرة » .

وعلى كل تقدير ، ففي التحول من لفظ الماضي أوّلاً الى لفظ المضارع ثانياً نكتة لطيفة ، هي ملاحظة مالجانب الفعل المضارع من دلالته على الدأب والاعتياد الحاصل بالغلبة والأكثرية ، الامر الذى لايثلمه الخروج عنه مرة أو مرتين مثلاً . فمن كان من عادته المشي بعد الأكل عادة حاصلة بالأغلب ، يصح فى شأنه ان يقال : انه يمشي بعد الأكل . ولايضر بهذا الاطلاق ان لايمشي بعد الأكل احياناً ، اذا لم يخالف عادته رأساً.

فالمؤمن المعتقد هو الذى يلتزم على نفسه بأن يجتنب المعاصي ولايقتربها ولايضره الاقتراف أحياناً على خلاف المعتاد .وهذا يصدق بشأنه «انه يجتنب الذنوب» اى يحاول بكل جهده اجتنابها وان كان قد تعاكسه الظروف رغم عادته .

ومن ثم قال تعالى ـ بشأن المؤمنين فيما يخص جانب تركهم للمعاصي ـ : «والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ماغضبواهم يغفرون ـ الشورى : ٣٧». ولم يقل :«اجتنبوا» لان الماضي يدل على تواصل الاجتناب في الماضي ،ويثلمه التخلف في فترة اوفترات. فمن ارتكب كبيرة مرة أومرات طول حياته ، لايصدق بشأنه أنه اجتنبها بصيغة الماضي ، لكن يصدق بشأنه انه مجتنب أويجتنب المعاصي بصيغة اسم الفاعل اوالمضارع .

ولذلك لما جاء دور معصية خصوص الشرك ، عبر تعالى بصيغة الماضي : «والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ـ الزمر : ١٧» . لانها معصية غير مغفورة وليست بالتي لاتضر بالايمان أن يقترفها المؤمن أحياناً في حياته !

والخلاصة: انه تعالى ذكر فى الآية الكريمة أولاً جانب الايمان وفعل الطاعات وعبر عنه بصيغة الماضى، دلالة على الاستمرار والتواصل «الذين احسنوا». ثم ذكر جانب ترك المعاصى واجتناب المحرمات، وعبر عنه بصيغة المضارع، دلالة على اعتبار كون المؤمن بانياً على تركها وملتزماً على نفسه اجتنابها، الامر الذى لايضره الاقتراف أحياناً. «ان الحسنات يذهبن السيئات ـ هود: ١١٤».

ففى هذا الاختلاف فى التعبير ـ ماضياً ومضارعاً ـ دلالة واضحة على ان سيئة واحدة لاحقة ليست بالتى تمحق الحسنات السابقة بأسرها، كما يرومه القائل بالحبط! فلامساس للاية بمسألة الاحباط رأساً.

* * *

٣ـ وقال تعالى: «ياايها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً، لايقدرون على شىء مما كسبوا، والله لايهدى القوم الكافرين ـ البقرة: ٢٦٤».

ربما يزعم البعض أن فى الآية الكريمة دلالة على الحبط بشأن المؤمنين ايضاً. فان الامتنان والأذى معصية تمحق حسنة الصدقة السابقة، ومن ثم قال تعالى فى الآية قبلها: «الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله، ثم لايتبعون ماأنفقوا مناً ولاأذى، لهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ـ ٢٦٢ ـ ٢٦٣».

قلت: اذا كان من شرط الصدقة ـ وهى عبادة ـ قصد الخلوص والقربة الى الله لانها انفاق فى سبيل الله، فان المنة على المتصدق عليه مناقضة صريحة لماهية الصدقة وقلب لها من كونها قربة الى كونها رياء وسمعة، فضلا عن كونها أذى وهتكاً لشخصية مسلمة كريمة.

فالصدقة مع المنة ليست بصدقة فى حقيقتها، ومن ثم فلاحسنة كى تمحقها

سيئة ، فلاموضوع فى الآية لمسألة الاحباط !

وهذا نظير ماكان احد الصوفية يرتكبها ، كان يسرق ثم يتصدق به ، زاعماً ان الحسنة تقابل بالعشر والسيئة بواحدة . فقال له الامام عليه السلام : ويلك، اماقرأت : «انما يتقبل الله من المتقين ـ المائدة :٢٧» . وسيوافيك الحديث (ص ٣٩٤) فى بحث التكفير .

* * *

٤ـ وقال تعالى : «ياايها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض . أن تحبط اعمالكم وأنتم لاتشعرون ـ الحجرات : ٢» .

رجح سيدنا الطباطبائى دلالة الآية الكريمة على الحبط ، قال : ظاهر الآية ان رفع الصوت فوق صوت النبى صلى الله عليه وآله والجهر له بالقول ، معصيتان موجبتان للحبط الامر الذى يدلنا على ان غير الكفر من المعاصى ـ ايضاً ـ يوجب الحبط [١] .

قلت : لاشك ان اصحابنا الامامية متفقون على ان لاحبط فى غير الموت على الكفر ، لانه ظلم وقبيح ـ حسبما اسلفنا ـ ومن ثم ذهبوا جميعاً الى توجيه الحبط فى الآية الكريمة بما يلتئم ومذهبهم فى العدل .

قال العلامة المجلسى ـ رحمه الله ـ : « اعلم ان المشهور بين متكلمى الامامية بطلان الاحباط والتكفير ، بل قالوا باشتراط الثواب والعقاب بالموافاة . بمعنى ان الثواب على الايمان مشروط بان يعلم الله منه انه يموت على الايمان ، والعقاب على الكفر والفسوق مشروط بان يعلم الله انه لايسلم ولايتوب . وبذلك أوّلوا الايات الدالة على الاحباط والتكفير [٢] » .

قال شيخ الطائفة ـ قدس سره ـ فى تفسير الآية : «ثم أمرهم ـ ثانياً ـ بأن قال : (لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) على وجه الاستخفاف به صلى الله عليه وآله . فان مجاهداً

١ـ تفسير الميزان ج١٨ ص٣٣٥

٢ـ بحار الانوار ج٥ ص٣٣٢

وقتادة قالا : جاء أعراب أجلاف من بني تميم فجعلوا ينادون وراء الحجرات : يا محمد ، اخرج الينا . ولو أن انساناً رفع صوته على صوت النبي صلى الله عليه وآله على وجه التعظيم له والاجابة لقوله، لم يكن مأثوماً .وقد فسر ذلك بقوله (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) فان العادة جارية ان من كلم غيره ورفع صوته فوق صوته ان ذلك على وجه الاستخفاف به ، فلذلك نهاهم عنه[1] » .

وبعد فلعل الاية بذاتها ظاهرة فيما نقوله ، وان الحبط فيها يمس جانب رذيلة الاستخفاف بمقام النبي الكريم صلى الله عليه وآله ،المفضي في نهاية الامر الى الارتداد شيئاً فشيئاً، وان كان صاحبه لا يشعر بذلك ، حيث التعود عليه تدريجياً.

ذلك ان الانسان اذا ارتكب رذيلة مما لم يرتكبها من قبل ، ندم عليها اشد الندم ، لكنه اذا ارتكبها مراراً فان خشيته تقل وخوفه يتضاءل ولا يندم كندمه في البدء ، وربما أوجب التكرار عادة يعتادها الانسان من غير ان يحس بقبحها شيئاً فشيئاً . فعلى الانسان السائر في طريق التهذيب والكمال ان يسد على نفسه ابواب المعاصي في اوائل أمرها ، حيث الانقلاع في بدء الامر هين وفي الغضون صعب. وربما ينتهي الامر الى ما لا يراه قبيحاً أو ذنباً مستنكراً .

وعليه فلا شك ان رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله والجهر له بالكلام بما يشبه الصياح ، خلاف الادب ، واستهانة بمقامه الكريم ، وهي رذيلة قبيحة تؤدي بصاحبها تدريجياً - اذا أصر عليها - الى الاستخفاف به صلى الله عليه وآله وسلم واستحقاره والتنزل بمقامه السامي الى درجة العبيد والارقاء -العياذ بالله - الامر الذي ينتهي في نهاية المطاف الى استصغار مقام النبوة ، وربما الى انكارها ، واعتبار النبي كأحدهم من سائر الناس، لا مزية له ولا منزلة شامخة، وهو في حد الكفر والارتداد وربما بلغه المرتكب لا عن شعوره .

يدل على ذلك شواهد من السورة نفسها :

١- تفسير التبيان ج ٩ ص ٣٣٨ .

أولاً ـ قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ـ ١ ». كان احدهم يتقدم على رسول الله فى المشى استكباراً بنفسه واستعظاماً لزعامته على افراد قبيلته كان يحسبهم كثرة ذوى عزة ، تجاه قبيلة النبى ذات قلة فى نظرهم . وهى اهانة بمقام النبى العظيم بلاشك . ومن ثم حذرهم تعالى بقوله : « واتقوا الله » اى احذروا نكال هذه الرذيلة السيئة وهذا الذنب الخطير المؤدّى الى الكفر والارتداد أحياناً.

ثانياً ـ قوله : « كجهر بعضكم لبعض ـ ٢ » يدل على انهم كانوا يحسبون من شموخ مقامه المنيع ﷺ متماثلا معهم وفى مستواهم الهابط من الكرامة والفضيلة الامر الذى هو ازراء بشأنه ﷺ .

ثالثاً ـ قوله : « ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ـ ٣ » تعريض بان الذين يخالفون هذا الادب الاسلامى هم ذووا قلوب جافة قاسية لم ترضخ لشريعة الله ومن ثم فلم تتمرن على التقوى والخشية التى هى من لين القلوب ، فهم الى العتو والاستكبار اقرب منهم الى الخضوع والاستسلام .

رابعاً ـ قوله : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لايعقلون ـ ٤ ». اى تمكن الجهل والعماء من قلوبهم فلم يستعدوا بأنفسهم للرضوخ الى تعاليم الاسلام القيمة .

واخيراً ـ فقوله : « ان تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون ـ ٢ » يعنى ان سوء الادب بمقام النبوة سوف يؤدى الى الارتداد الفظيع ، من غير ان تشعروا بالسقوط تدريجياً الى مهواه السحيق .

التكفير بين العموم والخصوص !

اما تكفير الحسنات للسيئات ـ اجمالياً ـ فمما لاشك فيه، نظراً لصراحة القرآن المجيد والسنة المتواترة في ذلك . لكن هل هذا التكفير عام في جميع الحسنات وبالنسبة الى جميع السيئات اطلاقاً ، أم هناك شروط وقيود وتفصيل ؟

لانستطيع ـ ونحن نرى العدل والحكمة في ذاته المقدسة ـ ان نلتزم بعموم التكفير بصورة مطلقة، اذ أقل نتيجة لهذا الالتزام هو اجتراء اهل الكبائر على اقتراف الذنوب والآثام من غير مامبالاة . فليرتكب المذنب ماترغب اليه نفسه الخبيثة بصورة مستمرة عبر لليالي والأيام ، بل على مـر الساعات والآنات ، مقتنعاً بنفسه انه ملتزم بالصلاة والصدقات ، لقوله تعالى : «ان الحسنات يذهبن السيئات» !

ولعل عمر بن سعد ـ مع اعترافه بمآثم قتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ممن يميل الى هذا المذهب المنحرف في قوله :

فان صدقوا فيما يقولون انني اتوب الى الرحمان من سنتين [١] .

الامر الذي ينكره الوجدان الشريف ، ويرفضه دأب العقل الرشيد ، فضلا عن منافاته لمقام عدله تعالى وحكمته في التكليف والبعث والزجر والوعد والوعيد.

وفي حديث الامام ابي عبدالله الصادق عليه السلام مع أحد الصوفية دلالة واضحة على فساد هذا المذهب العامي :ـ

قال عليه السلام : «ان من اتبع هواه واُعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء العامة تعظمه ، فأحببت لقاءه من حيث لايعرفني . فتبعته يوماً فمر بخباز فتغفله وسرق منه رغيفين . ثم مر بصاحب رمان فاختطف منه رمانتين ، فتعجبت وقلت في نفسي ماحاجته الى هذه السرقة ! ثم لم أزل أتبعه حتى مر بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين

١ـ اسرار الشهادة عن مقتل ابي مخنف ص٢٣٢ . وتجد صدر الابيات في كامل ابن الاثير ج٣ ص٢٨٣ ومناقب ابن شهر آشوب ج٤ ص٩٨ .

يديه !

قال الامام: فتعرضت له وسألته عن صنيعه ذلك . فقال :لعلك جعفر بن محمد! قلت : بلى . فقال : فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك ! قلت : وما الذى جهلت منه؟ قال : قول الله عزوجل: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الامثلها » . وانى لما سرقت الرغيفين كانتا سيئتين ، ولما سرقت الرمانتين كانتا سيئتين ،فهذه أربع سيئات . فلما تصدقت بكل واحدة منها كانت لى أربعون حسنة واذا نقصت منها اربعاً بقيت ست وثلاثون حسنة !

قال الامام : قلت له : ثكلتك أمك ، أنت الجاهل بكتاب الله ، اما سمعت الله عزوجل يقول : « انما يتقبل الله من المتقين » . انك لما سرقت الرغيفين والرمانتين كانت اربع سيئات ، ولما دفعتها الى غير اصحابها بغير رضاهم كنت أضفت الى سيئاتك اربع سيئات اخر ، ولم تصف لك الأربعون ! قال : فجعل يلاحينى [1] فانصرفت وتركته.

قال الامام:«بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلون ويضلون»[2] .

* * *

اذن فلابد من تأويل ماورد فى الكتاب والسنة ما ظاهره عموم التكفير ، اما باختصاصه ببعض الذنوب كالصغائر مثلا ، أو بصورة ما اذا حصل من المرتكب ندم على ما فرط منه ، فاذا قام بحسنة كصلاة وصدقة فى سبيل الله ، كان ذلك من موجبات قبول توبته ، اما وقوع مطلق الحسنات كفارة لمطلق السيئات كبيرة وصغيرة ، سواء أندم عليها أم لم يندم ، كان بانياً على تركها ام مصراً على فعلها

١ـ لاحاه : شتمه وأبغضه .

٢ـ وسائل الشيعة ج ٦ ص ٣٢٧ . ومعانى الاخبار للصدوق ص ١٤ . والتفسير المنسوب الى الامام العسكرى ص ١٦ واحتجاج الطبرسى ج ٢ ص ١٢٩ـ١٣٠ .

فهذا مما لانستطيع الموافقة عليـه ، مادام مذهبنا يرى العدل والحكمة فى أفعاله تعـالى .

واليك من الآيات ماتعرضت لظاهرة التكفير :

١ـ قال تعالى : « وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ـ هود : ١١٤» .

وربما تواترت الروايات بشأن الصلوات الخمس ، اذا قام المسلم فتوضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس ، تحاتت خطاياه كما يتحات الورق من الغصن اليابس[١] .

ولنتساءل : هل هذا عام يشمل النادم والمصر ؟ أو الكبائر كلها ؟ فليرتكب اصحاب الجرائم والكبائر مابدا لهم من ذنوب وآثام ، ولا مبـالاة ، فان صلاة واحدة من الصلوات الخمس تذهب بالسيئات كلها ، فليصلها ثم يعود الى جناياته وهكذا يذنب الذنوب العظام ويعقبها بصلاة لتكون كفارة عن ذنوبه كلها ومطهرة له من الآثام ، حتى ولو كان بانياً على العود والاقتراف على الاستمرار ! ؟ .

فالصحيح فى تفسير الآية أحد وجهين :

الاول : اختصاص ذلك بالصغائر ، الامر الذى نلتزم فيه بالتكفير خاصاً به. فالصغائر ـ وهى الذنوب المغفول عنها غالبياً[٢] ـ مغفورة على شريطة الايفاء بالصلوات

١ـ انظر : مجمع البيان ج ٥ ص ٢٠١ . وتحات الورق من الشجر ـ بتشديد التاء ـ : تناثر وتساقط .

٢ـ اختلفوا فى تعيين الصغائر وتمييزها عن الكبائر ، فقيل : ما اوعد الله عليه النار او اوجب عليه حداً ، وقيل : كل مانهى الله فهى كبيرة ، لان كبر الذنب انما هو بالقياس الى عظم شأن المولى . وقيل ليست فى الذنوب صغيرة الا بالقياس الى اكبر منها ، فبعضها اكبر وبعضها اصغر قياساً نسبياً لاحقيقياً . انظر : مجمع البيان ج٣ ص٣٨ .

الخمس تامة كاملة .فقد وعد تعالى بغفران الصغائر ، لكن وعداً مشروطاً باجتناب الكبائر [1] ومن الكبائر ترك الصلوات المفروضة او الاستهانة بها ،قال الامام الصادق عليه السلام :«لاتنال شفاعتنا مستخفاً بصلاته [2]» والاستخفاف بالصلاة بذاته كبيرة موبقة . فمن شرط غفران الصغائر الاهتمام بالصلاة وحسن أداءها والمحافظة على حدودها والاتمام من ركوعها وسجودها وماالى ذلك من احكام وآداب مفروضة .

← والصحيح انهناك كبائر وصغائر . وفي بعض الروايات تعداد الكبائر بالخصوص وهي جميع الذنوب المعروفة ، وربما بلغت سبعين ذنباً تقريباً .وجاء فى حديث شرائع الدين عن الامام الصادق ــ ع ــ برواية الاعمش ،اشارة الى كثير منها . راجع : بحار الانوار ج ١٠ ص٢٢٢ ــ ٢٢٩ .

قال الامام الصادق ــ ع ــ «الذنوب كلها شديدة، وأشدها مانبت عليه اللحم والدم» . الكافى الشريف ج٢ ص٢٧٠ .والبحار ج٧٣ ص٣١٧ . وراجع الكافى باب الكبائر ج٢ ص٢٧٦ ــ ٢٨٧ . وباب استصغار الذنوب ص٢٨٧ . وباب الاصرار على الذنب ص٢٨٨. وغيرها من ابواب مناسبة .

وعليه فالصغيرة عندنا هى الذنوب التى ترتكب عفواً وربما لاعن قصد وشعور . لكن لا بمثابة تكون عذراً . وذلك اكثر مايبتلى به الناس فى حياتهم اليومية ،من دون مامبالاة بالتحفظ على حقوق معاشرة الاخوان بتلك الدقة التى عينها الاسلام ، وما اشبه ذلك . ولعلنا فى مجال آخر مناسب نتعرض لهذه المسألة بتفصيل وتوضيح اكثر .

قال الامام الصادق ــ عليه السلام ــ: «لاصغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار» الكافى الشريف ج٢ ص٢٨٨ .اذ الصغيرة انما تقع من المؤمن المحافظ عفواً مرة اومرتين. اما مع الاصرار فهى خطيئة كبيرة وربما ذهبت بالايمان. راجع الكافى ج٢ ص٢٨٤ــ٢٨٥.

١ــ فى قوله تعالى:«ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ــ النساء : ٣١ » .

٢ــ انظر: وسائل الشيعة ج٣ ص١٥ ــ ١٨ باب تحريم الاستخفاف بالصلاة والتهاون بها، ٦ من اعداد الفرائض ونوافلها .

الثانى : ان تفسر الحسنات بالتوبة والاستغفار . كما فى قوله تعالى : «الامن ظلم ثم بدل حسناً بعدسوء فانى غفور رحيم ـ النمل : ١١» . اى تاب بعد معصية. قال السيد شبر : توبة بعدذنب ، فى غير المعصوم . وفى المعصوم : بعدترك اولى[1] .

ولاخلاف فى ان التوبة تذهب بالسيئات، اى تسقط عقابها ، حسبما وعدالله تعالى فى الذكر الحكيم . قال تعالى : «وانى لغفار لمن تاب و آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ـ طه: ٨٢» . « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعدذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم ـ النحل ١١٩». وغيرهما من آيات وهى كثيرة .

قال شيخ الطائفة ـ قدس الله روحه ـ : وقوله تعالى : « ان الحسنات يذهبن السيئات » قيل فيه وجهان : احدهما ـ تذهب به على وجه التكفير ، اذا كانت المعصية صغيرة . والآخر ـ ان المراد بالحسنات التوبة ، تذهب بالسيئة اى تسقط عقابها . لانه لاخلاف فى سقوط العقاب بالتوبة . قال : وقد قيل : ان الدوام على فعل الحسنات يدعو الى ترك السيئات ، فكأنها ذهبت بها[2] .

وهذا الذى ذكره الشيخ أخيراً يصلح وجهاً ثالثاً لتفسير الآية الكريمة ليصير معنى الاية ـ والله العالم ـ : ان المواظبة على الاعمال الصالحة واتيان الخيرات والرغبة فى الحسنات ، لمما يزيد فى التوفيق ويبعث على ترك السيئات واجتناب الشرور والمفاسد طبعاً ، اذ كلما ازدادت رغبة الانسان فى جهة ازداد بعداً عن جهة اخرى مخالفة لها. والنفس البشرية سريعة التعود على الوضع الذى أنست به، والطريقة التى سلكته فى الحياة اما صلاحاً أو فساداً .

فالانسان الذى يزاول أعماله فى جو صالح تراه لايفكر الا فى خير ، ولايستطيع ارتكاب شرور حسبما ألفه من صلاح . وهكذا العكس، الذى يزاول أعماله فى جو

١ـ تفسير شبر (ط القاهرة) ص ٣٦٣

٢ـ تفسير التبيان ج٦ ص ٨٠ (ط نجف) .

فاسد لايفكر الافى شرور وآثام. وهى طبيعة ثانوية للانسان تحصل على اثر المرونة والالف.

وعليه فقوله تعالى: «ان الحسنات يذهبن السيئات» يعنى: ان مرتكب الحسنات المتعود عليها، لتبلغ به عادته تلك الحسنة، الى حيث تذهب عن حياته السيئات فلا يرتكبها بحسب ذاته واعتياده على الصلاح، فيالها من عادة حسنة ونعمت!

قلت: وان فى الصلاة ـ خصوصها ـ لأثراً تربوياً نفسياً ليس فى سائر العبادات. انها تجسيد لمقام العبودية تجاه المعبود العظيم. ان العبد اذا وقف بين يدى مولاه فى الصلاة، ليشعر بضئالة موقفه تجاه رب العالمين، يرى من نفسه ذلك المحتاج الفقير العاجز الحقير، واقفاً بين يدى مولاه الغنى المقتدر العظيم، ضارعاً اليه خاشعاً متواضعاً، سائلا راغباً، طالباً عنايته ورأفته ورحمته.

ومن أمعن النظر فى مقاطع سورة الفاتحة وسائر افعال الصلاة وأذكارها ليتجلى له هذا الموقف الخطير وتلك الصلة الوثيقة التى تربط العبد المؤمن الى مولاه الكريم. ومن ثم كانت الصلاة معراج المؤمن.

والعبد المؤمن اذا كان يعاهد مولاه كل يوم خمس مرات فى تلك الخشية والخضوع، والرغبة والرهبة، والمسألة والطلب وابداء الحاجة والافتقار، اعترافاً بمقام ربه العظيم وسطوته القاهرة... لينقلع بنفسه عن ارتكاب القبائح واقتراف الذنوب، استحياء من ربه وخجلا ان يعود الى ربه ناقضاً عهده نابذاً اعترافه واقراره على نفسه بالصغار والهوان!

ومن ثم قال تعالى: «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله اكبر ـ العنكبوت: ٤٥». يعنى تلك الصلاة التى اقيمت بحدودها وشرائطها، مع الالتفات الى جوانب فحوى اذكارها وأفعالها، ذات التأثير العميق فى الروح وفى تربية التقوى فى النفس.

اذن فالحسنات يذهبن السيئات، اى لايدعن مجالاً لارتكابها، اذا كان المحسن

(المصلى) مخلصاً فى احسانه (فى صلاته) تجاه رب العالمين .

* * *

٢ـ وقال تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم و ندخلكم مدخلا كريماً ـ النساء : ٣١» .

اى الصغائر مغفورة على شريطة اجتناب الكبائر .

٣ـ وقال : « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ـ الانفال : ٢٩» .

اذا كان المؤمن محافظاً على دينه متقياً ربه فى السر و العلن ، جعل الله له نوراً يستضىء به درب الحياة ، وبصيرة فى قلبه يلمس بها حقيقة الأمور . وهذا بطبعه يجتنب الكبائر من الذنوب ولا يقترفها قط ، فتصبح صغائره مغفورة له ، ويدخل على ربه فى كرامة وتبجيل .

٤ـ وقال : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات (اى واظبوا عليها) لنكفرن عنهم سيئاتهم (الصغائر) ولنجزينهم احسن الذى كانوا يعملون ـ العنكبوت :٧» . لان مرتكب الآثام و الجرائم الكبار لا يطلق عليه عنوان «عامل الصالحات» . اللهم الا اذا عمل سيئة ثم تاب عنها و ندم عليها ، حيث لا خلاف فى غفران ذنبه .

٥ـ « والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون . لهم ما يشاء ون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا (من شرك وذنوب قبل اسلامهم[١]) ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ـ الزمر: ٣٣ ـ ٣٥ » . ولو اخذنا باطلاق الاية فالمراد : اذا تابوا عنها . ولا شك ان الذين يصفهم

١ـ هذا التفسير ينظر الى ما بين هذه الاية وسابقتها من تقابل الشرك والاسلام وما يترتب عليهما من آثار ونتائج .

القرآن بهذا الوصف الحسن ويثنى عليهم بهذا الثناء الجميل ، هم ممن اذا فعلوا فاحشة ندموا عليها واستغفروا الله، فوجدوا الله تواباً رحيماً .

٦- وهكذا قوله : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل اعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم ، كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم - سوره محمد : ١-٢» .

٧- وقوله : « ومن يتق الله (فى الكبائر) يكفر عنه سيئاته - الطلاق : ٥» .

٨- وقوله : « و من يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته - التغابن : ٩ » .

٩- وقوله : « ويكفر عنهم سيئاتهم - الفتح : ٥ » .

١٠- وقوله : « عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم - التحريم : ٨ » اى اذا اجتنبتم الكبائر .

وهكذا سائر الايات مما يدل على تكفير السيئات ، يكون مشروطاً بالتوبة أو اذا كان مرتكبها مجتنباً للكبائر . جمعاً بينها و بين ما دل على الاشتراط المذكور ، وان الذنب مما يستحق فاعله العقاب اذا لم يندم ولم يعمل مايكفر عنه.

* * *

١١- وقال تعالى: «الامن تاب وآمن وعمل عملا صالحاً، فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً - الفرقان : ٧٠» .

هذا التبديل بالأعمال هو أثر طبعى لتبدل الشخص بالتوبة ، من كافر ملحد كانت اعماله واتجاهاته فى الحياة معاكسة للفطرة ، وفى مضادة ارادة الله وتشريعه الحكيم . . .الى مؤمن صادق ، صارت اعماله واتجاهاته موافقة للفطرة وعلى النهج المستقيم الذى اراده الله وشرعه على يد انبياءه العظام ،و من موجود طالح كان يبغى الفساد فى الارض ، الى شخصية صالحة بناءة تزدهر بوجوده

الحياة العامة .

فربما كانت نفس الاعمال التي كان يقوم بها حال كفره ، وكان ملؤها الفساد والهدم والتخريب ، انقلبت ببركة الاسلام الى اعمال صالحة يعمر بها وجه الارض ، كبطل كان يضرب بالسيف قتلا ونهباً في سبيل محاربة الحق ونقض العدالة ،وقدأصبح ـ بعداعتناقه الاسلام ـ ذلك الضرب بالسيف والقتل والنهب الذى كان سيئة كبيرة، الى حسنة وجهادفى سبيل الله وفى سبيل اعلاء كلمة الحق ،وبسط العدالة على وجه الارض.

وهكذا الانفاق في سبيل الصد عن سبيل الله،ليكون عليهم حسرة (الانفال : ٣٦) ينقلب بعدالاسلام فينفق في سبيل اعلاء كلمةالله ،لتصبح تجارة رابحة لن تبور (فاطر : ٢٩) .

وقد ذكروا في تفسير الآية وجوهاً اخر ، ذكرها الامام الرازى (التفسير الكبير ج٢٤ص١١٢)والشيخ ابو على الطبرسى(مجمع البيان ج٧ص١٨٠) وغيرهما من كبار المفسرين ، انششت فراجع .

* * *

وهناك روايات ناصة على أن اتباع السيئة بالحسنة يمحقها ويذهب بأثرها. ولابدّمن تأويلها ـ كما في الآيات السالفة ـ بما اذا كانت السيئة صغيرة او كانت الحسنة مصحوبة بتوبة عن الذنب السابق. فاذا اقترف انسان خطيئة وندم عليها فأراد التوبة والاستغفار ، فان من آداب التوبة ان يقوم بحسنة يقدمها الى الله ، ثم يتضرّع اليه ان يغفر له مافرط منه من ذنب . ولعل أكثرية الأحاديث الواردة بهذا الشأن ناظرة الى هذا المعنى، واليك منها :

١ـ قال رسول الله ﷺ : «اتق الله حيث كنت ، وخالق الناس بخلق حسن

واذاعملت سيئة فاعمل حسنة تمحوها[1] » .

٢ـ وقال ـأيضاً ـ : «فاذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحها سريعاً . وعليك بصنائع الخير ، فانها تدفع مصارع السوء[2] » .

٣ ـ وقال الامام الباقر عليه السلام : « ماأحسن الحسنات بعد السيئات ، وما أقبح السيئات بعدالحسنات[3] » .

٤ـ وقال ـأيضاً ـ: «انى لم أرشيئاً قط أشد طلباً ، ولاأسرع دركاً ،من حسنة محدثة لذنب قديم[4] » .

٥ـ وقال الامام الصادق عليه السلام :«من عمل سيئة فى السر فليعمل حسنة فى السر ومن عمل سيئة فى العلانية فليعمل حسنة فى العلانية[5] » .

* * *

الموازنة اوالمحاطة

أمّا الموازنة التى ذهب اليها أبوهاشم[6] ـفقال بمقابلة الحسنات مع السيئات ليسقط الأقل بالأكثر مقداراً ويبقى الفاضل من أحدهما يثاب عليه أويعاقب محضاً

١ـ امالى الطوسى ج١ ص١٨٩ . والبحار ج٧١ ص٢٤٢ برقم٣

٢ـ بحار الانوار ج٧١ ص٢٤٢ برقم٢ عن تفسير على بن ابراهيم

٣ـ أمالى الصدوق ص١٥٣ . والبحار ج٧١ ص٢٤٢ برقم١

٤ـ علل الشرائع للصدوق ج٢ ص٢٨٠

٥ـ معانى الاخبار للصدوق ص٢٥٥ (ط نجف)

٦ـ انظر : شرح الاصول الخمسة للقاضى ص٦٢٨

ـفمما لادليل عليه فى الشريعة ولاشاهد عليه فى الكتاب والسنة ، فضلاً عن مخالفته لقانون المجازاة على ذوات الاعمال من غير ماصلة بين عمل وآخر فى ترتب المثوبة والعقاب . وقدتقدّم اطلاق مادل على أن كل عمل بذاته يستحق فاعله جزاء متماثلا لما ارتكبه من خير أوشر .

وعمدة مايبطل هذا المذهب : أن فرضية التحاط بحاجة الى ثبوت السنخية والمناسبة الذاتية بين المتقابلين ، ليوازن أحدهما بالآخر ويسقط الأقل ، كما فى باب التهاتر فى الديون ،فاذا كان له على صاحبه عشرة دراهم ، وكان صاحبه يطلبه ايضاً دراهم، فانه يحصل التهاتر اماقهراً اوبالمواضعة ،لأنّ كلا من الحقين مفروض كونهما نقدين، لااذاكان احدهما نقداً والآخر عرضاً . اوأحدهما مال والآخر حق.

وهنا ـ فى مسألة الموازنة ـ هل يتحاط نفس العملين ،احدهماخير والاخر شر؟ اويتحاط جزاؤهما من مثوبة وعقوبة؟ مثلا اذاقام المكلف بسيئة هى من مقولة الاعمال كالزنا وشرب الخمر ، أوتجاوزاً بحقوق الآخرين كالغصب وضرب اليتيم ، ثم أتى بحسنة هى من قبيل الأذكار كالتسبيحات الأربع، أومزيجاً من الافعال والاذكار كنافلة الليل ،مما لاتناسب بينها وبين السيئات الّتى قام بها ... فبماذا يتقابل العملان؟

هل لفاحشة الزنا قدر يتقدر عليه التسبيح والتقديس ؟ أم هل للصلاة مقياس ودرجات يقاس عليها الغصب وضرب اليتيم ؟

ولئن زعم الزاعم ان الموازنة سوف تلاحظ بين مثوبات الاعمال وعقوباتها! قلنا: لوفرض ان عقوبة آكل مال اليتيم عشرة من الحيات ،ينهشنه كل يوم عشرمرات وكانت مثوبة تسبيحة واحدة سبعين من الحور العين يتلاعبن معه كل صباح سبعين دورا .فهل يسقط من سبعين حوراً عشرة على قدر الحيات، وينقص من ادوار التلاعب معهن ايضاً عشرة على قدر النهشات التى استحقهن آكل مال اليتيم ؟! وان كانت الدقة فى المحاسبة تقتضى سقوط مقدار أقل !

ثم هل الملحوظ ـ حقيقة ـ عند التقابل والموازنة، جانب كم القضية أم كيفها؟

وهل يقاس حجم السيئة مع الحسنة امعددهما ام جانب تأثيرهما ، نفسياً واجتماعياً وما الى ذلك ؟! امذاك موكول الى علمه تعالى حسبما يراه من ترجيح ومقايسة ؟!

كل ذلك ممالم يرد بشأنه دليل لافى الكتاب ولافى السنة الصحيحة . حتى ولو فرضنا ان الفرضية أمر ممكن بالذات. لكن ليس كل ممكن واقعاً ،ولاجاز الاعتقاد به مادام لم ينطق به الشرع المبين . والاكانت بدعة خاطئة فى اصول عقائد الدين !

والعجب من بعض ارباب الفضيلة ، أنه حاول تقوية مذهب ابى هاشم فى الموازنة ،لمجرد انها نظرية ذات امكان [1] ! .

نعم هناك رواية رواها ابو الفتح محمد بن على الكراجكى عن شيخه ابى عبدالله المفيد باسناد متصل الى الامام امير المؤمنين عليه السلام ، قال : «يوقف العبد بين يدى الله تعالى، فيقول: قيسوا بين نعمى عليه وبين عمله ، فتستغرق النعم العمل . فيقولون: قداستغرق النعم العمل ! فيقول : هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشر منه ،فان استوى العملان أذهب الله الشر بالخير وأدخله الجنة، وان كان فضل أعطاه الله بفضله وان كان عليه فضل، وهو من أهل التقوى ولم يشرك بالله تعالى واتّقى الشرك به،فهو من اهل المغفرة ، يغفر الله له برحمته ان شاء ، ويتفضل عليه بعفوه [2]» .

لكن الرواية من جهة الاسناد غير نقية ، اذ المفيد يرويها عن احمد عن ابيه الحسن بن الوليد عن الصفار عن على بن محمد القاسانى ـ وهو مختلف فيه او ضعيف ـ عن القاسم بن محمد الاصبهانى ـ لم يوثق وقد غمز فيه بعضهم ـ عن سليمان بن خالد المنقرى ـ هذا العنوان مختلط ، لان المنقرى هو سليمان بن داود لا ابن خالد ـ عن سفيان بن عيينة ـ وهو عامى عليه ملامح سفاهة ـ عن حميد بن زياد ـ ايضاً عامى ضعيف ـ عن عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وآله ولم يوثق صريحاً ـ عن امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ .

---

١ ـ انظر : القول السديد ص٣٩٧

٢ ـ بحار الانوار ج٥ ص٣٣٤ ـ ٣٣٥ نقلا عن كنز الفوائد للكراجكى

هذا مع الغض عن كونه خبراً واحداً لايوجب علماً ولاعملا [1] .

وأخيراً فان هذا الحديث الى مايخالف مذهب الحبط والموازنة أقرب من أن يوافقه . لانه ينظر الى جانب فضله تعالى ورحمته الواسعة ،«فان استوى العملان أذهب الله الشر بالخير» هذا يخالف فرضية الموازنة تماماً . « وان كان عليه فضل وهومن اهل التقوى ... يغفرالله له برحمته ان شاء » . هذا يخالف مسألة الاحباط كاملا . الى غيرهما من شواهد .

* * *

سيئات تمحق الايمان

ورد بشأن كثير من المعاصى انها تمحق الايمان محقاً ، ومن ثمّ فهى تذهب بالحسنات ، حيث كان من شرط المثوبة هى الموافاة على الايمان .وعليه فربما يكون مرتكبها مسلماً فى ظاهره ، لكنه فى قرارة نفسه كافر بالله العظيم ، ومن ثم فان اعماله بمعرض الهباء والاندثار .

فقدورد بشأن المتكبر انه لايدخل الجنة ،ومعناه ان سيئة التكبر أذهبت حسناته كلها ومنها ثواب ايمانه ،الامر الذى يتنافى ومذهب الامامية ان لاحبط فى غير الكفر ومن ثم استغرب محمدبن مسلم لماسمع ذلك من الامام ، قال عليه السلام : «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر » . فاسترجع محمد بن مسلم . قال الامام : مالك تسترجع ؟! قال : لماسمعت منك ! فقال الامام :«ليس حيث تذهب

١ـ المعتبر فى باب اصول العقائد هو العلم القطعى ، فلاحجية لاخبار الاحاد فى ذاك الباب ، لانها لاتوجب علماً .

وكذا المعتبر فى باب الفروع الفقهية ان تكون الرواية ذات صلة مباشرة بعمل المكلفين، لان الفقه بحث عن العمل ان واجباً وان حراماً . فلاحجية لروايات لاتعلق لها باعمال المكلفين فى هذه الحياة . لانها لاتوجب عملا .

انما أعنى الجحود ، انما هو الجحود»[1] .

ففسر عليه السلام الكبر الموجب للاحباط ، بالتكبر على الله والجحود ولو لبعض أحكامه ، وهو الكفر محضاً . فقد عرفنا ان ليس مطلق التكبر ماحقاً للحسنات والايمان وانما هو التكبر تجاه رب العالمين .

سئل الامام الصادق عليه السلام عن أدنى الالحاد ، فقال : «ان الكبر أدناه» .

وقال الامام الباقر ـ عليه السلام ـ : «الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه»[2] .

* * *

وهكذا ورد بشأن الغضب انه يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل[3] . لان الذى لايملك نفسه عند الغضب قد يقوم باعمال هى تناقض الايمان و تمحقه محقاً ، قال الامام ابو عبدالله الصادق عليه السلام : «الغضب ممحقة لقلب الحكيم» . وقال : «من لم يملك غضبه لم يملك عقله»[4] .

* * *

ونظيره ماورد بشأن الحسد . قال الامام الصادق عليه السلام : «آفة الدين الحسد والعجب والفخر»[5] . وقال : «ان الحسد يأكل الايمان كما تأكل النار الحطب»[6] .

والحديث التالى يكشف عن هذا السر ، قال الامام الصادق عليه السلام : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله ـ عزوجل ـ لموسى بن عمران عليه السلام : يا ابن عمران

١ـ الكافى الشريف ج٢ ص٣١٠ برقم ٧

٢ـ نفس المصدر ص٣٠٩ برقم ١ و٤ .

٣ـ المصدر ص٣٠٢ برقم ١ من باب الغضب .

٤ـ المصدر ص٣٠٥ برقم ١٣

٥ـ المصدر ص٣٠٧ باب الحسد برقم ٥ .

٦ـ المصدر ص٣٠٦ برقم ٢ .

لاتحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي ،ولاتمدن عينيك الى ذلك ،ولاتتبعه نفسك فان الحاسد ساخط لنعمي ، صاد لقسمي الذي قسمت بين عبادي ، ومن يك كذلك فلست منه وليس مني».

قال الامام الصادق : «المؤمن يغبط ولايحسد . والمنافق يحسد ولايغبط»[1] .

* * *

وقال الامام الصادق عليه السلام بشأن التهمة : « اذا اتهم المؤمن أخاه ، انماث الايمان من قلبه كماينماث الملح في الماء»[2] .

وقال بشأن الغيبة : « الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه»[3] .

وقال الامام الباقر عليه السلام بشأن الكذب : «ان الكذب خراب الايمان»[4] .

وقال الامام الصادق عليه السلام بشأن سوء الخلق : « ان سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » . وقال: «ان سوء الخلق ليفسد الايمان كما يفسد الخل العسل»[5] .

* * *

والأحاديث من هذا القبيل كثيرة ومتنوعة في التعبير ، كلهاتنم عن فحوى واحد ، هوأنّ من المعاصي مايكشف عن شرك خفي كان صاحبه يبطنه فأظهرته تلك المعصية ،والعمدة هو المنكشف لاالكاشف . كماورد بشأن قوله تعالى :«ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّله عذاباً

١ـ المصدر ص٣٠٧ برقم ٦و٧ .

٢ـ المصدر ص٣٦١ باب التهمة وسوء الظن برقم ١ .

٣ـ المصدر ص٣٥٧ باب الغيبة والبهت برقم ١ .

٤ـ المصدر ص٣٣٩ باب الكذب برقم ٤ .

٥ـ المصدر ص٣٢١ باب سوء الخلق برقم ١و٣ .

عظيماً ـ النساء : ٩٣» . قال المفسرون : ذلك اذا كان قتله لايمانه ، الكاشف عن كفر باطني أظهره بقتل المؤمن ،معاداة مع الله ومحاربة للايمان . فقد روى العياشي عن الامام الصادق عليه السلام قال : «من قتل مؤمناً على دينه ، فذلك التعمد . . . قيل : والرجل يقع بينه وبين صاحبه شيء فيقتله؟ قال : ليس ذلك المتعمد الذى قال الله عز وجل فجزاؤه جهنم»[1] .

ولذلك كان التعبير بالكفر أو بعدم الايمان بشأن بعض المعاصى الّتى لاتوجب شركاً ولاكفراً بالله ، مجازياً يراد به غير ظاهره من فقده بعض درجات الايمان لاأصله .

ففى حديث الاصبغ بن نباتة ،قال :جاء رجل الى أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ فقال : ياامير المؤمنين ،ان اناساً زعموا أنّ العبد لايزنى وهو مؤمن ،ولايسرق وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر وهو مؤمن ،ولايأكل الربا وهو مؤمن ، ولايسفك الدم الحرام وهو مؤمن ! فقد ثقل على هذا ،وحرج منه صدرى ، حين أزعم أن هذا العبد يصلى بصلاتى ، ويدعو دعائى ، ويناكحنى وأناكحه ، ويوارثنى واوارثه ، وقد خرج من الايمان من أجل ذنب يسير اصابه !

فقال أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ : صدقت ـ ثم قسم الناس على طبقات ومنازل ، وبين أنواع الارواح المودعة فى مختلف الناس ، وان المؤمن لايرتكب قبيحاً الاوقد سلب منه روح من تلك الارواح ، يعنى به درجة من درجات ايمانه ، وليس بالذى يدخل فى الكفر رأساً .

وقد أجمل الكلام عن ذلك الامام الباقر عليه السلام قال ـ فى قول رسول الله صلى الله عليه وآله «اذا زنى الرجل فارقه روح الايمان» ـ : هو قوله تعالى : «وأيدهم بروح منه». ذاك الذى يفارقه[2] .

١ـ تفسير العياشي ج١ ص٣٦٧ برقم ٢٣٦ . والصافى ج١ ص ٣٨٢ .

٢ـ الكافي الشريف ج٢ ص٣٨٠ـ٣٨١ برقم ١٦ و١١ .

وعن مسعدة بن صدقة قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يعدد الكبائر ، فقيل له : أرأيت المرتكب للكبيرة يموت عليها ، أتخرجه من الايمان ، وان عذب بها يكون عذابه كعذاب المشركين أوله انقطاع ؟

قال عليه السلام : يخرج من الاسلام اذازعم انها حلال ، ولذلك يعذب أشدالعذاب. واما ان كان معترفاً بانها كبيرة فان عذابه اهون ، وانمايخرج من الايمان ولايخرج من الاسلام[1] .

والخلاصة : ان جميع ماورد بشأن بعض المعاصي أنها تمحق الحسنات اوتذهب بالايمان ، لابد من تأويلها الى كونها من المعاصي التى تقطع رابطة العبد مع مولاه ، وتجعله فى حالة جحود مع ربه ، ولوفى باطن أمره .

أوتكون معصية يكون عدمها شرطاً فى صحة العمل السابق كالرياء والسمعة والايذاء والامتنان ، اذاوجدت ذهبت بأثر العمل هباء .

وأما ماعدا ذلك فانه مخالف صريح لقانون التماثل فى العقاب ومتناف مع حكمته تعالى وعدله ، ولقوله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» .

* * *

تنزيه الانبياء

مسألة عصمة الأنبياء جميعاً مما اتفقت عليه كلمة المسلمين ، فقالوا : يجب أن يكون النبى المرسل من عندالله معصوماً عن الخطأ والزلل ، والا لزالت الثقة به عند الناس وهان امره ولم تكن له كرامة ! لكنهم اختلفوا من ذلك فى موضعين :

الاول : فى خصوص الصغائر ، فقال جمهور اهل السنة : يجوز ان يرتكب النبى صغائر الذنوب ، ولوفى حال نبوته ، مالم يكشف عن خسة فى نفسه اوان يمس كرامته المنيعة .

١ــ المصدر ص٣٨٠ برقم ١٠ .

الثانى : فى الكبائر قبل الوحى عليه . فقالت الاشاعرة : يجوز أن يرتكب النبى ـ قبل ان يبعث ـ الذنوب والكبائر كلها ماعدا الكفر والشرك بالله العظيم[1]. اما المعتزلة فقالوا بامتناع ذلك عليه اطلاقاً [2] .

أما الامامية فقالوا بوجوب عصمة كل نبىّ عن الذنوب كلها ،صغيرها وكبيرها اطلاقاً ، قبل البعثة أم بعدها [3] .

ويتلخص الاستدلال على ذلك فى أن ارتكاب الآثام يوجب تنفيراً فى طباع الناس ، فضلا عن زوال الثقة عمن جاز بشأنه ارتكاب الذنوب والخطايا كالكذب وسائر القبائح . فلا يحصل له من العامة ذلك الانقياد والاستسلام التام اذا عرفوا منه ذلك . ولان النبى يجب ان يتبع فى جميع أفعاله وأقواله ، وهل اذا فعل فاحشة ـ فرضاً ـ يتابعوه فيها اويمانعوه ، والاول نقض لغرض الرسالة ،والثانى استصغار بشأنه وقلب لموقفه من كونه منكراً على الناس قبائحهم ، فأصبح هو منكراً عليه . ومن القبيح جداً أن يكون الآمر بالمعروف تاركاً له ،والناهى عن المنكر فاعلا له «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ـ البقرة: ٤٤» أى أفلا تشعرون بقبح هذا الموقف المتناقض فى نظر العقلاء .

قالت الامامية : جل هذا الاستدلال يعم حالته قبل البعثة وبعدها . من غير فرق بين الخطايا أن تكون كبيرة أو صغيرة ، بعد أن كانت كلها مما يسلب الثقة به وموجباً لتنفر طباع الناس عنه .

ولسنا الآن بصدد البحث عن مسألة العصمة وجوانبها المترامية . لانه خارج عن موضوع كتابنا ، وانما يهمنا جانب شبهات ربما تعلقت بها أصحاب الحشو

١ـ راجع : شرح العقائد النسفية لمسعود بن عمر التفتازانى ص١٠٢ (ط كابل)

٢ـ راجع : شرح الاصول الخمسة لقاضى القضاة ص٥٧٤ ـ٥٧٥ (ط القاهرة)

٣ـ راجع : شرح تجريد الكلام للعلامة ابن المطهر الحلى ص ١٩٥ (ط بومباى)

من المسلمين ،وغيرهم من الملحدين .فجوّزوا على الانبياء ارتكاب الذنوب والخطايا اطلاقاً حتى على عهد بعثتهم الى الناس .وتمسكوا بآيات زعموها ظاهرة فى ذلك ، وأضافوا اليها أباطيل حاكتها أقاصيص اسرائيلية روجها العهد الأموى الغاشم فادخلها فى التفسير بقوة المال والسيف !

* * *

ولنستعرض الآيات قبل كل شيء ، ونتبعها بتأويلاتها السليمة أو المأثورة بأسانيد صحيحة عن مهابط وحى الله ـ عليهم السلام ـ وهم أدرى بما أراده الله تعالى فى كتابه العزيز الحميد . وستكون مترتبة حسب ترتيب النبوات ، من لدن آدم عليه السلام الى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الانبياء . ونحاول ـ مبلغ جهدنا ـ الاقتصار والاختصار[1] فى ايجاز واف ان شاء الله وبحوله وقوته :

خطيئة آدم

قال تعالى : « ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ـ البقرة :٣٥-٣٦» .

وقال : «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ـ البقرة : ٣٧» .

وقال : «ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما وقال مانهيكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين اوتكونا من الخالدين .وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين . فدليهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وناديهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين .قالا ربنا

١ـ ولقد كفانا مؤنة التفصيل ماذكره الشريف المرتضى ـ قدس سره ـ واثبته فى كتابه القيم «تنزيه الانبياء» . فقد اودع فيه من غرر الكلام ومحكم البرهان مايغنى عن البيان .جزاه الله من بطل مدافع عن الاسلام خيرجزاء .

ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ـ الاعراف :١٩-٢٣».

وقال :«يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ـ الاعراف : ٢٧».

وقال :«ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجدله عزماً ـ طه:١١٥».

وقال :«فقلنا يا آدم ان هذا عدولك ولزوجك فلايخرجنكما من الجنة فتشقى ـ طه : ١١٧».

وقال :«فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لايبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ،وعصى آدم ربه فغوى ـ طه: ١٢٠ ـ ١٢١».

* * *

هذه آيات الخطيئة تذكر من شأن آدم عليه السلام أنه أصبح ظالماً باقترابه الشجرة وقد قال تعالى :«لاينال عهدى الظالمين ـ البقرة : ١٢٤».

وتذكر أن وسوسة ابليس أثرت فيه فأزلته فغوى ، وقد قال تعالى :«ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ـ الحجر : ٤٢».

وتذكر انه عصى ربه فخالف نهيه فشقى وغوى . وقد قال تعالى :«فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض ـ هود : ١٠٦-١٠٧» . وقال :«ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً وله عذاب مهين ـ النساء : ١٤».

والخلاصة : ان التعابير الواردة بشأن خطيئة آدم كلها تشف من مزلة موبقة ارتكبها آدم ، واستوجب بذلك لنفسه الذم والشقاء الدائم، وسقوطاً عن تلك المرتبة المنيعة التى كان يستأهل بها مقام النبوة الشامخ ، الامر الذى يتلخص فى قوله تعالى : «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ـ طه:١١٥».

* * *

والجواب : ان التعابير التي جاءت بشأن خطيئة آدم لاتعدو ظواهر ذوات احتمال فهي تحتمل معاني أخر غير ظاهرها المألوف ، فلو تجردنا بأنفسنا ولاحظنا اصول المعاني التي وضعت لها هذه الالفاظ ، والوجوه المستعملة فيها بحسب المقامات ثم أخذنا بالمقارنة مع شواهد وقرائن داخلية وخارجية، لزال عنا كثير من هذه الشبهات وارتفع الابهام من وجه الايات نهائياً .

والالفاظ التي وقعت تعبيراً عن خطيئة آدم هي:ـ

١ـ «فتكونا من الظالمين» .

٢ـ «قالا ربنا ظلمنا انفسنا» .

٣ـ «فأزلهما الشيطان» .

٤ـ «فوسوس لهما الشيطان» .

٥ـ «فدليهما بغرور» .

٦ـ «لايفتننكم الشيطان» .

٧ـ «ألم انهكما عن تلكما الشجرة» .

٨ـ «فنسي ولم نجدله عزماً» .

٩ـ «فلايخرجنكما من الجنة فتشقى».

١٠ـ «وعصى آدم ربه فغوى» .

تلك تعابير عشرة تنم ـ في ظاهرها ـ عن خطيئة ارتكبها آدم في عصيان عارم وشقاء .

لكن الدقة في فحوى هذه التعابير ومقارنة بعضها مع البعض تشف عن معنى آخر غير هذا .

أولاً : ماهي حقيقة الظلم الموجب ابتعاداً عن مقام قربه تعالى ،وشقاء نفسياً مستتبعاً للهلاك والانهيار ؟

ذلك ظلم بالنسبة الى ساحة قدسه تعالى ، وهتك لحريمه وتجاوز لحدوده

«ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ـ البقرة : ٢٢٩» . ولاينافى أن يكون ظلما بنفسه ايضاً «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ـ الطلاق : ١» . لان الظالم بحقوق مولاه ،تعيس معاكس لحظ نفسه فى نهاية المطاف .

وهذا الظلم القبيح مترتب على تكليف من المولى يمس جوانب مولويته حيث يشرعه الزاماً بالمكلفين ان يمتثلوه ، اعجبهم ام لم يعجبهم ،رغم الأنوف والا فالعقاب والنكال.

واما الظلم الذى جاء التعبير به بشأن آدم ، فليس من هذا القبيل ، انه ظلم بالنفس محضاً،«قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ـ الاعراف: ٢٣».

وذلك انه لم يكن تكليف مولوى، وانما كان مجرد ارشاد الى مصلحة شخصية كانت تمسهما بالذات ، فعاكسا حظهما من سعادة الحياة ورغدها الى شقاء ونصب.

اذن لم يكن ظلمهما بأنفسهما ممايؤثر ابتعاداً عن ساحة قدسه تعالى ، اذلم يمس جانبه تعالى ، فلم يوجب سقوطهما عن منزلتهما المعنوية الشامخة : « خلافة الله فى أرضه » .

ثانياً : النهى عن أكل الشجرة كان نهى ارشاد الى مصلحته بالذات ، ولم يكن نهياً مولوياً بتكليف والزام. ومن ثم قال: «فتشقى» اى تقع فى التعب والنصب كما فى قوله تعالى : «طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى» اى لتوقع نفسك فى المشقة وحرمان لذائذ الحياة .

وذلك لأن الأكل من تلك الشجرة كان يوجب فضلات وأنجاساً كانت الجنة التى سكنها آدم وزوجه تأباها،لطهارتها وقداستها قربا الى العلى الأعلى، ومن ثم نهى آدم عن أكلها خوف التلويث اويضطر الى الخروج منها .

ثالثاً : العصيان هى مخالفة الأمر ، وهو يتنوع حسب نوعية الأمر الموجه اليه. فان كان الأمر تكليفا مولوياً كانت مخالفته عصياناً محرماً وخروجاً عن مرسوم العبودية

تجاه اوامر المولى الحكيم .فهو تمرد وطغيان على المولى ، ويستحق مرتكبه الذم والعقاب .

واما ان كان الامر ارشاداً الى مصلحة شخصية تمس شخص المأمور ، من غير مامساس بجوانب الآمر بتاتاً ، كما فى اوامر الطبيب بالنسبة الى المريض المتداوى عنده ، فان مخالفته أيضاً عصيان وربما يقبحه العقلاء ويذمونه ، لكن من غيرما خروج عن مرسوم العبودية ولاطغيان على المولى الكريم ، ومن ثم لم يجز عقابه ولامؤاخذته بالشدة والعذاب .

وبما ان عصيان آدم كان من النوع الأخير ،فلم يوجب ابتعاده عن ساحة قدسه تعالى ، حيث لم يطغ على مولاه ولم يخرج عن اطار عبوديته تجاه رب العالمين .

رابعاً : اما وسوسة ابليس فلم تعد ان دلاهما بغرور ، من غير ان تكون له سلطة عليهما ، فضلا عن أن آية الحجر انما تنفى تأثيره على الانبياء فيما يخص اغواءهم بشأن معصية الله ، اما خلق العراقيل فى طريقهم وايقاعهم فى النصب والعناء ، فهذا شيء لاتنفيه الاية ، كما فى قوله : «واذكر عبدنا ايوب اذنادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ـ ص : ٤١» .

خامساً : قوله تعالى : «فنسى ولم نجد له عزماً» اى غفل وصيتنا وعهدنا اليه بان لايقرب تلك الشجرة . و«عزماً» اى ثباتاً على العهد.

وقوله : «فتشقى» اى تقع فى تعب العمل وكد الاكتساب ، بعد هذا الرغد من العيش الفاره .

وقوله : «فغوى» اى خاب حظه وحرم عن العيش الرغيد الهنيء . كما فى قول الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس امره ومن يغو لايعدم على الغى لائماً .

وقوله : «ظلمنا انفسنا» اى بخسناها وحرمناها حظها .

وقوله : «فتاب عليه» اى اعاد عليه بعنايته وألطافه الاولى التى كاد ان يحرمها بتركه الاولى .

واما اخراجه من الجنة ، فلعله لمصلحة كان يراها تعالى موجبة لهذا الاخراج لانه انما خلقه ليكون خليفته فى الارض ، وقد تمهدت أسبابه على يد عدوه ابليس اللعين .

* * *

وقد تلخص البحث فى أنّ النهى لم يكن نهى تحريم ، وانما كان نهى ارشاد الى مصلحة تأمين الرغد فى العيش ، لا أكثر . وبالتالى لم تكن مخالفته عدوانا على المولى وانما كان ظلما بالنفس بسلب راحتها . واخيراً كانت غوايته خيبة وحرماناً ، وشقاؤه عطباً وعناء فى الحياة .

فلا نهى تحريمياً ، ولا عصيان للمولى ، ولا ظلم ولا عدوان بشأنه ، كما لا اشقاء ولا خبث ، ولا غواية ولا اضلال ، بمعانيها المعهودة [1] .

وأما كيف حصلت الخطيئة ، والطريقة التى سلكها ابليس فى سبيل اغوائهما فهذا شيء فصلنا الكلام فيه فى تفسيرنا الوسيط . واعادته هنا خروج عن موضوع كتابنا هذا .

* * *

دعوة نوح

قال تعالى : «وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ـ نوح : ٢٦» .

١ـ كان مستقانا فى هذا العرض هى الروايات الخاصة المأثورة عن أئمة اهل البيت ـ عليهم السلام ـ ذكرها العلامة المجلسى فى بحار الانوار ج ١١ ص ١٥٥ ـ ٢٠٣ . فراجع .

قيل : انه تسرع فى الدعاء على قومه ، وكان كلما اراد الدعاء على قومه وافته الملائكة يستميحونه بشأنهم . فتؤجل الدعوة ثلاثمائةسنة .حتى تيقن باليأس.

لكنها مزعومة لااساس لها ، وان ذكرها بعض كبار المفسرين ، ذلك انها مخالفة لصريح القرآن ، حيث جاء فى سورة هود ، ان قومه كانوا يجادلونه ويستعجلون عليه بالعذاب الموعود ، لكنه ﷺ كان هو يرأف بهم ولا يستعجل بطلب العذاب ، رحمة منه عليهم . حتى وافاه الوحى باليأس والقنوط بشأنهم :«وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الامن قدآمن فلاتبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون – هود :٣٦-٣٧».

الامر الذى يدل على انه ﷺ كان يستمهل ربه فى تأخير العذاب حتى جاءه التيئيس .

* * *

وقال تعالى :«ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين . قال : يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلاتسئلن ماليس لك به علم ، انى اعظك ان تكون من الجاهلين . قال : رب انى اعوذبك ان اسألك ماليس لى به علم ،والاتغفرلى وترحمنى اكن من الخاسرين – هود : ٤٥-٤٧» .

كيف يكذب تعالى نبيه نوحاً فى دعواه المذكورة ؟!

والجواب : انه تعالى وعد نوحاً بنجاة اهله فى قوله : «احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الامن سبق عليه القول» . وكان الاستثناء مجملا .

وعندما نادى نوح ابنه وكان فى معزل «يابنى اركب معناولاتكن مع الكافرين» قال له ذلك اشفاقا بشأنه . ولما أيس منه دعاربه ليهديه بلطفه . فقال : «رب ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق» اشارة الى مافى الآية السابقة : «وأهلك» .

فنبهه الله تعالى بخطاءه فى التشخيص ، وانه من المستثنى ،وانه ليس من ذلك

الأهل الموعودنجاتهم . ولم يكن نفياً لبنوته رأساً ، وذلك لانه تعالى أقره فيقوله: «ونادى نوح ابنه» . فلولا انه ابنه الحقيقي لماصح هذا التعبير بشأنه . ولكان من حق التعبير ان يقول :«ونادى نوح من كان يزعم انه ابنه» !

* * *

تورية ابراهيم

١ ـ قال تعالى : «فلما جن عليه الليل رآى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لااحب الآفلين ـ الى قوله ـ قال ياقوم اني بريء مماتشركون ـ الانعام: ٧٦ـ٧٨» .

وهذا من باب تجاهل العارف ، وتربية عملية لقومه يعلّمهم كيف يسيرون في طريق الاهتداء الى الحق واستجلاء الحقيقة .

٢ـ وقال تعالى : «قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ، ان كانوا ينطقون ـ الانبياء : ٦٣» .

جملة « فاسألوهم » معترضة . والشرط قيد ـ في واقعه ـ لقوله : « بل فعله كبيرهم» . وهذا من لطيف التورية في الكلام . حيث ظاهر الكلام ان الشرط قيد لجملة الامر بالسؤال ، لكنه انما قصده قيداً لجوابه عن سؤال قومه .

وفي هذه التورية فائدة تنبيه ضمائرهم على ان معبودهم الذى اصطنعوه لايستطيع عملا ولاينطق كلاماً ، وهوتعبير لطيف وتوبيخ .

٣ـ وقال تعالى : « فنظرنظرة في النجوم فقال اني سقيم ـ الصافات : ٨٩» . وهذه مجاملة مع قومه من غير مداهنة ودجل ،حيث كانت النظرة في النجوم والتنبوء بها رائجة على عهده عليه السلام فاراد مماشاتهم في ذلك استجلاباً لنظرهم ،في حين ان النظر

فى النجوم والتدبر فى آياته تعالى مرغوب اليه فى الشريعة .

واراد بقوله : «سقيم» تأثره النفسى من جموح قومه عن الاستسلام لقيادة الله ورفضهم الدعوة اليه . وبهذا التعبير الموهم خلص بنفسه من مصاحبة قومه ، فتركوه وحده وذهبوا للاجتماع بعيدهم خارج البلد . ومن ثم وجد ابراهيم فرصته لكسر الاصنام .

٤ـ وقال تعالى : «واذقال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى ـ البقرة : ٢٦٠» . اراد عليه السلام ان يصير علم يقينه عين يقين ، اذ مهما كان البرهان قاطعاً فانه لايبلغ شهود عين .

استغفار ابراهيم لابيه

٥ـ وقال تعالى : «وما كان استغفار ابراهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدولله تبرأ منه ، ان ابراهيم لأواه حليم ـ براءة : ١١٤» .

هذه الآية اعتذار عن موقف ابراهيم عليه السلام كان واعد أباه (زوج امه وعمه) انه ان آمن بالله ان يستغفر له ، فأظهر له الايمان على سبيل النفاق حتى ظن به الخير فاستغفر له ، فلما تبين له انه مقيم على كفره رجع عن استغفاره له وتبرأ منه ، وقد عذره الله فى قوله : ان استغفاره انما كان لأجل المواعدة ، وانه لما تبين له انه مقيم على العداوة لله تبرأ منه .

وتلك المواعدة جاء ذكرها فى سورة مريم ـ ٤٧ : «قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، انه كان بى حفياً» .

وقال تعالى فى سورة الممتحنة ـ بشأن الاقتداء بسيرة ابراهيم وكيفية مقابلته مع المشركين ، مستثنياً جانب هذا الاستغفار ـ : «الاقول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك ـ الممتحنة : ٤» .

واما صيغة الاستغفار فقدجاءت فيسورة الشعراء «واغفر لأبى انه كان من الضالين»الآية رقم٨٦.

مجادلة ابراهيم ربه

٦ـ وقال تعالى : «فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنافى قوم لوط ، ان ابراهيم لحليم اواه منيب ـ هود : ٧٤ـ ٧٥».

قيل : كيف يجادل ربه وهوذلك النبى العظيم !؟

والجواب: انالمجادلة كانت بمعنىتكرار السؤال استرحاماً بشأنقوم لوط نظراً الى جانب سعة رحمته تعالى ، فطمع ابراهيم فى ان يعطف الله عليهم برأفته ويمهلهم ريثما يتذكرون ويرجعون الى رشدهم . لكنه تعالى رفض طلبه ،لاجفاء وتحقيراً بموقف ابراهيم ـ كلا ـ بل لعلمه تعالى انهم لايرجعون ابـداً ، وانهم مابقوا يزدا دون عتواً وفساداً فىالارض . ومنثم تراه تعالى يصف ابراهيم خليله تعقيباً على ذلك ـ بقوله : « ان ابراهيم لحليم » ذواصطبار على سوء أدب القوم، «أواه» كثير العطف والحنان،«منيب» كثير التضرع لدينا يدعونا مرة بعداخرى.

ففى هذا الوصف الجميل الذىيمثل حنان ابراهيم وعطفه ورأفته العظيمة لدليل على ان توصيفه بالمجادلة كان ايضاً مدحاً وثناء عليه تمهيداً لوصفه بذلك.

تبرءة يوسف

قال تعالى : «ولقد همت به وهم بها لولا ان رآى برهان ربه ـ يوسف : ٢٤ » .

قيل : كيف يهم بها وهو نبى عظيم ومنعبادالله المخلصين ! كماجاء فىذيل الآية : «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه منعبادنا المخلصين» .

والجواب : انه معلق على شيء لم يقع ، اى لولا أن رآى برهان ربه لهمّ بها ،فبما انه رآى برهان ربه فانه لم يهم بهاقط. كما في قولك: لولا علي لهلك عمر. ومعناه انه لم يهلك عمر لوجود علي .

فالكلام من جهة امرأة العزيز مطلق غير مقيد ، فقد همّت به قطعياً . اما من جهة يوسف فلولا انه من عباد الله المخلصين ، وكان نور الايمان مشعاً من قلبه المبارك ، لكان أيضاً هم بها ، لانه شاب وله من شهوة الرجال مالهم ، ولاسيما وهي تقبل عليه بذلك الاقبال العارم ، فكانت مقتضيات الهم موجودة فيه عليه السلام لولا قوة المانع في وجوده ، وهو ايمانه الراسخ المسيطر على جميع مشاعره وأحاسيسه ،فلم تكن لتطغى عليه شهوته وهو عبد خالص لله .وقد شهدت زليخا بشأنه العصمة،قالت «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ـ يوسف : ٣٢» . فضلا عن شهادة الله بحقه : «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، انه ربي احسن مثواى انه لايفلح الظالمون ـ يوسف : ٢٣» .

وهذا هو البرهان الذي رآه، اى ايمانه الراسخ الذي تجلى له حينذاك بالخصوص فحال سداً منيعاً دون أن يهم بالمعصية أصلا .

حاجة الى مخلوق !

قالوا ـ في قوله تعالى : « وقال الذي ظن انـه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربـه فلبث في السجن بضع سنين ـ يوسف : ٤٢ » ـ : ان الشيطان انسى يوسف ذكر ربه فتوسل الى مخلوق لخلاص نفسه !

لكن الضمير رجع الى الموصول « الذي ظن انه ناج »[1]. وأما عمل يوسف ـ عليه السلام ـ فكان وفقاً لوظيفة شرعية : السعي وراء خلاص مؤمن ورفع التهم

---

١ ـ راجع : الميزان ج ١١ ص ١٩٩ .

عنه . غير ان لأولياء الله شأناً آخر وراء هذا الظاهر ، فلا يرفعون حاجة الى غيره تعالى مهما بلغت ، كما صمد ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ عند القائد في النار، قائلا : الذي خلقني فهو يراني ! . فالذي كان من يوسف ـ عليه السلام ـ لا يعدو تركاً للأولى لا غير .

ابتلاء ايوب

قال تعالى : «واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب ـ ص : ٤١» .

قيل : كيف يمسه الشيطان وهو لا يملك الاستحواذ على عباد الله المخلصين؟ وماهذا النصب والعذاب الذى اصيب به نبى الله ايوب وهو معصوم ؟.

والجواب : لاشك ان ابليس لايستطيع الاستحواذ على عباد الله المخلصين ولاسيما الانبياء العظام . لكنه يستطيع عرقلة الطريق أمامهم وتكدير الحياة عليهم بدسائسه الخبيثة .

انه لم يتسلط على ايوب عليه السلام ولم يملك قلبه الكريم الذى هو مهبط وحى الله ودار كرامته الخاصة به ، فلا موضع لابليس فيه ولا مطمع أبدياً . نعم استطاع ايقاع الأذى به تسبيباً بوساوسه على اقربائه وحاشيته . فاوقعه عليه السلام فى نصب أى عناء وجهد، وعذاب اى ألم ومحنة ، ومن ثم جاء التعبير بالضر فى آية اخرى : «وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ـ الانبياء : ٨٣-٨٤» .

قال الامام الصادق عليه السلام : «ان الله عزوجل يبتلى المؤمن بكل بلية ويميته بكل ميتة ، ولا يبتليه بذهاب عقله . اماترى ايوب كيف سلط ابليس على ماله وعلى ولده وعلى أهله وعلى كل شيء منه ، ولم يسلطه على عقله ، تركه له ليوحد الله به» .

تعرقل في السبيل

جاء في قصة موسى وفتاه ، اذ نسيا حوتهما فاتخذ في البحر سرباً ، قولـه : « وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره ـ الكهف : ٦٣ » .

كيف يتسلط ابليس على مشاعر ولي من أولياء الله، وقد قال تعالى: « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ـ الحجر : ٤٢ » !

لكنه ليس استحوازاً على عقل ، حـاشا من مقام كريم ، وانما هو تعرقـل في سبيل تكدير الحياة على أوليائه تعالى ، وتمهيد لأسباب قد توجب صرف نفوسهم الكريمة عن جهة الى اخرى ، لتكون الاولى مغفولا عنها احياناً .

مخاطرة موسى بنفسه

قال تعالى :«ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ،فوكزه موسى فقضى عليه،قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين،قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم ـ القصص : ١٥ - ١٦» .

لاشك ان الذى فعله موسى ذلك الحين و هو الرجل المطالب من قبل السلطات ، و كان خطر الموت يرفرف على رأسه كانت مجازفة و تغريراً بنفسه الكريمة بتسليمها الى العدو اللدود .

وهي بادرة غريبة بدرت منه ، ولعلها من غير تفكير فى عاقبتها ، حيث كان عليه السلام سريع الغضب فى الله و من ثم لم يكن ينبغى ذلك منه وهو فى طريقه الى صرح النبوة الشامخ . الامر الذى نسبه الى عمل الشيطان نظراً لان سورة الغضب هى

١ـ بحار الانوار ج١٧ ص٣٤١ . والكافى الشريف ج٢ ص٢٥٦ رقم٢٢ .

احدى حبائل الشيطان يستولى بها على مشاعر الانسان والحؤول دون رشده .

و هذا ليس من الاغواء الموبق، حيث لم يكن قتل القبطى معصية ، ليكون اغراء ابليس بذلك اغراء لموسى الى معصية الله . بل كان اغراءبما يوجب التغرير بنفسه الكريمة و تعريضها للهلاك ، فقد هيج ابليس من غضب موسى ليقدم على قتل القبطى ، و بالتالى يقع هوفى قبضة السلطات فيقتلونه ، و بذلك قد نصب ابليس فخاً للقضاء على موسى -عليه السلام-. اذن لم يكن ذلك من الاستيلاء الذى ننكره بشأن عباد الله المخلصين .

ووجه آخر لعله اسلم من الاشكال ، وهو ان المشار اليه فى قوله : « هذا من عمل الشيطان » هو السبب الداعى لوقوع القتل ،اى لولا اضلاله للاقباط واستيلاؤه على مشاعر المصريين فى تأليههم فرعون والاستسلام لقيادته الفاسدة ، لم تتهيأ موجبات هذا القتل وامثاله مما ابتلى به بنو اسرائيل ،وكانت بعثة موسى لاستخلاصهم من نير الذل والهوان .

و يترجح هذا الوجه بملاحظة وضوح المناسبة بينه و بين التعقيب بقوله « انه عدو مضل مبين » . اى ظاهر العداوة للانسان . ولاشك ان موسى - ع - لم يرد اضلال نفسه بل اضلال غيره ، ولعلهم هم القبط .

و اما قوله : «رب انى ظلمت نفسى » فيعنى تلك المخاطرة بها و تغريرها للهلاك على ايدى اعداء الله . ولاشك انها كانت بادرة غريبة منه ، لم تكن تنبغى من مثله وهو على مدارج الصعود الى مرتبة النبوة السامية . الامر الذى يكون من ترك الاولى بالنسبة الى مثله ، فكان ينبغى الاستغفار منه ، و من ثم اجابه تعالى على الفور . حيث كانت تلك البادرة -مهما كانت- فانها فى سبيل الغضب لله تعالى .

محاجّة موسى مع فرعون

« قال - فرعون مخاطباً لموسى عليه السلام - : ألم نربك فينا وليداً و لبثت

فينا من عمرك سنين و فعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين قال ـ موسى ـ فعلتها اذاً وأنا من الضالين ـ الشعراء ١٨ ـ ٢٠ » .

ما هذا الكفر الذى ينسبه فرعون الى موسى ؟

و ما هذا الضلال الذى يراه موسى لنفسه ؟

الجواب : اما الكفر فهو كفران النعم التى زعم فرعون انه أنعمها على موسى و على بنى اسرائيل . و من ثمّ رد عليه موسى بقوله : « و تلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل ؟ ! » الآية رقم ٢٢ .

واما الضلال فانما يقصد به حالته قبل نزول الوحى عليه بالنبوة ، و هو ضلال نسبى يعم كل نبى قبل أن يوحى اليه ، لايكون عارفاً بتفاصيل الشريعة التى ستنزل عليه ، الا اذا علمه الله تعالى .

وقد فسروا الضلال هنا بتفاسير أخر ، تجدها فى مجمع البيان للطبرسى ج ٧ ص ١٨٧ . وتنزيه الانبياء للشريف المرتضى ص ٧٠ .

استعفاء موسى

قال تعالى : « واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون الايتقون . قال رب انى اخاف ان يكذبون . و يضيق صدرى و لا ينطلق لسانى ، فأرسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا ، فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون ـ الشعراء : ١٠ ـ ١٥ » .

وهل ينبغى لمرشح لمقام النبوة وقد اختاره الله و اجتباه من خلقه ان يستعفى منها ، ثم يدل على غيره ؟ !

والجواب : ان مقارنة هذه الآية مع آية طه ترفع الاعتراض رأساً . انه ﷺ لم يستعف ، و انما سأل ربه أن يمده بمساعد موثوق به من أهله ، وأبدى عجزه

عن الاستقلال بعبء الرسالة ، فاجابه تعالى الى مسؤوله واستجاب دعاءه .

قال تعالى : « اذهب الى فرعون انه طغى . قال رب اشرح لي صدري ، ويسرلي امري ، واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، اشدد به ازري ، واشركه في امري ، كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً ، قال: قد اوتيت سؤلك ياموسى ـ طه : ٢٤ ـ ٣٦ » .

هذه الآية تفسر تماماً آية الشعراء وترفع الاشكال عن مواضع ابهامها رأساً.

مثلا قوله : «فأرسل الى هارون» ليس معناه : اعفني عن حمل الرسالة واجعل مكاني هارون !

بل المعنى : فأرسل الى هارون ايضاً كي يشاركني في أمري ويؤازرني عليه.

وقوله : « اخاف ان يكذبون » . وقوله : « فأخاف ان يقتلون » ليس معناه عدم الثقة بنجاح رسالته ، وانما اراد بذلك طلب المزيد من عنايته تعالى والتيسير لأمره «ويسرلي امري» .

كما انه اراد بقوله : «ولا ينطلق لساني» ان يمن عليه بانطلاق لسانه « واحلل عقدة من لساني » . وبقوله : « ويضيق صدري » ان يشرح صدره « رب اشرح لي صدري» . وبقوله : «فارسل الى هارون» ان يجعله وزيراً له ««اجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي اشدد به ازري وأشركه في أمري » لا ايكالها اليه رأساً واعفاء نفسه عنها .

وقوله تعالى : « كلا » طمأنينة لنفس موسى انهم لن يصلوا اليهما بسوء ، وانه سوف يوفق في رسالته وتكون له الغلبة في نهاية المطاف . اى كلا لا يستطيعون قتلك ولا الوقوف دون تبليغك الرسالة .

قال تعالى ـ في سورة القصص ـ : «قال رب اني قتلت منهم نفساً فأخاف ان يقتلون . وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي ردءاً يصدقني ، اني أخاف ان يكذبون . قال ـ تعالى مستجيباً لطلبه ـ : سنشد عضدك باخيك ونجعل

لكما سلطانا فلايصلون اليكما ، بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون : ٣٣-٣٥».

وقدأوضح قوله : «فأرسله معى»فى هذهالآية ماجاء فى سورةالشعراء من قوله: «فأرسل الى هارون» توضيحاً يرفع كل ابهام وايهام .

وقوله : « ونجعل لكما سلطاناً فلايصلون اليكما » تفسير لقوله : «كلا» فى تلكالآية .

ويجمع الكل قوله تعالى : «قداوتيت سؤلك ياموسى» .فانه استجابةلجميع ماالتمسه موسى عليه السلام من ربه من الموفقية والتسديد فى اداء الرسالة .

خيفة موسى

قال تعالى : «فأوجس فى نفسه خيفة موسى ـ طه:٦٧» مم كانت خيفته ،وقد أمنه تعالى من قبل «ياموسى لاتخف انى لايخاف لدى المرسلون ـ النمل :١٠» ؟!

والجواب : ان خيفته هذه لم تكن كخيفته الاولى عند الشجرة عندما ألقى عصاه فاذا هى حية تسعى ، قال : خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الاولى «طه :٢٠ ـ ٢١» . بل كانت خشية التمويه على العامة والتباس الحق عليهم بالباطل ، عند مارآى من عجيب فعل السحرة«فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى- طه:٦٦» .«فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم-الاعراف: ١١٦ » .

فأشفق عليه السلام ان يلتبس الامر على العوام ولايميزوا بين سحر السحرة واعجازه حيث رآى من قوة التلبيس والتخييل ، فخاف من وقوع الشبهة على من لم يمعن النظر . فأمنه الله تعالى من ذلك وبين له ان حجته ستتضح للقوم ،بقوله :« لاتخف انك أنت الأعلى ، وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا ، انّما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث أتى ـ طه : ٦٨-٦٩» . الامر الذى كانت نتيجته اخضاع السحرة : «فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ،

وألقى السحرة ساجدين ،قالوا آمنا برب العالمين ،رب موسى وهارون ـ الاعراف: ١١٨-١٢٢» .

* * *

وقال تعالى : «فلما أخذتهم الرجفة قال ـ موسى ـ : رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الافتنتك تضل بها من تشاء وتهدى مـــن تشاء ،انت ولينا فاغفرلنا وارحمنا وانت خير الغافرين ـ الاعراف: ١٥٥» .

اليس يستشم من ذلك رائحة الاعتراض ؟!

وهكذا قوله تعالى : « وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملاءه زينة وأموالا فى الحيوة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ـ يونس : ٨٨» .

الجواب : كلا ، بـل هـو استرحام واستعطاف ، وسؤال عن مصلحة كادت تخفى على نبى الله موسى ﷺ .وأخيراً اعترافه بأن وراء هذه الظواهر حكمة بالغة وفوائد تربوية جليلة ، تخضع لها نفوس مستسلمة سليمة فتهتدى الى معالم الحق ، وان كان قد يزيد فى ضلال من زاغ قلبه واعمى بصره .

قوله : «ان هى الافتنتك» اى ابتلاؤك وامتحانك للناس ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

وقوله : «أتهلكنا بمافعل السفهاء منا» استرحام وطلب للعفو عمافرط منهم فى جنب السفهاء ، حيث واكبوهم فى سفاهتهم وداهنوهم فى غفلتهم . ولم يقصد موسى ﷺ نفسه ، وانما عنى الرجال السبعين الذين اختارهم للميقات ، أهلكتهم الرجفة بمجاملتهم مع سفهاء القوم .

واللام فى قوله :«ليضلوا عن سبيلك» هى لام العاقبة مثلها فى قوله : «فالتقطه

آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً» .

وهذا تمهيد للدعاء عليهم بالهلاك والدمار ، حيث كفروا بنعم الله عليهم ولم يقدروها ، بل وأخذوا يستغلونها في سبيل اضلال العباد والصد عن سبيل الله .

* * *

وقال تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب ارني انظر اليك ـ الاعراف : ١٤٣» .

أليس هذا من طلب المستحيل ؟

وقد تقدم الجواب عن ذلك ، بانه من باب تجاهل العارف ، على اثر ضغط من قومه الجاهلين . فقد ورد ان لسانه لم يطق النطق به ، فأوحى الله اليه : ياموسى سلني ماسألوك فلامؤاخدة عليك بجهلهم ،فعند ذلك تجرأ موسى على أن ينطق به [١] .

* * *

وقال تعالى :«ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ،قال : بئسما خلفتموني من بعدي ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه .قال: ابن ام ، ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلاتشمت بي الأعداء ولاتجعلني مع القوم الظالمين .قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت ارحم الراحمين ـ الاعراف : ١٥٠-١٥١» .

وقال ـ ايضاً ـ :«فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ،قال :ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ـ الى قوله ـ قال : ياهارون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا ألاتتبعن ، أفعصيت أمري ؟ قال : ياابن أم ، لاتأخذ بلحيتي ولابرأسي ، اني خشيت ان تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ـ طه : ٨٦-٩٤» .

١ـ راجع الصفحة : ٩٨-٩٩ .

أليس هذا من ثوران الغضب والتسرع الى أمر بما كان لايحمد عقباه ؟!

والجواب: ان في ذلك الارتداد المفاجىء الغريب الذي حصل في بني اسرائيل في غيبة نبيهم اربعين صباحاً لمثاراً لأكثر من ذلك الغضب، ولاسيما في مثل موسى عليه السلام ذلك الرجل الغيور في الله، فقد وجد ان اتعابه كلها ذهبت أدراج الرياح بفترة قصيرة. ومن ثم اخذ اليأس مأخذه من نفسه الكريمة واخذته الحمية الالهية الى الانتقام السريع من قومه الالداء. فأخذ يفتش عن العوامل التي دعت الى ذلك التحول العظيم، غير المترقب، والأيادي التي عملت في اضلال القوم وارتدادهم الى عبادة العجل.

فلاول وهلة وقبل كل شيء توجه الى أخيه الذي استخلفه على قومه، وجعله رقيباً عليهم ومسؤولا عن قيادتهم الحكيمة. «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين ـ الاعراف: ١٤٢».

فحسب ان هارون هو الذي تهاون بشأن القوم ولم يرقبهم تلك المراقبة الشديدة فضلوا، شأن كل زعيم اذا احس بضعضعة في بعض جوانب قيادته، ان يستنطق المسؤول الذي عينه في تلك الجهة ويبادر الى محاكمته ان كان رآى من موقفه التساهل والتقاعس عن وظيفته.

الامر الذي دعى بموسى ان يوجّه ملامته أولاً وبالذات الى أخيه المسؤول عن قومه. فأخذ برأسه ولحيته وجره اليه بعنف، استنكاراً على تساهله بأمر القوم.

وهارون وان كان قد أبدى عذره عن سكوته تجاه ضلال القوم وعبادتهم للعجل لكنه لم يكن بتلك المثابة التي تبرأ موقفه نهائياً، ومن ثم استغفر موسى لنفسه ولأخيه ان هارون حسب من قيامه في وجه القوم حدوث انشقاق في صفوفهم وربما وقوع فساد وسفك دماء، فسكت ريثما يعود موسى وهو أعرف بموقفه مع القوم. الامر الذي ان كان يصلح عذراً في الجملة، فليس من العذر المقبول كلياً. ومن ثم لم يكن موقف موسى مع أخيه حينذاك ظلماً بشأنه ذلك الظلم الذي حسبوه، كما لا يخفى

على من امعن النظر في جوانب القضية ودرسها بعمق. وهذا الكتاب موضع اختصار.

* * *

اختبار داود

قال تعالى: «وهل أتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب. اذ دخلوا على داود ففزع منهم، قالوا: لاتخف، خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا الى سواء الصراط. ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال: اكفلنيها وعزني في الخطاب، قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه، وان كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ماهم. وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب - ص: ٢١-٢٥».

قوله: «تسوروا المحراب» اي تسلقوا حائطه وصعدوا عليه، ودخلوا على داود في محراب عبادته بهذه الطريقة غير المألوفة ولعله ارعاباً له، ومن ثم فزع منهم.

قوله: «ولاتشطط» اي لاتجر في الحكم وهو امر له بالعدل في القضاء، وهو ايضاً غريب، اذ لم يعهد من متحاكمين ان يتجاسرا على القاضي بهذه اللهجة التي تبدو عليها أمارات التحكم عليه والزامه بماهو وظيفته، ولاسيما في مثل نبي الله داود الامر الذي زاد من فزعه منهم.

قوله: «وعزني في الخطاب» اي غلبني في المحاجة. و«الخلطاء» هم الشركاء في التعايش.

أليس يستشم من الآيات ان هناك امراً كان قد فرط من داود عليه السلام فنبهه الله عليه بتلك الطريقة المفزعة؟!

قلت: نعم، ولكن لابتلك المثابة التي يرويها مفسروا العامة، فانها لاتعدو

اسرائيليات مفضوحة لاشأن لها سوى الحط من كرامة انبياء الله العظام.

وقدشطب ائمة اهل البيت ـ عليهم السلام ـ على القصة التى يرويها القصاصون[1] بشأن امرأة اوريا فى تلك الفظاعة المستبشعة، التى لايقدم عليها مؤمن غيور فضلا عن مثل نبى الله داود عليه السلام. قال امير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ: «لاأوتى برجل يزعم انداود تزوج امرأةأوريا الاجلدته حدين، حداًللنبوة وحداًللاسلام»[2].

وهكذا روى عن الامام جعفربن محمد عليه السلام[3].

وليس فى لفظ القرآن مايدعو الى التصديق بثبوت القصة المزعومة، سوى ماجاء فى لفظ التوراة المحرفة فى حياكتها الفظيعة[4] التى يرفضها العقل السليم وحاشا داود من نبى كريم!

وكل مايدل عليه ظاهر القرآن أنه تعالى اراد ان يمتحن عبده داود فى القضاء العدل ويدرّبه عليه تدريباً، حتى فى أشد الحالات عليه، فجعل من الملكين فى صورة خصمين يهجمان عليه المحراب، وهومنذهل بخلوته مع ربه، ومن ثم افزعته تلك المباغتة الغريبة، وتسرع فى الحكم قبل أن يتأكد من توفر شروطه أجمع، حتى ولوكان بصورة فرض، لانه كان بمحضر المدعى عليه، وربما أوجب انفعالا فى نفسه فيتقاعس عن الدفاع عن نفسه، لظنه ان الحكم حتم لخصمه فلافائدة فى الدفاع.

هذا ولاسيماوقدالقيت الدعوى بصورة تستجلب الحكم للمدعى فى بادىء النظر، خصوصاً والمدعى عليه ساكت لايتكلم.

والخلاصة: انبواعث التسرع بأخذ جانب المدعى حينذاك كانت متوفرة

١ـ انظر: الطبرى ـ جامع البيان ج٢٣ ص٩٣

٢ـ انظر: الطبرسى ـ مجمع البيان ج٨ ص٤٧٢

٣ـ بحار الانوار ج١٤ ص٢٩ برقم ٦

٤ـ انظر: العهد القديم ـ صموئيل الثانى ـ الاصحاح الحاديعشر والاصحاح الثانى عشر. (الكتاب المقدس ص٤٩٧ ـ ٥٠٠).

أولاً : هجوم الخصمين عليه بتلك الصورة المفزعة، وهي تحول دون رجوع العقل الى رشده ،ولايملك اى انسان وعيه اذا ماملكه الفزع وفاجاه رعب مهول . وربما يتخذ تدبيراً هو بمعزل عن رشد العقل ، ومن ثم كان من آداب الحكم انلا يكون القاضي منشغل الذهن بهواجس ولامرتاعاً في امره.

ثانياً: القاء الدعوى بتلك الصورة المغرية ، انه يملك نعجة واحدة ،وخصمه يملك تسعاً وتسعين نعجة ، وطلب اليه ان يضم نعجته الى نعاجه ، من غير ماسبب معقول ، سوى انّه يملك اكثر بتلك النسبة العالية .

ولاشك ان الدعوى اذا كانت بتلك الصورة كان الحق مائة بالمائة مع المدعى ، ويكون المدعى عليه ظالماً له .

ولعل القاء الدعوة بتلك الصورة كان ـ ايضاً ـ لأجل اختبار داود ، هل تغلبه صورة الدعوى المغرية ؟ وهل تثير من عواطفه الرقيقة ضد المحكوم ؟فاذا كان الامر كذلك كان بعد لم تنضج صلاحيته للقضاء العدل الذى يريده الله .

ثالثاً : سكوت المدعى عليه محضاً تجاه الغوغاء التى اثارها خصمه ، وهو لاينبس ببنت شفة ، كل ذلك كانت بواعث للحكم ضده في بادىء الأمر .

لكن داود عليه السلام بعد ان تسرع الى الحكم ـ فرضياً ـ رجع الى رشده على فوره ورآى بنور الله انـه لم يكن ينبغى منه ذلك التسرع ، ولابد ان يستمع الى الخصم، ولعله ذو حجة قاطعة ،ومن ثم استغفر الله على بادرته تلك، وان لم تكن معصية حيث لم يحكم حكم قضاء، وانما ابدى رأيه الشخصى ازاء تلك الدعوى على فرض صحتها تقديراً .

فلم تكن تلك الظاهرة سوى رحمة مـن الله عليه وعناية خاصة به ، تمهيداً لاستخلافه فى الارض ، الذى جاء ذكره تعقيباً على الآيات المذكورة « ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ـ ص :٢٦» .

نعم ، قديكون في التمثيل بالنعاج ، خصوصاً في تلك النسبة المرتفعة ، تنبيه آخر لداود ، روى انه خطب امرأة وكان قد خطبها ايضاً آخرون ، فاراد اهلها ان يزوجوها من داود اجلالا لمقامه الكريم ، وهو لايدرى بالأمر ، فنبهه الله عليه كي لاتدخل عليه شنعة من الناس فيحسبوه متدخلا في سوم الآخرين [1] .

* * *

فتنة سليمان

قال تعالى : «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ـ ص : ٣٤» .

ذكروا انه قال لاصحابه يوماً : سأطوف الليلة على نسائي لتلد كل واحدة غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، قال ذلك قاطعاً بالأمر ، فقد تمنى مالم يكن باستطاعته الا ان يشاء الله . فأراد الله تنبيهه على بادرته تلك ، وان كانت نظرته نصرة الحق محضاً . فطاف عليهن كلهن فلم تحمل منهن سوى واحدة و جاءت بسقط ميت [2]

هذا هو الصحيح الذى اختاره اصحابنا الامامية في تفسير الآية . واما ما ذكره بعض المفسرين من امور تمس بكرامة الأنبياء و تهين من مقامهم الجليل فهي ـ فضلا عن مخالفتها لاصول العقيدة ولظاهر القرآن ـ روايات لاأصل لها ولا سند متصلا الى معصوم .

* * *

وقال تعالى : « اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ...قال رب اغفرلى وهب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى انك انت الوهاب ص : ٣١ - ٣٣ - ٣٥ » .

١ـ انظر :مجمع البيان ـ الوجه الاول ـ ج٨ص٤٧٢

٢ـ مجمع البيان ج ٨ ص ٤٧٥

في هذه الآيات موضعان للسؤال .

الاول : كيف يؤثر مثل سليمان ، حب الخيل على ذكر ربه ؟

الثاني : كيف يطلب ملكاً لاينبغي لأحد من بعده ،أليس في هذا الطلب شيء من شائبة البخل ؟

والجواب ـ اولا ـ : ان ماروه بشأنه ﷺ انه كان مغرماً بحب الخيول المسومة الجياد فكان يوم عرضها عليه ففاتته فريضة العصر ، كله باطل و قبيح ينم عن وقاحة واضعه و جهله بمنزلة الانبياء .

والصحيح : انه كان يوم استعراض الخيل لغرض انتخاب جيادهن لغرض الجهاد في سبيل الله . وكان الوقت وقت عشـي ، فاشتغـل سليمان بملاحظتهن و فاته تسبيحه المعتاد ذلك الوقت « فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشياً ـ مريم : ١١ » . « واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار ـ آل عمران : ٤١ » .

وهذا وان كان اشتغالاً بعبادة عن أخرى ، لكن نبي الله سليمان فرض ذلك، على نفسه ذنباً فاستغفر الله منه . قوله : « اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب » قال ذلك اغتماماً لما فاته من ورده المعتاد [1] .

وقوله : « ردوها علي » اي الخيل لعرضها ثانية لغرض التأكد من سلامتهن و صلاحيتهن للجهاد .

و ثانياً ـ ان المذموم هو الحرص و الضن بما يخص هذه الحياة الدنيا . اما ما اريد به وجه الله والدار الآخرة فالطمع البالغ فيه غير مذموم . و من ثم نرى نبينا الكريم طلب من امته الصلاة عليه على مر الايام والدهور . وهل يستغني أحد من رحمة ربه الواسعة ؟ ! أم هل للقناعة والاقتصاد في تلك المـرحلة مفهوم معقول ؟ !

---

١ ـ تنزيه الانبياء للشريف المرتضى ص ٩٤ (ط نجف)

ونبي‌الله سليمان انما طلب منحة الهية اختصاصية يمتاز بها بين سائر الانبياء حيث كل واحد منهم كان يمتاز بجهة هي غالبة على سائر الجهات من شؤون نبوته الكريمة . آدم بسجود الملائكة له . نوح بكونه نجي‌الله . ابراهيم بخلته . موسى بتكليمه . داود بلين الحديد و تسبيح الجبال معه . عيسى بكونه كلمة‌الله و روحاً منه . محمد خاتم الانبياء و سيد المرسلين .

فأراد سليمان ﷺ ان يكون امتيازه وطابعه الرباني هو سيطرته على الانس والجن والطير والوحش ليكون مظهر قدرته تعالى على جميع صنوف الخلائق من غير ان يكون له مطمع في دنيا او حب في رئاسة هي زائلة لامحالة .

* * *

استعجال يونس

قال تعالى : « وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لااله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاستجبناله ونجيناه من الغم و كذلك ننجي المؤمنين ـ الانبياء : ٨٧ ـ ٨٨ » .

مم كان مغاضباً ؟ و كيف ظن ان لن يقدر الله عليه ؟ وبماذا اعترف على نفسه بالظلم ؟

الجواب : انه كان مغاضباً لقومه بسبب اصرارهم على الضلال والمعاندة مع الحق ، وقد مكث بين اظهرهم يدعوهم الى‌الله وهم لايستجيبونه حتى أيس منهم ، وأحس بالعقاب يرفرف على رؤوسهم ، فأخذ بمغادرتهم لأن العذاب لاينزل بساحة قوم وفيهم نبي « وما كان‌الله ليعذبهم وانت فيهم ـ الانفال : ٣٣ » . فمن وظيفة الانبياء ان يغادروا مهبط العذاب . فبناء على هذا القانون السماوي غادرهم يونس ولكن من غير ما استيذان خاص من‌الله في ذلك ، علماً منه بان ذلك من وظيفته المتعينة عموماً ولا حاجة الى مراجعة اخرى خاصة !

هذا هو الذى أخذه الله عليه وحسبه ترك اولى منه لم يكن ينبغى صدوره من مثله و هو نبى كريم.

وهذا معنى قوله تعالى: «فظن ان لن نقدر عليه» اى كان على يقين من ان ذلك من وظيفته الخاصة فلا نؤاخذه عليها ولا نتضايق بشأنه من أجلها.

لكنه لما علم بخطأ ظنه وانه قد ترك الاولى بشأنه اغتم اغتماماً بالغاً واخذ فى الاستغفار والضراعة الى الله تعالى ان يغفر له تلك البادرة التى فرطت منه.

قال تعالى ـ مناصحاً لنبيه ان لا يستعجل فى مغادرة قومه من مكة ـ «ولا تكن كصاحب الحوت ـ حيث استعجل الخروج ـ اذ نادى ربه وهو مكظوم ـ مختنق من الغم على اثر بادرته تلك ـ القلم: ٤٨»[١].

وعليه فلم يكن هناك عصيان ولا مخالفة أمر صريح ولا اساءة ظن بالله العظيم!

* * *

عيسى بن مريم

قال تعالى: «و اذ قال الله: يا عيسى بن مريم، ءأنت قلت للناس اتخذونى و امى الهين من دون الله ـ المائدة:١١٦».

كيف يجوز توجيه هكذا سؤال الى مثل عيسى، وهو كلمة الله وروحه، أكان يصح توجيه هكذا سؤال الى من لا يحتمل بشأنه ذلك؟!

الجواب: انه من باب «اياك اعنى و اسمعى يا جارة» تقريعاً بالمنتحلين اليه كذباً، و استنكاراً لعقيدتهم بالتثليث، هم ابتدعوه ما انزل الله به من سلطان ولا كان المسيح أمرهم به. فليس سوى تعريض صريح بموقفهم الفاسد المنهار، الذى لا

١ـ راجع مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٤١

اساس له فى شريعة الانبياء اطلاقاً .

* * *

خاتم النبين

حاول اعداء الاسلام إلصاق تهم و افتراءات بساحة قدس رسول‌الله ـ صلى الله عليه وآله ـ والتمسوا لذلك شبهات واهية و فى‌نفس‌الوقت مفضوحة‌لا يتلوث بها ذيله الطاهرأ بدياً . منها اسطورة «الغرانيق» التى بحثناعنها فى الجزء الاول (ص ٥٩ ـ ٧٠) و ذكرنا اوجه تفنيدها بتفصيل . وبقيت آيتان كانوا تشبثوا بهما دليلا على الاسطورة ، لم نتكلم عنهما هناك بالذات :

١ـ الاولى ـ قوله تعالى : « و ان كادوا ليفتنونك عن الذى او حينا اليك لتفترى علينا غيره ، واذاً لا تخذوك خليلا .ولولا ان ثبتناك‌لقد كدت تر كن اليهم شيئاً قليلا، اذاً لاذقناك‌ضعف الحيوة وضعف‌الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيراً ـ الاسراء، ٧٣ ـ ٧٥» .

زعموها نزلت بشأن قصة الغرانيق !

ولكن الآية ترمى شيئاً آخر لامساس له بتلك القصة ، و ذلك ان قريشاًبعد ما أيست من التغلب على دعوة الحق ، ورأت ان الدعوة تتقدم بسرعة مع الليالى والايام ، حاولت الاصطلاح مع رسول الله ـ ص ـ ليجاملهم ببعض الشىء ، فلا يذكر آلهتهم بسوء و لايسفه أحلامهم علانية ، و شرطوا عليه إن كان يرغب فى موادتهم و مراودتهم انيجتنب مجالسة‌العبيد و السفلة الأذلاء و يطردهم‌عن حاشيته و بالتالى يداهنهم فى سيرته النزيهة التى تمثل منهج العدل و الحكمة ، فيحولها الى سلوك اهل الكبرياء و اصحاب الترف‌فى الحياة .

و قد تحرج النبى ـص ـ تجاه اقتراحهم هذا الثقيل ، فمن جهة كان‌يرغب

شديداً فى ايمان قومه ، فكان يرى لوجاملهم بعض الشيء لاستطاع اخضاعهم للاسلام ، و من جهةاخرى كان عليه صعباً جداً انيحول من سيرته العادلة الى سيرة جبارة ، و لم يكن يستطيع ذلك أبداً .

فنزلت الآيات تيئيساً لمطمع اهل الشركوالفسوق ،وترويحاً بنفسه الكريمة ليتخلص عن المأزق الذى وقع فيه . فليكن على قاطع من أمره أنه يسير على المنهج الحق ، وان لامطمع فى ايمان هؤلاء الا نذال حتى ولوجاملهم فى الامر . «كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين،لايؤمنون بهحتى يروا العذاب الاليم-الشعراء: ٢٠٠- ٢٠١» .

قال تعالى : « وان كادوا ليفتنونك » اى حاولوا خداعك . « عن الذى أوحينا اليك» أىعن المنهج الحق الذى ادبناك عليه «لتفترى عليناغيره»اىلتحوله الى طريقة اهل الترف والبغى ،فيحسبوها طريقة الشرع بسبب انتسابها اليك . «اذن لاتخذوك خليلا » صحبوك وجالسوك . «ولولا ان ثبتناك » بالعصمة الربانية صموداً واستقامة على الحق ، « لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا» اى لداهنتهم فى بعض ما طلبوه ، ولو طمعاً فى اسلامهم ،لكن من الواجب على نبى الله ان لايداهن على باطل ،و لايسلك مسالك التقية أبداً ، نظراً لانه المؤسس والمشرع و ربما اشتبهت معالم الدين الاصيلة .

و بقية الآيات تعريض بأولئك الذين يحاولون المداهنة فى دين الله اطلاقاً على مر الاجيال .

* * *

٢- والآية الثانية -قوله تعالى :«وما ارسلنامن قبلك من رسول ولانبى الااذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم ، و ان الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من

ربك ، فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم ، و ان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم ـ الحج : ٥٢ ـ ٥٤» .

قالوا ـ ايضاً ـ : انها نزلت بشأن قصة الغرانيق !

والصحيح : أن الآية تعني تسويلات ابليس المضلة التي يعرقل بها طرق الهداية التي يدعو اليها الأنبياء. فقد كان رسول الله ﷺ يرجو تطبيق الاسلام لوجه الارض كلها واخضاع الامم له جميعاً ، ويسير سيره الى الخلود والأبدية ، ومن ثم قوّم من دعائمه ورصن من أسسه وقواعده الحكيمة ، وكان يخشى من دسائس المنافقين حوله سوف يعكرون عليه صفو الجوّ ويقومون في وجه دعوته السائرة الى الانتشار والازدهار، لانه قد تجرى الرياح بما لاتشتهى السفن .

لكنه تعالى وعده بالنصر والظفر والانتشار والخلود وانه سوف يطبق دينه الارض كلها ، رغم محاولات الأعداء والمناوئين ، وان محاولاتهم سوف تفشل وتذهب هباء أدراج الرياح ، الحق يعلو ولايعلى عليه ، « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحيوة الدنيا ـ غافر : ٥١» . «كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز ـ المجادلة : ٢١» .

وان دسائس اهل الباطل سوف تذهب سدى ويستمر الحق في طريقه الى الازدهار والخلود «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ـ الانبياء : ١٨» . «له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه ، ومادعاء الكافرين الا في ضلال ـ الرعد : ١٤» . « انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ، ابتغاء حلية أومتاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل .فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ـ الرعد : ١٧» .

كل هذه الآيات تبشر بعاقبة الاسلام المجيدة سوف تزدهر معالمه وتطبق ارجاء

العالم المعمور ، وان كل محاولة فى سبيل مكافحته فاشلة لامحالة .

وآية الحج ـ أيضاً ـ ترمى نفس المرمى ، وتعنى تغلب الاسلام على جميع الموانع والحواجز التى سوف تعرقل طريقه الى الازدهار والانتشار :ـ

قال تعالى : « وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبى الا اذاتمنى » انتشار دينه وازدهار شريعته مع الخلود «ألقى الشيطان فى أمنيته» حاول عرقلة الطريق امام انتشار دعوته «فينسخ الله مايلقى الشيطان» يذهب بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق «ثم يحكم الله آياته» يجعل من الحق واضحاً منتشراً فى الآفاق قائماً على قدم وساق. «ليجعل مايلقى الشيطان» أى دسائسه وشبهات يثيرها «فتنة للذين فى قلوبهم مرض» امتحاناً لهم ـ «ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم ـ سورة محمد :٢٩ ».

* * *

وهناك آيات اخر تشبث بها الخصوم للتشويه من سمعة الرسول الطيبة والازراء بكرامته المجيدة . لكنها ـ ايضاً ـ محاولات فاشلة ومفضوحة الى حد بعيد :

٣ـ منها قوله تعالى: «واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق ان تخشيه. فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً . وكان امر الله مفعولا . ماكان على النبى من حرج فيما فرض الله له، سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان امر الله قدراً مقدوراً ـ الاحزاب: ٣٧ـ٣٨».

رووا بشأن نزول الآية أباطيل كاذبة ، قالوا : انها نزلت عتاباً للنبى صلى الله عليه وآله فى اضماره حب زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله كان صلى الله عليه وآله دخل بيتها ففاجأته ريح فرفعت الستار واذا بها حاسرة، فاعجبه جمالها ووقع حبها فى قلبه الشريف . ولما علم الله بذلك كرهها فى نفس زيد ليطلقها ويتزوجها

النبى ﷺ فلما جاء زيد ليطلقها ، قال له النبى : أمسك عليك زوجك ، قال ذلك وهو يحب ان تكون قد بانت منه لينكحها. فاظهر الله ما كان يخفيه النبى فى قلبه الشريف، الخ[1] .

هذا امتهان بشأن الرسول وقلب للواقعية البيضاء التى كان يسير عليها برامج الدين الحنيف .

والصحيح ـ وفق مذهب أهل البيت ـ عليهم السلام ـ : ان هذه الآيات نزلت لمحق عادة جاهلية ، كانت العرب لاتجيز التزويج بأزواج الأدعياء قياساً على ازواج الابناء الحقيقيين. فكانت مكافحة هذه السنة الجاهلية بحاجة الى تضحية ممن يعرض بنفسه للشناعة الراهنة ويتحملها ، ومن ثم تحملها الرسول بنفسه كسراً لشوكتها ، وان شخصيته الكبيرة لتحول دون توجيه أى شناعة اليه !

فأوحى الله اليه أن زيداً سوف يطلق زوجته ، ولابد ان تتزوجها انت محقاً لشريعة جاهلية . فلما ان وقع بين زيد وزوجته زينب تشاجر وكراهية واراد طلاقها نصحه النبى ﷺ : « امسك عليك زوجك واتق الله » . وهى وظيفة دينية اصلاحاً بين الزوجين مهما امكن . «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه» اى كنت تعلم ان من وراء الستار امر مدبر هو على شرف الوقوع وانه سيطلقها وتتزوجها انت كما اخبر الله . «وتخشى الناس» تعييرهم «والله احق ان تخشيه» اى احق ان ترعاه فى تطبيق شريعته ومكافحة شرائع جاهلية [2] . وبقية الآية ظاهرة .

* * *

٤ ـ ومنها قوله تعالى : « ياايها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليماً حكيماً . واتبع مايوحى اليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيراً ـ الاحزاب : ١ـ٢» .

١ـ انظر : الطبرى ـ جامع البيان ـ ج٢٢ ص١٠

٢ـ انظر : مجمع البيان ج٨ ص٣٦٠ . والصافى ج٢ ص٣٥٥

هذه الآية كآية الاسراء (٧٣) المتقدمة ـ وكم لها من نظائر في القرآن ـ تيئيس لمطمع المشركين والمنافقين في الاصطلاح مع النبي ﷺ وان لا منفذ لخداعهم الخبيث في نفسه الكريمة «ودوا لو تدهن فيدهنون ـ القلم :٩» .فقد ورد أن اباسفيان ابن حرب وعكرمة بن ابي جهل وابا الأعور السلمي قدموا المدينة ،ونزلوا على عبدالله ابن ابي ، بعد غزوة احد، بأمان من رسول الله ﷺ ليكلموه .فقاموا وقام معهم عبدالله ابن ابي وعبدالله بن سعد بن ابي سرح وطعمة بن ابيرق ، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : يامحمد ، ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومنات . وقل : ان لها شفاعة لمن عبدها ،وندعك وربك. فشق ذلك على النبي ﷺ ثم أمر باخراجهم من المدينة ونزلت الآية [١] .

* * *

٥ ـ ومنها قوله تعالى : « لاتجعل مع الله الهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا ـ الاسراء : ٢٢» . وللاية نظائر كثيرة ، كلها نزلت تعريضاً بغيره ﷺ من غير ان يكون هو مقصوداً بالذات . من باب «اياك اعني واسمعي ياجارة» . كما في قوله تعالى: «ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين .بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ـ الزمر:٦٥-٦٦» . وغيرها من آيات هي نظائر ، كلها ترمي غيره ﷺ .ومن ثم حملها بعضهم على ارادة الخطاب مع كل سامع اوقارىء ، اي ايها السامع لهذا الخطاب او ايها القارىء لهذا الكلام او ايها الانسان بصورة عامة [٢] .

* * *

٦ ـ و منها قوله تعالى : «عبس وتولى ان جاءه الاعمى . و مايدريك لعله يزكى . او يذكر فتنفعه الذكرى . اما من استغنى فأنت له تصدى . و ما عليك ان لا يزكى . واما من جاءك يسعى . و هو يخشى .فأنت عنه تلهى ـ عبس : ١-١٠».

١ـ مجمع البيان ج٨ ص٣٣٥

٢ـ انظر مجمع البيان ج٦ ص٤٠٧

رووا بشأن النبي صلى الله عليه وآله انه كان يتكلم مع عظماء قريش اذ جاء ابن ام مكتوم ـ و هو فقير اعمى ـ يسترشده ، فلم يلتفت اليه النبي صلى الله عليه وآله و امتعض و اعرض بوجهه عنه ، قائلاً في نفسه ، ان هؤلاء الصناديد سوف يقولون : انما اتبعه السفلة السقاط ! [1] .

قال اعداء الاسلام و المشنعون بمقام سيد المرسلين: هل هذا من خلق المرسلين؟ و هلا يتنافى ما في هذه السورة مع قوله تعالى : «وانك لعلى خلق عظيم ـ القلم ٤ » ؟ ! [2] .

قال الشريف المرتضى ـ قدس سره الشريف ـ : «اما ظاهر الآية فغير دال على توجهها الى النبي ـ ص ـ و لا فيها مايدل على انه خطاب له صلى الله عليه وآله وسلم بل هي خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه، وفيها مايدل عند التأمل على ان المعنى بها غير النبي ـ صلى الله عليه و آله ـ لانه وصفه بالعبوس ، و ليس هذا من صفات النبي ـ ص ـ في قرآن ولاخبر مع الاعداء المنابذين [3] فضلا عن المؤمنين المسترشدين .

ثم وصفه بأنه يتصدى للاغنياء و يتلهى عن الفقراء ، و هذا مما لا يصف به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من يعرفه . فليس هذا مشبهاً لاخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم الواسعة ، و تحننه على قومه و تعطفه » .

«و كيف يقول : وما عليك ان لا يزكى !؟ وهو صلى الله عليه وآله وسلم مبعوث للدعاء والتنبيه و كيف لايكون ذلك عليه ، و كان هذا القول اغراء بترك الحرص على ايمان قومه » .

«و قد قيل : ان هذه السورة نزلت في رجل من اصحاب رسول الله ـ صلى

١ـ الطبرى ـ جامع البيان ـ ج ٣٠ ص ٣٢ ـ ٣٤ .

٢ـ انظر : الهدى الى دين المصطفى للحجة البلاغي ج ١ ص ١٥٨ .

٣ـ قال تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ـ آل عمران : ١٥٩ » .

الله عليه و آله - كان منه هذا الفعل المنعوت فيها . و نحن ان شككنا في عين من نزلت فيه [1] فلا ينبغي ان نشك في انها لم يعن بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم » .

«وأي تنفير ابلغ من العبوس في وجوه المؤمنين ، والتلهي عنهم .والاقبال على الاغنياء الكافرين ، والتصدى لهم . وقدنزه الله تعالى النبي -ص- عمادون هذا في التنفير بكثير » [2] .

وقال سيدنا الطباطبائي - دام ظله -:«وقد عظم الله خلق النبي صلى الله عليه وآله اذقال : وانك لعلى خلق عظيم ،في سورة القلم النازلة في بدء البعثة ، لانها نزلت بعد سورة العلق باتفاق روايات الترتيب .فكيف يعقل ان يعظم الله خلق نبيه في بدء بعثته بصورة مطلقة ، ثم يعود فيعاتبه بالعبوس في وجه الفقراء والتصدى للاغنياء ؟!» .

«وقد أمره تعالى بخفض الجناح للمؤمنين «واخفض جناحك - سورة الحجر المكية ، كما أمره بالاعراض عن المشركين «واعرض عن المشركين -ايضاً في سورة الحجر : ٩٤» فكيف يخالف صلى الله عليه وآله أمر ربه في الموضعين. وقدقال تعالى: « ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجاً منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين - الحجر المكية : ٨٨ » ؟! :

«على ان تفضيل الغني على الفقير ، لالشيء سوى ان ذاك ذوجاه وهذا حقير قبيح عقلا ، فضلا عما اذا كان صاحب الغنى جاهلا ، وكان الفقير صاحب كمال . الامر الذى يكون قبحه ذاتياً عند كل انسان ، من غير حاجة الى نهي ودستور!» [3].

* * *

١- عن الصادق -عليه السلام -:«نزلت في رجل من اثرياء بني امية كان عند النبي -ص- فجاء ابن ام مكتوم ، فلما رآه تقذرمنه و جمع نفسه و عبس و أعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه» مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ .

٢- كتاب تنزيه الانبياء ص ١١٩ (طنجف) وراجع ايضا الهدى الى دين المصطفى ج١ ص١٥٧-١٥٨

٣- انظر : تفسير الميزان ج٢٠ ص٣٠٨-٣٠٩ .

٧- ومنها قوله تعالى : «ووجدك ضالا فهدى - الضحى : ٧» .

هذه الآية ونظائرها الكثيرة فى القرآن ،تعنى جانب انحصار الهداية فى الله عزوجل ، فلاهدى الاهديه :«الحمدلله الذى هدانالهذاوما كنالنهتدى لولا ان هدينا الله- الاعراف : ٤٣» .

وكل مهتد فى هذا الوجود فانما هدايته مكتسبة ومفاضة عليه من جانبه تعالى نبياً كان فمن دونه . ولاهداية ذاتية الافى الحق تعالى عزشأنه . «انى ذاهب الى ربى سيهدين - الصافات : ٩٩» . «الذى فطرنى فانه سيهدين - الزخرف : ٢٧» . «الذى خلقنى فهويهدين - الشعراء : ٧٨» .

قال ابراهيم : «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين - الانعام :٧٧».

وقال تعالى عن انبياء اجتباهم وهداهم : «واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم - الانعام : ٨٧» .

وقال موسى : «فعلتها اذاً وانا من الضالين - الشعراء : ٢٠» .

وقال تعالى بشأن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : «وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولاالايمان ،ولكن جعلناه نوراًنهدى به من نشاء من عبادنا. وانك لتهدى الى صراط مستقيم - الشورى : ٥٢» .

وقال : «وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً - النساء : ١١٣» .

وقال هو صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمره تعالى أن يقول : «وان اهتديت فبما يوحى الى ربى ، انه سميع قريب - سبأ : ٥٠» .

هذا هو معنى ضلاله صلى الله عليه وآله وحاجته الذاتية الى هدى ربه ، ولولا هديه تعالى لكان من الضالين .

والى هذا المعنى ينظر قوله تعالى - فى مفتتح سورة يوسف - «نحن نقص عليك أحسن القصص ،بماأوحينااليك هذا القرآن ،وان كنت من قبله لمن الغافلين».

حيث علمه صلى الله عليه وآله مستمد من فيض قدسه تعالى ،وانه انمايعلم ماعلمه الله .

والغفلة في هذه الآية هو الضلال في سائر الآيات ، وهو عدم المعرفة بالشيء ذاتياً . ولعل في التعبير بالغفلة مناسبة مع المبدأ القائل بان العلم تذكر ،فتنبه !

* * *

٨- ومنها قوله تعالى :«انافتحنا لك فتحاً مبيناً ،ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً – الفتح : ١-٢» .

ماهذا الذنب الذى تشير اليه الآية الكريمة ؟

قلنا : ان من شأن كل قائم باصلاح ، وخارج على مساوى عادات قومهي مألوفة عندهم ، ان يعرض بنفسه لتعيير هم والتشنيع به ، و يرون من عمله ذلك خطيئة كبيرة خالف بها مقومات وجودهم الموروثة عبر الأجيال ، فكأنه يحاول تحطيم كيانهم والانهيار بقوميتهم ، ولاسيما الكبـراء زعماء القوم ، يخشون على مصالحهم في البلاد ، فينظرون اليه كمذنب عارم وقيح .

لكنه ريثما يتغلب على الموانع ويرفع الحواجز عن طريقه ويبلغ قمة الفوز والنجاح ، وتزد هر معالم اصلاحاته العامة اذاهم يستبشرون به كفاتح عظيم و مبشر بسعادة الاجيال .فتنقلب سيئاته حسنات ، و تغفر جميع ذنوبه التى كانوا يرونها ذنوباً ، بعد ما لمسوا من حقيقة قيامه الاصلاحي و اخلاصه في نهضته منذ البدء .

قال الامام ابو الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام « لم يكن أحد عندمشركي اهل مكة اعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله لانهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً ، فلما جاءهم بالدعوة الى كلمة الاخلاص ، كبرذلك عليهم وعظم ،وقالوا : أجعل الآلهة الها واحداً –الى قوله– الااختلاق . فلما فتح الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله مكة ، قال تعالى : يامحمد ، انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، عند مشركي اهل مكة ، بدعاءك الى توحيد الله فيما تقدم وماتأخر ، لان

مشركي مكة اسلم بعضهم ، وخرج بعضهم من مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على انكار التوحيد عليه ، اذ دعا الناس اليه . فصار ذنبه مغفوراً بظهوره عليهم»[1] .

وقوله : «وماتأخر» اى حتى الاعمال التي يرتكبها ذلك المصلح في مستقبل امره يغضون عنها حتى ولو كانت على خلاف مصالحهم الخاصة .

* * *

٩ـ ومنها قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذى انقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك. فان مع العسر يسراً . ان مع العسر يسراً ـ الانشراح: ١-٦».

ماهذا الوزر الذى وضعه الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وآله ؟

الجواب : الوزر ـ كحبر ـ في أصل اللغة[2] : الحمل الثقيل . والجمع أوزار ، كما في قوله تعالى : «ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ـ طه :٨٧» واستعير استعماله في الاثم لكونه حملاً ثقيلاً قاصماً للظهر . اما في الآية فان المراد بها حمل عبء الرسالة والصدع بها ، الذى كان صلى الله عليه وآله يخشى صعوبة ادائه ، في ذلك الجو المليء بالعصبية والشقاق . لكنه تعالى وفقه على الانتهاض بدعوته في يسر ولين . كما شرح صدره الذى كاد يضيق من خطورة موقفه مع قومه فخفف عليه ذلك وهان.

قال تعالى : « الم نشرح لك صدرك» لهذه الدعوة ؟ ويسرنا لك أمرها ؟ «ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك» اى خففنا عليك عبئك الذى كان اثقل ظهرك. وان في بقية الايات لدليلاً واضحاً على صحة هذا التفسير .

* * *

١٠ـ ومنها قوله تعالى: «فاصبر ان وعد الله حق ، واستغفر لذنبك ـ غافر: ٥٥».

وقوله :«فاعلم انه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ـ سورة محمد: ١٩» .

ماهذا الذنب الذى امر النبى صلى الله عليه وآله بالاستغفار منه ؟

١ـ عيون اخبار الرضا للصدوق (ط نجف) ص١٦٠ ـ ١٦١

٢ـ ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ ج٦ ص١٠٨

قال الحجة البلاغي : ولعل الآيتين من سنخ آية الفتح ـ التي تقدمت برقم ٨ـ ويمكن ان يكون تعليماً للامة وان كان الخطاب للرسول ﷺ كما في آيات من سورة بني اسرائيل :٢٣ -٢٩ و٣٦ -٣٩ [١] .

قال المفسرون :وهذا من أدب العبودية يؤدب الله به نبيه،وليتأدب عليه المسلمون وقد قال رسول الله ﷺ لحذيفة : «اين انت من الاستغفار ، انى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة» [٢] .

وذلك ان العبد مهما بالغ فى الخضوع والانقياد لله رب العالمين ، واجتهد في عبادته والقيام بمرضاته ،فانه مع ذلك قاصر لامحالة ،ولاسيما عباد الله المخلصين الذين أدركوا من عظمة الله وجليل نعمه على عباده ، فان شعورهم بالقصور عن اداء شكره الواجب اشد . ومن ثم فان خشيتهم تجاه رب العباد اكثر، «انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور ـ فاطر : ٢٨» .

وهكذا بقية الآيات التى جاء فيها ذكر الاستغفار ، خطاباً الى النبى ﷺ بصورة خاصة أوعموماً .

وبقيت آيات اخر كان فيها بعض العتاب الموجه الى النبى ﷺ أغمضنا عنها ، لوضوح حالها قياساً على ما أسلفنا ، انها اما عتاب وداد اوتعريض بغيره فى مناسبة خاصة ، اوالى امته بشكل عام ، ولكمال ظهورها طوينا عنها البحث .

١ـ الهدى الى دين المصطفى ج١ ص١٦٤ (ط نجف)

٢ـ مجمع البيان للطبرسى ج٩ ص١٠٢

انتهى ما أردنا ثبته في هذا المختصر، ولعله بقيت من آيات متشابهة مالم نتعرض لها فقد أجلناها الى مجال التفسير، حيث لم نقصد الاستقصاء وانما كان الغرض عرض نماذج أوفيناها بتوفيقه تعالى. وله الحمد واصباً على تسديده للصواب والكمال.

وكان الفراغ مساء يوم ميلاد الامام الثامن على بن موسى الرضا، عليه آلاف التحية والثناء. الحادى عشر من ذى قعدة الحرام، سنة الف وثلاثمائة وثمان وتسعين هجرية، على هاجرها وآله صلوات رب العالمين.

١١ / ذق / ١٣٩٨هـ قم المقدسة ـ محمد هادى معرفة

فهرس الايات القرآنية

التى جاءت فى هذا العرض اما بحثاً عن مدلولها اولغرض الاستدلال

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	١ـ سورة الفاتحة	
٦	اهدنا الصراط المستقيم	٢٠٤،٢١٠
	٢ـ سورة البقرة	
٢	هدى للمتقين	٢١٠،٢٥٥
٦	سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم ...	٢١١
٧	ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ...	٢١١،٢٤٣،٣٢٢
٩	يخادعون الله والذين آمنوا ـ الى قوله ـ ومايشعرون	٣١٧
١٠	فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ...	٢١٢،٢٤٣،٣٢٨

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٣	واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا ...	٢٠٦
١٤	واذا خلوا الى شياطينهم ـ الى قوله ـ يعمهون	٣١٨، ٣١٩
١٥	الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم	٢١٤
١٦	اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ...	٢١٤
١٧	كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ...	٢٠٧
١٨	صم بكم عمى فهم لايرجعون	٢١٤
٢١	ياايها الناس اعبدوا ربكم ...	١٦٧
٢٥	وأتوا به متشابهاً ...	١٠٦
٢٦	يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً...	٢١٤
٢٦	فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق ...	١٧، ٤٠
٢٩	ثم استوى الى السماء	١٢٧، ١٣٢
٣٠	واذقال ربك انى جاعل فى الأرض خليفة	٢٠
٣١	وعلم آدم الاسماء كلها ...	٩
٣٥	ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين	٤١٣
٣٦	فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه	٤١٣
٣٧	فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه	٤١٣
٤٨	الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم	١٠٦، ١٠٧
٥٥	واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ـ الى قوله ـ وانتم تنظرون	١٠٠
٦٧	اعوذ بالله ان أكون من الجاهلين	٣١٦
٧٤	ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة	٢١١، ٣٢٩
٨٠	ام تقولون على الله مالاتعلمون	٢٩٠

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٨٨	وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم	٢١١، ٣٢٦
٩٣	واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم	٢١٤
١٠٢	وماهم بضارين به من احد الا باذن الله	١٧٩، ٢١٥، ٢٤٠
١١١	وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً اونصارى	٣٠٩
١١٥	ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله	١٢٢، ١٣٦، ١٤٣، ١٤٨
١١٧	واذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون	٣٣٣
١٢٤	قال لاينال عهدى الظالمين	٣١٤
١٢٨	ربنا واجعلنا مسلمين لك ..	١٥٨، ١٩٠، ٢١٥
١٢٩	ربنا وابعث فيهم رسولا منهم	١٩٠
١٣٠	ومن يرغب عن ملة ابراهيم	١٩٠
١٣٥	قالوا كونوا هوداً اونصارى تهتدوا	٣٠٩
١٤٢	سيقول السفهاء ـ الى قوله ـ قل لله المشرق والمغرب	١٤٨
١٤٢	يهدى من يشاء الى صراط مستقيم	٢١٥
١٤٣	وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء ـ الى قوله ـ عليكم شهيداً	٣٦٥
١٤٣	وماجعلنا القبلة التى ـ الى قوله ـ هدى الله	١٤٨
١٤٣	وماكان الله ليضيع ايمانكم	٣٧٥، ٣٨٣
١٥١	كما ارسلنا فيكم رسولا	٢٨٦
١٥٦	انا لله وانا اليه راجعون	١٠٦، ٢٦١
١٧٠	واذا قيل لهم اتبعوا ماانزل الله ـ الى قوله ـ ولايهتدون	١٤١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٨٥	شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس	٢١٠
١٨٥	يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر	١٦٨
١٩٤	فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى	٣١٩
٢٠٠	فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الاخرة من خلاق	٣٣٤، ٣٨٠، ٣٨٦
٢٠١	ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة	٣٨٦
٢٠٢	اولئك لهم نصيب مما كسبوا ...	٣٨٦
٢٠٨	كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم	١٦٤
٢١٠	هل ينظرون الا ان يأتيهم الله فى ظلل من الغمام	١١٤، ١١٨، ١٣٢
٢١٣	فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه	٢٦٠
٢٢٥	ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم	٢٤٣
٢٢٩	ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون	٤١٦
٢٥٣	ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد	١٦٠، ٢١٥
٢٥٥	ولا يحيطون بشىء من علمه	٨٥
٢٥٥	وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما	١٢٣، ١٢٤
٢٥٦	لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى	١٦٥
٢٥٧	الله ولى الذين آمنوا ـ الى قوله ـ من الظلمات الى النور	٢٠٥، ٢١٥
٢٥٧	والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت ـ الى قوله ـ الى الظلمات	٢٠٥

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٥٨	والله لايهدى القوم الظالمين	٢١٦
٢٦٠	واذقال ابراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى	٤٢١
٢٦٢	الذين ينفقون فى سبيل الله ولايتبعون ماانفقوا مناً ولااذى	٣٩
٢٦٤	لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ـ الى قوله ـ لايقدرون على شيء مما كسبوا	٣٩١
٢٧٢	ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء	٢١٦
٢٨١	ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون	٣٨٤
٢٨٦	لايكلف الله نفسا الاوسعها ،لها ماكسبت وعليها ماكتسبت	١٦٤

٣- سورة آل عمران

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٣	نزل عليك الكتاب ـ الى قوله ـ وانزل الفرقان	١١٧
٧	هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب ـ الى قوله ـ كل من عند ربنا	١٤ ،١٧، ٣٢٧
٨	ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذهديتنا	٢١٦، ٢٤٠
٨	وهب لنا من لدنك رحمة	٢١٧
١٣	والله يؤيد بنصره من يشاء	٢١٧
١٤	زين للناس حب الشهوات ...	٢١٧
٢٥	ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون	٣٨٤
٢٦	قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء	١٥١

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٨	لايتخذالمؤمنون الكافرين اولياء ـ الى قوله ـ الاان تتقوا منهم تقاة	٢٣٠
٣٢	اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم	١٦٧
٤٠	كذلك يفعل الله مايشاء	٢٨٩
٤١	واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار	٤٣٧
٤٥	ومكروا ومكرالله والله خير الماكرين	٣١٩
٤٧	اذاقضى امراً فانما يقول له كن فيكون	٣٣٥
٥٥	ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا	١٣٠
٥٥	ثم الى مرجعكم ...	١٣٠
٧٣	قل ان الهدى هدى الله	٢١٧
٧٣	قل ان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء	٢١٧،١٥١
٧٧	ان الذين يشترون بعهدالله ـ الى قوله ـ لاخلاق لهم	٣٨٩
٨٣	افغير دين الله يبغون ـ الى قوله ـ يرجعون	٢١٧
٨٦	كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم	٢١٨،٢٠١
١٠٨	وماالله يريد ظلماً للعالمين	١٦٠
١١٩	واذاخلوا عضواعليكم الانامل...	٢٢٤
١٢٦	ومالنصر الامن عندالله	٢١٨
١٢٨	ليس لك من الامرشىء	٢١٨
١٣٢	واطيعوالله والرسول لعلكم ترحمون	١٦٧
١٣٨	هذا بيان للناس ...	١٤
١٤٠	ان يمسسكم قرح فقدمس القوم قرح	٣٥٦،٢١٨

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٤١	وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين	٣٦٦
١٤٢	ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ـ الى قوله ـ ويعلم الصابرين	٣٦٦
١٤٥	وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتاباً مؤجلا	٣٣٨
١٥٢	ثم صرفكم عنهم ليبتليكم..	٢١٩
١٥٣	فأثابكم غماً بغم ...	٢١٩
١٥٤	قل ان الامر كله لله	٢١٩
١٥٤	وليبتلى الله ما فى صدوركم	٣٦٦
١٥٩	فبما رحمة من الله لنت لهم ـ الى قوله ـ من حولك	٤٤٦
١٦٠	وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم	٢٣٣
١٦١	ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون	٣٨٤
١٦٩	أحياء عند ربهم يرزقون	١٣٠
١٧١	يستبشرون بنعمة من الله وفضل	٣٨٧
١٧٤	فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء	٢٦٠
١٧٦	ولايحزنك الذين يسارعون فى الكفر ـ الى قوله ـ يريد الله ان لايجعل لهم حظاً فى الآخرة	٣٦٥،٢١٩
١٧٨	ولايحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير	٣١٥،٢٢٠
١٧٩	ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب	٣٦٦،١٧٢
١٨١	لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير	١٥٠
١٨٦	لتبلون فى اموالكم وانفسكم ...	٣٦٧

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٩٥	انى لااضيع عمل عامل منكم من ذكر وانثى	٣٨٣
١٩٧	لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد	٣١٥

٤- سورة النساء

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٤	ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها	٤١٤
١٨	وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا ...	٢٥٨
٢٦	يريدالله ليبين لكم ويهديكم	١٦٨
٢٨	يريدالله ان يخفف عنكم	١٦٨
٣١	ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفرعنكم سيئاتكم	٣٧٤
٣٢	للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن	١٦٤
٣٦	واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً	١٦٧
٣٩	وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر	١٦٥
٤٠	انالله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها	٣٨٢
٤٢	ولايكتمون الله حديثاً	٢٤٦
٤٩	ألم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكى من يشاء	٢٢٠
٦٥	ثم لايجدوا فى انفسهم حرجاً مماقضيت	٣٣٣
٧٨	وان تصبهم حسنة ـ الى قوله ـ قل كل من عندالله	١٦٠، ١٩٥

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٧٨	فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون...	٢٤٣
٧٩	ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك	١٩٦،١٦٠
٧٩	وارسلناك للناس رسولا	٢٨٦
٨٢	ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً...	١٦
٨٨	أتريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا	٢٢٠
٩٠	ولو شاء الله لسلطهم عليكم	٢٢١
٩٣	ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها	٤١٠،٤٠٩
١٠٢	واذا كنت فيهم فاقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك	٢٧٩
١٠٣	فاذا قضيتم الصلوة	٣٣٤
١١٠	ومن يعمل سوءا اويظلم نفسه ــ الى قوله ــ تواباً رحيماً	١٦٤
١١٣	وعلمك مالم تكن تعلم	٤٤٨
١٢٣	من يعمل سوءا يجز به	١٦٤
١٢٥	ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله	١٤٩
١٢٦	وكان الله بكل شي محيطاً	١٢٢
١٣٧	ان الذين آمنوا ثم كفروا ــ الى قوله ــ سبيلا	٢٢١
١٤٢	ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم	٣٢٤،٣٢٠
١٤٢	واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى	٣١٨

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٤٥	ان المنافقين في الدرك الاسفل	١٠٨
١٤٧	مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم و آمنتم	٢٧١
١٥٣	يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم ...	١٠٠
١٥٥	فبما نقضهم ميثاقهم و كفرهم ـ الى قوله ـ الاقليلا	٢٢١، ٣٢٦
١٥٥	بل طبع الله عليها بكفرهم	٣٢٣
١٥٨	بل رفعه الله اليه	١١٣، ١٣٠
١٦٥	لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل	٢١٣، ٢٩٥، ٣٦٦
١٦٦	لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه	٨٥
١٧٤	فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ـ الى قوله ـ مستقيماً	٢٠٧

٥ـ سورة المائدة

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٦	اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم	٢٧٩
٦	مايريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج	١٦٨، ٢٢١
١٣	فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية	٢٢١، ٢٨٢، ٣٢٣
١٣	ونسوا حظاً مما ذكروا به	٣٦٥
١٤	ومن الذين قالوا انانصارى ـ الى قوله ـ يوم القيامة	٢٢٢
١٤	فنسوا حظاً مماذكروا به	٣٦٥
١٦	قدجاءكم من الله نور وكتاب مبين	٢٠١، ٢٦٤
٢٧	انما يتقبل الله من المتقين	٣٩٢
٤١	ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً	٢٢٢

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤٨	ولو شاءالله لجعلكم امة واحدة ـ الى قوله ـ تختلفون	٢٢٣
٥٢	فترى الذين فىقلوبهم مرض . . .	٣٢٨
٦٠	قلهل أنبؤكم بشر منذلك ـالى قوله ـسواء السبيل	٢٢٣
٦٤	وقالت اليهود يدالله مغلولة ـالى قوله ـ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء	٣٤١،١٥٠،١٤٢،٢٤
٧١	وحسبوا انلاتكون فتنة	٣٦٧
١١٠	واذتخلق منالطين كهيئة الطير باذنى	١٩٢،١٧٩،١٦٠
١١٦	ءأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين	٤٣٩
١١٦	تعلم مافى نفسى ولااعلم مافىنفسك	٢٩٨

٦ـ سورة الانعام

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢	هوالذى خلقكم منطين ثمقضى اجلا	٣٣٣
٦	وارسلنا السماء عليهم مدراراً	٢٨٧
١٦	ومنجاء بالسيئة فلايجزى الامثلها وهملايظلمون	٣٨٢
٢٤	انظر كيف كذبوا على انفسهم . . .	٢٦٧،٢٦٤
٢٥	وجعلنا على قلوبهم اكنة ـالىقوله ـ لايؤمنوا بها	٣٢٥،٢٤٣،٢٢٤
٢٦	وهم ينهون عنه وينأون عنه . . .	٢٢٤
٢٨	بلبدالهم ماكانوا يخفون منقبل ـالى قوله ـ لكاذبون	١٣٣

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٩	قالوا انهى الاحياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين	١٣٣
٣٠	ولوترى اذوقفوا على ربهم ـ الى قوله ـ تكفرون	١٣٣،١١٤
٣١	قدخسر الذين كذبوا بلقاءالله	١٣٣،١٠٦
٣٥	ولوشاءالله لجمعهم على الهدى	٢٢٤
٣٦	انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله	٢٤٢
٣٨	مافرطنا فى الكتاب من شيء	١٨٧
٣٩	والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم . . .	٢٢٤
٤٣	فلولا اذجاءهم بأسنا تضرعوا ـ الى قوله ـ يعلمون	٣٢٩،١٩٦
٤٣	ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون	٢٥٤،٢١١
٤٤	فلما نسوا ماذكروا به ـ الى قوله ـ مبلسون	٣١٥
٤٦	قل أرأيتم ان أخذالله سمعكم . . .	٣٢٢،٢٢٥
٥٣	وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا ...	٢٢٥
٦٢	ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الاله الحكم	١٣٣،١٢٦،١١٤
٦٥	قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم	١٤٣
٧٣	وله الملك يوم ينفخ فى الصور	١٢٦،١٠٧
٧٧	لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين	٤٤٨
٧٨	فلما جن عليه الليل رآى كوكباً ـ الى قوله ـ برىء مما تشركون	٤٢٠
٨٠	ولااخاف ماتشركون به الا ان يشاء ربى شيئاً	٢٢٥

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٨٤-٩٠	كلاهدينا -الى قوله -فبهداهم اقتده	٢٠١،٢٠٣
٨٧	واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم	٢٢٦،٤٤٨
٨٨	ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده	٢٢٦
١٠٠-١٠٤	بديع السماوات -الى قوله- ومااناعليكم بحفيظ	١١١،١٨٧
١٠١	وخلق كل شيء	٢٢٦
١٠٢	ذلكم الله ربكم لااله الاهو خالق كل شيء	١٦٦
١٠٣	لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار	١٨،٩٤،٩٨،١١١
١٠٤	فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها	٢٢٧
١٠٤	ومااناعليكم بحفيظ	١١١
١٠٧	ولوشاءالله مااشركوا	١٦٠،٢٢٦
١٠٨	وكذلك زينالكل امة عملهم	٢٢٦
١٠٩	ومايشعركم انها اذاجاءت لايؤمنون	٢٢٦
١١٠	ونقلب افئدتهم وابصارهم	٢٢٦،٢٤٢،٢٤٦،٢٢٦
١١١	ماكانوا ليؤمنوا الاان يشاءالله	١٥٩،١٩٤،٢٢٦
١١٢	وكذلك جعلنالكل نبى عدواً	٢٢٧
١١٣	ولوشاء ربك مافعلوه	٢٢٧
١٢٣	جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها	٢٢٧،٣٢١
١٢٣	ومايمكرون الابأنفسهم ومايشعرون	٣١٩،٣٢١
١٢٤	سيصيب الذين اجرموا صغار عندالله	٢٢٧،٣١٩،٣٢١
١٢٥	فمن يردالله ان يهديه يشرح صدره	٩،٢٢٧
١٣٣	وربك الغنى ذوالرحمة	١٤٦

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٣٧	ولوشاءالله مافعلوه	٢٢٨
١٤٢	ذلك جزيناهم ببغيهم وانالصادقون	١٦٤
١٤٨	سيقول الذين اشركوا لوشاءالله مااشركنا	١٦٦، ٣٣٠
١٤٩	قل فلله الحجة البالغة	٣٠٥
١٤٩	فلوشاء لهداكم اجمعين	١٦٦، ٢٠٣، ٢٢٨
١٥٣	وان هذا صراطى مستقيما ـ الى قوله ـ عن سبيله	٢٦٠
١٥٧	سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوءالعذاب	١٦٤
١٥٨	اويأتى ربك	١٣٢
١٦٠	من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ـ الى قوله ـ فلايجزى الامثلها	١٠٣، ٣٨٣
١٦٥	وهوالذى جعلكم خلائف ـ الى قوله ـ ليبلوكم	٣٦٧

٧ ـ سورة الاعراف

١١	كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين	٣٢٤
١٦	قال فبما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك	٢٢٨
١٩	ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين	٤١٣
٢٠	فوسوس لهما الشيطان ـ الى قوله ـ الخاسرين	٤١٣
٢١	وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين	٤١٣
٢٢	فدلاهما بغرور ـ الى قوله ـ ألم انهكما . . .	٤١٣
٢٣	قالا ربنا ظلمنا انفسنا . . .	٤١٤، ٤١٦
٢٨	قل ان الله لايأمر بالفحشاء	٢٦٩
٣٠	فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة	٢٢٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٠	ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط	١٠٣
٤٣	ونزعنا مافى صدورهم من غل	٢٢٩
٤٣	الحمدلله الذى هدانا ـ الى قوله ـ ان هدانا الله	١٨١، ٣٣٠، ٤٤٨
٤٦	انهم كانوا قوماً عمين	٣٢٧
٥١	فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا	١٠٧
٥٤	ان ربكم الله ـ الى قوله ـ له الخلق والامر	٨٨، ١٢٥، ١٥٨، ٢٢٩
٥٨	والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه	١٧٩
٦٤	انهم كانوا قوماً عمين	٣٢٧
٨٣	فانجيناه واهله الاامرأته كانت من الغابرين	٢٦٦
٨٩	وماكان لناان نعود فيها الاان يشاءالله	٢٢٩
٩٤	الااخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون	٢٣١
٩٥	ثم بدالهم مكان السيئة الحسنة	٢٣١
٩٦	ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم ـ الى قوله ـ فأخذناهم بماكانوا يكسبون	١٩٦، ٢٣١
٩٩	أفأمنوا مكرالله فلايأمن مكرالله الاالقوم الخاسرون	٣٢١
١٠٠	ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون	٢٣١، ٢٤٣
١٠١	فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل	٢٣١، ٢٧٥
١١٦	سحروا اعين الناس واسترهبوهم	٤٢٩
١١٧	تلقف مايأفكون	١٨٦
١١٨-١٢٢	فوقع الحق ـ الى قوله ـ رب موسى وهارون	٤٢٩، ٤٣٠

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٣٠	ولقد اخذنا آل فرعون ـ الى قوله ـ يذكرون	٢٥٧
١٣١	فاذا جاءتهم الحسنة ـ الى قوله ـ يطيروا بموسى...	١٩٦
١٤٢	وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي...	٤٣٢
١٤٣	رب ارني انظر اليك ـ الى قوله ـ فسوف تراني	٩٢، ٩٩، ٤٣١
١٤٦	سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض	٢٠٦، ٢٣٢
١٤٦	وان يروا كل آية لايؤمنوا بها ـ الى قوله ـ غافلين	٢٣٢
١٤٧	والذين كذبوا ـ الى قوله ـ حبطت اعمالهم	١٠٧
١٥١	واخذ برأس أخيه يجره اليه	٤٣٢
١٥٥	واختار موسى قومه سبعين رجلا ـ الى قوله ـ وانت خير الغافرين	١٠٠، ١٠١، ٢٢٣، ٢٣٢، ٤٣٠
١٥٥	قال رب لوشئت اهلكتهم من قبل واياي	٤٣٠
١٥٥	انهي الافتنتك تضل بها من تشاء وتهدي...	٢٢٣، ٢٣٢، ٤٣٠
١٥٦	ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون	١٠٧، ٣٧٩
١٥٧	انت ولينا فاغفرلنا ـ الى قوله ـ اناهدنا اليك	١٠١
١٦٢	فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء	٢٨٧
١٦٨	وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون	١٩٦، ٢٩٠
١٧٨	من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل...	٢٣٢
١٧٩	ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس	١٥٩، ١٩٣، ٢٣٢
١٨١	وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون	٢٠٠

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٨٢	والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون	٣١٤،٢٣٢
١٨٣	واملى لهم ان كيدى متين	٣٢٠
١٨٦	من يضلل الله فلاهادى له ويذرهم فى طغيانهم	٢٣٣
١٨٧	قل انما علمها عندربى لايجليها لوقتها الاهو	٢٣٣،١٠٢
١٨٨	قل لااملك لنفسى نفعاً ولاضراً الاماشاء الله	٢٣٣
١٩٥	ألهم ارجل يمشون بهاام لهم أيد يبطشون بها	١٥٤،١٤٤

٨- سورة الانفال

١٠	وما النصر الامن عندالله	٢٣٤
١١	وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام	٢٣٤
١٢	اذيوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا ...	٢٣٤
١٧	فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت اذرميت ولكن الله رمى	٣٤٠،٢٣٥،١٠
١٨	ذلكم وان الله موهن كيدالكافرين	٣٢٠
٢٠	اطيعوا الله ورسوله ولاتولوا عنه وانتم تسمعون	١٦٧
٢٢	ان شر الدواب عندالله الصم البكم الذين لايعقلون	٣١٣، ٢٣٥
٢٣	ولوعلم الله فيهم خيراً لاسمعهم...	٢٣٥
٢٤	واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه	٣٢٦،٢٣٦
٢٨	واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة	٣٦٧
٢٩	ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم	٤٠١
٣٠	ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين	٣٢١

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة
٣٣	وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم	٤٣٨
٣٦	فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة	٤٠٣
٣٧	ليميز الله الخبيث من الطيب	٣٦٦،١٧٢
٤٢	ليقضى الله امراً كان مفعولا	٣٣٨،٢٥٢
٤٢	ليهلك من هلك عن بينة	٣٦٦،٢٥٢،١٩٤
٤٨	واذ زين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٣
٤٩	اذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض. . .	٣٢٨
٥١	ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد	٢٥٢
٥٢	هو الذى ايدك بنصره وبالمؤمنين ...	٢٥٢
١٢٥	واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	٣٦٧

٩- سورة براءة

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة
٩	قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ...	٣٣٨
١٦	ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا	٣٦٧
١٧	ما كان للمشركين - الى قوله - حبطت اعمالهم	٣٨٥
١٩	والله لايهدى القوم الظالمين	٢٥٢
٢٤	والله لايهدى القوم الفاسقين	٢٥٢
٣٠	قاتلهم الله أنى يؤفكون	٢٥٥
٣٢	ويأبى الله الا ان يتم نوره ...	٢٥
٣٧	والله لايهدى القوم الكافرين	٢٥٢
٤٠	وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا	٢٥٣

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤٦	ولو ارادوا الخروج لأعدوا لهعدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم . . .	٢٥٣
٥٠	وان تصبك حسنة تسؤهم ...	٢٥٣
٥١	قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا . . .	٢٥٣
٥٤	ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى . . .	٣١٨
٥٥	فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها	٢٥٤
٦٩	اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة	٣٨٥
٧٥-٧٦	ومنهم من عاهد الله -الى قوله- وهم معرضون	٢٥٤
٧٧	فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون	١٠٦،٢٥٤
٧٩	سخر الله منهم ولهم عذاب اليم	٣٢٠
٨٥	ولا تعجبك اموالهم -الى قوله- كافرون	٣١٥
٨٧	وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون	٢٤٣،٢٥٤
٩٣	وطبع على قلوبهم فهم لايعلمون	٢٥٥،٣٢٤
١٠٢	وآخرون اعترفوا بذنوبهم -الى قوله- غفور رحيم	٣٧٠
١١٤	وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة ...	٤٢١
١٢٤	واذا ما انزلت سورة -الى قوله- وهم كافرون	٢٨٤
١٢٥	واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم	٣٢٨
١٢٦	اولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة اومرتين	٣٠٠

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٢٧	ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم . . .	٢٥٤

١٠- سورة يونس

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٣	ثم استوى على العرش يدبر الامر	١٢٥
٤	الى الله مرجعكم جميعاً . . .	١٣٢
٥	يفصل الآيات لقوم يعلمون	٢٥٥
٦	لايات لقوم يتقون	٢٥٥
٩	يهديهم ربهم بايمانهم . . .	٢٦٤
١١	فنذر الذين لايرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون	٢٥٥
١٢	كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون	٢٥٥
١٩	ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ...	٢٥٥
٢١	قل الله اسرع مكراً . . .	٣٢١
٢٢	هو الذى يسيركم في البر والبحر	٢٥٦
٢٥	والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء ...	٢٥٦
٢٦	للذين احسنوا الحسنى وزيادة ...	٩٣،٩٥،١٠٣
٢٧	جزاء سيئة بمثلها ...	١٠٣،٣٨٢
٣٢	فماذا بعد الحق الا الضلال	٢٣٣
٣٣	كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لايؤمنون	٢٥٦
٤٢-٤٣	ومنهم من يستمعون اليك -الى قوله- لايبصرون	٢٥٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦١	ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة . . .	١١١
٧٤	كذلك نطبع على قلوب المعتدين	٣٢٤
٨٥	ربنا لاتجعلنافتنة للقوم الظالمين	٢٥٧
٨٨	ربنا انك آتيت فرعون وملأهُ زينة ...	٢٥٧، ٤٣٠
٨٨	ربنا اطمس على اموالهم ـ الى قوله ـ العذاب الاليم	٢٦٧
٨٩ـ٩١	قد اجيبت دعوتكما ـ الى قوله ـ من المفسدين	٢٥٧
٩٥	ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله	٢٥٨
٩٦	ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون	٢٥٨
٩٩	ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً	١٧٢، ٢٥٨
١٠٠	وماكان لنفس ان تؤمن الاباذن الله	٢٥٨
١٠٨	فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه . . .	٢٠٧

١١ـ سورة هود

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧	وكان عرشه على الماء	١٢٦
٧	ليبلوكم ايكم احسن عملا	٣٦٨
١٤	فاعلموا انما انزل بعلم الله	٨٥
١٥	من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها ...	٢٨١
٢٠	ماكانوا يستطيعون السمع ...	٢٥٨
٢٥	ولقد ارسلنا نوحاً الى قومه	٢٨٦
٢٨	فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون	١٦٨
٢٩	انهم ملاقوا ربهم	١٣٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٣	لاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم	١٦٨
٣٦	انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن	٤١٩،٢٧٥
٣٧	واصنع الفلك بأعيننا ووحينا	١٤٩
٣٧	ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون	٤١٩
٣٨	قالوا ان تسخروا منا فانا نسخر منكم	٣٢٠
٤٢	يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين	٤١٩
٤٥-٤٧	رب ان ابنى من اهلى -الى قوله -أكن من الخاسرين	٤١٩
٤٨	وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم	٣١٥
٧٤	يجادلنا فى قوم لوط	٤٢٢
١٠٥	يوم لاتكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد	٣٥٤،٢٥٩
١٠٦	فاما الذين شقوا ففى النار	٤١٤
١ ٧	ان ربك فعال لما يريد	٢٥٩،١٨٨،١٥٨
١١٤	ان الحسنات يذهبن السيئات	٣٩٧،٣٩٥،٣٧٤ ٤٠٠،٣٩٩
١١٨	ولوشاء ربك لجعل الناس امة واحدة- الى قوله- وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم	٢٦٠
١٢٣	واليه يرجع الامر كله	٢٦١

١٢- سورة يوسف

٣	وان كنت من قبله لمن الغافلين	٤٤٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٣	وراودته التى هوفى بيتها ـ الى قوله ـ معاذالله	٤٢٣
٢٤	ولقد همت به وهم بها لولا ان رآى برهان ربه	٤٢٢
٢٤	كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء	٤٢٢،٢٦١
٣٢	ولقد راودته عن نفسه فاستعصم	٤٢٣
٣٣	وان لاتصرف عنى كيدهن ...	٢٦١
٣٤	فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن	٢٦١
٥٣	الامارحم ربى	٢٦١
٦٧	ان الحكم الالله	٢٦٢
٦٨	الاحاجة فى نفس يعقوب قضاها	٣٣٤
٧٦	كذلك كدنا ليوسف	٣٢١
٨٧	ولاتيأسوا من روح الله ، انه لاييأس من روح الله الاالقوم الكافرون	٣٤٠

١٣ـ سورة الرعد

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢	ثم استوى على العرش ـ الى قوله ـ يدبر الأمر	١٢٥
٧	انما انت منذر ولكل قوم هاد	٢١٨
١١	ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم	٢٧١،٢٦٢
١١	واذاارادالله بقوم سوءافلامرد له	٢٦٢،١٦٨
١٤	وما دعاء الكافرين الافى ضلال	٤٤٢
١٥	ولله يسجد ـ الى قوله ـ طوعاً اوكرهاً	٢٦٢
١٦	ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ...	١٩١،١٥٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	قل الله خالق كل شيء	٢٦٣،١٥٧
١٧	اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض	٤٤٢
٢٧	قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من اناب	٢٠٦
٢٨	الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله تطمئن القلوب	٢٤١
٣١	أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً	٢٦٣،٢٦٠،٢٠٣
٣٢	ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت ...	٣١٥
٣٩	يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب	٣٤٩
٤١	والله يحكم لامعقب لحكمه	٢٤٦
٤٢	فلله المكر جميعاً	٣٢٠

١٤- سورة ابراهيم

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم	٢٦٣
٤	فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء	٢٦٣،٢٠٢
٧	لئن شكرتم لأزيدنكم	١٩٦
٨	ان تكفروا ـ الى قوله ـ فان الله لغني حميد	١٦٧
١١	ولكن الله يمن على من يشاء من عباده	٢٦٣
١٢	ومالنا أن لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا	٢٦٣
١٨	مثل الذين كفروا اعمالهم كرماد اشتدت به الريح	٣٨٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢١	قالوا لوهدانا الله لهديناكم	٢٦٤
٢٢	وقال الشيطان لماقضى الامر ـ الى قوله ـ عذاب اليم	٢٦٤،٢٩٧
٢٥	كشجرة طيبة ـ الى قوله ـ باذن ربها	١٧٩
٢٧	يثبت الله الذين آمنوا ـ الى قوله ـ الظالمين	٢٦٤،٢٠٦
٣٢	وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره	٢٦٤
٣٥	واجنبنى وبنى ان نعبد الأصنام	٢٦٥
٤٠	رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى	٢٦٥
٥١	لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت	٢٨٤

١٥ - سورة الحجر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل	٣١٦
٦	ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون	٢٤٧
١٢ـ١٣	كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لايؤمنون به	٢٩٥
١٩ـ٢٢	والارض مددناها ـ الى قوله ـ بخازنين	٢٦٥
٢١	وان من شىء الاعندنا خزائنه وماننزله الابقدر معلوم	٢٦٤،١٤٠،١٣٠،١٢٩
٣٩	قال رب بما اغويتنى لازينن لهم ـ الى قوله ـ اجمعين	٢٦٤
٤٢	ان عبادى ليس لك عليهم سلطان	٤١٣
٤٧	ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين	٢٦٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٠	الاامرأته قدرنا انها لمن الغابرين	٢٦٦،٣٣٥
٦٦	وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع	٢٦٦،٣٣٣
٨٥	وماخلقنا السموات والارض ومابينهما الابالحق	١٨٨
٨٨	واخفض جناحك للمؤمنين	٤٤٧
٩٤	واعرض عن المشركين	٤٤٧

١٦- سورة النحل

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩	وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولوشاء لهداكم اجمعين	٢٦٠،٢٦٦
١٧	افمن يخلق كمن لايخلق	١٨٨
٢٠	والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئاً	١٥٨
٢٦	قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد	٣١٩
٣٠	للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير	٣٨٣
٣٣	اويأتى امر ربك ...	١٣٢
٣٥	وقال الذين اشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه	٢٦٧
٣٦	ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ـ الى قوله ـ حقت عليه الضلالة	٢٦٧
٣٧	ان تحرص على هداهم فان الله لايهدى من يضل	٢٣٣،٢٦٧
٤٠	انما قولنا لشىء اذا اردناه ان نقول له كن ...	١٦٩
٤٣	فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون	١٣٧
٤٥	افأمن الذين مكروا السيئات	١٣١

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤٩	اولم يروا الى ماخلق الله من شيء ـ الى قوله ـ داخرون	٢٦٢
٥٠	يخافون ربهم من فوقهم	١١٤، ١٣١
٥٣	ومابكم من نعمة فمن الله	٢٦٨
٦٣	فزين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٣
٧٥	ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لايقدر على شيء	٢٦٨
٨١	والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ...	١٨٤
٨٩	تبياناً لكل شيء	١٨٧
٩٣	ولوشاء لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء	٢٦٨
٩٦	ولنجزين الذين صبروا اجرهم ...	١٦٤
٩٩ـ١٠٠	انه ليس له سلطان على الذين آمنوا ـ الى قوله ـ مشركون	٢٧٠
١٠٢	قل نزله روح القدس من ربك	١١٧
١٠٤	ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله	٢٠١، ٢٦٩
١٠٨	اولئك الذين طبع الله على قلوبهم ...	٣٢٣، ٣٢٤
١١٩	ثم ان ربك للذين عملوا السوء ـ الى قوله ـ لغفور رحيم	٣٩٩

١٧ ـ سورة الاسراء

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤	وقضينا الى بني اسرائيل ـ الى قوله ـ علواً كبيراً	٢٦٩، ٣٣٣
٥	بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس	٢٦٩
٩	ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم	٢٠١

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٢	وكل شيء فصلناه تفصيلا	٢٧٠
١٣-١٤	وكل انسان الزمناه طائره في عنقه	٢٧٠
١٥	من اهتدى فانما يهتدي لنفسه	٢٧٠
١٦	واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ...	٢٧٠
١٨	من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ...	٢٨١
١٩	ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها ...	١٦٣، ٢٠٢
٢٣	وقضى ربك ان لاتعبدوا الا اياه	٢٨١، ٢٢٣، ٣٣٥
٢٢	لاتجعل مع الله الهاً آخر	٤٤٥
٤٠	انكم لتقولون قولا عظيماً	٢٩٠
٤٥	واذا قرأت القرآن جعلنا بينك	٢٨١
٤٦	اناجعلنا على قلوبهم اكنة ...	٢٤٣، ٣٢٥
٤٨	فضلوا فلايستطيعون سبيلا	٢٨٢
٥٤	ومارسلناك عليهم وكيلا	٢٨٦
٦٩	ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك	١٥٠
٧٣	وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك ...	٤٤٠
٧٤	ولولا ان ثبتناك لقدكدت تركن اليهم ...	٢٨٢
٨٢	وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين	٢٨٤
٩٤	ومامنع الناس ان يؤمنوا اذجاءهم الهدى	١٦٥، ٢١٢
١٠٥	اولئك الذين كفروا ـ الى قوله ـ فحبطت اعمالهم	٣٨٥

١٨- سورة الكهف

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١	الحمدلله الذى انزل على عبده الكتاب	١١٧
٧	ليبلوهم ايهم احسن عملا	٣٦٨
١٣-١٤	انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم	٢٢٦،٢٨٤
١٧	من يهد الله فهو المهتدى ...	٢٨٤
٢٣	ولاتقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله	٢٣١،٢٨٤
٢٨	واصبر نفسك ـ الى قوله ـ يريدون وجهه	١٤٣،٢٨٥
٢٨	ولاتطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه	٢١٢،٢٢٣،٣٢٦
٢٩	فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر	١٦٥،١٩٤،٢٨٥
٣٠	انالانضيع اجر من احسن عملا	٣٧٩،٣٨٣
٣٢	جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب	١٨٤
٤٤	هنالك الولاية لله الحق	١٢٦
٤٧	ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة	١٢٥
٤٨	وعرضوا على ربك صفاً	١١٤،١٣٤
٥٧	اناجعلنا على قلوبهم اكنة ...	٢٨٥
٧٧	فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض	٢٧١
١٠١	الذين كانت اعينهم فى غطاء عن ذكرى	٢٥٩،٢٨٥
١٠٥	الذين كفروا ـ الى قوله ـ فحبطت اعمالهم	١٠٧،٤٨٦

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة

١٩- سورة مريم

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة
٤	ولم اكن بدعائك رب شقياً	٣٦٤
٦	واجعله رب رضيا	٢٨٥
١٣	وحنانا من لدناوزكوةوكان تقياً	٢٨٦
١٩	لأهب لك غلاماً زكياً	٢٨٦
٢١	وكان امراً مقضياً	٣٤٠
٣٠	آتانى الكتاب وجعلنى نبياً	٣٦٢
٣١	وجعلنى مباركاً اينما كنت	٣٦٢،٢٨٦
٣٢	وبراًبوالدتىولم يجعلنى جباراًشقياً	٣٦٣،٣٦٢،٣٦١
٣٣	والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ...	٣٦٣،٣٦٢
٤٧	سلام عليك ساستغفر لك ربى	٤٢١
٥٧	ورفعناه مكاناً علياً	١٣٠
٦٣	تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً	٣٧٩
٦٤	ومانتنزل الابامر ربك	١١٧
٧١	ان منكم الاواردها كان على ربك حتماً مقضياً	٣٤١
٧٦	ويزيدالله الذين اهتدوا هدى	٢٨٧،٢٢٨،٢١٠،٢٠١
٨٣	ألم ترانا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً	٢٩٩،٢٨٧،٢٨٦،٢٦٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

٢٠- سورة طه

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	طه ماانزلنا عليك القرآن لتشقى	٣٥١، ٤١٦
٥	الرحمن على العرش استوى	١١٣، ١٢٣، ١٣٠
٨	اللهلااله الاهوله الاسماء الحسنى	١٢٥
١٥	لتجزى كل نفس بما تسعى	١٦٤، ٣٨٤
٢١	قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الاولى	٤٢٨
٢٢-٢٥	اذهب الى فرعون - الى قوله - قداوتيت سؤلك ياموسى	٢٨٧، ٤٢٧
٣٩	والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى	١٤٩
٤٠	وفتناك فتوناً	٣٦٨
٤٦	اننى معكما اسمع وارى	٩٤
٥٠	ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى	١٩٩، ٢٠٣، ٢٦٦، ٢٨٨
٦٦	فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى	٤٢٩
٦٧	فأوجس فى نفسه خيفة موسى	٤٢٩
٦٩	تلقف ماصنعوا	١٨٦
٦٨-٦٩	قلنالاتخف انك انت الاعلى-الى قوله- ولايفلح الساحر حيث اتى	٤٢٩
٨٢	وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً	٣٩٩
٨٥	فانا قدفتنا قومك من بعدك ...	٣٦٨
٨٧	ولكن حملنا اوزاراً من زينة القوم	٤٥٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩٠	وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا امرى	١٦٧
٩٢	قال ياهارون مامنعك اذرأيتهم ضلوا ان لاتتبعن	٤٣١
١١٤	من قبل ان يقضى اليك وحيه	٣٤٠
١١٥	ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ..	٤١٤
١١٧	قلنا ياآدم ان هذا عدولك - الى قوله - فتشقى	٣٥١، ٤١٤
١١٩	قال ياآدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لايبلى	٤١٤
١٢٠	وعصى آدم ربه فغوى	٤١٤
١٢٤-١٢٧	ومن اعرض عن ذكرى - الى قوله - اشدوابقى	٢٠٢

٢١- سورة الانبياء

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦-١٨	وماخلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين - الى قوله - تصفون	٢٨٨
١٨	بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه	٢٥١، ٢٥٣، ٤٤٢
١٨	ولكم الويل مماتصفون	٢٩٠
٢٣	لايسأل عمايفعل وهم يسألون	٢٨٨
٣٥	ونبلوكم بالشر والخير فتنة	٢٩٠، ٣٦٨
٦٣	بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ...	٤٢٠
٧٢	وكلاجعلنا صالحين	٢٩١
٧٣	و جعلناهم ائمة يهدون بأمرنا	٢٠٠
٨٣	وايوب اذنادى ربه انى مسنى الضر	٤٢٤
٨٧	وذا النون اذ ذهب مغاضباً ...	٤٣٨
٩٠	ووهبناله يحيى واصلحناله زوجه	٢٩١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩٤	فمن يعمل ـ الى قوله ـ فلا كفران لسعيه	١٦٤، ٣٨٤
٩٨	انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم	٢٩١
١٠١	ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون	٢٩١

٢٢- سورة الحج

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٨-١٠	ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ـ الى قوله ـ بظلام للعبيد	١٩٨
١١	ومن الناس من يعبد الله على حرف ...	٢٩٠
١٤	ان الله يفعل مايريد	٢٩١
١٦	وان الله يهدى من يريد	٢٩١
١٨	ان الله يفعل مايشاء	٢٩١
٣٤	ولكل امة جعلنا منسكاً ليذكروا الله	٢٩٢
٣٦	والبدن جعلناها لكم من شعائر الله	٢٩٢
٤٠	ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض	٢٩٢
٤٤	فامليت للكافرين	٣١٥
٤٦	فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور	١٣٧، ١٦٨، ٣٢٧
٤٨	وكأين من قرية امليت لها ...	٣١٥
٥٢	ومارسلنا من قبلك من رسول ولانبى الااذا تمنى القى الشيطان فى امنيته ...	٤٣١، ٤٤٢
٥٣	ليجعل مايلقى الشيطان فتنة	٣٢٨، ٣٦٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٦	الملك يومئذلله يحكم بينهم	١٠٧
٦٧	لكل امة جعلنامنسكاً هم ناسكوه	٢٩٢

٢٣- سورة المؤمنون

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٤	فتبارك الله احسن الخالقين	١٦٠، ١٩٢
٢٧	فاوحينااليه اناصنع الفلك باعيننا ووحينا	١٤٩
٣٧	ان هي الاحياتناالدنيا نموت ونحيي ومانحن بمبعوثين	٣٨٧
٥٤-٥٦	فذرهم في غمرتهم - الى قوله - بل لا يشعرون	١٥، ٣١٥
٥٥	فذرهم في غمرتهم حتى حين	٣١٥
٨٨	وهويجير ولايجار عليه ان كنتم تعلمون	١٥١
٩٤	رب فلاتجعلني في القوم الظالمين	٢٩٢
١٠١	فلاانساب بينهم يومئذ ولايتساءلون	١٠٧
١٠٥	ألم تكن آياتي تتلى عليكم...	٣٥٨، ٣٥٩
١٠٦	قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا	٣٥٢، ٣٥٨
١٠٨	قال اخسؤوا فيها ولاتكلمون	٣٦٠

٢٤- سورة النور

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	سورة انزلناها وفرضناها - الى قوله - بينات	١١٧
٢٥	ويعلمون ان الله هو الحق المبين . . .	١٠٧
٣٥	الله نور السموات والأرض	١١٥، ١٣٤
٤٣	الم تر ان الله يزجي سحاباً...	١٨٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٠	افى قلوبهم مرض ام ارتابوا ...	٣٢٨

٢٥- سورة الفرقان

٢	وخلق كل شيء فقدره تقديرا . . .	٣٣٤،١٥٧
١٨	ولكن متعتهم وآبائهم حتى نسواالذكر وكانوا قوماً بورا ...	٢٩٣
١٨	حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً . ..	٢٩٤
٢٠	وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرونَ	٣٦٨
٢٣	وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا	٣٨٦،٣٧٨
٣١	وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ـ الى قوله ـ ونصيرا	٢٩٣
٣٢	كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ...	٢٩٣
٤٤	ام تحسب ان اكثرهم يسمعون ـ الى قوله ـ اضل سبيلا	٢٩٣
٥٩	ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض و ما بينهما	١٥٨
٥٩	خلق السموات والارض وما بينهما ...	١٨٨
٥٩	ثم استوى على العرش الرحمن	١٨٨،١٢٥،١١٤
٧٠	فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات	٤٠٢
٧٤	واجعلنا للمتقين اماماً ...	٢٩٤

٢٦- سورة الشعراء

١٠-١٥	واذنادى ربك موسى ـ الى قوله ـ انا معكم مستمعون	٤٢٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٩	وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين	٤٢٧
٢٠	قال فعلتها اذاً وانامن الضالين	٤٢٧،٤٤٨
٢١	فوهب لى ربى حكماً	٢٩٤
٢٢	وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل	٤٢٧
٢٤	رب السموات والارض وما بينهما	١٨٨
٦٤	وازلفنائم الاخرين	٢٩٤
٧٨	الذى خلقنى فهو يهدين	٢٩٤،٤٤٨
٨٣	رب هب لى حكماً والحقنى بالصالحين	٢٩٤
٨٦	واغفر لابى انه كان من الضالين	٤٢٢
١٠٦-١١١	اذقال لهم اخوهم نوح الاتتقون ـ الى قوله ـ الأرذلون	٢٠٦
١٢٥	واخفض جناحك	٤٤٧
١٩٣	نزل به الروح الأمين على قلبك	١١٧
٢٠٠-٢٠١	كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين ـ الى قوله ـ الأليم	٢٩٥
٢١٠-٢١٢	وما تنزلت به الشياطين ـ الى قوله ـ لمعزولون	٢٩٦
٢٢١-٢٢٢	هل انبؤكم على من تنزل ـ الى قوله ـ افاك اثيم	٢٩٦

٢٧-سورة النمل

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	ان الذين لايؤمنون بالاخرة زينالهم اعمالهم	٢١٣،٢٩٦
١٠	انى لايخاف لدى المرسلون	٤٢٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	الا من ظلم ثم بدل حسنا بعدسوء	٣٩٩
١٨	ماانت بهادالعمى عن ضلالتهم ـ الى قوله ـ مسلمون	٢٩٨
٢٤	وزين لهم الشيطان اعمالهم ـ الى قوله ـ لايهتدون	٢٩٧،٢١٣
٣٥	فناظرة بم يرجع المرسلون	٩٢
٤٠	فان ربى غنى كريم	١٤٦
٤٧	بل انتم قوم تفتنون	٣٦٩
٥٠	و مكروامكراً ومكرنامكراً وهم لايشعرون	٣٢١،٢٩٧
٥١	فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ـ الى قوله ـ اجمعين	٢٩٧
٨٠	انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء ـ الى قوله ـ ولوا مدبرين	٢٩٤،٢٤٢،٢١٤ ٣١٣،٢٩٨
٨٩	من جاء بالحسنة فله خير منها	٣٨٣

٢٨ ـ سورة القصص

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٨	فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً...	٢٢٧،٢٢٠،١٩٣ ٢٥٧،٢٣٢
١٠	لولاان ربطنا على قلبها ...	٢٩٨
١٥	فوكزه موسى فقضى عليه ...	٣٣٣
١٥	قال هذا من عمل الشيطان ...	٤٢٤
١٦	قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله	٤٢٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٩	فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله	٣٣٣
٣٣-٣٥	قال رب انى قتلت منهم - الى قوله - الغالبون	٤٢٨، ٤٢٩
٤٠	فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم	٢٩٩
٤١	وجعلناهم أئمة يدعون الى النار	٢٩٩٩
٤٤	اذقضينا إلى موسى الأمر	٣٤٠
٥٦	انك لاتهدى من احببت - الى قوله - بالمهتدين	٢٠١، ٢٩٩
٥٧	يجبى اليه ثمرات كل شىء	١٨٧
٥٩	وماكنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون	٢٧١
٦٨	وربك يخلق مايشاء ويختار	٢٩٩
٧٠	له الحكم واليه ترجعون	١٣٣
٧٩	انه لذو حظ عظيم	٣٦٥
٨٤	من جاء بالحسنة فله خير منها	٣٨٣
٨٨	كل شىء هالك الا وجهه	١٣٣، ١٤٢، ١٤٧

٢٩ - سورة العنكبوت

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١-٢	الم . احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون	٣٠٠، ٣٦٩
٣	ولقد فتنا الذين من قبلهم	٣٠٠
٧	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم	٤٠١

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٣٢	لننجينه واهله الاامرأته كانت من الغابرين	٢٦٦
٣٨	وزين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٣
٤٥	ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ...	٤٠٠
٦٩	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ...	١٩٠، ٢٠١، ٢٠٤، ٣٠٠
١٣٠	ومن ذريتنا امة مسلمة ...	١٩٠

٣٠- سورة الروم

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٢	واختلاف السنتكم والوانكم	١٥٨، ١٨٩
٢٥	ومن آياته ان تقوم السماء والارض بامره	٨٧
٣٨	للذين يريدون وجه الله	١٤٣
٣٩	وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله	١٤٣، ١٤٩
٤١	ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس	١٦٥
٤٨	الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا	١٨٤
٥٢	فانك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين	٢٤٢
٥٩	كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون	٣٠٠، ٣٢٤

٣١- سورة لقمان

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٧	واذا تتلى عليهم آياتنا ـ الى قوله ـ وقرا	٣٠٠، ٣٠٤

٣٢- سورة السجدة

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤	ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولاشفيع	١١٤
٥	ثم استوى على العرش ... يدبر الأمر من السماء الى الأرض	١١٣، ١٢٥، ١٣٠
٦-٧	ذلك عالم الغيب والشهادة - الى قوله - كل شيء خلقه	١٣١
١٠	وقالوا ءاذا ضللنا فى الارض - الى قوله - بلقاء ربهم كافرون	١٣٤
١١	قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم	١٣٢
١٢	ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم - الى قوله - انا موقنون	١١٤، ١٣٤، ٣٠١
١٣	ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها	١٥٨، ١٩٤
١٣	ولكن حق القول منى لأملئن جهنم من الجنة والناس اجمعين	١٩٤، ٣٠١
١٤	فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم	١٣٤، ١٩٤، ٣٠١
١٧	فلاتعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون	١٠٦

٣٣- سورة الاحزاب

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١	يا ايها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين	٤٤٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	والله يقول الحق و هويهدى السبيل	١٧٣، ٢٠٠
١١	هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوازلزالاً شديدا	٣٦٩
١٧	قل من ذاالذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءاً اواراد بكم رحمة	١٦٨
١٩	اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم	٣٨٥
٢٣	فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر	٣٣٣
٣٣	انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس ـ الى قوله ـ تطهيرا	٣٠١، ٣٣٤، ٣٣٨
٣٦	وما كان لمؤمن ولامؤمنة اذاقضى الله ـ الى قوله ـ الخيرة من امرهم	٣٠٢، ٣٣٣، ٣٣٥
٣٧	وتخفى فى نفسك ماالله مبديه ـ الى قوله ـ احق ان تخشاه	٣٠٢، ٤٤٣
٣٧	وكان امرالله مفعولا	٣٠٢، ٣٣٨
٣٧	فلما قضى زيد منها وطراًزوجناكها	٣٣٤
٣٨	وكان امرالله قدراً مقدوراً	٣٠٢، ٣٣٨
٤٣	ليخرجكم من الظلمات الى النور	٣٠٢
٤٤	تحيتهم يوم يلقونه سلام واعدلهم اجراً كريما	٩٣، ١٠٦

٣٤ـ سورة سباء

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥	اولئك لهم عذاب من رجز اليم	٢٦٤
١٦	فارسلنا عليهم سيل العرم	٢٨٧
١٨	قدرنا فيها السير	٣٣٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٨	وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيراً	٢١١
٥٠	وان اهتديت فبمايوحى الى ربى	٤٤٨

٣٥- سورة فاطر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣	هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض	١٥٨
٨	فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء	٣٠٢
٨	فلا تذهب نفسك عليهم حسرات	٢١٨
١٠	اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه	١٣٠،١١٣
١٠	ومكر اولئك هو يبور	٣٢١
١١	وما تحمل من انثى ولاتضع -الى قوله- يسيراً	٣٣٩،٨٥
١٥	يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد	٢٦١،١٤٦
٢٢-٢٣	ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع -الى قوله- نذير	٣٠٢
٢٤	وان من امة الا خلا فيها نذير	٢٥٨
٢٨	انما يخشى الله من عباده العلماء	٤٥١
٣٠	ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله	١٠٣
٤٣	ولايحيق المكر السيء الا بأهله	٣٢١،٣١٩،٣١٨

٣٦- سورة يس

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩	انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى -الى قوله- لايبصرون	٣٠٣

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٥	ومالى لا اعبد الذى فطرنى واليه ترجعون ـ الى قوله ـ فاسمعون	١٠٠
٣٩	والقمر قدرناه منازل ...	٣٣٤
٤٩	ما ينظرون الاصيحة واحدة ...	٩١
٥٨	سلام قولا من رب رحيم	١١٨
٧١	اولم يروا انا خلقنالهم مما عملت ـ الى قوله ـ لها مالكون	١٥١
٨٢	انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون	١٨٨،١٦٨
٨٣	فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون	١٥١

٣٧- سورة الصافات

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٨	لايسمعون الى الملاء الاعلى ـ الى قوله ـ من كل جانب	٢٩٦
٨٩	فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم ...	٤٢٠
٩٦	اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ...	١٥٧
٩٦	والله خلقكم وما تعملون ...	١٨٥
٩٨	فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين ...	٢٩٧
٩٩	انى ذاهب الى ربى سيهدين ...	٤٤٨
١٠٦	ان هذا لهو البلاء المبين ...	٣٦٩
١٢٥	اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين ...	١٩٢
١٣٥	اذنجيناه وأهله اجمعين الاعجوزاً فى الغابرين ...	٢٦٦

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة

٣٨ـسورة ص

٢١	وهل اتاك نبؤ الخصم اذتسوروا المحراب ـ الى قوله ـ وحسن مآب	٤٣٣
٢٦	ياداود اناجعلناك خليفة...	٤٣٥
٣٢	انى احببت حب الخير عن ذكر ربى ...	٤٣٦
٣٤	ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسداً ثم اناب	٤٣٦،٣٦٨
٣٥	وهب لى ملكاً لاينبغى لاحد من بعدى...	٤٣٦
٤١	واذكر عبدنا ايوب اذنادى ربه ـ الى قوله ـ وعذاب	٤٢٣،٤١٧
٤٥	واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ـ الى قوله ـ والابصار	١٥١
٤٥	اولى الايدى والابصار	١٥٢
٧٥	ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى	١٤١،١٥١

٣٩ـسورة الزمر

٣	ما نعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى...	١٣٦
٣	ان الله لايهدى من هو كاذب كفار	٢٠١
٧	ان تكفروافان الله غنى عنكم ـ الى قوله ـ لعباده الكفر	١٦٧
١٠	للذين احسنوا فى هذه الدنيا	٣٨٣

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٧	والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها	٣٩٠
١٨	الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ـ الى قوله ـ اولو الالباب	٢٠١
١٩	أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذمن فى النار	٣٠٣
٢١	ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما	١٨٤
٢٢	أفمن شرح الله صدره للاسلام فهوعلى نورمن ربه	٣٠٣
٢٣	ومن يضلل الله فماله من هاد	٢٩٥
٣٣-٣٥	والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون	٤٠١
٣٦	ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهدالله فما له من مضل	٣٠٣
٣٧	ومن يهد الله فماله من مضل	٢٣٠،١٩٩
٤٢	الله يتوفى الانفس حين موتها	١٣٢
٤٢	فيمسك التى قضى عليه الموت	٣٤٠
٤٩	فاذامس الانسان ضردعانا ـ الى قوله ـ لايعلمون	٣٦٩
٥١	فاصابهم سيئات ما كسبوا	١٦٤
٥٣	لاتقنطوا	٣٨٠
٦٢	الله خالق كل شىء وهوعلى كل شىء وكيل	١٧٤،١٥٧
٦٥	لئن اشركت ليحبطن عملك	٤٤٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٧	والارض جميعا قبضته...	٢٤٠
٦٩	واشرقت الارض بنورربها ...	١٣٤
٧٣-٧٤	حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها - الى قوله- اجر العاملين	٢٧٧ـ٨

٤٠-سورة غافر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧	ربناوسعت كل شيء رحمة وعلما	١٢٧
١٥	رفيع الدرجات ذوالعرش - الى قوله - يوم التلاق	١٠٦، ١٢٥، ا
١٦	لمن الملك اليوم لله الواحدالقهار	١٠٧، ١٢٦، ٢٤٥
١٦	يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء	٢٤٦
١٧	اليوم تجزى كل نفس بماكسبت لاظلم اليوم	١٦٥، ٣٨٤
٢٠	والله يقضي بالحق	٣٤٠
٢٩	ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض - الى قوله- ان جاءنا	١٠٧
٣١	وماالله يريد ظلما للعباد	١٦٠، ٢٠٦، ٢٢٥
٣٥	كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار	٣٢٤
٣٧	وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل	٣٠٤
٣٧	فاطلع الى اله موسى	١٣١
٣٦-٣٧	ياهامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ - الى قوله - لأظنه كاذبا	١١٣
٣٨	ياقوم اتبعوني اهدكم سبيل الرشاد	٢٦٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٨	ياقوماتبعونى اهدكم سبيل الرشاد	٢٦٠
٤٠	من عمل سيئة فلايجزى الامثلها	٣٨٢
٥١	انالننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحيوةالدنيا	٤٤٢
٥٥	ليغفر لكالله ماتقدم من ذنبك وماتأخر	٤٤٩
٦٢	ذلكمالله ربكم خالق كل شىء لااله الاهو	١٥٧
٧٣-٧٤	ثم قيل لهم اين ماكنتم تشركون ـ الى قوله ـ من قبل شيئا	٣٦٠
٧٨	فاذاجاء امر الله قضى بالحق و خسرهنالك المبطلون	١٣٢
٨٥	فلم يك ينفعهم ايمانهم لمارأوابأسنا	٢٥٧

٤١ـ سورة فصلت

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١-٢	حم تنزيل منالرحمن الرحيم	١١٧
٤-٥	فاعرض اكثرهم فهم لايسمعون ـ الى قوله ـ اننا عاملون	٢١١،٢٨٢،٣٢٥
٥	وقالوا قلوبنا فى اكنة ممانتدعونا اليه ـ الى قوله . حجاب	٣٠٤،٣٢٥
٦	قل انما انابشر مثلكميوحى الى ـ الىقوله ـ للمشركين	٣٢٥
١٠	و قدرفيها اقواتها فى اربعة ايام	٣٣٤
١١	ثم استوى الى السماء وهى دخان	١١٤،١٣٢
١١	فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أوكرهاً قالتا أتينا طائعين	١٧٣
١٢	فقضاهن سبع سموات	٣٣٣
١٥	اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة	٨٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	فارسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى ايام نحسات	٢٨٧
١٧	واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى	١٧٣،١٩٩،٢٠٨
٢٥	وقيضنالهم قرناء ـ الى قوله ـ عليهم القول	٣٠٤
٣٠ـ٣١	ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ الى قوله ـ وفى الاخرة	١٩٠،٢٠٢
٣٥	ومايلقاها الاذوحظ عظيم	٣٦٥
٤٢	تنزيل من حكيم حميد	١١٧
٤٤	والذين لايؤمنون فى آذانهم و قروهو عليهم عمى ...	٣٠٤
٤٧	وماتحمل من انثى ولاتضع الابعلمه	٨٥

٤٢ـسورة الشورى

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٨	ولوشاءالله لجعلهم امة واحدة	٣٠٤
١١	ليس كمثله شىء و هوالسميع العليم	٩٨،١٢٠،١٢٢
١٣	شرع لكم من الدين ماوصى به ـ الى قوله ـ ولا تتفرقوافيه	٢٦٠
١٥	لاحجة بيننا و بينكم	٣٠٤
١٥ـ١٦	و قل آمنت بما انزل الله من كتاب ـ الى قوله ـ عذاب شديد	٣٠٥
٢٠	من كان يريد حرث الاخرة نزدله فى حرثه و من كان يريد حرث الدنيانؤته منها و ماله فى الاخرة من نصيب	٣٧٩،٣٨٨
٢١	ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم	٣٣٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٣	من يقترف حسنة نزدله فيها حسنا	٣٨٣
٣٧	والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ماغضبوا هم يغفرون	٣٩٠
٤٠	وجزاء سيئة سيئة مثلها	٢٥٥،٣١٩،٣٨٢
٤٤	ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده	٣٠٥
٤٨	فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الاالبلاغ	٢١٦
٤٨	ان عليك الاالبلاغ	٢١٨
٥١	وما كان لبشران يكلمه الله الا وحيا ـ الى قوله ـ فيوحى باذنه مايشاء	١١٤
٥١	اومن وراء حجاب اويرسل رسولا	١٣٣
٥٢	وانك لتهدى الى صراط مستقيم	٢٠٠،٢١٨
٥٢	ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ـ الى قوله ـ مستقيم	٣٠٥
٥٢	ما كنت تدرى ماالكتاب و لا الايمان	٤٤٨
٥٣	الا الى الله تصير الأمور	٢٦١

٤٣ ـ سورة الزخرف

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٣	سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين	١٨١
٢٠	وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ـ الى قوله ـ يخرصون	١٦٧،٢٦٤،٢٦٧،٣٠٥
٢٠	مالهم بذلك من علم انهم الايخرصون	٣٠٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٧	الذى فطرنى فانه سيهدين...	٤٤٨
٣٣-٣٥	ولولا ان يكون الناس امة واحدة ـ الى قوله ـ للمتقين	٣١٦
٣٦	ومن يعش عن ذكر الرحمن ـ الى قوله ـ له قرين	٣٠٦
٤٠	أفأنت تسمع الصم اوتهدى العمى ...	٣٠٦
٧١	وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ...	١٠٦
٧٧	يامالك ليقض علينا ربك	٣٣٣
٨٣	فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون	١٠٧
٨٤	وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ...	١٣٦

٤٤- سورة الدخان

١-٣	انا انزلناه فى ليلة مباركة ...	١١٧

٤٥- سورة الجاثية

٢٢	ولتجزى كل نفس بماكسبت	٣٨٤
٢٣	افرأيت من اتخذ الهه هواه ـ الى قوله ـ افلاتذكرون	٢١٢،٣٠٦،٣٢٢

٤٦- سورة الاحقاف

٩	وماادرى مايفعل بى ولابكم ...	٢٣٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	اولئك الذين نتقبل عنهم...	٣٨٤، ٣٨٥
٢٥	تدمر كل شيء بأمر ربها...	١٨٧
٢٩	واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن...	٣٠٦

٤٧- سورة محمد (ص)

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم	٤٠٢
٢	والذين آمنوا ـ الى قوله ـ كفر عنهم سيئاتهم	٤٠٢
٩	ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم	٣٨٥
١٦	اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم	٣٢٤
١٧	والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم	١٩٠، ٢٠١، ٢١٠، ٢٦١، ٢٩٤
١٩	واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات	٤٥٠
٢٠	رأيت الذين في قلوبهم مرض ـ الى قوله ـ من الموت...	٢٤٤
	ولئك الذين لعنهم الله ـ الى قوله ـ اقفالها	٣٠٦
	يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها	٢٤٣
	ن ارتدوا على ادبارهم ـ الى قوله ـ م	٢٥٥
	تبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه	٣٨٦
	لوبهم ـ الى قوله ـ اضغانهم	٣٠٦
	لم المجاهدين منكم	٣٦٩

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٣٢	ان الذين كفروا وشاقوا الرسول ـ الى قوله ـ وسيحبط اعمالهم	٣٨٦

٤٨ـ سورة الفتح

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢	ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر...	٤٤٩
٥	ويكفر عنهم سيئاتهم ...	٤٠٢
١٠	يدالله فوق ايديهم ...	١٤١
١٠	ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ـ الى قوله ـ على نفسه	١٥٢
٢٠	وكف ايدى الناس عنكم ...	٣٠٧
٢٤	وهو الذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم...	٣٠٧

٤٩ـ سورة الحجرات

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١	لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ...	٣٩٤
٢	ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم . . .	٣٩٤،٣٩٣
٢	لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ـ الى قوله ـ وانتم لاتشعرون	٣٩٤، ٣٩٢
٣	ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله...	٣٩٤
٤	ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ...	٣٩٤
٧	ولكن الله حبب اليكم الايمان ـ الى قوله ـ والعصيان	٣٠٧
١٧-١٨	بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان	٣٠٧،٢٦٨

٥٠- سورة ق

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ...	٢٤٥
٢٢	لقد كنت فى غفلة من هذا ـ الى قوله ـ فبصرك اليوم حديد	١٣٣
٣٠	يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد...	١٤٥
٣٥	لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ...	١٠٦،٩٣
٣٧	ان فى ذلك لذكرى ـ الى قوله ـ وهو شهيد	٣٤٣،٢٤١

٥١- سورة الذاريات

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٣	يا ايها الرسول لايحزنك الذين ـ الى قوله ـ يفتنون	٢٢٣
٢٢	وفى السماء رزقكم وماتوعدون	١٤٠
٤١	وفى عاد اذارسلنا عليهم الريح العقيم	٢٨٧
٤٧	والسماء بنيناها بايدوانالموسعون	١٥١
٥٦	وماخلقت الجن والانس الاليعبدون	١٩٣،١٦٥،١٦٠
٥٨	ان الله هو الرزاق ذوالقوة المتين	٨٥

٥٢- سورة الطور

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢١	والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنابهم ذريتهم	٣٠٧
٢١	كل امرء بما كسب رهين..	١٦٤
٣٥-٣٦	ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون ـ الى قوله ـ لايوقنون	١٩١،١٥٩

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤٢	ام يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ...	٣٢٠
٤٨	واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ...	١٤٩

٥٣- سورة النجم

٤	علمه شديد القوى - الى قوله - بالأفق الأعلى	١٣٢
٩	ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين اودنى	١١٤، ١٣٢
٣١	ليجزى الذين أساؤا - الى قوله - احسنوا بالحسنى	٢٧٤، ٣٨٩
٣٢	الذين يجتنبون كبائر الاثم - الى قوله - واسع المغفرة	٢٧٤، ٣٨٩
٣٨-٤١	ألا تزر وازرة وزر اخرى - الى قوله - الجزاء الاوفى	١٦٣
٣٩-٤١	وان ليس للانسان الا ما سعى - الى قوله - الجزاء الأوفى	١٩٠
٣٩-٤٠	وان ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى	٣٨٤
٤٣	وانه اضحك وابكى	١٥٨، ١٩٠، ٢٩٠، ٣٠٨
٤٤-٥١	وانه هو أمات واحيى - الى قوله - وثمود فما ابقى	١٩٠
٤٨	وانه هو اغنى وأقنى	١٤٦

٥٤- سورة القمر

١٤	تجرى باعيننا ...	١٤٩
٢٤	فقالوا ابشراً منا واحداً نتبعه انا إذاً لفى ضلال وسعر	٢٠٦
٤٩	انا كل شىء خلقناه بقدر	٣٣٩
٥٢-٥٣	وكل شىء فعلوه فى الزبر - الى قوله - مستطر	٣٣٩

٥٥- سورة الرحمان

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٤	وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام ...	١٨٤
٢٧	كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ...	١٤٧
٢٧	ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام...	١٠٥

٥٦- سورة الواقعة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٠	أفرأيتم ما تمنون ءأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون...	١٧٧
٦٤-٧٤	أفرأيتم ما تحرثون ـ الى قوله ـ ومتاعاً للمقوين	١٧٧

٥٧- سورة الحديد

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥	له ملك السموات والأرض والى الله ترجع الأمور ...	١٢٥
٨	ومالكم لاتؤمنون بالله ...	١٦٥
٩	ليخرجكم من الظلمات الى النور ...	٣٠٨
١٦	فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم . .	٣٢٩
٢١	سابقوا إلى مغفرة ـ الى قوله ـ اعدت للذين آمنوا	٣٢٩
٢٢	ما أصاب من مصيبة في الأرض ـ الى قوله ـ أن نبرأها	١٥٨، ١٨٨، ٣٣٩
٢٣	لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم	٢٥٣، ٣٣٩
٢٧	وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة	١٥٨، ١٩٠، ٣٠٨
٢٧	فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم و كثير منهم	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	فاسقون	٣١٠
٢٩	وان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم	١٥١
٢٩	لئلا يعلم اهل الكتاب ـ الى قوله ـ من فضل الله	٣٠٨
٢٩	والله ذو الفضل العظيم	٣٠٩

٥٨ـ سورة المجادلة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٨	يوم يبعثهم الله جميعاً ـ الى قوله ـ هم الكاذبون	٣٥٩
٢١	كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز	٤٤٢،٢٣١
٢٢	اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه...	٣١١

٥٩ـ سورة الحشر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢	هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم	٣١١
٤	ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء ـ الى قوله ـ شديد العقاب	٣١١
٥	ماقطعتم من لينة أو تركتموها ـ الى قوله ـ فباذن الله	٣٤٠
٢٤	هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى	١٥٨

٦٠ـ سورة الممتحنة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	الاقول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك	٤٢١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

٦١- سورة الصف

٥	فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم - الى قوله - القوم الفاسقين	٢٠٦، ٢١٢، ٢٢٨، ٢٥٥ ٣٢٧

٦٢- سورة الجمعة

٨	ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة - الى قوله - تعملون	١٣٣

٦٣- سورة المنافقون

٣	ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا - الى قوله - لايفقهون	٣٢٣، ٣٢٤
٤	يحسبون كل صيحة عليهم	٢١٣، ٣١٧

٦٤- سورة التغابن

١	له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ...	٢٤٦
٢	هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ...	٣١١
٩	ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته...	٤٠٢
١١	ومن يؤمن بالله يهد قلبه ...	٢٠١
١١	ماأصاب من مصيبة الاباذن الله - الى قوله -	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	يهد قلبه	٢٥٤، ٣٤٠
١٢	واطيعوا الله واطيعوا الرسول ـ الى قوله ـ البلاغ المبين	١٦٧
١٥	انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم	٢١٧
١٦	فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا	١٦٧

٦٥- سورة الطلاق

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ...	٤١٦
٥	ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ...	٤٠٢
١١	ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات ...	١٦٤
١٢	يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله ـ الى قوله ـ عليما	٣٤٠

٦٦- سورة التحريم

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦	لايعصون الله ما امرهم ويفعلون مايؤمرون	١٣١، ٢٠٣
٨	عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم	٤٠٢

٦٧- سورة الملك

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير...	١٥١
٢	ليبلوكم ايكم احسن عملا ...	٣٧٠
١٣-١٤	واسروا قولكم اواجهروا به ـ الى قوله ـ وهو اللطيف الخبير	١٥٨، ١٨٩
١٤	ألايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير...	١٨٩
١٦	ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض...	١٣١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

٦٨- سورة القلم

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	وانك لعلى خلق عظيم ...	٤٤٦
٥	ودوالو تدهن فيدهنون	٤٤٥
٤٢	يوم يكشف عن ساق ويـدعون الى السجود ـ الى قوله ـ وهم سالمون	١٥٣،١٤٥
٤٤	فذرنى ومن يكذب بهذاالحديث ـ الى قوله ـ كيدى متين	٣١٤
٤٥	واملى لهم ان كيدى متين ...	٣٢٠
٤٩	ولاتكن كصاحب الحوت اذنادى ربه ...	٤٣٩

٦٩ ـ سورة الحاقة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	انما لماطغى الماء حملناكم فى الجارية	١٨٤
١٣-١٨	فاذانفخ فى الصور نفخة واحدة ـ الى قوله ـ لاتخفى منكم خافية	١٢٥
٢٠	انى ظننت انى ملاق حسابيه	١٠٧
٢٧	ياليتها كانت القاضية	٣٤٠
٤٤-٤٦	ولو تقول علينا بعض الأقاويل ـ الى قوله ـ منه الوتين	١٥٢
٤٥	لأخذنامنه باليمين	١٤٢

٧٠ ـ سورة المعارج

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	تعرج الملائكة والروح اليه ـ الى قوله ـ خمسين	

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
	الف سنة	١١٤، ١٣١

٧١ - سورة نوح

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٥	مما خطيئا تهم اغرقوا فادخلوا ناراً ...	٢٥١، ٢٦٨
٢٦	قال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا	٤١٨
٢٧	ولايلدوا الا فاجراً كفاراً	٢٧٥

٧٢ - سورة الجن

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٦	وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً	٢٠٢، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٩٤

٧٣ - سورة المزمل

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٩	ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا	١٦٦
٢٠	والله يقدر الليل والنهار	٣٣٤

٧٤ - سورة المدثر

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٨	انه فكر وقدر	٣٣٤
٣٧	لمن شاء منكم ان يتقدم اويتأخر	١٦٦
٣٨	كل نفس بما كسبت رهينة	١٦٤، ٣٨٤
٤٩	فمالهم عن التذكرة معرضين	١٦٥، ٢٤٢
٥٠	كأنهم حمر مستنفرة	٢٤٢
٥٠-٥١	كانهم حمر مستنفرة فرت من قسورة	٣٢٥
٥٤-٥٥	كلا انه تذكرة فمن شاء ذكره	١٦٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

٧٥-سورة القيامة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٣	وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة	٩١،٩٨

٧٦ - سورة الانسان

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣	انا هديناه السبيل اما شاكراً وامّا كفوراً	١٧٣،٢٠٠،٢٠٤،٢٦٦
٩	انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولاشكوراً	١٤٣،١٤٩
١٢	وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا	١٦٤،٢٦٦
٢٩	وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء -الى قوله- العظيم	٣١٠
٣٠	وما تشاؤن الا ان يشاء الله	١٦٠،١٩٤

٧٧- سورة المرسلات

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٦	كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون	٣١٦

٧٩-سورة النازعات

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٥	انما انت منذر من يخشاها	٢١٠

٨٠-سورة عبس

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	عبس وتولى ان جاءه الأعمى	٤٤٥
١٢	كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره	١٦٦
٢٠	ثم السبيل يسره	٣٥٣

٨١-سورة التكوير

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٨	ان هو الاذكر للعالمين لمن شاء منكم ان يستقيم	١٦٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	٨٢-سورة الانفطار	
١٩	يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله	٢٤٥
	٨٣ - سورة المطففين	
١٤	كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون	٢٥٤
١٥	كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون	١٠٧،١٠٦
١٦	ثم انهم لصالوا الجحيم	١٠٧
	٨٤ - سورة الانشقاق	
٦	يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه	١٠٧
٢٠	فمالهم لايؤمنون	٢١٢
	٨٦-سورة الطارق	
١٤-١٧	انهم يكيدون كيداً واكيد كيداً - الى قوله - رويداً	٣٢٠،٣١٦
	٨٧-سورة الاعلى	
٣	والذى قدر فهدى	٣٣٤
٥	والذى اخرج المرعى فجعله غثاءاًاحوى	١٨٤
١١	وسيجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى	٣٦٤
	٨٨- سورة الغاشية	
١٧	افلاينظرون الى الابل كيف خلقت	٩١
٢٢	فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر	٢١٦

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
	٨٩-سورة الفجر	
٢٢	كلا اذا دكت الأرض دكاً دكاً ـ الى قوله ـ صفاً صفاً	١٢٦
٢٢	وجاء ربك والملك صفاً صفاً	١١٤، ١٣٢
	٩٠- سورة البلد	
١٠	الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين و هديناه النجدين	٢٠٠
١٠	وهديناه النجدين	٢٦٦
	٩١- سورة الشمس	
١٢	إذ انبعث اشقاها ...	٣٦٤
	٩٢- سورة الليل	
١٢	ان علينا للهدى ...	٢٦٦
١٥	لايصلاها الا الأشقى ...	٣٦٤
٢٠	و مالأحد عنده من نعمة تجزى ـ الى قوله ـ ربه الأعلى	١٤٣
	٩٣ - سورة الضحى	
٧	ووجدك ضالا فهدى	٤٤٨
	٩٥- سورة التين	
٤-٥	لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين	٣١٢

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة
٦	الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٣١٢
	٩٦ - سورة العلق	
٨	ان الى ربك الرجعى ...	١٠٦
	٩٧-سورة القدر	
١	انا انزلناه فى ليلة القدر	١١٧
	٩٩- سورة الزلزلة	
٧-٨	فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الى قوله - شرا يره	١٦٤
	١٠٥ - سورة الفيل	
٢	وارسل عليهم طيراً ابابيل ...	٢٨٧
	١٠٩-سورة الكافرون	
٦	لكم دينكم ولى دين	٣١٢

الفهرس العام لمواضيع الكتاب

المحكم والمتشابه فى القرآن : 5

١ - التعريف بالمتشابه ٧

حقيقة الاحكام والتشابه ٨

الفرق بين المتشابه والمبهم ٩

مابين عوامل كل من المتشابه والمبهم من اختلاف ١٠

* * *

٢- القرآن والتشابه ١٣

هل فى القرآن متشابه ؟ ١٤

مزعومة كون جميع آى القرآن متشابهة ١٥

لماذا فى القرآن متشابه ؟ ١٦

رأى ابن رشد الاندلسى ١٧

رأى الامام الرازى ١٨

العلاج الحاسم لمادة الاشكال ١٩

العنوان	الصفحة
التشابه ظاهرة طبيعية فى القرآن	٢٠
رأى سيدنا الطباطبائى	٢٢
رأى الشيخ محمد عبده	٢٢
عامل آخر لوجود التشابه فى القرآن ، هو اهم	٢٣
* * *	
٣- حقيقة التأويل	**٢٧**
مابين التأويل والتفسير من فرق	٢٨
التأويل معنى ثانوى للاية	٢٨
التعبير عن التأويل بالبطن	٢٨
التأويل بهذا المعنى عام لجميع آى القرآن	٢٨
ويتلخص استعمال التأويل فى موضعين :	
الأول ـ فى توجيه المتشابه	٣٠
الثانى ـ فى المعنى الثانوى (البطن)	٣٠
وهما من قبيل المفاهيم الذهنية	٣١
مزعومة ابن تيمية : ان التاويل عين خارجى	٣١
تأييد سيدنا الطباطبائى لهذا المذهب و تهذيبه و تحريره	٣١
تفنيد مزعومة شيخ حران ، حيث خلط أمر المصداق بامر التاويل	٣٢
المعانى الأربعة للتأويل	٣٣
تبدو على رأى سيدنا الطباطبائى مسحة عرفانية رقيقة	٣٣
مناقشة هذا الرأى	٣٣
ماذا وراء هذا القرآن لوكان عيناً خارجياً؟!	٣٤
* * *	

العنوان	الصفحة

٤- هل يعلم التأويل الا الله ٣٥

توجيه السؤال بصورة عامة :

هل يعقل ان يوجد فى القرآن آيات لا يعلم معناها احد ؟ ٣٦

كلام الشيخ ابى على الطبرسى ٣٧

كلام الامام بدر الدين الزركشى ٣٨

ماذا يستفاد من الآية الكريمة بصورة خاصة ؟ ٣٨

الكلام فى الآية من الوجهة الأدبية ٣٩

كلمات أكابر أئمة الأدب والفن ٣٩

نظائر الآية فى القرآن وفى الشعر القديم ٤٠

اقوى حجة اعتمدها الامام الرازى لمذهبه فى الاستيناف ٤٠

دحض هذه الحجة ٤١

النكتة الدقيقة فى التقييد بالجملة الحالية ٤١

تنويع الناس تجاه المتشابه الى ثلاث طوائف ٤١

الباحث الصادق لا يضطرب تجاه المتشابهات ٤٢

كلام الشيخ محمد عبده بشأن الآية ٤٢

الامام الرازى واستذاقته للادب الرفيع بشأن الآية ! ٤٣

موافقة السيد الطباطبائى للامام الرازى فى هذه الاستذاقة ! ٤٣

تقييم هذه الاستذاقة الأدبية بموازين الأدب ٤٣

مزعومة المنكرين ٤٤

نسبة السيوطى الانكار الى اكثرية الصحابة والتابعين ٤٤

مبالغته فى هذه النسبة ٤٤

مناقضة ابن تيمية للسيوطى ٤٤

العنوان | الصفحة

اكثرية السلف على ان الراسخين يعلمون التأويل ٤٥
كلام الامام احمد بن حنبل ٤٥
كلام ابى جعفر الطبرى ٤٥
مجاهد وابن عباس بشأن تأويل المتشابهات ٤٥
كلام الراغب الاصبهانى ٤٥
مذهب ابى الحسن الاشعرى فى ذلك ٤٥
انتصار ابى اسحاق الشيرازى له ٤٥
تزييف مستند منكرى العطف ٤٦
تعليل مفضوح ٤٦

* * *

٥- من هم الراسخون فى العلم ؟
اول الراسخين فى العلم وافضلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٤٧
ثم الأئمة الأوصياء من بعده ٤٨
ثم العلماء الربانيون الذين استقوا من منهل فيضهم النمر ٤٨

* * *

تعرفة اجمالية

بمذاهب سلفية أوجدت التشابه
فى وجه الآيات
السلف كانوا يتحرجون القول فى القرآن عن رأيهم ٥٤
وقد تبعهم على ذلك اصحاب المذاهب السلفية تقليدياً ، وهم :- ٥٥

العنوان	الصفحة
الصفاتية : اصحاب القول باثبات مبادىء الصفات فىذاته تعالى المقدسة	٥٦
الحشوية : اصحاب الحديث المتقبلين لغثه وسمينه	٥٨
الأشعرية : اصحاب ابى الحسن الاشعرى فى الاصول	٥٩
وهوشيخ اهل السنة والجماعة حتى اليوم	٦٠
انتشار المذهب الاشعرى رسمياً وبضغط من الحكم القادرى العباسى فى نهاية القرن الرابع	٦١
تقويض دعائم مذهب الاعتزال نهائياً	٦١
تشريح عقيدة الاشعرى فى الأصول	٦٢
المشبهة : يثبتون لله خصائص الجسمية	٦٤
الكرامية : اصحاب محمدبن كرام الذى خبط وخلط	٦٥
الجبرية : ينفون عن العباد استطاعتهم على اختيار الافعال . وهم على طائفتين :	٦٧
جبرية خالصة وجبرية ملتوية	٦٧
الاشعرى جبرى خالص	٦٨
كلام سعدالدين التفتازانى	٦٨
عبارة الاشعرى الصريحة فى الجبر	٦٩
كلامه فى الاستطاعة	٧٠
عويصة مسألة الكسب	٧١
القول بالكسب التواء فى الجبر	٧٢
القدرية : اطلقت على كل من الاشاعرة والمعتزلة	٧٣
كلام ابى الفتح الكراجكى فى ذلك	٧٣
رمى الاشعرى اصحاب الاعتزال بهذا الاسم	٧٤

العنوان	الصفحة

الواقعية تجعل من هذا الاسم خاصاً بالاشاعرة ٧٤

المعتزلة : الاعتزال انتفاضة فى وجه الصفاتية ومتشعباتها من الظاهريين ٧٥

عقيدة المعتزلة بتوضيح ابى الحسن الاشعرى ٧٥

كلام القاضى عبدالجبار فى نفى الصفات ٧٦

رأى الاشاعرة والمعتزلة فى مبادىء الصفات ٧٦

تحقيق مذهب المعتزلة فى الاستطاعة ٧٧

الامامية : رسالة البيان عن جمل اعتقاد اهل الايمان ، تأليف الشيخ ابى الفتح الكراجكى ٧٨

كلام مولانا امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى معرفة الله ٧٩

* * *

نماذج من متشابهات القرآن ٨٣

تحقيق عن الصفات الذاتية لله تعالى ٨٤

آيات تنعته تعالى بصفات ذاتية ٨٥

فساد مذهب الاشعرى فى صفات الذات ٨٦

* * *

صفاته تعالى الفعلية ٨٦

تفسير الاشعرى لصفات الفعل ٨٦

تفسير اهل العدل لصفات الفعل ٨٧

استدلال الاشعرى على مذهبه فى الاثبات ٨٧

* * *

صفات تنزيه (صفات جلالية) ٨٨

الأشاعرة وسائر الصفاتية مجسمة ٨٨

العنوان	الصفحة
القول بالتجسيم مذهب المتأثرين بتعاليم ابن تيمية حتى اليوم	٨٩
* * *	
الكلام فى رؤيته جل شأنه	٩١
استدلال الاشعرى على جواز رؤيته تعالى بآيات	٩١
وجوابه عن آية «لاتدركه الابصار»	٩٤
كلام ابى سعيد الدارمى فى الرؤية واستدلاله بروايات	٩٥
نظرة اهل العدل والتنزيه فى الرؤية	٩٦
كلام الاستاذ احمد امين وتأسفه فى هذا المجال	٩٧
كلام القاضى عبدالجبار ، والخواجا نصير الدين الطوسى	٩٨
الاجابة على استدلالات الاشعرى واذنابه	٩٨
* * *	
القول فى الجهة والمكان	١١٣
مذهب الاشعرى وسائر التجسيم فى ذلك	١١٣
آيات استدل بها اهل التجسيم	١١٣
اضافات من ابى سعيد الدارمى	١١٥
استدلال ابن خزيمة على اثبات الجهة	١١٨
سوء أدب فى تعبير الاشاعرة فى هذا المقام	١١٩
اجوبة اهل العدل والتنزيه عن ادلة الاشاعرة	١١٩
كلام نورى من الامام اميرالمؤمنين ـ عليه السلام ـ	١٢٠
حديث الامام جعفربن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ	١٢٠
حديث الامام موسى بن جعفر الكاظم ـ عليه السلام ـ	١٢١
صراحة القرآن فى نفى الجهة ونفى الجسمية	١٢٢

العنوان	الصفحة

اعتراف الامام الرازى بذلك ١٢٢

* * *

الكلام فى العرش والكرسى وبيان حقيقتهما لغوياً وشرعياً ١٢٢
الكرسى : كناية عن احاطة ملكه تعالى ١٢٥
العرش : كناية عن تدبيره الشامل ١٢٦

* * *

الكلام فى صفة الاستواء ١٢٧
الكلام فى الفوقية ، وانه تعالى فوق بالقدرة والتدبير ، لا بالجهة والمكان ١٢٨
تحقيق ذوقى عن اعتبار الفوقية له تعالى ١٢٩

* * *

نظرة فى آيات زعموا دلالة على الجهة ١٣٠
تحقيق تاريخى عن حديث الأمة السوداء ١٣٦
سبب رفع اليدين الى السماء عند الدعاء ١٣٩

* * *

الكلام فيما زعم اهل التشبيه من ثبوت الاعضاء والجوارح له تعالى ١٤٠
مواكبة الاشعرى لأهل التشبيه وتشبثه بآيات ١٤١
الحشوية من اصحاب الحديث يساندون اهل التشبيه ١٤٥
محاولة فاشلة لبعض اهل التشبيه ١٤٦

* * *

الكلام فى ابطال مزاعم اهل التشبيه ١٤٧
الكلام فى الوجه واطلاقاته فى القرآن ١٤٧
الكلام فى العين واطلاقاتها فى القرآن ١٤٩

العنوان	الصفحة

الكلام فى اليدو اطلاقاتهافى القرآن ١٥٠
الكلام فى الساق واطلاقاتها فى القرآن ١٥٣
الكلام فى الرجل والقدم ١٥٤

* * *

مسألة الاستطاعة (القدرة) ١٥٦
الاشاعرة ينفون القدرة عن العباد ١٥٦
تشبثات الاشعرى فى نفى استطاعة العباد ١٥٧
تزييف هذه التشبثات على ضوء البرهان ١٦١

* * *

نظرة فى الأفعال الاختيارية ١٦٢
القرآن يرى من الانسان حراً فى مساعيه ١٦٤

* * *

تنويع ارادته تعالى الى تكوينية وتشريعية ١٦٨
كلمات ائمة الهدى فى هذا التنويع ١٧٠
تفكيك الارادة التشريعية عن المراد ١٧١

* * *

مسألة التوحيد فى الأفعال ١٧٣

* * *

مسألة الأمر بين الأمرين ١٧٤
الاشاعرة ارادت التوحيد المطلق فلجأت الى القول بالجبر ١٧٥
والمعتزلة ارادت اثبات عدله تعالى فأسرفت فى القول بالاستطاعة ١٧٦

العنوان	الصفحة

لكن الامامية اخذت الطريقة الوسطى ـ في ضوء تعاليم اهل البيت ـ فجمعت بين التوحيد والعدل ١٧٦

* * *

وجه انتساب الافعال الاختيارية الى كل من الفاعل والخالق تعالى ١٧٨

امثلة توضح مسألة الأمر بين الأمرين ١٧٩

* * *

اختيارية الارادة ذاتية ١٨٢

* * *

مسألة ارادة الله الحادثة ١٨٣

انتساب الحوادث الى الله ١٨٤

* * *

حل شبهات اهل الجبر ، على ضوء ماتقدم ١٨٥

نظرة اجمالية وعميقة الى الآيات والروايات التى استدل بها اصحاب القول بالجبر ١٨٦

نظرة فى الحسنات والسيئات انهما من الله ام من العبد ؟ ١٩٥

أصرح آية تدحض مزعومة الجبر ١٩٨

* * *

مسألة الهداية والتوفيق ١٩٩

مراتب الهداية الخمس ١٩٩

وهداية الجاء لم يشأها الله ٢٠٣

تقسيمات اخر بشأن مراتب الهداية ٢٠٣

تشبيه مراتب الهداية بدرجات النور ٢٠٤

* * *

الاضلال والخذلان ٢٠٥
تحقيق عن معنى اضلاله تعالى لمن يشاء ٢٠٦
مزعومة الاشعرى فى الالجاء ٢٠٧
تجهيل ابن حزم لاصحاب المزعومة ٢٠٨
استدراك على من حمل اضلاله تعالى على الحقيقة ٢٠٩

* * *

عرض آيات الهداية والضلال ٢١٠
كلام تفصيلى عن تأويل قوله تعالى : «وما كان لنا ان نعود فيها الاان يشاء الله» ٢٢٩
كلام تفصيلى عن تأويل قوله تعالى «يحول بين المرء وقلبه» . ٢٣٦
كلام الامام الرازى فى الآية ٢٣٧
كلام الشيخ محمد عبده ٢٣٨
تفسير آخر أدق ٢٤٠
اختيارنا الذى رجحناه ٢٤٢
رأى سيدنا الطباطبائى ٢٤٤
محاولة الطبرى تعميم الاية ٢٤٨
روايات مأثورة عن ائمة اهل البيت بهذا الصدد ٢٤٩

* * *

كلام تفصيلى عن قوله تعالى : «أمرنا مترفيها ...» ٢٧٠
اختيار اكثرية المفسرين ٢٧٢
تزييف الزمخشرى لهذا الاختيار ٢٧٣

العنوان	الصفحة

رأى امام المعتزلة (القفال) فى الاية	٢٧٤
الوجوه الاربعة التى ذكرها الشريف المرتضى	٢٧٦
مواكبة شيخ الطائفة للشريف المرتضى	٢٨١
* * *	
تحقيق عن فحوى قوله تعالى : «لايسأل عما يفعل...»	٢٨٨
رأى الأشاعرة فى الاية	٢٨٨
رأى اهل العدل والتنزيه	٢٨٩
* * *	
اختلاف المفسرين فى تأويل قوله تعالى : «الايقدرون على شىء ...» والتضارب بين الاشاعرة واهل العدل فيها	٣٠٨
* * *	
مسألة الاستدراج وتوجيهها بما لايتنافى مع عدله تعالى	٣١٢
تأويل الايات الواردة بشأن الاستدراج	٣١٤
* * *	
الاستهزاء والخديعة والمكر	٣١٦
تأويل الايات الواردة بهذا الشأن	٣١٨
* * *	
الختم والطبع وماشاكلهما وتأويل الايات الواردة بهذه التعابير	٣٢٢
* * *	
مسألة القضاء والقدر	٣٢٩
الايمان بالقدر عقيدة جاهلية	٣٣٠
الاشاعرة استسلمت لهذه العقيدة البائدة	٣٣٠

العنوان	الصفحة
رأى الفلاسفة الاسلاميين فى مسألة القضاء والقدر	٣٣١
رأى المتكلمين الاماميين فى المسألة	٣٣٢
كلام تفصيلى عن هذه المسألة	٣٣٣
تلخيص القول فى المسألة	٣٣٥
كلام الامام امير المؤمنين فى المسألة برواية الاصبغ بن نباتة	٣٣٦
خلاصة مذهبنا فى المسألة	٣٣٨
* * *	
عرض آيات تعرضت لمسألة القضاء والقدر	٣٣٨
عرض روايات تعرضت للمسألة وهى على ثلاث طوائف	٣٤١
الطائفة الاولى : الآمرة بالايمان بها	٣٤١
الطائفة الثانية : الناهية عن التعرض لها	٣٤٢
الطائفة الثالثة : المفسرة لها بالسن مختلفة	٣٤٥
* * *	
مسألة السعادة والشقاء وعرضها على صعيد علمى عقلانى	٣٥٠
تفسير الحديث المشهور «السعيد من سعد فى بطن امه ...»	٣٥١
للسعادة والشقاء معنيان	٣٥٢
* * *	
عرض آيات السعادة والشقاء	٣٥٤
كلام تفصيلى عن تأويل قوله تعالى : « فمنهم شقى وسعيد»	٣٥٥
تحقيق مدلول الآية بالمقارنة مع آيات اخر	٣٥٧
كلام تفصيلى عن مدلول قوله تعالى : «غلبت علينا شقوتنا»	٣٥٨

العنوان	الصفحة
مسألة التمحيص والاختبار ، والفوائد المترتبة على ذلك	٣٦٥
عرض آيات الابتلاء والامتحان	٣٦٦

* * *

كلام تفصيلى عن « الاحباط » و « التكفير » و«الموازنة» . وتتقدمه مسائل :

الاولى : هل الجزاء استحقاق ام مواضعة ؟	٣٧١
الثانية : هل الجزاء يستدعى الدوام ؟	٣٧٢
الثالثة : هل المغفرة تختص بالتائبين ؟	٣٧٣
الرابعة : ماذايكون المراد بالاحباط ؟	٣٧٥
الخامسة : هل الفاسق مؤمن ام كافر ؟	٣٧٦

* * *

فرضية الاحباط فى خطوات :	٣٧٨
١ـ الموافاة على الايمان شرط فى المثوبات	٣٧٩
٢ـ التائب من الذنب كمن لاذنب له	٣٨٠
٣ـ محق الحسنات بسيئة لاحقة باطل عندنا	٣٨١
الاستدلال على ذلك فى اربعة بنود	٣٨٢

* * *

عموم آيات التوفية	٣٨٣
اختصاص آيات الحبط بمن يموت كافراً	٣٨٥

* * *

هل فى آيات الحبط عموم ؟	٣٨٦
عرض آيات زعموها عامة	٣٨٧

* * *

العنوان	الصفحة

التكفير بين العموم والخصوص ٣٩٥
عرض آيات تعرضت لظاهرة التكفير ٣٩٧
عرض أحاديث التكفير ٤٠٣

* * *

الموازنة او المحاطة ٤٠٤
ابطال القول بذلك عقلياً ٤٠٥
نظرة في حديث الكراجكي في الموضوع ٤٠٦
سيئات تمحق الايمان ٤٠٧
انكار ائمة اهل البيت لظاهرة الحبط ٤١٠

* * *

تنزيه الانبياء ـ عليهم السلام ـ عن المعصية اطلاقاً ،عند الامامية ٤١١
خطيئة آدم ـ عليه اسلام ـ ٤١٣
عرض آيات الخطيئة ٤١٤
عناوين عشرة تنم عن الخطيئة ٤١٥
تلخيص الكلام عن تنزيه آدم ـ عليه السلام ـ ٤١٨

* * *

دعوة نوح عليه السلام ٤١٨
تورية ابراهيم عليه السلام ٤٢٠
استغفار ابراهيم لابيه ٤٢١
مجادلة ابراهيم ربه ٤٢٢
تبرئة يوسف عليه السلام ٤٢٢
ابتلاء ايوب عليه السلام ٤٢٤

العنوان	الصفحة

* * *

مخاطرة موسى عليه السلام ٤٢٥

محاجّته مع فرعون ٤٢٦

استعفاؤه عن الرسالة ٤٢٧

خيفته عندالقاء السحرة ٤٢٩

اعتراض ام استرحام ٤٣٠

طلبه ـ ع ـ للرؤية ٤٣١

غضبه ـ ع ـ على اخيه ٤٣١

* * *

اختبار داود ـ ع ـ ٤٣٣

فتنة سليمان ـ ع ـ ٤٣٦

قصة الايثار على الطاعة ٤٣٦

* * *

استعجال يونس ـ ع ـ فى الخروج ٤٣٨

عيسى بن مريم ـ ع ـ ٤٣٩

* * *

خاتم النبيين صلى الله عليه وآله ٤٤٠

قصة اقتراح المشركين عليه بالمجاملة ٤٤٠

حديث القاءالشيطان فى امنيته ٤٤١

حديث تزوجه زينب بنت جحش ٤٤٣

نهيه عن الانقياد لمقترحات المشركين ٤٤٤

الصفحة	العنوان
٤٤٥	اوامر موجهة اليه من باب « اياك اعنى واسمعى ياجارة »
٤٤٥	قصةعبوسه فى وجه الأعمى
٤٤٦	كلام الشريف المرتضى فى ذلك
٤٤٧	كلام السيد الطباطبائى فى ذلك

* * *

الصفحة	العنوان
٤٤٨	معنى ضلاله ﷺ قبل البعثة
٤٤٩	معنى غفران ذنوبه ﷺ بعدالفتح
٤٥١	وجه استغفاره ﷺ كل يوم

* * *

الصفحة	العنوان
٤٥٣	فهرس الآيات القرآنية التى وردت فى هذاالعرض بترتيب السور

* * *

VETUS & TESTA-
NOVUM MENTUM
DEI·SUB·NUMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 055469827